

موسوعة تاريخ الأباطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري

تصوير ابو عبد الرحمن الكردي



المجلد الأول

الدار العربية للموسوعات

موسوعة
تاريخ الأمبراطورية العثمانية
السياسي والعسكري والحضاري
٦٢٩-١٣٤١هـ / ١٢٣١-١٩٢٢م

تأليف
يلماز أوزتونا

ترجمة
عبدنار محمود سلمان
مراجعة وتنقيح
د. محمود الأنصاري

المجلد الأول

الدار العربية للموسوعات

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
٢٠١٠م - ١٤٣١هـ

الدار العربية للموسوعات



الحازمية - مفرق جسر الباشا - ستر عكاوي - ط ١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

خالد الحاني : مؤسسها ومديرها العام



سلاطين بني عثمان

المقدمة

يستهل المؤرخ النمساوي البارون فون هامر Baron Von Hammer - مؤلف أشهر كتب التاريخ العثماني حتى يومنا هذا - مقدمة الأجزاء التسعة عشر لترجمة كتابه إلى اللغة الفرنسية^(١) بالكلمات التالية:

«الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية واسعة. وهي ذات أهمية غير متناهية من الناحية التاريخية. . . الإمبراطورية العثمانية أشبه ما تكون بمارد يقبض بأذرعه الجبارة على ثلاث قارات في وقت واحد، لو أنها سقطت في وقت من الأوقات - كآية إمبراطورية أخرى - فإن أنقاضها سوف تغطي قارات آسيا وإفريقية وأوروبا. وحتى في الوقت الحاضر (١٨٣٥)، فإن الإمبراطورية العثمانية تحكم أقطاراً «تفوق سعتها ما كانت تحكمه الإمبراطورية البيزنطية في أوج عظمتها»^(٢).

ويكتب Pené Herpin أحد المفكرين الفرنسيين الذين عاصروا الإمبراطورية العثمانية في أوج عظمتها فيقول:

«تفوق قدرة تركيا اليوم (١٦٢٩) قدرة مجموع دول العالم أجمع»^(٣).

(١) نشر هذا الكتاب عام ١٨٣٥.

(٢) Histoire de l'empire Ottaman جزء ١، باريس، ١٨٣٥، ص ١-٢.

(٣) Apologie، جنيف، ص ٦، ١٦٢٩.

ومثل هذه الأفكار يسجلها المؤرخون والمفكرون المعاصرون الذين كتبوا بعد سقوط الدولة العثمانية؛ فمثلاً يقول Margnthan آخر سفير للولايات المتحدة الأميركية لدى الدولة العثمانية، في كتاب Soliman لدوني (ص ٢٤٠) ما يلي:

«أسس العثمانيون في آسيا وإفريقية وأوروبا واحدة من أوسع الإمبراطوريات التي عرفها العالم»^(١).

أما المستشرق الفرنسي Sovwaget فيقول: «لم يشهد التاريخ الإسلامي كيانه سياسياً قوياً ومستقراً كالإمبراطورية العثمانية. لقد كانت الإمبراطورية العثمانية هي الدولة الأكبر، والأوسع، والأكثر استقراراً. كانت تمتلك أكبر المصادر الاقتصادية في أوروبا، وكان جهازها الإداري في حد ذاته بناءً راسخاً يخدم ويرعى مصالح الشعب العثماني. كان الأسطول العثماني يسيطر على كامل البحر الأبيض، وكانت اسطنبول تبهر أنظار السياح الأوروبيين كأكبر مركز للحضارة في العالم، يضاف إلى ذلك كله التميز المتفرد للأتراك بالطاعة والنظام»^(٢).

ويؤكد المستشرق الألماني Babinger: «كانت الإمبراطورية العثمانية دولة عالمية كبرى بحق»^(٣).

ونفس الكلمات تقريباً يسجلها Grausset من الأكاديمية الفرنسية، حيث يقول: «كانت الإمبراطورية العثمانية دولة عالمية كبرى بحق»^(٤).

(١) Downey, Soliman, N.Y, 1929

(٢) Sawaget, Intraduction à l'Histoire de l'Orient Musulman، ص ١٦٤، باريس ١٩٤٣.

(٣) Balnnger, Mehmed der Eroberer، ص ٤٦٩، ميونخ ١٩٥٣.

(٤) L'Empire du Levant، ص ٦٤٣، باريس ١٩٤٩.

أما المؤرخ الإنجليزي Downey فيقول: «الدولة العثمانية هي إحدى أهم ظواهر التاريخ العالمي المذهلة جداً، والخارقة للعادة، فقد حاولت هذه الدولة أن تجمع حضارات البحر الأبيض كلها في إمبراطورية واحدة»^(١).

ويقول الفيلسوف الإنجليزي Toynbee «الإمبراطورية العثمانية هي الدولة الوحيدة التي جمعت الشرق الأوسط تحت حكمها أطول حقبة في التاريخ، وذلك أمر لم توفق إليه الإمبراطورية الفارسية أو الرومانية أو العربية»^(٢)، ويضيف تونبي إلى ذلك: «إن كافة الأقوام الناطقة بالعربية اجتمعت تحت راية دولة واحدة، ويسترسل قائلاً: «إن أياً من الدول الأوروبية الاستعمارية التي أخذت مكان الدولة العثمانية، سواء إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو روسيا لم تتمكن من إدارة هذه الأقطار مدة طويلة وبطريقة مستقرة كما أدارتها الدولة العثمانية، فهذه الدول عندما استولت على تلك الأقطار لم تلبث أن تركت أماكنها إلى الدول البلقانية والعربية خلال فترة قصيرة، على الرغم من أن استيلاءها عليها كان بزعم إدارتها بصورة أرقى، ويضيف تونبي: إن إدارة الدولة العثمانية للشرق الأوسط كانت خير إدارة على مدى التاريخ وحتى يومنا هذا، وإن الدولة العثمانية هي الوارث بحق للإمبراطورية الرومانية.

لقد أطلق المؤرخون المعاصرون على الأسلوب العثماني الذي حكم الشرق الأوسط لعدة قرون مصطلح Pax Ottomana وهو يقابل Pax Romana وهو التعبير اللاتيني لمفهوم «النظام العالمي» الذي يرد ذكره في دستور فاتح «قانون نامه».

لقد كان من الممكن الاسترسال في إيراد الكثير من كتابات

(١) Downey, Soliman، ص ٣٣، نيويورك ١٩٢٩.

(٢) Toynbee, the Ottoman state and its place in the world, liden 1974, P.15

المؤرخين الأجانب أو الأتراك التي تعالج موضوع نشأة الدولة العثمانية واتساعها، غير أننا نكتفي بما أوردناه من نماذج.

إننا نحسب - دون إدعاء أو إسرافاً - أنه يتعذر تفهم وإدراك الجمهورية التركية الحالية والعالم العربي وتكوينه دون معرفة التاريخ التركي، بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إنه لا يمكن إدراك سير التاريخ العالمي وتفهم البحوث التي دارت حوله دون معرفة التاريخ العثماني، والقارئ للتاريخ العالمي دون التعرف على التاريخ العثماني كالسائر في الظلام.

إن المشكلة الهامة والجادة هي حاجة جمهور الشباب والجماعات الأخرى إلى كتاب يحيط بالتاريخ العثماني في سلاسة ودون تقصير وبغير أخطاء متعمدة أو غير متعمدة، ومن أجل هؤلاء ولسد هذا الفراغ... كان اهتمامنا بتأليف هذا الكتاب الذي استغرق وقتاً غير قليل.

واستكمالاً للفائدة فقد حرصنا في تأليفه على أمرين، أولهما: السرد التاريخي للأحداث حتى وقت الانتهاء من تأليف الكتاب (١٩٨٥) وثانيهما: تناول موضوعات التشكيلات الثقافية والحضارة والفن العثماني. ولم نهمل عند تحريره أي مصدر من المصادر الجغرافية والأدبية.

وحرصاً على ألا تزداد صفحات الكتاب تضخماً عما هي عليه، فقد أثرنا ألا نضع خرائط جغرافية في المتن، وإن كنا نوصي بشدة بأن يستصحب القارئ أطلس يضعه تحت يده وهو يطالع الكتاب.

ولعل تركيزنا على الجانب الثقافي من التاريخ العثماني كان له ما يبرره، فلئن كان القارئ الأجنبي يجهل الثقافة العثمانية فإن الجيل التركي الحالي - مع الأسف - لا يقل عن الأجنبي جهلاً بمكتسبات ومعطيات هذه الثقافة على الرغم من أنه من أبنائها.

وأمر آخر كان يمثل جزءاً من دوافعنا لتأليف هذا الكتاب، ذلك هو أنه على الرغم من أن التاريخ العثماني ما يزال يمثل أحد التشكيلات السياسية للأمم القريب، فإن المعروف عنه أقل بكثير من المعروف عن الإمبراطوريات المناظرة كروما والخلافة العربية والإمبراطورية البريطانية، ولا ينسحب ذلك على الجانبين: السياسي والعسكري من التاريخ العثماني فحسب، بل يمتد كذلك إلى الجانب: الثقافي والحضاري في التاريخ العثماني.

إن تجربة نظام الدولة التركية التي اتخذت شكل الإمبراطورية التركية العربية على يد العثمانيين موضوع جدير بأن يكون أحد موضوعات الدراسات التاريخية الهامة.

وفي هذا الصدد قد تجدر الإشارة إلى أنه ينبغي على الأقطار العربية أن تهتم أكثر من غيرها - بعد الجمهورية التركية - بدراسة التاريخ العثماني. وهنا يرد تحفظ على جانب كبير من الأهمية، مؤداه أن التاريخ العثماني الذي تعرفه الأقطار العربية قد حررته وصورته أقلام أجنبية موتورة، ومن ثم فإن هذا التاريخ يأتي مزيفاً متحيزاً يجرد التاريخ العثماني من كثير من عناصر العظمة والتميز، وذلك بعينه هو الذي يدعونا اليوم إلى تنبيه المسلم المثقف إلى أن يقرأ ما كتبه الأجانب (الإنجليز والفرنسيون وغيرهم) ببصيرة ويقظة وفكر ناقد.

وقد يصحح هذه المسألة ويقلل من أخطارها أن يكتب التاريخ العثماني قلم تركي نابع من تركيا ذاتها، ولا يقدح ذلك في أن الكتابة عن التاريخ مجال مفتوح للجميع، وانشغال غير أبناء الشعب بكتابة تاريخ الشعب أمر محبب وجميل، وإن كان يقفز إلى الذهن هنا أن أفضل وأرقى ما كتب عن التاريخ الألماني حرره المؤرخون الألمان، وينسحب ذلك بنفس المقدار على التاريخ الإنجلوسكسوني والتاريخ الروسي... إلخ، ويساند هذه المقولة اعتبار مهم نستطيع أن نلاحظه في

أخطاء كتابة التاريخ التي قد لا تنشأ عن عمد وإنما عن عدم تفهم أو تمثيل لقيم وعادات وثقافة وطريقة معيشة الشعب الذي يكتب عنه أو يؤرخ له، ومن ثم فإننا نأمل في أن يكون كتابنا هذا الذي يكتبه تركي من تركيا قد تحاشى الكثير من الهنات التي أشير إليها وحقق الغايات التي أشرنا إليها من قبل.

وإنه ليتمكن القول دون مغالاة إنه يتعذر أن نتعرف على كيفية ظهور وتشكيل الدول العربية الحالية دون معرفة التاريخ الصحيح للدولة العثمانية، ولقد حرصنا بالفعل في هذا الكتاب على أن نركز البحث في مواطن عديدة منه على الأقطار العربية. وعندما يطلع القارئ العربي على التاريخ العثماني فإنه يكون بذلك قد اطلع على تاريخه هو لفترة أربعة قرون، وسوف يتذكر وهو يقرأ النظام والدستور السياسي الذي عاشه شعبه لمدة أربعة قرون، وسوف يقرأ كذلك مجريات الأحداث في الإمبراطورية التي هي دولته، ولا شك في أنه سوف يجد إجابات شافية عن كثير من الأسئلة التي بقيت عالقة في ذهنه ولم يجد لها جواباً من قبل. وكم يحدونا الأمل في أن يكون الكتاب شائعاً بالنسبة للقراء جميعاً على اختلاف جنسياتهم، وأن يكون أكثر تشويقاً للقارئ العربي بوجه خاص؛ ذلك لأن القارئ العربي قد عاشت أمته في ظل الدولة العثمانية عدة عصور يستوي في ذلك من كان مقيماً في اليمن أو في الجزائر، وهذا أو ذاك كان أبوه أو جده من أفراد تلك الدولة، شعر بشعورها، وعاش مصيرها، وشاركها فعاليتها، وإن كانت هناك أمور أو حالات تعارضت فيها المصالح فمن حقه أن يعرف الأسباب والحقائق التي كانت وراء الاتفاق أو التعارض.

والمجلدين الأول والثاني يعرضان التاريخ السياسي والعسكري للدولة العثمانية، ملقياً الضوء على الإمبراطورية منذ ظهورها إلى انحلالها، وحتى يسهل على القارئ تفهم كيفية ظهور الدولة العثمانية

على مسرح العالم فقد قدمنا لذلك بتلخيص مجمل للمجريات التاريخية للأتراك قبل العثمانية وخارج النظام العثماني .

أما المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة فيتناولان الحضارة العثمانية بما يشتمل عليه مفهوم الحضارة من ثقافة وفن وأسلوب حياة .

وقبل أن نودع القارئ نريد أن نرد على نقد قد يثار، ذلك أنه كان ينبغي لهذا الكتاب أن يتناول التاريخ الداخلي للقوميات التي ارتبطت طوال ستة قرون بالنظام العثماني، وأن يتناول كذلك الجوانب الثقافية والفنية لتلك القوميات، ولكن ذلك كان غير ممكن لسببين أولهما: أن ذلك كان سوف يخرج بالكتاب عن الحجم الممكن المعقول، وثانيهما: أن هذه الموضوعات قد تناولها بالفعل بدقة وعمق واستفاضة مؤرخو تلك القوميات، ويكفي في ذلك أن نشير إلى ما كتب عن أدب اللغة العربية في تونس، وأو ما كتب عن الفن في رومانيا في العهود العثمانية .

أما القائمة البيلوجرافية التي يحتويها هذا الكتاب فإنها يمكن أن تعطي فكرة لطالب الدراسة في التاريخ العثماني عن مبلغ ما نشر في مختلف اللغات عن هذا الموضوع، ومع أن القائمة البيلوجرافية في كتابنا هذا لم تسجل كافة أسماء الكتب التي تمت الإفادة منها كمصادر وعلى الأخص تلك التي كانت على شكل مقالات، فإنها على كل حال تفي بالغرض لأولئك الذين يرومون البحث والتعمق في موضوع التاريخ العثماني .

بقيت كلمة أخيرة تحتم الأمانة أن نثبتها، تلك هي أن النظام العالمي العثماني Pax Ottomana، لم يستهدف يوماً إنكار كيان أية قومية مهما صغرت، ولم يعمل أو يفكر في محوها، بل على العكس من ذلك كان نظاماً حريصاً على أن يجعل من هذه القوميات تحت مظله قوى فاعلة ومشاركة في صنع السياسة المدنية والعثمانية .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

المؤلف

البحث الأول

الأتراك قبل تأسيسهم الدولة العثمانية

الباب الأول

فترة قبل الإسلام

(١) الأتراك :

الأتراك ، عرق أبيض عريض الجمجمة Brachycephalic وغالبا ما يطلق عليهم فى الكتب الأدبية لفظ « طورانى » (بالفرنسية : Touranien) وهم القوم الذين ينحدرون من فرع آلتاى Altay التابع لمجموعة أعراق أورال - آلتاى Ural-Altay . اللغة التركية كثيرة المقاطع ، تشتق كلماتها باضافة مقاطع إلى نهاية الكلمة الأصلية وهى لغة غنية جدا بصيغ أفعالها .

يدين الأتراك القدامى بدين كوك تنرى Gök Tenri (وباللغة التركية القديمة : كوك تنكرى Kök Tengri) . إلا أننا نجد الشامانية لدى القبائل التركية التى ابتعدت كثيرا وبقيت فى سيبيريا وظلت تحت تأثير مغل شامان .

ديانة كوك تنرى ، ليس لها نبي ، ولا كتاب مقدس ، ولا معبد ولاعبادة منظمة . لها معبود واحد (تك تنكرى) . وهو رب الأتراك فقط وليس ربا للعالمين كإله المسلمين .

السماء والأرض والماء مقدسة . يدفن الموتى ، يمكن تحنيطهم . تدفن معهم كذلك حاجياتهم الضرورية لاستعمالها فى الدار الأخرى .

لا يجوز لأى فرد من المجتمع التركى أن يصبح عبداً أو جارية داخل مجتمعه التركى . يستخدم المجتمع التركى العبيد والجوارى من الأقوام الأجنبية . كل تركى حر وكلهم محاربون ، حتى المرأة تمتطى الحصان وتستعمل السلاح ولا تتحجب وتختلط بالرجال ولا تنفر منهم . لا يربى الخنزير ولا يؤكل لحمه إلا عند المجاعة . إن تربية الخنزير وأكل لحمه ، علامة للمغول . يهتم المجتمع التركى بالبكارة وغفة المرأة اهتماما كبيرا . اكرام النساء للغير وعدم الإكتراث بالبكارة ، علامة أخرى من علامات المغول . ان العقوبة الوحيدة لهتك العرض هى الإعدام . إلا إذا قبلت التى اعتدى عليها - وكانت سيدة غير متزوجة أو أرملة - الزواج ممن اعتدى عليها .

إن نظام المراتب المتسلسلة Hierarchy هو الأساس فى المجتمع التركى القديم ويستند على النظام العسكرى . لقد سلح هذا النظام المجتمع وجعل منه مخيما عسكريا يمكنه الوقوف حتى أمام أكبر جماعات الأعداء فى سبيل الذود عن الحرية والاستقلال أو بقصد الفتوحات .

إن سبب تنظيم الأتراك على هذه الشاكلة ، هو مواجهتهم منذ فجر التاريخ ، للصينيين الذين يفوقونهم عددا واضطراهم إلى مجابهتهم فى معركة حياة أو موت . طبقة الأشراف جزء من المجتمع . أكثرية الضباط من الأشراف . تمنح رتبة الجنرالية ، إلى سلالة عائلة الخان أو الخاقان ، وفى حالات كثيرة خصصت لامراء الخاقانية - الذين يطلق عليهم اسم « تكين » Tegin و « شاد » Sad - والأمراء فقط هم الذين يمكن أن يصبحوا جنرالات . ولا يستحسن انتسابهم إلى سلك آخر .

الأتراك القدماى ، عرق الأقاليم الباردة ، يقاومون البرد ، ويرتدون اللباس الخاص لاتقائه . يزاولون الترحلق ويستعملون المزالج ، لكن الأتراك الذين جاءوا إلى الشرق الأوسط وإلى تركيا ، فقدوا على مر الزمن هذه المقومات ، وأصبحوا يخشون البرد ويتحملون الحر .

تعلم الأتراك ، فى أوقات مبكرة جدا ، تطويع المعادن وصناعة الأسلحة وترويض الخيول والأغنام ، وخاصة للضرورات العسكرية . هم أمهر صناع الجلود

وأمر الفرسان وأمر مزينى الخيول فى العالم . يرتدون الثوب والسروال والستري وقد علموا ذلك أولا للصينيين ثم للرومانيين ابتداء من القرن ٥ الميلادى ، وأصبحوا مؤسسى اللباس الأوروبى بشكله الحالى . يطيل الرجل والمرأة من الأتراك شعره ويدليه خلف ظهره أو يعطيه شكل ذيل الحصان . الشعر القصير واللحية الطويلة هى علامات أخرى للمغول . يطيل الرجال الشارب ونادرا ما يطيلون اللحية .

إن الأتراك القدامى المتنجهنين (المختلطى المولد) لونهم فاتح وعيونهم زرق (أزرق ، أخضر ، أخضر - أزرق ، كستنائى ، أصفر) ، يميلون إلى الشقرة ، عيونهم ليست ممشوقة ولاكروية وعظام وجناتهم ليست بارزة . تلك هى علامات المغول والصينيين . ويشاهد كذلك أتراك اختلطوا مع هذه الأقوام . وبالنسبة إلى قانون مندل ، فإن اللون الغامق يطفى على اللون الفاتح . يلد على الأغلب من الرجل والمرأة ذوى العينين المختلفى اللون أحدهما غامق والآخر فاتح ، طفل غامق العينين . وبالنسبة إلى لون البشرة ، يسرى القانون نفسه ، الأتراك ناصعو بياض البشرة ، السمرة تبين الاختلاط بالأعراق الأخرى .

لا يروق للأتراك البقاء فى مكان واحد ويسرهم الترحال . ولقد كانت هذه الخاصية أحد أسباب ذهابهم إلى أقطار مختلفة جدا . أسسوا فى الأزمنة المبكرة مدنا كبيرة وقلاع أيضا . أكثرها اكتشف فى عصرنا . وقد كان الاعتقاد قبل اكتشاف هذه الآثار ، أن الأتراك القدامى رحل تماما .

يمتطون الخيل منذ صغرهم . يوضع الطفل ، وهو فى الرابعة من عمره وعلى أقصى تقدير فى الثامنة ، على ظهر الحصان ويقوم والده بسحب الحصان ويجرى به جولة بطيئة . ولا يفارقون الحصان بعدها . لذلك يقال عنهم إنهم ولدوا مع الحصان . ونتيجة لذلك ، لا يهابون المسافات ويسبقون خيولهم إلى حدود البحار المفتوحة والمحيطات ويقفون عندها . لا يحبون البحر ولا البحرية ، لكنهم اضطروا إلى مزاولة الأمور البحرية عندما استوطنوا تركيا الحالية فى أواخر القرن ١١ . لا توجد بحرية تقريبا لدى الأتراك خارج تركيا . هم أناس عاشوا فى السهول القاحلة . ونادرا ما يعيشون فى الجبال ، كذلك لا يروق لهم العيش فى الغابات كالمغول والسلاف ، يذهبون إلى الغابة للاصطياد فقط . آلتهم الزراعية وأسلوب الرى عندهم متقدم ، تعودوا بصعوبة على الزراعة ، لأنهم يفضلون أن يكونوا ملاك

أراضٍ فقط ، وقد استخدموا في أراضيهم ، الأقوام الذين سيطروا عليهم . لكنهم يعشقون تربية الحيوانات . هم أساتذة في تربية الخيول والأغنام . ان لحوم الخيل والأغنام غذاؤهم الذى لاغنى لهم عنه . ثم هم أضافوا إليها بعد ذلك الجمل (خاصة ذا السنامين) والبقرة والجاموس . يشربون الـ « قيميز Kimiz » من المشروبات الكحولية (ويصنع من لبن الفرس) والشراب من الكروم . منع الإسلام المشروبات . ينذر أن يشاهد القمار لدى الأتراك القدامى .

ليست لديهم أى أفكار إيجابية أو سلبية تجاه لغات أو أديان أو ثقافات أو اعراف وعادات الأقوام الأجنبية . لا يحاولون اجبار الأقوام الأخرى على تعلم دينهم ولغتهم . يتقبلون بعد عدة أجيال دين ولغة الأكثرية فى الأقطار التى دخلوها كفاتحين وينصهرون فيها .

لهم رؤساء قبائل ، إلا أنه لغرض رئاسة اتحاد القبائل وخاصة اتحاد ولايات القبائل المتحالفة وحكمها ، يقتضى الأمر الحصول من الإله كوك تنكرى على السعد والبركة والقداسة Kut almak أما الإله Tengri فقد منح هذا السعد إلى السلالة المسماة آجين أوغوللرى Açınoğulları فقط ولم يمنحه إلى سلالة تركية أخرى . إن كافة السلالات التركية الخاقانية اعتباراً من سلالة هون فى القرن الثالث ق . م وحتى بنى عثمان فى القرن ٢٠ ، ينحدرون من آجين أوغوللرى وسلالة Mete ، أما الذين ينحدرون من عائلة غيرها فإنهم يعتبرون غير شرعيين كما يعتبرون غاضبين لاتجب طاعتهم .

يعتبر الامبراطور التركى المسمى « خاقان » مؤلهاً ومقدساً ، هو ليس إلهاً تاماً ، ولكنه « شبيه الإله » . ان الخاقانية تتوارث من الأب إلى الأبن وعلى الأغلب يرثها الابن الأكبر ، وإن كان هذا لايعتبر قاعدة ، فقد يتمكن أمير من أمراء السلالة أن يدعى حقه فى العرش ، لأن سلالة منه منحها الإله « القداسة » Kut فإذا ماتفوق وتمكن من الجلوس على العرش ، فإنه يعتبر مختاراً من قبل كوك تنكرى ، وعندئذ تلزم طاعته . وقد كان هذا النظام سبباً فى تجزئة الامبراطوريات التركية واضمحلالها بسرعة ، كما كان سبباً كذلك فى تكوين نظام اقطاعى وشللى ؛ فالأمراء الآخرون الذين لم يعلوا العرش ولم يصبحوا خاقان ، ويتولون صلاحيات الحاكم على الأقطار والأراضى الواسعة ، لايطيعون الخاقان إلا بنسبة اقتذاره ،

ويتمردون عليه في حالة ضعفه . وبموجب هذا النظام أيضا ، فإن الحاكم إن كان ذا إمكانية واقتدار ، فإنه ينهض بالدولة ويعلى شأنها ، أما إذا كان ضعيفا ، فإنه يسبب الاسراع في اضمحلالها وسقوطها . ولقد ظل هذا النظام ساريا في العهد الإسلامى التركى إلى أن تمكن بنو عثمان من تغييره .

إن موضوع وطن ومنشأ الأتراك ، ليس من المواضيع التاريخية التى لاتقبل النقاش كما هو الحال فى أقوام كثيرة أخرى . ولكى نصل فى هذا الصدد إلى صورة قطعية ، فإن الأمر يقتضى مزيدا من التوسع فى تناول الحدود الزمانية والمكانية .

إن وطن الأتراك بالنسبة لمعلوماتنا حاليا ، هو المثلث الكبير الذى ينحصر بين بحيرة آرال - جبال آلتاي - جبال تانرى (تيانشان) والذى تدخل فيه بحيرة بالقاش . لكنهم فى الأزمنة المبكرة انتشروا فى المنطقة بسرعة وتقدموا خاصة نحو الشمال الشرقى واستوطنوا فى شمال الصين ، عن قوة ، وامتزجوا مع الأقوام الإيرانية وتدفعوا نحو الغرب باسم سقا (Skit) Saka .

يحتمل أن يكون نطق كلمة « ترك » Türk قبل القرن ٧ بعد الميلاد على شكل « تُرْك » (بضم حرفى التاء والراء) Türuk وتعنى « قوى ، مقتدر ، كثير ، مكثر » وهو جذر للمصدر Türemek (تكاثر) . استعملت هذه الكلمة كاسم مشترك لجميع الأقوام الناطقة بالتركية منذ القرن ٦ ومنذ أترك كوك (كوكتوركلى) .

وكانت فى القرون السابقة ، تطلق الكلمة على واحد فقط من الأقوام أو القبائل التى تنطق بالتركية . وللمرة الأولى مرت كلمة « ترك » فى المصادر الصينية التى ترجع للقرن ١٨ ق . م . بنطقها بصورة تك Tik ولم يعثر على مصدر موثوق أقدم منه .

إن العائلة التى منحها الإله كوك تنكرى القداسة والسعد Kut لتتولى حكم الأتراك ، هى سلالة آجينا Agina . أو باللهجات التركية المختلفة آشينا Asina ، بورى Böri ، قورد Kurd وهو اسم الحيوان الذى يسمى ذئب . إن هذا الذئب هو كوك بورى Kōk Böri أى ذئب املح . إن جد السلالة تناسل من هذا الذئب ،

وبذلك تكاثرت السلالة . الذئب الأملح رمز وطنى . والقمر على شكل هلال ، رمز وطنى آخر (رمز النجمة ، حديث جدا) إن اللون السلالى لأسرة بنى آجيين هو الأحمر (حمرة ليست حمرة تامة وإنما بلون الذهب الذى يميل إلى الطرنجى أو الأحمر الفاتح) وهو اللون السلالى للسلالات التركية الخاقانية (الحاكمة) الكبرى ومنها بنو عثمان ، والذى كون لون العلم التركى الحالى . كما أن لون سلالة جابت Capet الأبيض ، الهاشميون الأخضر ، العباسيون الأسود ، الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية الافلاطونى (الارجوانى) .

يستمد امبراطور الأتراك الكبير - الذى كان يطلق عليه فى السابق اسم « ياكبو » Yagbu ثم « كغان » Kagan وهو اللفظ الذى تطور على أساس تفضيل المقطع الطويل وأصبحت « خاقان » - سلطته على الأتراك من إله الأتراك الذى يسمى « تنكرى » ، ثم أخذ يستمده من الله فى الفترة الإسلامية . قال بلكه كغان فى كتابات أورهن مايلى : « جلست على عرش آبائى لأن التكرى أراد ذلك » . ان السلالة شرعية من الناحية القانونية لكونها هى مؤسسة الدولة والوحدة الوطنية ، بواسطة الفتوحات .

الخاقان لا يأمر ، بل يصدر إرادته ، ومنيع هذه الإرادة هو الإلهام الإلهى (تنكرى) ، لذا فإن إرادة السلطان لاتناقش وتعتبر مناقشتها مخالفة للإله . يطلق على زوجة الخاقان التى من السلالة ذاتها اسم « كتون » Katun التى أصبحت تنطق بعد ذلك : « خاتون » وهى نفس كلمة « قادين » Kadin (وتعنى امرأة ، لها دور مشروع فى أمور الدولة بقدر معين ، تتمكن من الجلوس على العرش بجانب زوجها الخاقان » .

٢) تصنيف التاريخ التركى :

إن الأزمنة التى تسبق القرن ٣ ق . م ، هى فترة قبل التاريخ بالنسبة للأتراك . ونحن نستطيع أن نتعرف على عدة أسماء من حكام الأتراك للفترة التى تسبق هذا القرن فقط ، ولاتوجد لدينا قائمة حكام كاملة .

إن المنطقة الرئيسية للدولة التركية فى القرن ٣ ق . م ، هى شمال المنطقة الوسطى للدولة مغولستان الحالية ، أى جنوب بحيرة بايكال مباشرة وحوض نهر

أورهن وهى المنطقة التى بقيت قاعدة للدولة التركية حتى عام ٨٤٠ . أما الأتراك الذين انتقلوا فى هذا التاريخ إلى تركستان الشرقية ، ووسط آسيا ونحو أقصى الجنوب - الغربى فقد نقلوا مركز ثقلهم بمرور الزمن من تركستان الشرقية إلى تركستان الغربية وأخيرا نقلوا مركز ثقلهم مع السلاجقة إلى خراسان وإيران .

وعند تأسيس الدولة التركية فى الأناضول عام ١٠٧٤ ، تكوّن أترك الغرب . وأخذ خاقانات تركيا فى تمثيل أترك الغرب والشرق ، قد دام هذا الوضع إلى زمن قريب من وقتنا الحاضر . ان التاريخ التركى الأساسى هو : تركستان وتركيا ، إلا أنه إلى جانب ذلك ينبغى أن نذكر أنه قد تأسست امبراطوريات تركية جانبية ، فقد تشكلت فى كلتا شعبتى خاقانية تركية الكبرى ، امبراطوريات تركية جانبية فى أوروبا الشرقية ، الهند ، إيران ، مصر والصين ، كخاقانيات جانبية ليست لها علاقة مع تركية وتركستان . ويقتضى ان نضيف إلى ذلك الشعبة السفلى للهند الجنوبية . وعلى هذا الأساس يمكن تصنيف المناطق التى تأسست فيها الامبراطوريات التركية على الشكل التالى :

١ - الشرق أو تركستان .

٢ - الغرب أو تركية .

٣ - أوروبا الشرقية .

٤ - إيران .

٥ - الهند .

٦ - الهند الجنوبية .

٧ - الصين .

٨ - مصر .

ومع أن الأتراك أسسوا امبراطوريات فى تركستان وفى أوروبا الشرقية والهند قبل الإسلام ، لكنهم لم يتمكنوا من تأسيس امبراطوريات فى تركية وإيران والهند الجنوبية ومصر إلا بعد دخولهم الإسلام .

وبموت تيمور أوغلو شاه رخ فى ١٤٤٧ ، ينتقل مركز ثقل التاريخ التركى بصورة نهائية من الشرق (تركستان) ، إلى الغرب (تركية) . وبذلك لاتصبح

الدولة التركية الأساسية الأهم في تركستان ، وإنما في تركيا وهي الدولة العثمانية .
جلس على عرش الخاقانية في الدولة التركية الأساسية ١٨٢ خاقان تركي ، وهم
ينقسمون إلى ١١ سلالة حاكمة تنحدر من سلالة آجينا أومته Mete وهي :

- ١ - الهون (٣٩ خاقان) : ٢٦٥ ق . م - ٢١٦ ب . م = ٤٨١ سنة .
- ٢ - التاباج (١٦ خاقان) : ٢١٦ - ٣٩٤ : ١٧٨ سنة .
- ٣ - الافاريون (١٣ خاقان) : ٣٩٤ - ٥٥٢ = ١٥٨ سنة .
- ٤ - كوكترك (٢٧ خاقان) : ٥٥٢ - ٧٤٥ = ١٩٣ سنة .
- ٥ - اويغر (١٤ خاقان) : ٧٤٥ - ٨٤٨ = ١٠٣ سنوات .
- ٦ - القره خانيون (١٠ خاقانات) : ٨٤٨ - ١٠٤٠ = ١٩٢ سنة .
- ٧ - بنى سلجوق (٢٠ خاقان) : ١٠٤٠ - ١٣٠٨ = ٢٦٨ سنة .
- ٨ - الایلخانيون (٢ خاقان) : ١٣٠٨ - ١٣٣٥ = ٢٧ سنة .
- ٩ - جغتای (٧ خاقانات) : ١٣٣٥ - ١٣٧٠ = ٣٥ سنة .
- ١٠ - بنى تيمور (٣ خاقان) : ١٣٧٠ - ١٤٤٧ = ٧٧ سنة .
- ١١ - بنى عثمان (٣١ خاقان) : ١٤٤٧ - ١٩٢٢ = ٤٧٥ سنة .

كان الخاقانات حتى عام ٩٢٤ يدينون بدين كوك تنكرى أما الذين بعد هذا
التاريخ فهم مسلمون سنيون حنفيون .

[الإستثناءات هي : ٢ خاقان خلال ٥٥٤ - ٥٨١ بوذيين ، الذين حكموا
خلال ٧٤٧ - ٨٤٨ مانويين ، وخاقان واحد خلال ١٣٣٥ - ١٣٣٨ مسيحي
أرثوذكسي] .

السلاجقة خلال ١١٥٧ - ١٣٠٨ ، هم سلاجقة تركية .

٣.) السقه Saka (القرن ٧ - ٣ قبل الميلاد) .

إن أهم كيان سياسى كونه الأتراك قبل الفترة التاريخية ، أى قبل القرن
٣ ق . م ، هي الدولة التى أسسها السقه ، وهم الأتراك الذين نزحوا إلى الجنوب -
الغربي ، نحو إيران والذين اختلطوا على نطاق واسع بالعناصر الإيرانية الآرية .
ويطلق اليونانيون على هؤلاء القوم اسم « سكيت » Skit . إن هذه العائلة المالكة
والعنصر الحاكم ، أتراك ، وهذه هي التجربة التاريخية التى حققها الأتراك لإدارة
الآريين والأقوام الأخرى ، وجمعهم تحت رايتهم .

إن حاكم السقه الأكبر هو آلب - أر - نتغا الذى يسميه الإيرانيون أفراسياب هو أحد أجداد مه . ويحتمل أن يكون جده فى البطن العاشر . عاش فى القرن ٧ ق . م ، ولم ينس رغم مضى قرون طويلة ، جاء ذكره فى « ديوان لغات الترك » (القرن ١١) ، كما جاء فى « شاهنامه » الفردوسى ، فهو إذن لم ينس حتى الفترة الإسلامية ، لا من قبل الأتراك ولا من قبل خصومهم الإيرانيين .

دخل آلب - أر - نتغه صراعاً طويلاً جداً مع الإيرانيين . طارده شهنشاه إيران كيخسرو لغاية جبال الطاي ، وأخيراً قتله خصمه الشهنشاه فى اذريجان عام ٤٢٦ ق . م . بدأ يتشتت اتحاد سقه أثر ذلك ، لكن ملوك سقه حكموا لعدة عصور أخرى وجاءت القبائل التركية من جماعة سقه إلى إيران ، قفقاسيا ، أوربا الشرقية ، البلقان وأخيراً إلى الأناضول ووضعوا فيها أول دم تركى . إن الامبراطورة توميريس (تقابل كلمة « دмир » التركية التى تعنى حديد) التى حاربت عام ٥٢٩ ق . م شهنشاه إيران الشرقية دارا الكبير ، هى ابنة حفيد آلب - أر - تونغه .

٤ (الهون Hun (٢٦٥ ق . م - ٢١٦ ب . م) .

يطلق الصينيون على سلالة أو قبيلة هون Hun اوكن Kun اسم هيونك - نو Hiung-nu ، ويحمل حكام الهون من سلالة آشينا وعشيرة توكو Tuku (من المرجح أن هذه الكلمة هى نفس كلمة « ترك ») لقب Tanhu التى تحورت فى اللغة الصينية إلى لفظ شانيو Sanyu . إن الاسم الخاقانى لخاقان الهون الذى يحمل هذا اللقب والذى يعنى « الإله كوكنتكرى الذى يمنح القداسة » ، هو ياكبو Yabgu ، وتعنى هذه الكلمة التى تعتبر أكبر لقب للحكم لدى أتراك أوغز ، فى فترة الهون : « خاقان ، الامبراطور التركى ، الامبراطور الكبير » .

تم تدوين اسم أول حاكم تركى فى التاريخ فى المصادر الصينية عام ١٧٦٦ ق . م . باسم جون - كوى Gun-Goey وهو الذى يحتمل أن يكون جد مه فى البطن الـ ٥٠ . نظم كل من شانيو ابو تيومان (٢٦٥ - ٢٤٤ ق . م) وابنه تيومان (٢٤٤ - ٢٠٩) الهون ، وجعل ابن تيومان مه Mete (٢٠٩ - ١٧٤) من الامبراطورية دولة عالمية كبرى تمتد اعتباراً من الخزر إلى البحر اليابانى ، ومن جبال الهمالايا إلى سيبيريا فى آسيا الشمالية ووسّعها وجعلها تبلغ نحو ١٨ مليون كم^(٢) . وقد أصبح من المؤكد بدرجة كبيرة فى الوقت الحاضر ، أن أصل أسمى

الحاكمين الذين يطلق عليهما اسمى تيؤمان ومته هو تومان Tuman وموتن Motun .

كان مته هو أول من أسس الجيش النظامى والوحدات على نظام العشرات ، حيث ينقسم الجيش الذى يتكون بأجمعه من الخيالة إلى أقسام مؤلفة من ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ شخص . يسمى القسم الكبير المؤلف من ١٠٠٠٠ شخص والذى يقوده الأمراء . Tumen ، وتستعمل هذه الكلمة فى الجيش التركى الحالى كذلك . يعظم الأتراك مته فيطلقون عليه لقب « أوغرخان » أى الخان الأعظم ، وتنحدر سلالة آشيئا من أولاد مته ال ٦ ومن الأبناء الأربعة لكل واحد منهم . ويعتبر الذين ينحدرون من قايى خان Kayi Han [الابن الأكبر لابنه الكبير وخلفه كونخان Gun Han (١٧٤ - ١٦٠) ، أشرفهم حيث ينحدر منهم بنو عثمان ، ويعتبر تنرى كوت وهو خان يابكو (٥٨ - ٥٦ + ٣٦ - ٣١) وأخوه تنرى كوت جيجى يابكو (٥٦ - ٣٦) وتنرى كوت يولو يابكو (٨٤ - ٨٩ ب . م) ، هم حكام الهون العظام .

٥ (التاباج Tabgac (٢١٦ - ٣٩٤) والآفار Avar (٣٩٤ - ٥٥٢) .

اعتلت عرش الخاقانية الكبرى بعد الهون ، سلالتا تاباج ومن ثم آفار Apar الملكيتان . ويطلق الصينيون على التاباج Sien-bi و T'o-Pa . وهم ينحدرون من سلالة أحد أمراء هون التى كونت فى البداية ملكية تابعة للهون ، ثم أخذت مكان الهون واصبحت تابعة للملكيات الهونية التى دامت عدة قرون أخرى ، وأشهر حكامهم هو رابعهم Lievi (سلطنته ٢٦١ - ٢٧٧ ب . م) الذى يقال إنه عاش ١٠٤ سنوات .

يقابل اسم آفار باللغة الصينية لفظ جوان - جوان وقد ترك الآفار لقب « يابكو » واستبدلوا به اسم « كغان » Kagan ، حيث استخدم الحكام العثمانيون هذا اللقب حتى عام ١٩٢٢ . واصبح « يابكو » بعد ذلك ، لقبا يتخذه ملوك الأتراك التابعون للكغان .

أعظم حكام الآفار هم الأول والسادس والثانى عشر واسماؤهم بالترتيب : طولن

Tolun (٣٩٤ - ٤١٠) ، جللك Guluk (٤٤٤ - ٤٦٤) وأونابوى Onaboy ، وكلهم كغان .

أخذت حدود الدولة التركية فى التقلص بعد مته ، فمثلا ، بقى الآفار بين بحيرة بالقاش والبحر اليابانى كالتاباج ، حقيقة لقد حافظوا على تركستان الشرقية وبعض مناطق الصين الشمالية ، لكنهم لم يتمكنوا من الامتداد نحو الغرب ، إلى المناطق القريبة من أوربا وإلى بحر الخزر مثل الهون . وكنتيجة لعدم تمكنهم من بسط نفوذهم على القبائل التركية فى الغرب ، أخذ شأن المغول المقيمين فى شمال شرقى الأتراك يتعاظم وبدعوا يختلطون بالأتراك .

ومن المهم أن نذكر أن سد الصين الشهير الذى شيد فى تلك الأثناء ضد مته لم يمنع مته ولااخلافه فقد اخترقه الأتراك مئات المرات .

إن اسماء أكثر من ٣٠ ملكية وإمارة تركية فى أواسط آسيا وشمالها قبل الإسلام ، معلومه ، وبعض هذه الملكيات والامارات استمر قرونا طويلة تابعا للخاقانات الذين ينحدرون من السلالات السالف ذكرها .

٦ (كوكترك Goktrk (٥٥٢ - ٧٤٥) .

تنحدر سلالة كوكترك من مته ، وقد سميت فى البداية توسوكو Tusuku (يحتمل انها صيغة الجمع لكلمة ترك) ، ثم كوكترك Gokturk (Kokturk) . وبعد أن بقيت هذه السلالة وقبيلة كوكترك ٩٦ عاما فى البلاد التى تسمى « ارغنون » Ergenkon ، خرجت منها فى ٥٣٥ ، وأخذ رئيسهم بومين Bumín اللقب الامبراطورى كغان Kagan أو هغان Hgan . وصنعوا الحديد من منجم كبير فى ارغنون ودججوا أنفسهم بالسلاح بصورة متقنة وكسروا الآفار واحتلوا مكانهم . ثم تمكن بومين من التنسيق والعمل مع اخيه استمى Istemi ، فقضى على الآفارين عام ٥٥٢ وحصل على لقب الخاقان الأكبر (بيوك - خاقان) .

حتى ذلك التاريخ كانت تطلق على القبائل التركية التى تنطق باللغة التركية ، أسماء مختلفة ، ولكن بعد أن حصل أترك كوكترك على الشهرة وأمنوا الوحدة ، أطلق اسم ترك على كافة الأقوام الناطقة بالتركية . وكلمة كوك Kok,gok تعنى باللغة التركية « سماء ، سماوى (أزرق ، أزرق - أملح) ومن المهم أن نشير

إلى أن كلمة كوك ترك Gokturk ، وتعني « الأتراك السماويين » قد تم استخدامها على سبيل ادعاء العظمة ؛ ذلك أن الأتراك الذين دخلوا ارغنون كقبيلة هونية خافتة الذكر تعاضم شأنهم فيها خلال قرن وخرجوا منها على شكل كوكترك . كما أنهم اخضعوا كافة القبائل التركية وفتحوا شمال آسيا ، واستطاعوا لأول مرة بعد مته ، أن يدركوا الحدود التي أدركها .

ولدخول هؤلاء إلى إيران واجتياحهم أوروبا الشرقية ، وفتحهم قرم في العام الأخير من حكم استمي كغان Istemi Kagan في ٥٧٦ ، (بذلك يكونون قد اجتازوا حتى الحدود التي ادركها مته) ، فإن المؤرخين يعتبرون أنهم الأجداد الأصليون للعثمانيين والطلعية المبشرة لهم . وقد استعمل كثير من المؤرخين الأوروبيين الحديثين تعبير « من أترك كوكترك إلى العثمانيين » .

واتوكن Otuken هي مدينة عرش أترك كوكترك الذين يدينون بدين كوككتري ، وهي على مسافة ٦٠ كم من شمال قره قورم Karakurum مدينة عرش جنكيز ، وتقع بين نهري أورهون ولسنكه (Tamir) في شمال مغلستان الحالية وقرب بحيرة كوشو جايدا (٣٠ / ٤٧ درجة عرض و ٣٠ / ٩٧ درجة طول) ، وقد أطلق على أباطرتهم لقب (كغان) كآفارين ، ثم اصبحت هذه الكلمة تنطق منذ عهد أترك كوكترك بلفظ هكان Hagan ويوجد « كغانان » منفصلان أحدهما في الشرق والآخر في الغرب ، والمقيم منهما في اوتكن هو كغان الشرق ، وهو الخاقان - الأكبر ويتبعه كغان الغرب .

ولعل أهم الأسماء بين خاقانات وأمراء كوكترك هم : Bumin Kagan (وفاته ٥٥٣) ، أخوه Istemi Kagan (وفاته ٥٧٦) ، Mukan Kagan (وفاته ٥٧٦) ، Bilge Tardu Kagan (وفاته ٦٠٣) ، TOnG Yabu Kagan (وفاته ٦٣٠) ، Kur Sad (وفاته ٦٩٣) ، Ilteris Kulug Kagan (وفاته ٩٦٣) ، Bulankagan (وفاته ٦٤٠) ، Bilge Tonyukuk (وفاته ٧٢٥) ، Kapgan Kagan (وفاته ٧١٦) ، Kul Tegin (وفاته ٧٣١) ، Bilge Kagan (وفاته ٧٣٤) ، ومؤلف كتابات أورهون الدامية Yulig Tegin (وفاته ٧٣٥) .

وبينما انشغل أترك كوكترك الشرقيون بالصين ، استمر أترك كوكترك الغربيون

فى صراعهم الطورانى - الإيرانى القديم مع إيران الساسانية . وقد سعى فى مناسبات كثيرة إلى تحسين علاقاتهم مع البيزنط (روما الشرقية) لمواجهة إيران . وبلغ حد العلاقات الودية أن تبادل استمى كغان السفراء مع معاصره جوستينيان الكبير (Justinianus) . وقد بدأ العرب المسلمون فى عهد الأمويين فى نهاية القرن ٧ وبداية القرن ٨ فى فتح بلاد ماوراء النهر فى تركستان الغربية . (أراضى أترك كوكترك الغربيين) . حيث جرت حروب عرية - تركية طاحنة استمرت سنوات صعب ، وفى غضون هذه الحروب امتدى إلى الإسلام أترك كثيرون ، ومنذ ذلك الحين أخذ المسلمون الأوائل من الأترك فى الظهور . وبالرغم من أن المسلمين احتلوا سمرقند وبخارى أيضا ، فإنهم لم يتمكنوا من التقدم إلى أبعد من ذلك بسبب المصاعب الجغرافية التى واجهتهم . وقد زالت إثر ذلك ، العداوة التركية - العربية ، حيث قبلت قبيلة كارلوك Karluk التركية الدخول فى الإسلام .

وفى عام ٧٥١ ، حاصر الصينيون الذين ساروا بجيش عرمرم ، القائد الأعلى العربى زياد بن صالح فى Talas ، وفور أن علم خاقان كوكترك الغربية ذلك ادرك جيش كوتلغ بلكه كغان وأخذ الكوكترك اماكنهم فى صفوف العرب المسلمين ضد الصينيين أعدائهم التقليديين ، فمنى الصينيون بهزيمة كبرى ، وقد لقيت هذه المساندة من الأترك ، الذين امتدوا حديثا إلى الإسلام ، امتنانا كبيرا من العباسيين الذين تسلموا الحكم حديثا ، والذين لم يكونوا متعصبين للعنصر العربى كالأمويين ، وبدأ التقارب التركى - العربى ، وأملت بغداد بالأترك المسلمين الذين وفدوا إليها للانخراط فى جيش الخليفة .

فتح طونغ - يابكو كغان ، رى (طهران) واصفهان من إيران عام ٦٢٠ وأضعف الشهنشاهية الإيرانية فى الصميم . وبذلك سهل على العرب المسلمين فتح إيران بعد ٢٠ عاماً ، ولولا ذلك لكان فى استطاعة إيران المقتدرة أن تقاوم المسلمين كالبيزنطيين ، ولولا ذلك أيضا لاستمر المسلمون عاجزين عن اقتحام السد الإيرانى ، ولتبدل عندئذ سير التاريخ .

(٧) أترك أويغر Uyghur (٧٤٥ - ٨٤٠)

احتل دوقوز - اوغز - اون - اويغولر (وباختصار ايفرلر Uyghurlar) ، مكان كوكترك كفرع من سلالتهم ، من أهم حكامهم Moyuncur Kagan (٧٤٧ -

(٧٥٩) وابنه Bogu Kagan (٧٥٩ - ٧٨٠) . ترك مويتجر وخلفاؤه ديانة كوك نرى ودخلوا الديانة المانوية Mani . ولعل هذا مما قد تسبب خلال نسلين فى اضمحلالهم وفقدان الاويغريين لقوتهم القتالية . كانت مدينة عرشهم قره بالاساغون ، المجاورة لوتوكن Otugen .

طرد أتراك قيرغز الوحشيين القادمين من الشمال ، والاويغريين من غابات أوتوكن . ترك Uge Kagan (وطن الأتراك الذين يرجع تاريخه إلى ألف سنة) بعد أن أستصحب معه الأكثرية العظمى من الأتراك . وبقيت مغلستان الحالية مدة لدى أتراك قيرغز . وقد تنازعت القبائل مع بعضها بسبب عدم وجود كغان على رأسهم يستمد القداسة (قوت آلمش) من سلالة مته الملكية ، ولكونهم قلة من ناحية أخرى . دفع المغل القادمون من غابات الشمال ، أتراك قيرغز نحو الجنوب - الغربى وحازوا على الأكثرية فى مغلستان الحالية ، على أنه ينبغي ألا نعتقد أن جميع الأتراك اخلوا مغلستان (بلاد المغل) . إذ من المعروف بشكل لامجال للشك فيه ، انه حتى فى القرن ١٣ على عهد جنكيز ، كانت أكثر القبائل التركية الموجودة فى البلاد تنطق باللغة التركية .

أصبح التاج الخاقانى التركى الكبير بعد عام ٨٤٠ موضع نزاع بين أتراك أويغر ، قرلوق وقره خان الذين يترأسهم جميعا كغانات من سلالة مته ، والصحيح الذى يجب ألا يفوت علينا أن الكغان القره خانى يعتبر أكبر حاكم تركى بعد عام ٨٤٠ .

جاء الاويغريون الذين كانوا يعيشون على الأغلب فى شمال تركستان الشرقية فى المنطقة المتاخمة لمغلستان ، إلى تركستان الحالية . تركوا الديانة المانوية وتقبلوا البوذية . وعندما أزاح الكيتان ، وهم قبيلة مغولية ، أتراك قيرغز من مغلستان الحالية ، راجعوا كغان أويغر المقيم فى قره هوجو ، وطلبوا إليه أن يقدم إلى أوتوكن مرة أخرى ويصبح خاقاناً عليهم ، وفى هذا دليل على عدم اطاعة المغل للحكام الذين لاينحدرون من نسل مته ، لكن الأويغريون المستقرين فى هذه المنطقة والذين انتقلوا إلى حضارة متأثرة بالبوذية والذين ابتعدوا عن تقاليد اوتكن لم يقبلوا الدعوة إلى الهجرة .

وقد أخذت ملكيات الأويغريين ، الذين كونوا حضارة وثقافة لامعة ، تنقلص ، بعد أن دامت دولتهم التابعة لخاقانات الترك والمغول حتى عهد قريب جدا من

عام ١٤٠٠ . ويشكلون حاليا الأكثرية الكبرى من أتراك تركستان الشرقية . أما الأويغريون الصفر (صارى أويغرلر) فهم الأويغريون الذين قطنوا إيالة قانصو الصينية واعتنقوا البوذية وإن كانوا لا يزالون يتكلمون التركية .

إن جميع الأويغريون الموجودين فى تركستان الشرقية حاليا ، مسلمون سنيون - حنفيون - استعملوا أحرف الهجاء العربية فى القرون الأخيرة . نسوا حاليا أحرف كتاباتهم . وتركوا الأحرف الهجائية لكوكترك واستعملوا ونشروا الأحرف الأويغرية . وعلى الرغم من استخدام أحرف الهجاء العربية فى القرن ١٠ ، عاشت الأحرف الأويغرية حتى القرن ١٥ ، وفى القرن ١٥ ، كانت لا تزال تستعمل فى القطر العثماني . أما الأويغريون الصفر ، فإنهم استعملوا هذه الأحرف حتى العصر ١٧ ، ثم استخدموا فى هذا العصر الكتابة الصينية . أما أماكن سكن الأويغريين الصفر فى قانصو حاليا ، فهى سوجوف وكاجوف . (عثر العالم الروسى مالوف Malov فى بداية عصرنا الحالى ، على أحد كتب اللغة التركية القديمة التى لامتوت Altun - Yaruk Sutra لدى الأويغريين الصفر) .

إن كوجلغ خان Kuelug Han الذى كون امبراطورية خلال ١٢١١ - ١٢١٨ وقوضت امبراطوريته من قبل جنكيز ، هو حاكم قبيلة نايمان التركية ومن نسل خاقانات أويغر . وقبيلة Kereyit التركية المسيحية النسطورية والتى قضى عليها فى القرن ١٣ من قبل جنكيز أيضا ، تستحق الذكر كذلك .

٨ (خاقانية هون الأوربية :

لما لم تتمكن السلالة الهونية من الحفاظ على عرشها وانتقل العرش إلى تابفاج ، جاء بالامر Balamir حفيد مته فى البطن ١٥ وجيجى يابكو فى البطن ٩ من آسيا الوسطى خلال ٣٥٥ - ٣٦٥ مع فريق من القبائل الهونية ، واستوطن فى الوطن الأعلى (بين الخزر وآرال) ، وفى ٣٧٤ ، انتقل منها إلى ضفة نهر أورال ودخل أوربا ، وقضى على دولة غوت Got الشرقية فانتحر ملكها Ermanarih ، ثم جاء فى العام التالى إلى ضفة دنيبر (أوكرانيا) وأغار على آتانارين ملك غوت الغربية (Vizigot) ولم يشأ آتانارين أن تصبه عاقبة سلفه فأخذ شعبه وانسحب إلى أسبانيا ونجا من الهلاك . وهكذا بدأت هجرة الأقوام

الكبرى ، فى أوربا . ساق Balamir كافة الأقوام الآرية والأقوام الجرمانية والسلافية أمامه إلى أوربا ، وبذلك تكونت الجغرافية العرقية الحالية لأوربا ، واضمحلت امبراطورية روما الغربية كذلك نتيجة الهجرة ، وانتهت القرون الأولى وبدأت القرون الوسطى (٤٧٦) .

أجتاز بالأمر خاقان نهر الطونة (الدانوب) ودخل تراقيا . وعبر جيشه الآخر نهر الدون وجبال القفقاس ودخل إلى الأناضول . حقق هذا الجيش الذى يقوده الأمير Basik والأمير Kursik حملات ارضروم - ملاطية - أورفه - انطاكية - قدس ، وعاد إلى شمال البحر الأسود مجتازا القفقاس عن طريق فلسطين - لبنان - سوريا - الأناضول الوسطى والشرقية - اذربيجان الشمالية . تمكن ابنه اولدز Uldiz (بالتعبير التركى الحالى : يلدز وتعنى كوكب) (٤٠٠ - ٤١٠) ، من اكساب حركات ابيه العسكرية نطاقا عالميا ، فقد اباد جيش التحالف الذى تشكله الأقوام الجرمانية فى واقعة Friesole الميدانية فى جنوب فلورنسا فى آب ٤٠٦ وخلص روما . ولم تتمكن الأقوام البربرية من الاستقرار فى أوربا الوسطى لمطاردات Uldiz وبدعوا بالنزوح إلى أوربا الغربية وسكنوها . عبروا الراين وانسحبوا من أمام الهون (واندال ، آلان ، كلت ، سواب ، سرمات الخ) . وقد وحد أولدز خاقان كلاً من آسيا وأوربا تحت حكمه اعتبارا من قوزاقستان إلى الراين ، وجاء روا Rua (٤٢٢ - ٤٣٤) فطوّر هذا الوضع . لكن الذى أقام أوربا واقعدها حقا ، هو ابن حفيد اولدز آتिला Attila (٤٣٤ - ٤٥٣) ، ذلك أنه عندما اعتلى آتिला (الذى حصل فى شبابه على ثقافة كلاسيكية فى سراى روما وهو ضيف الامبراطور) العرش ، سيطر على معظم أوربا اعتبارا من قوزاقستان ، قفقاسيا والأورال ووصل إلى حدود بحار المانش والبلطيق والادرياتيكي ، كما فتح كامل ألمانيا ، معظم البلقان ، شمال إيطاليا ، شرق فرنسا وجنوب السويد ، وفرض الجزية السنوية على امبراطوريتى الرومان شرقا وغربا ، ووصل إلى منطقة قرية من استانبول . وكانت مدينة عرشه فى المجر الحالية . مات آتिला فجأة وعمره ٥٣ سنة فى عام ٤٥٣ ، قبل فتح البيزنطية (استانبول) بـ ١٠٠٠ عام اثناء إعداده حملة على الامبراطورية الإيرانية الساسانية ، ثم تبعثت امبراطوريته بعد مدة ، إذ أن الهون الذين جلبهم من آسيا كانوا من القلة بحيث لايمكنهم السيطرة على اقطار واسعة إلى هذا الحد .

(٩) الآفاريون Avar (٥٦٥ - ٨٣٥) :

وفي هذه المرة ، طرد الكوكترك السلالة الآفارية من عرش الخاقانية - الكبرى في شمال آسيا ، تقدمت السيدة كغان من أميرات آفار ومن خلفها بعض القبائل الآفارية إلى أوروبا وبدأت بالفتوحات (٥٦٥ - ٦٠٢) بدعوى احياء امبراطورية آتिला . لكنها لم تتمكن من التوصل إلى حدود خانية الهون الأوربية وبقيت على مسافة بعيدة منها . سيطرت على أوكرانيا ، رومانيا ، بلغاريا والمجر الحالية ، غير أنه تعذر الحفاظ حتى على تلك الحدود بعد وفاة السيدة ، ورغم محاصرة الآفاريين كل من سلانيك واستانبول مرتين ، فإنهم لم يتمكنوا من اسقاط هاتين المدينتين البيزنطيتين ، وإن كانوا قد تسببوا في سلافية شبه جزيرة البلقان على نطاق واسع نتيجة جلبهم السلاف إلى البلقان .

(١٠) خاقانية الخزر HAZAR (٦٢٠ - ٩٦٢)

تقدم Bulan اخو فاتح ايران كغان كوكترك الغرييه تونغ - بابكو نحو عام ٦٢٠ على رأس بعض القبائل التركية وفتح شمال البحر الاسود . كن حكام هذه الدولة يحملون لقب « كغان » كحكام أوروبا الآفاريين . لم يتمكن الآفاريون من الحفاظ على ديانة كوكترك مدة طويلة ، فقد أصبح قسم منهم موسويا ، وقسم مسيحيا أرثوذكسيا والقسم الآخر مسلماً . ويعتقد ان يهود اوكرانيا الحاليين ، هم أحفاد أتراك الخزر الذين اعتنقوا الديانة الموسوية . اتفق الخزريون مع البيزنطيين ، وأرادوا وقف العرب المسلمين ، إلا أن الخليفة الأموي مروان بن محمد طارد الخزريين حتى دلتا نهر الفولتا بجيش إسلامي مكون من ١٥٠,٠٠٠ شخص في ٧٣٧ . وفي نفس الوقت حاول القائد الخزري المسمى آست تارخان الرد عليه بجيش مؤلف من ١٠٠,٠٠٠ شخص حتى شمال الأناضول عام ٧٦٥ . كانت قرم في ذلك الوقت تابعة للامبراطورية الخزرية . لكن قاعدتها كانت على الفولغا ، وفي النهاية ، قضى النورمان الذين جاءوا من الشمال على الدولة الخزرية .

(١١) البلغار Bulgar (٥٨٤ - ١٠١)

ترأس كبرات (Kurt) (Kubrat) خان ، وهو ابن حفيد آتिला - قبيلتي Uturgur و Kuturgur التركيتين التابعتين للخزريين بعد توحيدهما في عام ٥٨٤ . سميت

القبيلتان ، بعد توحيدهما ، باسم « بلغار » وهى كلمة تركية . كانوا يعيشون فى شمال شرق القفقاس . ساق كبرات ، قبيلة بلغار على امتداد شمال البحر الاسود (اوكرانيا الحالية) ، ومن هناك إلى سهل البحر . حيث تفرقوا إلى ثلاثة أطراف رئيسية : أهمها أولئك الذين ذهبوا إلى سواحل الفولغا بقيادة كوتراغ Kotrag خان اوسط ابناء كبرات الخمسة حيث نزلوا إلى الطونة مع مؤسسى خانبة بلغار فى فولغا فى تاتارستان (قازان) الحالية ، تحت إدارة Asparuh اصغر ابناء كبرات واستوطنوا بلغاريا الحالية . وقد تطورت هذه الأخيرة خلال مدة قصيرة واصبحت خاقانية (امبراطورية) . وبينما أرادت الأمبراطورية البيزنطية قلع وإزاحة البلغار الذين جاءوا إلى دلتا الطونة بضغط الخزرين قبل ٦٥٩ ، إلا أنها انهزمت فى ٦٥٩ .

وفى ٦٨١ ، انفصلت المنطقة الواقعة بين نهر الدونيه وجبال البلقان عن البيزنط وانتقلت إلى الأتراك البلغار . واستمر النزاع بعد هذا التاريخ ، بين هذه الدولة والبيزنط لقرون طويلة حول السيطرة على البلقان .

كانت الحدود القصوى للدولة هى بلغاريا الحالية ، دوبروجه ، افلاق (اولاهيا / رومانيا الجنوبية) ، مكدونيا الشمالية ، صربيا .

أباد كورم Kurum خان مع الامبراطور Nikehoros الجيش البيزنطى فى الحرب الميدانية Vribiski (٨١١/٧/٢٢) . وهذه هى الحادثة الأولى التى فقد فيها امبراطور بيزنطى حياته . حاصر Kurum استانبول ، لكنه مات خلال الحصار وفك الحصار . كانت قاعدة الدولة Pliska قرب شومنو ، نقلت فى ٨٠٩ إلى صوفيا .

ترك بوغورس Bogoris (بالتركية الحالية : Pars وتعنى نمر ارقط ، وقد حورت بالسلافية على شكل "Boris") ديانة كوكترى التى هى ديانة اجداده وغلبته الدعاية الثقافية لألد اعدائه البيزنط ، وصار مسيحيا أرثوذكسيا ، وأسفر ذلك عن زوال اترك بلغار ، وخلال عصر واحد انصهر اترك بلغار وهم أقلية اساسا رغم انهم زمرة حاكمة وأصبحوا سلافيين وأخذوا يتكلمون بدلا من التركية ، لهجة سلافية هى اساس اللغة البلغارية الحالية ، واهملت كذلك ابجدية كوكترك واستخدمت الابجدية السلافية (Kiril) . ترك Simeon خان ، لقب « خان » التركى واتخذ لنفسه لقب « جار » Car (امبراطور) السلافى بصورة رسمية . اعتبارا من هذا الوقت خرج التاريخ البلغارى عن كونه قطعة من التاريخ التركى ،

على الرغم من ان الحكام البلغار ، كانوا حتى ١٣٩٣ ، شخصيات تطبعت على السلافية من السلالة التركية . لم يجلس على العرش البلغارى أى شخص من السلالة السلافية .

(١٢) المجرىون

كانت قبيلة مجر التى تتكون من ٦ عشائر تركية وواحدة فينية Fin تعيش تابعة لكوكترك فى شمال (اوبا Ufa) التابعة لباشكردستان الحالية ، على السفوح الغربية من جبال الأورال . اصبحت القبيلة تابعة لخاقانية الخزر فى القرن ٩ ، وفى عام ٨٣٠ ، نزلت إلى شمال بحر آزوف (آزاك) إلى المنطقة المسماة ليفاديا Levadya الواقعة بين نهري الدون والدينير . وتحت الضغط الذى مارسه قبيلة بجنك Peçenek التركية فى عام ٨٨٩ ، خرجت قبيلة مجر منها واستوطنوا فى ٨٩٦ فى وطنهم الحالى الكائن فى السهل المجرى فى حوض نهر الطونة .

رئيسهم المسمى Arpad (بالتركية : آرباجك) خان ، من احفاد آتيل . امتدت سلالة المجر بالملوك حتى ١٣٠١ . وقد حققوا خلال القرن ١٠ حملات كبيرة عبارة عن : ٢٠ حملة على المانيا ، ٧ على إيطاليا ، وحملة على هولندا ، ٤ على فرنسا ، ٩ على البيزنط وحملة واحدة على أسبانيا . وفى عام ١٠٠٠ ، تركوا ديانة كوكترى وأصبحوا مسيحيين كاثوليك . نسوا التركية وبدعوا يتكلمون المجرية الحالية التى هى إحدى اللغات الفينية . واستخدموا الابجدية اللاتينية مكان ابجدية كوكترك .

(١٣) البجنك Peçenek (٨٨٩ - ١٠٩١)

البجنك ، هى إحدى القبائل الـ ١٢ التى تشكل فرع أوج اوق (وتعنى الأسهم الثلاثة) الاوغرى . كانت البجنك عبارة عن قبيلة تبلغ تعدادها حوالى ٥٠٠٠٠ نسمة تابعة لخاقانية كوكترك فى بداية القرن ٨ ، تزايد عددهم بدرجة كبيرة فيما بعد وكونوا مع القبائل التركية الأخرى احلافاً بلغ تعدادها عدة ملايين . لكنهم لعدم وجود من يرأسهم من نسل سلالة منه كانوا ينتخبون اقدر رؤساء القبائل ، الا أن هؤلاء الرؤساء لوصولهم إلى هذا المنصب بالانتخاب ولعدم تمتعهم بمباركة كوكترى فانهم كانوا يعانون صعوبة فى تأمين الوحدة . اخرجتهم من ديارهم قبيلة

قارلق **Karluk** عام ٧٥١ ، بينما كانوا يسكنون في اطراف بحيرة بالقاش . جاءوا أولا ، إلى شمال غربى بحيرة آرال ، ثم إلى شمال شرق بحر الخزر ، ولم يتمكنوا من الاستقرار هنا ، كذلك بسبب ضغوط قبائل اوغز الاخرى . عبروا نهر اورال (بالتركية : **Idil**) . وفي ٨٨٩ تقدموا نحو الجنوب - الغربى ووصلوا سواحل نهر الدون (بالتركية : **Ten**) وساقوا المجرين الموجودين فيها إلى بلاد المجر (مجرستان) وساعدوهم في استيطانها وتكوين وطن لهم فيها . واعقبهم الغوز **Guz** الذين استمروا في دفع البجنگ نحو الغرب ، والكومان **Kuman** الذين دفعوا هؤلاء من خلفهم ، والقيجاق **Kipçak** الذين ساقوا هؤلاء من اقصى الشرق ، وفي النهاية خلف الكيم **Kim** هؤلاء ايضا . كانت هذه القبائل التركية ، تدفع إحداها الأخرى وتسوقها نحو أوربا .

تبع البجنگ خاقانية الخزر حتى ٩٥٠ ، وفي ٩٧٢ ، أبادوا الجيش الروسى مع أميرهم الكبير **Svyatoslav** في سواحل دنيبر . وظفروا بغرب البحر الاسود وبدعوا بتهديد البلقان والبيزنط . وفي ١٠٢٠ ، اجتازوا الطونة نحو الجنوب للمرة الأولى . وفي ١٠٥٠ ، وصلوا إلى سواحل بحر مرمرة ، وفي ١٠٦٤ وصلوا إلى سلانيك ومورا . كثير منهم سجلوا أنفسهم في الجيش البيزنطى . وعند بدء حرب ملازغرت **Malazgirt** الميدانية في ١٠٧١ ، انضمت وحدة بجنگ الموجودة في الجيش البيزنطى إلى صفوف الجيش السلجوق الذى يقوده ألب ارسلان لتكلمهم اللغة ذاتها ، رغم أن هذه الوحدة كانت تدين بدين كوك ترى بينما الجيش السلجوق مسلم . انمحق اسمهم في القرن ١٢ ، وانصهر الكومان - قييجاق ، في المجرين والسلاف . وتركوا أسماء أماكن جغرافية كثيرة في أوكرانيا ، المجر ، رومانيا ، البلقان والأناضول بقيت مستعملة حتى الآن كذكرى لهم .

(١٤) الكومان **Kuman** (١٠٥٠ - ١١٠٣)

اسم هذه القبيلة التركية ، هو نفس كلمة « كومرال » التى تعنى باللغة التركية « اشقر غامق » . ويعتقد انهم من القبائل التركية التى كانت تعيش في اقصى الشرق ، في شمال منشوريا على سواحل أمور خلال القرن ٥ - ٨ . وبعد عام ٨٤٠ ، انتقلوا إلى آسيا الوسطى . وبعد الضغط الذى مارسه القره هيتاي المغل في ١٠١٧ ، تركوا

تلك المنطقة وعبروا نهري أورال (بالتركية : Idil) وفولغا (بالتركية : Yayik) وجاءوا إلى أوروبا . وامتدوا لغاية الطونة . وفي ١٠٩١ ، ملقوا الأماكن التي فرغت من البجناك . حاربوا الروس حروبا عدة أشهرها التي أسر فيها كونيچك Konçek خان ، امير Novgorod ايكور Igor في شباط عام ١١٨٥ ، وتشكل هذه الحرب موضوع الملحمة الوطنية الروسية Prens Igor Destani (بالروسية : Slavoo Polku Igoreve) وهي من روائع الأدب الروسى . وأصبحت موضوعا لاوبريت الاميرايفور التي لحنها الملحن Borodin . ولقد دخلت رقصات بولوفج Poloveç (كومان) بين روائع الموسيقى الغربية .

(١٥) القبيجاك Kıpçak (١١٠٣ - ١٢٢٣)

قبيجاك ، هو وطن القبائل التركية ، كان وقشد حوض نهر ارتش في سهل سيبيريا . نزلوا إلى الجنوب الغربى بضغط من قبيلة Kimek التركية نحو ١٠٣٠ ثم ساقوا قبائل اوغز التي كانت امامهم ودخلوا أوروبا . وأخذوا مكان الكومان وانصاع لامرهم الكومان والبجناك الذين تطبعوا على السلافية . وكان ضعف هؤلاء الاكبر يتمثل في أنه ليس لديهم رئيس من سلالة مته . وقد ابادهم باطوخان جفيد جنكيزخان مع تابعيهم الامراء الروس في ٣١ ايار ١٢٢٣ في حوض نهر حلقه Halka ، واصبحوا تابعين لخاقانية الطون اوردى . اكتسبوا الدم المغلى ، لكنهم جعلوا المغل في النهاية « يستركون » ويتكلمون اللغة التركية . أطلق الكتاب العرب المسلمين ، اعتبارا من عهد القبيجاك ، على أوكرانيا الحالية دشت قبيجاك / سهل قبيجاك .

من المعلوم أن معظم سلاطين السلطنة المملوكية التي تأسست في مصر - سورية عام ١٢٥٠ اترك قبيجاك وقسم منهم اوغز وكومان . صنف كثير من المؤلفين العرب في تلك الآونة كتباً لتعليم اللهجة القبيجاكية التركية للعرب لاستعمالها في مصر خاطبة . ومنها ، كتاب الادراك للسان الأتراك ، وكتاب ترجمان تركى وعربى ، وكتاب القوانين الكلية في ضبط اللغة التركية ، وكتاب المشتاق في لغة الترك والقبيجاك .

ويجب أن نضيف إلى ذلك أن أشرف الرومان الذين يطلق عليهم اسم « بويار » ،

وكثير من اشراف الأوكران والمجر وعائلاتهم المشهورة ، من أصل أترك كومان أو قبجاق وشجرة عائلاتهم معلومة بشكل لايقبل الشك . وأساسا فإن أسماء عائلاتهم أسماء تركية ويبلغ عدد هذه العائلات من الشرفاء الأتراك المئات .

وقد عثر علماء الآثار الروس في الحفريات ، خاصة تلك التى جرت فى أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٩ ، على آثار ثقافية وجماجم للكومان والقبجاق ، واثبتت الفحوصات الانثروبولوجية لهذه الجماجم - التى تمثل هيئة الشخص التركى قبل اختلاطه بالمغل وتشكيله نوعية أترك الشمال الحالية - بأنها خالية بصورة قطعية من أى أثر من آثار الهيئة المغلية كمشق العين وبروز الوجنة وشكل الأنف . وثبتت الأدلة التاريخية أن بشرتهم ناصعة البياض ولون شعرهم اشقر فاتح ، كما عثر العلماء المجريون فى عام ١٩١٣ على آخر شخص كومانى مسيحي (كاثوليكي) لم ينس التركية ، وقد أصبح هذا الشخص موضوعا لفحوصات طويلة الأمد للعلماء المجرين . كان الكومان - قبجاق ، مع كونهم مسيحيين ، لايزالون ينطقون بالتركية بصورة عامة فى القرن ١٦ الذى فتح فيه العثمانيون المجر .

(١٦) الأدب التركى قبل الإسلام

يقال إن بعض الاشارات الموجودة على قبر « الرجل ذو اللباس الذهبى » (القرن ٥ ق م) هى الشكل البدائى لأبجدية كوك ترك . ويرجع الهيكل العظمى الذى سماه علماء الآثار « الرجل ذو اللباس الذهبى » إلى أمير تركى أخرجه الروس مؤخرا من قبر يقع على بعد ٥٠ كم عن قبر آما آتا الموجود فى كازخستان . وهو هيكل عظمى مكسو بزينة ذهبية لرجل شاب ، والحروف التى يدعى أنها تركية ، منقوشة على الصحن الفضى الموجود بجانبه .

يطلق على أول كتابات تركية جدية اسم « كتابات ينسى » Yenisey Kitabeleri وقد عثر عليها بكثرة فى شمال جبال الطاي وكلها تقريبا كتابات حجرية قصيرة ، يعود أقدمها إلى القرن الميلادى ٥ ، وقد كتبت بلهجة كوك ترك وبأبجدية كوك ترك .

ومع ان أبجدية كوكترك قاصرة من ناحية الأحرف الصوتية بالنسبة للتركية (لها ٤ أحرف صوتية بينما التركية تحتوى على ٨ أحرف صوتية ، وإن كان المستعمل

في التركية التي تكتب بالأحرف العربية ٣ أحرف صوتية فقط) إلا أنها أبجدية غنية تحتوي على ٣٨ حرفا . يقول عالم اللغة التركية الجرى Rasonyi عن هذه الأبجدية مايلي : « إن نظام كتابة كوكترك ذات أهمية كبرى من الناحية الصوتية (اللفظية) Phonetic ولا يمكن أن يضع هذا النظام إلا أشخاص يفكرون بعقلية علمية . وفي هذا دليل واضح على أن للأتراك القدامى ثقافة راقية » .

يبرز أمانا التاج الأول في الأدب التركي الذي يمكن أن يقال عنه إنه أدبي بما تعنيه هذه الكلمة من معنى كتاج مبدع فريد . وهو لا يزال حتى الآن من أبداع الآثار الكتابية المهررة في اللغة التركية في جميع الأزمنة . كتب هذا التاج على ٣ قطع حجرية يبلغ ارتفاع كل منها ٣/٧٥ متر - تسمى كتابات كوكترك أو كتابات أورهن .

لم يتمكن أحد خلال سنوات طويلة من قراءة هذه الكتابات ، وفي النهاية تمكن رئيس أكاديمية العلوم الدغماركية العالم في اللغة التركية Wilhelm Ludvig Pefer Thomsen (١٨٤٢ - ١٩٢٧) من حل أبجدية كوكترك عام ١٨٩٣ فقرئت وترجمت ثم نشرت . ثبت ثومسن أولا كلمات « تنكري » (Tonri إله) ، « ترك » و « كل تكين » Kul Tegin التي تتكرر بكثرة ، ثم تمكن من حل جميع الأبجدية ، وتعد قراءة نصب كوكترك مرحلة جديدة في تاريخ علم الآداب التركية . يسرد في هذا النصب خدمات خاقانات كوكترك بلغة نثرية متينة جدا مؤثرة جدا وبحكمة وبتعبير ملحمي قصصي وبمنظرة وطنية لانكاد تصدق بالنسبة لذلك العصر . أما القطع الشعرية للفترة غير الإسلامية التي توفرت فقد جمعها رشيد رحمتي آرات في مجلد كبير باسم Eski Türk Siiri أى الشعر التركي القديم (انقرة ١٩٦٥) .

أما القطع الأدبية التركية التي عثر عليها في تركستان الشرقية (تركستان الصين) والتي تعود للعهد الأويغري ، فتبلغ المئات ، ولم تعد تقتصر على الكتابات الحجرية ، فهي مكتوبة على الورق أو مطبوعة ، حيث أن أتراك أويغر ، هم مكتشفو أو مطورو الورق والطباعة .

استعملوا كذلك في طباعتهم الأحرف المتحركة والتي تبين أنهم تقدموا في طريقة الطباعة بالكلاش الخشبية التي استعملها الصينيون . وقد انتشر الورق الذي صنعه الأويغريون في العالم الإسلامي عن طريق سمرقند واحتل مكان الجلود الحيوانية .

ترك الأويغريون ، الذين هم في ذات الوقت أساتذة كبار في فن نحت التماثيل والرسم ، أبجدية كوكترك ، واستعملوا الأبجدية التركية الاخرى التى تسمى الأبجدية الأويغرية . وهى الأبجدية الثانية التى استعملها الأتراك قبل استعمالهم الأحرف العربية .

(١٧) الأتراك في الهند

أسس الأتراك قبل الإسلام امبرطوريتين في الهند . دولة كشان Kusan (٣ - ١٧٦ ب.م) ودولة آقهون Akhun (٤٩٦ - ٥٦٧ ب.م) كانت الدولة الثانية أكثر اتساعا وتسيطر ، بالإضافة إلى شمال شرق الهند ووادي الكنج ، على تركستان كذلك . وهم أقوام شمال آسيا الذين نزلوا إلى الجنوب بقيادة قسم من امراء الهون عند فقدان الآقهون والهون عرش الخاقانية التركية الكبرى في شمال آسيا . قائدهم الشهير هو تورامان Toraman .

(١٨) الأتراك في الصين

الصينيون ، هم الجار الكبير للأتراك قبل الإسلام . ويمكننا أن نقول ببعض المبالغة ، إن التاريخ العسكرى - السياسى التركى قبل الإسلام ، عبارة عن صدام تركى - صينى ؛ فالأتراك الرحل المنظمون جدا من الناحية العسكرية والمجهزون بأسلحة معدنية وخيالة متفوقة ، أزعجوا الصين من الشمال عصورا طويلة ، واستمر تدفق ملايين من الأتراك إلى الصين منذ قبل أربعة آلاف سنة ولمدة ثلاثة آلاف سنة ، فسكنوا فيه ، وبعد عدة أجيال نسوا لغتهم وأصبحوا صينيين . لكنهم تركوا في الصين تأثيرات كبيرة .

إن الدم التركى الشمالى ، هو الصفة المميزة التى يتميز بها طابع الصينى الشمالى عن طابع الصينى الجنوبى . ولقد اقتبست الصين من الأتراك التشكيلات العسكرية ، الفروسية ، الأسلحة وعناصر ثقافية كثيرة أخرى قبلها الصينيون وهضموها بمهارة فائقة ، ومن المعلوم أن قسما من السلالات الامبراطورية الصينية الحاكمة ذات أصل تركى وأشهرها سلالات جو Cu (١١١١ ق . م - ٢٥٦) ، جى Ji (٤٧٩ - ٥٧٧) ، توبا Toba (Wei بالتركية تابغاچ Tabgaç) (٣٨٦ - ٥٥٦) ، شا -

Hsia (١٠٣٨ - ١٢٢٧) .

(١٩) الأتراك في الوقت الحاضر

قد نجد بعض الفائدة إذا ما استعرضنا في عدة جمل مختصرة وضع الأتراك الذين قدمنا خلاصة لتاريخهم لما قبل الإسلام تحت العناوين السالف إيرادها - في عالم اليوم (١٩٨٥) .

عندما نقول اليوم « تركى » ، نفهم من ذلك أنه الشخص الذى ينطق باللغة التركية (أية لهجة من لهجاتها) ، ولاندخل في مفهوم كلمة « تركى » ، من لا يتكلم التركية كلغة أم أساسية له . ومن الطبيعى أن دم ملايين من الأتراك موجود في الصين ، الهند ، روسيا والعالم العربى ، لكن هؤلاء صهروا في بنية أقوام تلك الأقطار ونسوا لغاتهم وثقافتهم .

إن اللغة التركية اليوم (١٩٨٥) ، في المرتبة ١٠ بين لغات العالم التى تتكلم كلغة أم أساسية (وحسب التسلسل : الصينية ، الهندية ، الانكليزية ، الأسبانية ، العربية ، البنغالية ، الروسية ، البرتغالية ، اليابانية ، التركية ، ثم الألمانية ، الايطالية ، التلوجوية ، الفرنسية ، التاميلية ، الكورية ، البنجابية ، الفيتنامية ، السيامية . هذه هى اللغات التى ينطق بها أكثر من ٥٠٠ مليون شخص كلغة أم أساسية) . إن اللغة الأم لما يقرب من ١٢٥ مليون نسمة هى التركية (إحصاء بداية عام ٩٨١ ، ١١٣٢٨٨٠٠٠ نسمة ، توزيعهم بالنسبة للقارات كما يلى : ٩٣٠٤٠٠٠٠ آسيا ، ١٩٠٠١٠٠٠ أوروبا ، ٧٨٥٠٠٠ أمريكا الجنوبية ، ٢٠٢٠٠٠ أمريكا الشمالية ، ١٣٠ ٠٠٠ أوقيانيا ، ١٠٠ ٠٠٠ أفريقيا) . وهى حاليا لغة أم لـ ٢١ مليون شخص في أوروبا ، وهى العاشرة بين اللغات التى تتكلم في أوروبا (وبالتسلسل بعد الألمانية ، الروسية ، الايطالية ، الانكليزية ، الفرنسية ، الاوكرانية ، البولونية ، الاسبانية ، والرومانية) .

إن ٤ / ٥١ مليون نسمة من الأتراك تقريبا ، هم في تركيا اليوم (١٩٨٥) . يتكلم هؤلاء ، اللهجات التى تسمى « التركية العثمانية ، تركية الاناضول ، تركية تركيا » . إن تركيا التى استعملت الأحرف العربية حتى نهاية ١٩٢٨ ، وافقت على

استعمال الأحرف اللاتينية في هذا التاريخ . يعمل عدة ملايين من رعايا الجمهورية التركية خارج تركيا ، وعلى رأس هؤلاء ٢/٢ مليون تركي يقيمون في ألمانيا الغربية ، وفي هولندا مايزيد على الـ ٢٠٠ ألف ، وفي النمسا مايزيد على الـ ١٠٠ ألف ، وفي فرنسا مايزيد على الـ ١٣٠ ألف شخص ، كما يوجد عدد غير قليل من العمال الأتراك في ليبيا والعربية السعودية وأستراليا وكندا والولايات الأمريكية المتحدة .

أما في البلقان فقد قل فيها كثيرا عدد الأتراك ، ويبلغ حاليا تعداد الأتراك الذين يحملون الجنسية التركية والذين تركتهم العثمانية في تلك الدول كالاتي : في بلغاريا نحو نصف مليون ، وفي رومانيا ٤ ، من المليون ، وفي يوغسلافيا ٤ ، من المليون ، وفي اليونان ٢ ، من المليون ، وفي البانيا ١ ، من المليون . ويضاف إلى هؤلاء ٢ مليون تركي في شمال قبرص . كل هؤلاء تقريبا يتكلمون اللهجة التركية ، ولهجة الـ ١/٢ مليون تركي الموجودين في العراق كذلك قريبة جدا من اللهجة التركية .

أما القطر الذي يلي تركيا في من حيث تواجد الأتراك ، فهو الاتحاد السوفيتي ، ففيه مايقرب من ٤٩ / ٤ مليون نسمة تنطق بالتركية . اللهجة الرئيسية هي لهجة الاوزبكيين (١٥ مليون) ثم القوزاق (٨ / ٤ مليون) التاتار (٧ / ٣ مليون) ، الآذريين (٦ / ٦ مليون) ، القرغز (٣ / ٣ مليون) ، التركمان (٢ / ٦ مليون) ، الجاوش (٢ / ١ مليون) ، الباشقرط (١ / ٧ مليون) والآخرون ، وبعد ان جربوا الأبجدية اللاتينية لعدة سنوات ، استعملوا حاليا الأبجدية السلافية (الروسية / الكيريلية) وذلك بعد أن كانوا يستعملون الأبجدية العربية . إن أقرب اللهجات إلى لهجة تركية تركيا من بين هذه اللهجات ، هي اللهجة التي يتكلمها الآذريون (الاذربيجانيون) . يسكن أترك الاتحاد السوفيتي في تركستان الغربية ، والجماعة التي نسميها أترك الشمال (التاتار ، الباشقرط ، الجاوش الخ) في سواحل نهر الفولغا وأورال وفي قفقاسيا الجنوبية . ويوجد أترك متفرقون في عدد غير قليل في المناطق كقفقاسيا الشمالية وسيبيريا .

يسكن الأتراك في الصين في تركستان ، عدا صاري أويغرلر (الأويغر الصفر) الموجودين في قانصو . يوجد ١١ / ٩ مليون تركي (٩ / - مليون قوزاق ، ١ / - مليون صاري أويغر ، ١ / - مليون قرغز ، البقية أويغر) .

وتأتى إيران بعد تركيا والسوفييت في وفرة عدد السكان الأتراك (١٦/٦ مليون تقريباً) . لهجتهم قرية جدا للهجة تركيا .

على الأقل فإن خمس الـ ٥/٤ مليون تركى الساكنين في منطقة تركستان الجنوبية من الأفغان (تركستان الأفغان) ، لاجئ في باكستان . وهم أوزبك وتركمان ومنهم قرغز . ولم يبق في الأقطار الأخرى أترك من الذين حافظوا على لغتهم الا القليل (في سورية ١٣٢٠٠٠ ، في العربية السعودية أكثر من ١٠٠ ألف تركستانى وأكثر من ١٠٠ الف عامل تركى ، في الاردن ٥٥٠٠٠ ، في لبنان ٩٠٠٠ ، في مغلستان ١١٠٠٠٠ قوزاق .. الخ .) .

إن الأتراك مسلمون سنيون - حنفيون وجميع الأتراك تقبلوا المذهب الماتريدى . ولأن الخلفاء العباسيين حنفيون ، فقد تقبل الأتراك كذلك هذا المذهب . وأصبح المذهب الحنفى علماً للأتراك في العالم الإسلامى . إن السكان التابعين للمذهب الحنفى والذين لم تبق لهم اليوم علاقة بالأتراك ، الموجودين في أقطار عديدة ، إما أنهم ينحدرون من عائلات تركية الأصل ، أو إنهم يشكلون شاهداً على ان الدين الإسلامى دخل إلى ذلك القطر على يد الأتراك . ويندر من بين الأتراك اتباع المذهب الشافعى ، وإن عثر عليهم ، فإن تدقيقاً بسيطاً في أنسابهم يدلنا على أنهم ينحدرون من أصل عرقى وكردى .

يشاهد الشيعة لدى أترك الغرب ، ولا يشاهدون لدى أترك الشرق (تركستان والشمال) . إن معظم أترك إيران شيعة جعفريون . ويوجد في الأناضول أترك علويون .

قل كثيراً اليوم ، عدد المجتمعات التركية التى لم تعتنق الدين الإسلامى بعد ، والتى ظلت بعيدة عن العالمين الإسلامى والتركى وهى : ثلاثة ارباع أترك جواش çuvas (نحو ١/٥ مليون) مسيحيين أرثوذكس . ونحو نصف مليون من أترك ياقوت ، شامانى أو مسيحي أرثوذكسى . ونحو ٢٠٠ ٠٠٠ من أترك غيغاوز Gaygavuz وهم مسيحيون أرثوذكس ، وقد كان الذى يقدم منهم إلى تركية ، يهتدى إلى الإسلام . وعدا هؤلاء نجد أن الأقوام التركية في سيبيريا (تورا Tura ، القطايل Altayli ، تلوت Teleut ، شور Sor) ، شامانيون (نحو ٣٣٥٠٠٠)

ونحو ٧٠٠٠ تركى قرمى الذين يطلق عليهم اسم قرايم Karaim ، موسويين .
الاويخريون الصفر بوذيون (نحو ١٠٦٠٠٠) . وهناك كذلك نحو ألف أو ألفين
من الأتراك الكاثوليك فى بولونيا ولتوانيا . ويمكننا أن نقول إن مجموع الأتراك غم
المسلمين من بين الـ ١٢٥ مليون تركى ، يبلغ ٢,٦٥٠,٠٠٠ شخص .



الباب الثاني

فترة بعد الإسلام

(٢٠) اعتناق الأتراك للإسلام

اجتاز الأمير الأموي قتيبة بن مسلم ، نهر عمودريا (بالعربية : جيحون) ودخل تركستان وفتح بخارى في سنة ٧٠٩ ، وسمرقند (التي دافع عنها أتراك كوكترك بشدة) في ٧١١ . صار الأتراك وجها لوجه أمام قوم جدد ، أمام العرب ، لكن الأهم من ذلك أمام دين جديد ذاع صيته وطفى على العالم أجمع .. أمام الإسلام . كانت المواجهة شديدة في البداية ، ثم سلسلت بعد ذلك ، إذ ليس لدى الأتراك تعصب مسبق تجاه الأديان الجديدة . وعندما أصبح الأمير العباسي زياد بن صالح - الذي ابتعد عن قاعدته مسافة كبيرة - في وضع عصيب أمام الجيش الصيني في تالاس Talas عام ٧٥١ ، لم يتردد الجيش التركي الذي أدركه ، في أن يأخذ مكانه ضد عدوه التقليدي الصين والانضمام إلى صفوف الجيش الإسلامي . وقد خلص انتصار Talas تركستان من الاستيلاء الصيني وفتحها للدين الإسلامي وأمن التقارب العربي - التركي الذي سبب انتشار الدين الإسلامي في تلك الامصار .

لفتت قيمة الأتراك كجنود انظار العرب . وعند اضمحلال الحكم الأموي في خراسان ، انماز الأتراك كالإيرانيين إلى الجانب العباسي . إذ أنهم كانوا قد نفروا من سياسة الأمويين العنصرية . أما العباسيون ، فقد عاملوا المسلمين كافة بالتساوي ولم يفرقوا بين عربي وغير عربي . جاء إلى بغداد أتراك كثيرون . وانضموا إلى جيش

الخليفة الخاص كجنود اجراء ، وارتقى بعضهم إلى مرتبة أمير الأمراء وقيادة الجيش في دولة الخلافة الإسلامية وقدم خدمات مهمة . وقد اعتمد بعضهم على قوته العسكرية ، وحاول التحكم في الخلفاء العباسيين اعتبارا من القرن ٩ . اسلم الأتراك الذين جاءوا إلى أقطار الخلافة والذين عاشوا فيها ، وبهذا يكون قد انضم إلى الاسلام بشكل أو بآخر قوم جدد ذوو مقدرة عسكرية متفوقة ، ولكن الكتلة التركية الأصلية الكبرى التي كانت تقيم في الدولة التركية ، بقيت محافظة على ديانتها القديمة .

اشترك الأتراك ، في الانجازات العلمية والفنية للدين الاسلامي ، وأخذوا مكانهم في الحضارة والثقافة العربية الإسلامية في القرون الوسطى . ونستطيع أن نشير إلى بعض هؤلاء الاعلام ممن ينحدرون من أصل تركي ، كالفيلسوف الفارابي ، اللغوي جوهرى ، الشاعر صولى والشاعر بشار . يقول المؤرخ الالماني فون قره باجاق مايلي : « إن إعتناق الأتراك الدين الاسلامي وظهورهم على مسرح التاريخ كعنصر إسلامي بدأ كظاهرة محدودة الأهمية في البداية ، ثم احدثت هذه الظاهرة ذلك التأثير العظيم ، الذى لا مثيل له تقريبا في التاريخ العالمى » .

أعلن الخاقان - الأكبر قره خانلى ساتك بغرا خان ، الذى سمي نفسه « عبد الكريم » واعتلى العرش في ٩٢٤ - أن الدين الإسلامى (السنى - الحنفى والمذهب الماتريدى) هو الدين الرسمى والوحيد للخاقانية والسلالة التركية . وكان هذا الحادث هو إحدى نقاط التحول لا في التاريخ التركى الإسلامى فحسب بل في التاريخ العالمى من جهة التطورات والآثار المستقبلية .

ويذكر التاريخ ظهور سلالات تركية حاكمة في أقطار كمصر واذريجان تعترف بتبعيتها للخليفة العباسى . لكن قبول الدولة التركية الأصلية والكتلة التركية الكبرى للدين الإسلامى بصورة قطعية ، كانت مسألة تختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، فقد انتشر الإسلام بين أتراك آسيا الوسطى بسرعة فائقة وفجأة إلى درجة ، لم يبق معها في ربيع القرن الذى يلى عام ٩٢٤ إلا عدد قليل من الأتراك ينتسب إلى أديان كوكترى ، البوذية ، المسيحية ، المانوية والشامانية ، وهؤلاء ، هم الكتل التى بقيت بعيدة عن العالمين التركى والإسلامى ، أما أتراك أوروبا الشرقية فقد بقوا مصرين على ديانة كوكترى لعدة قرون أخرى . وهذا مما سبب انصهارهم على نطاق واسع ضمن الأقوام المسيحية .

(٢١) القرة خانيون (٨٤٠ - ١٠٤٠)

تسلمت سلالة قره خانلى وهى فرع آخر من سلالة منه ، عرش الخاقانية - الأكبر مكان سلالة اويغر (دوقوز - اوغز - اون - اويغر) . وإذا كانت هذه السلالة لم تتمكن من تأسيس امبراطورية تحتوى على كامل آسيا الشمالية ، على غرار الهون وكوكترك . إلا أنها أثرت على التاريخ التركى والعالمى من ناحيتين : الأولى اعتناق الدين الإسلامى كدين رسمى وحيد للأتراك ، كما أسلفنا وبذلك ، حصل الإسلام على قوم جدد ورقة جغرافية كبيرة . والثانية ، تحويل مركز ثقل الدولة التركية إلى تركستان الحالية ، وعلى الأصح إلى تركستان الشرقية . وبذلك ، فإن الأتراك بينما كانوا حتى عام ٨٤٠ ، من ناحية مركز الثقل ، يمتدون إلى أقوام الشرق الأقصى ، أصبحوا بعد هذا التاريخ من أقوام آسيا الوسطى بصورة تامة . ولم تكن تركستان الحالية حتى ذلك القرن ، بلادا تركية صرفة كما هى الآن ، فقد كان الأتراك يعيشون فيها بصورة مختلطة مع الأقوام الإيرانية ، ومع انهم عناصر حاكمة فى عدة مناطق ، لكنهم كانوا أقلية من حيث العدد . وعندما بدأ أتراك مغلستان الحالية بالهجرة إلى تركستان بادئين من الشرق ، بدأت تتكون فى هذا القطر الكبير ، أكرية تركية . إن قبر عبد الكريم ساتك بغراخان الذى اعتنق الدين الإسلامى موجود فى كاشغر (٩٠١ - ٩٥٥ ، جلوسه ٩٢٤) .

احتل أرسلان ايليغ خان ، (وفاته ١٠١٣) من السلالة ذاتها الذى يحمل اسم نصر ، الإسلامى ، بخارى فى ٢٣/١٠/٩٩٩ وانهى الحكم الإيرانى فى تركستان بصورة حاسمة . وأزال الدولة السامانية من الوجود ، وسيطر الأتراك على مدنهم الكبيرة كسمرقند وبخارى وعلى ماوراء النهر ووقفوا عند حدود خراسان .

وفى عهد القرة خانيون ، شارك فى الأدب الإسلامى بلهجة الخاقانية ، الأتراك الذين يملكون أدبا غير إسلامى غنى بلهجات كوكترك واويغر .

(٢٢) بداية الأدب التركى الإسلامى

ترك القرة خانيون الابجدية الاويغرية ، وبدعوا بكتابة التركية بالأحرف العربية ، وبذلك بدأت دورة دامت ألف عام فى كتابة اللغة التركية بالأحرف العربية ،

ودخلت إلى اللغة التركية آلاف الكلمات الفارسية وخاصة العربية ، وأهملت آلاف الكلمات التركية واستعملت مكانها كلمات من هاتين اللغتين ، وهكذا تكونت التركية الحالية .

إن وزن العروض العربى فى الشعر ، اقتبس عن الإيرانيين ، واتخذ الشعر الإيرانى نموذجاً فى الشعر . وقد استعملت اللغة العربية فى المؤلفات العلمية والدينية ، وأصبحت هى لغة التدريس فى المدارس (الدينية) التركية . وهكذا دخل الأتراك فى الحضارة الإسلامية - تلك الحضارة التى تميزت برقيها فى القرون الوسطى - بكل ما يملكون من طاقة وإخلاص .

إن أول شاعر تركى كبير معروف ، هو يوسف خاى صاحب ، اكمل ملحمة الشعرية الفلسفية المكونة من ٧٠٠٠ بيت ، المسماة Kutadgu Bilig فى سراى كاشغر عام ١٠٧٠ . وضع فيها حكمة وفلسفة الدولة التركية . أما محمود كاشغرى (أحد أمراء قرة خاى) فقد توخى فى مولفه باللغة العربية المسمى « ديوان لغات الترك » تعريف العرب بصورة موسوعية باللغة التركية وبالثقافة التركية . وقد تم تأليف هذا الكتاب الذى يعتبر من الروائع الكبيرة المعروفة فى الثقافة التركية ، فى الفترة من عام ١٠٧٢ - ٧٧ ، وقدم إلى الخليفة المقتدى فى بغداد .

إن هذا النتاج الذى ظهر نحو عام ١١١٠ ، يشكل المرحلة الكبيرة الثانية بعد « كتابات أورهم » فى تكوين وتطوير علم اللغة التركية .

ودخل الأتراك كذلك فى التصوف الإسلامى وتعصقوا فيه ، وكونوا عدة طرق صوفية . ومن يذكرون فى هذا المجال الخواجة أحمد يسوى الذى نشأ فى جنوب قازاخستان الحالية (وفاته ١١٦٦) ، فقد استطاع أن ينشر بواسطة اشعاره التصوفية ذات اللغة التركية الواضحة - الدين الإسلامى بقدر فائقة بين الأتراك الرحل . وأصبح المؤسس الحقيقى للطريقة اليسوية والتصوف التركى .

ترك القرة خانيون عرش الخاقانية الأكبر إلى السلجوقيين فى ١٠٤٠ وتبعوا السلاجقة . وفى ١٢١٢ ، لم يكن لديهم سوى وادى فرغانة فقط . ثم ازيموا منه خلال مدة قصيرة . وانتهى دورهم التاريخى .

(٢٣) ولاية وحكام الأتراك في مصر (٨٤٥ - ٩٦٩)

كان في مصر قبل الطولونيين (٨٤٥ - ٨٦٨) ، ٦ ولاية عباسيون من أصل تركي ، جاء هؤلاء في البداية إلى مصر مع الوحدات التركية ودخلوا في خدمة الولاة العرب ثم طلبوا مقام الولاية من الخليفة بقدراتهم العسكرية وحصلوا عليه ، ٣ منهم اخوة وأبناء ، وبذلك تظهر أول محاولة لتأسيس سلالة حاكمة . أولهم عتاق (تركي) ، يليه فتح بن خاقان بن أرتق (تركي) . ثم اقتدى بهما احمد بن طولون ، الذي حاز اعجاب الخليفة كمسكري بعد أن تلقى ثقافته في سراى بغداد على النمط العربي بصورة جيدة ، وأصبح والياً على مصر . سيطر على فلسطين وسوريا مع لبنان . وقد فتح أحمد بن طولون لنفسه ولجياؤه عهداً لامعاً استمر حتى ٩٠٥ . تابعاً للعباسيين بالاسم ، ثم استعاد العباسيون مصر من بنى طولون عام ٩٠٥ .

وفي ٩٣٤ ، نجد تركيا آخر هو محمد بن اخشيد الذي صار والياً عباسياً على مصر وأسس سلالة حاكمة جديدة قضى عليها الفاطميون العرب الشيعة - الاسماعيليون القادمون من شمال افريقيا (المغرب) في ٩٦٩ . حيث انفصلت مصر عن العالم السني العربي - الإسلامي وعن خلفاء بغداد وظلت تحت إدارة شيعية إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي .

وخلال ٨٩٢ - ٩٣٠ ، أسس الساجيون (بالعربية : بنى ساج) الأتراك الأصل في أذربيجان وأرمنية سلالة حاكمة صغيرة تحت سيادة العباسيين .

(٢٤) الغزنويون Gazneliler (٩٦٢ - ١١٨٧)

في سنة ٩٦٢ احتل تركي اسمه آلب تكين قلعة غزنه التي بقيت حالياً لدى افغانستان ثم أصبح أحد خلفائه المدعو سفوك تكين (سلطنته ٩٧٧ - ٩٩٧) المؤسس الحقيقي للدولة وأخذ الافغان الحالية واجتاز ممر خيبر واخذ يهدد أبواب الهند .

يرجع تاريخ دخول الدين الإسلامي إلى الهند إلى عام ٧١١ عندما فتح محمد بن القاسم اقليم السند ، إلا أن محمد بن القاسم لم يتمكن من اجتياز نهر السند (Indus) إلى مسافات بعيدة . وقد اهتدى إلى الإسلام بعض الاهالي المهليين من

شعب بلوچستان والسند الحاليه . لكن الذى ادخل الدين الاسلامى إلى القارة الهندية باقتدار ، هو سفوك تكين وابنه سلطان محمود غزنوى .

حاول السلطان محمود (٩٩٨ - ١٠٣٠) بسط سيادة الخليفة العباسى ونشر المذهب الحنفى - السنى فى تلك المناطق بشكل تام ، وأبدى فى نفس الوقت تشددا مع الإيرانيين الشيعة ، والسلطان محمود كالعثمانيين من بكّات قبيلة قابى الاغوزية ، وقد تأثر تأثرا كبيرا بالثقافة الايرانية ، ولم يكن على الثقافة التركية الخالصة كالقرا خانيين . كان هو الذى طلب من الفردوسى كتابة « الشهنامة » . ولم يلق عنده الفردوس قبولا حسنا ، لأنه أشاد فى مؤلفه بانتصار الشهنشاهات الايرانيين على خاقانات الاتراك . حمى السلطان محمود ، الشعراء والمؤلفين الكبار الآخرين الذين يكتبون بالفارسية والذين ينتمى بعضهم إلى الأصل التركى . وقد استعمل السلطان محمود اللغة الفارسية فى الأدب والعربية فى المكاتبات الرسمية والعلوم . وكانت التركية لغة السراى والجيش .

احتل محمود الغزنوى مدينة بهشاور سنة ١٠٠٠ . وفى السنة التالية ، فتح بنجاب بعد إبادة الجيش الهندوسى المكون من ٤٢٠٠٠ جندى و ٣٠٠ فيل ، وحاز على لقب « غازى » . وفى حملته الهندية العاشرة . فتح وادى الكانج (البلاد التى سماها المسلمون « هندوستان ») ودلهى وأطرافها . وفى حملته ١٣ افنى جيشا هندوسيا مكونا من ١٥٠,٠٠٠ شخص واستولى على أكثر من ١٠٠٠ فيل حرى . وفى حملته ١٦ (١٠٢٥ - ٢٦) فتح كجرات ، وسيطر على نحو ٥ ملايين كم^٢ من الأراضى (ايران ، افغانستان ، ماوراء النهر ، باكستان الحالية ، ايلات الهند الشمالية - الغربية) . ثم تراجع الغزنويون أمام السلاجقة وحاولوا ابقاء ملكهم فى بنجاب ولاهور تحت سيادة السلاجقة ، لكن الدين الإسلامى كان قد دخل القارة الهندية فى عز قوته وبالمذهب الحنفى السنى ووضع الاساس الحقيقى لباكستان الحالية .

(٢٥) الدولة السلجوقية الكبرى

بنى سلجوق ، هم بكات قبيلة قنق Kinik المنحدرة من أوغز . كان قسم من الأوغز قد أسسوا دولة بين الخزر وآرال التى تسمى الوطن العلوى . ورث بنو سلجوق هذه الدولة وأصبحوا قادة كبارا (سوباشى) فى نهاية القرن ٨ ، وحوالى

عام ٩٩٠ أصبحوا ملوكا لها (Yabgu) . ولقد صد السلطان محمود الغزنوي هؤلاء السلاجقة الذين أسلموا حديثا والذين حاولوا النزول إلى العالم الاسلامي في الجنوب ، واستمرت مقاومة طغرل بك حفيد سلجوق بك واخيه جاغرى بك للغزنيين الذين قطعوا طريقهم . تمكن طغرل بك وأخوه من الوصول إلى الاناضول وجاهدا بغزواتهم ضد البيزنط وتمكنوا اخيرا من دحر الجيش الغزنوي المتفوق جدا في معركة دندانكان (١٠٤٠/٥/٢٣) الميدانية واستوليا على خراسان بصورة حاسمة . واتخذوا نيشابور عاصمة ، وبعد ان اجبرا كلا من الغزنويين والقره خانيين على الاعتراف بدولتهم كأكبر وأقدر دولة تركية ، حاربا الدول الإيرانية واستوليا على إيران وأصبح للدولة منفذ إلى البحر الابيض .

وبعد أن كسر الخاقان - الأكبر محمد طغرل بك (١٠٤٠ - ١٠٦٣) ، الدولة الشيعية البويهية في إيران وثبت أركان المذهب السني ، انتقل إلى العالم العربي . كان الخليفة يسكن منذ مدة طويلة جدا في بغداد تحت سيطرة الشيعة البويهيين ، ولما علم الخليفة « القائم » أن البويهيين يستعدون لاعلان خليفة البويهيين الفاطمي الشيعي في العراق ، خليفة في (القاهرة) ، أمر بتلاوة اسم السلطان طغرل بك بعد اسمه في الخطبة في بغداد (الجمعة ١٥ ك ١٠٥٥/١) .

قضى طغرل بك الذي قدم إلى بغداد بعد ١٠ أيام ، على السلطة الشيعية ، وأعلن الحرب على الإمام الفاطمي وأمر بتلاوة الخطبة باسم الخليفة العباسي واسمه هو في كل مكان ، وعين في بغداد واليا عسكريا تركيا . وأعلن أن الخليفة هو الرئيس الروحي لجميع العالم الإسلامي ، أما الحكم الديني فيعود إلى إدارة بني سلجوق . انتقل العالم العربي الشرق (المشرق) إلى الحكم التركي . وبذلك يكون قد انفتح دور الإدارة التركية في المشرق ، وسوف يستمر ذلك الدور تسعة قرون .

خلف السلطان طغرل بك ، ألب ارسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢) ، وابن اخيه الكبير جغرى بك ، وابن هذا سلطان مليكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) ، ثم أبناء هذا وعددهم ثلاثة هم : سلطان ركن الدين بركياروك (١٠٩٣ - ١١٠٤) سلطان محمد طاهار (١١٠٤ - ١١١٨) ، سلطان معز الدين سنجار (١١١٨ - ١١٥٧) .

ويمكن تلخيص سياسة الدولة السلجوقية العالمية ، على الوجه التالى ؛ دفع الشيعة إلى افريقيا ، وتوحيد العالم الإسلامى الآسيوى تحت النفوذ المعنوى للخليفة العباسى السنى ونفوذهم الإدارى وإزاحة البيزنط من آسيا إلى أوروبا والتواجد المستقر على البحر الأبيض . لم يتحقق أمل السلجوقيين فى اقتلاع الفاطميين الشيعة من مصر بسبب بدء الحروب الصليبية ، لكنهم أزاحوهم من سورية .

إن الامبراطورية السلجوقية التى تمتد غربا إلى استانبول وبوغاز جناتقلعه إلى بحرى مرمره وإيجه ، والجنوب - الغربى إلى برزخ السويس وإلى البحر الاحمر ، وجنوبا إلى المحيط الهندى وبحر عمان ، وشرقا إلى الهند الوسطى ، إلى حدود الصين ، وشمالا إلى سيبيريا والشمال - الغربى إلى جبال القفقاس ، استطاعت أن تؤسس بعد الامويين والعباسيين نظاما امبراطوريا متينا ، لكنها لم تتمكن من الانتقال إلى قارتى افريقيا وأوروبا . كان جيش الامبراطورية السلجوقية يبلغ مليون جندى يقوم على حماية سكان الامبراطورية البالغ عددهم ١٠٠ مليون نسمة يقيمون فى اراض تبلغ مساحتها ١٥ مليون كم^٢ ، من مآثر الامبراطورية السلجوقية انها نقلت تدريس العلوم الإسلامية العالية من المساجد إلى الجامعات التى أسسها السلاجقه وسموها « مدرسة » . وعلى الرغم من أن هذا النظام القويم سرعان ماتبدد ، فإن الكيان الأساسى لنظام الدولة السلجوقية استمر على يد الأيوبيين والعثمانيين ودول غيرها .

(٢٦) الخوارزم شاهيون Harezm - Sahlar (١١٥٧ - ١٢٣١)

خلفت الدولة السلجوقية الكبرى ، سلالة تركية أخرى هى الخوارزم - شاه . كانت حدودهم متواضعة جدا (إيران ، افغانستان ، ماوراء النهر) . واعتبارا من ١٠٩٧ ، وبعد انتهاء السلجوقية الكبرى بوفاة سلطان سنجر ، وكذلك بعد قضائهم على سلاجقة العراق ، أصبحوا خاقانات تركستان ، بينما كانوا ولاية سلجوقيين لخزم (خوارزم) . كانت قاعدتهم سمرقند . أرادوا إخضاع الخليفة العباسى لسلطتهم السياسية باتباعهم سياسة محمود الغزنوى والسلجوقية الكبرى وسلاجقة العراق . فصرفوا جهودهم فى نشر قوة الخليفة المعنوية والروحية لدى كافة المسلمين . ثم قضى عليهم المغول .

(٢٧) سلاجقة العراق ، سوريه وكرمان

أراد أبناء اخوة سلطان سنجر بعد وفاته ، إبقاء الدولة السلجوقية بصورة مستقلة باسم سلاجقة العراق (١١٥٧ - ١١٩٤) . قضى خوارزم شاه على سلاطين هذه الدولة التي تأسست في ١١١٧ .

سلاجقة سوريه (١٠٩٤ - ١١١٧) هم سلاطين بنى سلجوق الذين أسسوا حكمهم تحت سيادة السلجوقية الكبرى في سوريه ، لبنان ، فلسطين والاردن واتخذوا من الشام وحلب قاعدة لهم ، واستطاع فرع آخر من فروع السلالة السلجوقية ذاتها ابقاء سلطنتهم في كرمانيه في جنوب شرق ايران مدة قرن ونصف (١٠٤١ - ١١٨٧) .

(٢٨) الاتابكة Atabeyler

يطلق اسم « ملك » على الأمراء الأباطرة من سلالة السلجوقيين ، وقد كانوا يعطون كل ملك في طفولته لأمر تركي لتربيته عسكريا . وفي الحقيقة فإن بعض هؤلاء الأمراء ، أصبحوا على مر الزمن وباسم السلاجقة ، أصحاب دولة مستقلة . أشهرهم ايلدنيزليون Ildenizliler الذين يطلق عليهم اسم اتابكة آذربيجان (١١٤٦ - ١٢٢٥) ، بنو بوري الذين يطلق عليهم اسم اتابكة الشام (١١٠٩ - ١١٥٤) ، بنو بكتكين Beyteginliler الذين يطلق عليهم اسم اتابكة اربيل (١١٤٤ - ١٢٣٣) ، بنو سلغر Salgurlular الذين يطلق عليهم اسم اتابكة فارس (١١٤٧ - ١٢٨٧) ، بنو قطلغ - خان Kutlug - Hanlar (١٢٢٢ - ١٣٠٣) .

(٢٩) الزنكيون Zengiler (١١٢٧ - ١٢٦٢)

لاشك أن أشهر سلاطات الاتابكة هم اتابكة الموصل الذين يسمون الزنكيون ، ومؤسس السلالة هو عماد الدين زنكي ابن آقسنغر بك من أمراء السلاجقة من قبيلة آفشار الاوغزية . ولى حكم حلب والموصل في عهد السلاجقة في ١١٢٧ ، وحارب الصليبيين ونال شهرة واسعة . وابنه اتابك نور الدين محمود زنكي ، الذي

فاق شهرة ابيه بمجهاده ضد الصليبيين . اتخذ من الشام قاعدة له وأدام سلطنته (١١٤٦ - ١١٧٤) . كان صلاح الدين الأيوبي أحد ضباط الحرس الخاص لنور الدين زنكي .

أرسل نور الدين ، صلاح الدين إلى مصر مع جيش استطاع أن يسيطر به على مصر بدون قتال وانتهى الحكم الشيعي الذي دام قرنين وأمر بقراءة الخطبة باسم الخليفة العباسي . وبذلك انتهى العهد الفاطمي في مصر .

مات نور الدين في هذه الأثناء ، فأعلن صلاح الدين نفسه سلطانا على مصر مكان سيده . وبعد هذه الفترة تبع الزنكيون الأيوبيين ، وتسلم صلاح الدين الأيوبي سيف الجهاد بيده ، وابقى التشكيلات العسكرية والادارية السلاجوقية والزنكية ، وأسس دولة إسلامية مقتدرة . عادت الثقافة العربية والأدب العربي للازدهار مرة أخرى في العهد الأيوبي .

(٣٠) المغول

ظهر جنكيزخان في بداية العصر ١٣ . وهو ينحدر من سلالة أحد أمراء كوكترك الذين تمغلو ، كان فقيراً ، لكنه كان من أشرف المغول . سيطر على مغولستان وآسيا الوسطى . استولى على بكين وفتح امبراطورية الصين الشمالية . وبعد أن زحف على الشرق الأقصى بجيش مدهش من الخيالة مكون من المغول والأتراك الذين لم يدخلوا الإسلام بعد ، وصل في سنة ١٢٢٠ إلى حدود خاقانية تركستان (التابعة للخوارزم شاهيين) ثم إلى الحدود الشرقية للدولة الإسلامية . جرى قتال عنيف ، انكسر فيه الأتراك ، وانهزم جلال الدين خرمز - شاه إلى حدود الاناضول ، وانتقلت تركستان وليمران لحوزة المغول المشركين .

استمرت السلالة من نسل أولاد جنكيز الأربعة وأبنائهم .

سيطر المغول تقريباً على كامل قارة آسيا عدا اليابان والهند وتقريباً على كامل أوروبا الشرقية . كان المغول في عام ١٢٩٤ ، يحكمون دولة تتسع حدودها اتساعاً لم يحدث لاية دولة أخرى في التاريخ . ولما كانت مساحة الاقطار المكتشفة في العالم حينذاك تبلغ ٦٤ مليون كم^٢ ، فقد كان المغول يملكون ٤٤ مليون كم^٢ منها . وكان يقدر سكان هذه الأراضي بـ ٣٠٠ مليون نسمة (كان تعداد فرنسا في السنوات ذاتها

١٠ ، انكلترا ٢ مليون) . ومع ذلك لم يكن للدولة المغولية دور بنفس درجة الدول التاريخية العالمية (العظمى) كإمبراطوريات روما أو الخلافة العربية العثمانية أو بريطانيا العظمى ، ذلك أن المغول الذين اعترفوا لغاية ١٢٩٤ (ولو نظريا) بكهان - كبير Buyuk - Kaan (إمبراطور كبير) ، تفرقوا بعد هذا التاريخ إلى دول منفصلة ، فقد تصبى الفرع الصينى (أصبح صينيا) ، بعد أن أصبح بوذيا وانسحب منهم قسم آخر إلى مغولستان وتمكن من الحفاظ على مغوليته ، أما أقوام تركستان التى تسمى جغتاي ، وأوربا الشرقية التى تسمى جوجى أولووصو والطون اوردى وفرع ايزان الذى يسمى ايلخانلى ، فقد انصهرت جميعا ضمن الكتل التركية الكبرى الموجودة فى هذا القطر ، ونسيت اللغة المغولية وأصبحت تنطق بالتركية وصارت مسلمة سنية - حنفية كالأتراك . جاءت كل تركية كبيرة إلى تركستان على عهد المغول وبسبب استتراك المغول ، أصبحت البلاد قطرا تركيا تاما ، ذلك بالإضافة إلى أن المغول ساقوا ملايين الأتراك أمامهم إلى إيران والأناضول ولعبوا دورا هاما فى تترك هذين القطرين .

وفى ١٢٥٨ ، احتل هولاكو حفيد جنكيز وأول حكام السلالة المغولية الإيرانية التى تسمى ايلخانية ، بغداد وقضى على الخلافة العباسية .
لجأت الخلافة العباسية إلى القاهرة .

ولا ينسب التاريخ الإسلامى والتركى والعثمانى لهؤلاء المغول المشركين هدمهم المدن الإسلامية الكبرى ومقاموا به من مذابح ومأجروه من تخريب للمراكز الثقافية سواء التركية أو العربية ولئن كان إسرارهم فى اعتناق الدين الإسلامى واستتراكهم ، قد جعلهم يشاركون كعنصر جديد فى الحضارة والثقافة الإسلامية ، ألا أن مقاموا به من تخريب لم ينسه التاريخ حتى الآن .

(٣١) الإيلخانيون Ilhanilar (١٢٥٦ - ١٣٤٤)

اعتنقت سلالة هولاكو التى تسمى ايلخانلى ، الدين الإسلامى بشكل قطعى فى ١٢٩٥ . ويقال عنهم مغول إيران كذلك .

أخذت هذه السلالة سلاجقة تركيا (الأناضول) تحت سيادتها ، ودخلت فى صراع جغرافى - سياسى واسع النطاق ، سواء مع ممالك مصر أو مع التون اوردى

الذى دخل الإسلام قبلها . وفى ١٣٤٤ ، تركوا سلطنتهم إلى الجلائريين Celayiriler وهى سلالة مغولية مستركة مثلهم ، وانتقل كامل العراق مع ايران من الایلخانين إلى الجلائريين .

(٣٢) التون اوردی ALTınordu (١٢٢٣ - ١٥٠٦)

تسمى الدولة التى أسستها سلالة جوجى خان ابن جنكيز الاكبر فى أوربا الشرقية باسم التون اوردی وتعنى الجيش الذهبى .

دخل بركة خان ابن جوجى الإسلام منذ ١٢٥٧ وسبق هذا الفرع ، الفروع الأخرى فى الهداية واستترك . وحكم كامل روسيا الأوربية الحالية والبلقان وقسما من أوربا الوسطى . وفى الربع الأخير للعصر ١٤ ، دخل فى صراع كبير مع تيمور ، فخسر وتقلصت دولتهم واندثرت .

تكونت على أراضيهم عدة امارات (خانلق) تركية واستفادت امارة موسكو - الكبرى من هذا الوضع وبدأت فى التوسع .

(٣٣) جغتای çagatay (١٢٢٧ - ١٨٧٠)

حكمت سلالة جغتای خان ثانى أبناء جنكيز ، تركستان وسيطرت عليها حتى ظهور تيمور فى ١٣٧٠ . ثم انسحبت إلى تركستان الشرقية وبقيت هناك عصورا طويلة كدولة متواضعة . استترك هذا الفرع وبدأ يتكلم التركية بسرعة وأخذ المذهب السنى - الحنفى عن الاتراك ودخل بكامله إلى الهداية الاسلامية .

(٣٤) بنى تيمور Timurogullari (١٣٧٠ - ١٥١٢)

ظهر تيمور (١٣٣٦ - ١٤٠٥) أحد بكات (أمراء) تركستان الغربية ، على مسرح التاريخ فى ١٣٧٠ . وبسط سيادته على التون اوردی (أوربا الشرقية) والهند الشماليه والخاقانيات التركية (تركيا) العثمانية ، ووصل الأمر إلى حد أن السلطان المملوكى المصرى بعد أن فقد سوريا دخل تحت سيادة تيمور أتقاء لشره . سيطر تيمور الذى كان يستند إلى قوة عسكرية مدهشة على أقطار تبلغ مجموع مساحاتها ١٤ مليون كم^٢ . كانت التركية لغته الأم ومذهبه السنى - الحنفى . إلا أن تأثيرات الثقافة الايرانية كانت كبيرة على امبراطوريته كما أنه قلد جنكيز فى اسلوب فتوحاته .

مات عندما كان يستعد لفتح الصين لتحقيق خير أعماله كفاتح مسلم وقد حاول أصغر أبنائه الأربعة شاهرخ ، صيانة الامبراطورية التيمورية لغاية ١٤٤٧ .

وبالاضافة إلى أن الامبراطورية التيمورية فقدت بعد ذلك أقطارا عديدة ، فقد انقسمت إلى امبراطوريتين : ماوراءالنهر (سمرقند) ، وخراسان (هرات) .

وفي ١٥١٢ ، طرد أتراك اوزبك الرحل القادمين من الشمال ، التيموريين من تركستان ودفعوا بهم إلى الهند .

ازدهرت لهجة جفتاي (تركستان) والأدب والشعر التركي على أيام التيموريين ، وفي عهدهم نشأ على شيرنواي من أكبر الشعراء الأتراك في سراي سلطان حسين بايقره (١٤٦٩ - ١٥٠٦) بن تيمور في هرات .

٣٥) السلالات التركية في الهند لغاية بنى تيمور :

اعقب الغزنويين في الامبراطورية الإسلامية التركية في الهند الشمالية ، سلالات الغور (١١٨٧ - ١٢٠٦) ، مماليك الهند (١٠٢٦ - ١٢٩٠) ، بنو هلاج (١٢٩٠ - ١٣٢٠) ، بنو طغلق (١٣٢٠ - ١٤١٣) ، بن سيد (١٤١٣ - ١٤٥١) ، اللوديين (١٤٥١ - ١٥٢٦) ، الصوريين (١٥٤٠ - ١٥٥٥) .

بذل كل من السلطان معز الدين محمد (١١٨٧ - ١٢٠٦) ، السلطان آييك (١٢٠٦ - ١٢١٠) ، السلطان التوتمش (١٢١٠ - ١٢٣٦) ، السلطان بالابان (١٢٦٦ - ١٢٨٦) ، السلطان علاء الدين محمد (١٢٩٦ - ١٣١٦) ، السلطان فيروز - شاه طغلق (١٣٥١ - ١٣٨٨) جهودا كبيرة لنشر الدين الإسلامي في الهند وتوسيع حدود الدولة باستمرار نحو الشرق والجنوب . ولأول مرة في التاريخ وحد علاء الدين محمد ، كامل الهند (بما في ذلك باكستان الحالية وبنغلاديش) تحت حكم دولة واحدة .

جرت حروب شديدة مع المغول وأصبحت الهند من الدول الآسيوية الإسلامية النادرة التي لم يتمكن المغل من السيطرة عليها .

يلاحظ سيطرة الثقافة العباسية ، حيث كانت هي لغة الفن بينما التركية لغة الجيش والسراي ، وقد شيدت في هذه الفترة آثار عمرانية هائلة ، وتأسست مدن

جديدة وكانت دلهى مدينة العرش . ثم تقلصت الحدود ، وخلال ١٣٩٨ - ١٤٢١ تبعت سلطنة دلهى تيمور وخلفاءه .

كانت السلالات الأخيرة هى اللوديون والصوريون .

(٣٦) بنو تيمور الهند (١٥٢٦ - ١٨٥٧)

عندما طرد الأzbek بابرشاه (١٤٨٣ - ١٥٣٠) حفيد تيمور فى البطن ٥ (حفيد جنكيز فى البطن ١٣ من جهة أمه) من عرش خاقانية تركستان ، استوطن فى كابل واحتل الأفغان الحالية .

وفى ١٥٢٦ ، قوض سلطنة لودى وفتح سلطنة دلهى . كانت القوة التى مكنته وسلالته من الهند لمدة ٣ قرون وجعلته يتنصر على الجيش اللودى المكون من ١٠٠,٠٠٠ جندى و ١٠٠٠ فيل خلال ٧ ساعات ، عبارة ١٣٥٠٠ جندى تركى تضم سرية مدفعية يقودها ضابط مدفعى عثمانى (معركة بانيبات Panipat الميدانية ٢١ / ٥ / ١٥٢٦) ، وقد استطاع فى السنة التالية (١٦ / ٣ / ١٥٢٧) أن يفنى الجيش الهندوسى المكون من ١٠٠,٠٠٠ جندى وأكثر من ١٠٠٠ فيل مصفح عن بكرة أبيه ، ونال لقب « غازى » .

يعتبر بابر من أكبر الشعراء الأتراك وقد اشتهر فى التاريخ بمذكراته المسماة « بابرنامه » التى حررها باللغة التركية والتى تعتبر أحد روائع النثر التركى التى تعد على الأصابع .

عقب بابر (الأب والابن) ، همايون شاه (١٥٣٠ - ١٥٤٠ - ١٥٥٥ - ١٥٥٦) ، أكبر شاه (١٥٥٦ - ١٦٠٥) جهانكير شاه (١٦٠٥ - ١٦٢٧) ، شاهجهان الذى شيد تاج محل (١٦٢٧ - ١٦٥٨) ، افرنكزيب عالمكير شاه (١٦٥٨ - ١٧٠٧) .

تكونت حضارة غنية جدا تحت تأثير الثقافة الفارسية . وقد وحد عالمكير للمرة الثانية فى التاريخ ، كامل الهند تحت حكم سياسى موحد ، وبدأ بعدها الانقسام .

احتل الإنجليز البنغال فى نهاية القرن ١٨ . اضرمت قوات الخيالة « السباهى » التركية بمساندة بنى تيمور ، نار ثورة كبيرة لطرده الإنجليز ، لكنها اخمدت . خلع

الانجليز بابرشاه الثانى (١٨٣٧ - ١٨٥٨) اخر حكام بنى تيمور من عرشه ونفوه الى برمانيا (٤ / ١٢ / ١٨٥٨) (وفاته : رانغون ، ٧ / ١١ / ١٨٦٢) .

استمر اسم « المغول » الذى أطلقه الإنجليز على بنى تيمور الهند فى المؤلفات التاريخية على الرغم من أنه ليست هناك للدولة علاقة بالمغل .

(٣٧) امبراطورية الهند الجنوبية :

أسس البهمنيون (١٣٤٧ - ١٥٢٥) فى الهند الجنوبية امبراطورية مركزها دكن Dekken منفصلة عن سلطنة دلهي .

انقسمت هذه الامبراطورية إلى ٥ دول ، أهمها دولة عادل - شاه الذين يعتبرون ورثة للبهمنيين (١٤٩٠ - ١٦٨٦)

كان أول حاكم لهم هو الأمير التركى المسمى يوسف عادل - شاه ، وهو نائر ظفر بالعرش مدعيا أنه الأخ الأصغر للسلطان فاتح العثمانى . أما القطب شاهيون (١٥١٢ - ١٦٨٧) فهم أمراء (بكات) قره قويونلو التركمان .

جميع هذه الدول ؛ سواء هاتين الدولتين ، أو الثلاث الأخريات اللواتى تقاسمن الهند الوسطى والجنوبية كانت من قبل بنى تيمور .

(٣٨) الدول التركية الأخرى فى الهند :

أهم الدول التركية الأخرى التى تأسست فى الهند هى : المايريون (١٣٣٤ - ١٣٨٨) فى جنوب الهند وقاعدتهم مادورا ، وديان بنغال (١٢٠٢ - ١٢٩١) ، وملوك بنغال (١٣٣٨ - ١٥٧٦) وغور مالوا (١٣٩٢ - ١٥٣١) ، فى الهند الوسطى فى برار ، وسلاطين هانبور شرقى (١٣٩٩ - ١٤٩٩) ، وأمراء خاندش فاروقى فى الهند الوسطى (١٣٩٩ - ١٦٠١) ، والشاهيون فى كشمير (١٣٣٤ - ١٥٦١) ، والأركون فى بلوجستان (١٤٧٥ - ١٥٥٤) ، والطرخانيون فى السند (١٥٥٤ - ١٥٩٩) . وكل هؤلاء تقريبا قضى تيمور عليهم .

(٣٩) السلطنة التركية فى مصر (١٢٥٠ - ١٥١٧) :

تسلم الحكم فى مصر فى ١٢٥٠ جيش الحرس التركى الخاص بالسلطان الأيوبي (خاصة اوردوسى) وتأسست أقوى سلطنة مملوكية فى القرون الوسطى سميت « الدولة التركية » بصورة رسمية (مصر ، سوريا ، لبنان ، فلسطين ، الأردن ، الأناضول الجنوبية ، الحجاز ، اليمن ، السودان ، ولفترة ليبيا وحتى تونس) .

وقد اعتمد الحكام المقنطرون مثل آيك (١٢٥٠ - ١٢٥٧) ، قطز (١٢٥٧ - ١٢٥٩) ، بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) ، قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) ، ناصر الدين محمد (١٢٩٣ - ١٣٤١) ، على جيش قوى وحضارة تزينها آثار معمارية فريدة تستمد أصالتها من ثقافة عربية غنية .

انتصر السلطان قطز فى واقعة عين جالوت وصد المغول المشركين ووقفهم عند باب مصر وافريقيا ، ثم استرجع الممالك آخر قاعدة للصليبيين فى شرقى البحر الأبيض .

يلى عهد الممالك الأتراك أو البحرين (١٢٥٠ - ١٣٨٢) الذين حافظوا على الخليفة وبلدانه المسلمة المقدسة (مكة ، المدينة ، والقدس) - عهد الممالك الشراكسة أو البرجيين (١٣٨٢ - ١٥١٧) . وقد اعتلى العرش فى هذه الفترة سلاطين الشراكسة المستركين وعانت الدولة المملوكية من عدم تملكها من تشكيل قوة بحرية وضعفها فى هذا المجال مما اسفر عنه انضمامها إلى الدولة العثمانية .

(٤٠) الامبراطورية التركية فى إيران :

انتقل حكم إيران - العراق بعد الابلخانيين إلى الجلائريين (١٣٣٦ - ١٤١١) ، فالتيموريون ثم إلى حكم سلالتين تركمانيتين هما أصحاب الخرفان السود (قرة قويونلور) (١٤٣٧ - ١٤٦٧) وأصحاب الخرفان البيض (آقويونلور) (١٤٦٧ - ١٥٠٢) .

كانت هذه السلالات سنية - حنفية وكانت مهيمنة على الاناضول الشرقية كذلك وكانت قاعدتهم تبريز .

(٤١) الصفويون (١٥٠٢ - ١٧٣٦) :

ظهر بعد ذلك شاه إسماعيل . ثامن شيوخ الصفويين ، الاردييل ذوى النفوذ القوى جدا منذ ١٣٠١ والذين بدعوا سنيين ثم اصبحوا شيعيين . كان من ناحية الأم حفيدا للسلطان آقويونلو أوزون حسن بك (١٤٥٣ - ١٤٧٨) . جمع حوله مئات الألوف من الاناضوليين التركمان تحت الشعار الشيعى وانتقل إلى إيران . أجبر إيران أهل السنة على التشيع على مذهب الأثنى عشرية بالدم والنار . وحد بساط المشيخة مع تاج الشاهية ، وأسس فى إيران دولة قوية جدا . وقد كانت هذه الدولة التى أخذت بمرور الزمن تتقبل الثقافة الإيرانية ، تستند على جيش تركمانى خيال . لكن لم يكن لديها قوة بحرية .

كون الشاه إسماعيل الذى يمتاز بأنه من أكبر شعراء اللغة التركية ، امبراطورية كبرى ، بين دياربكر وطاشقند . وازداد نفوذ هذه الدولة كثيرا على أيام ابنه شاه طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦) وحفيده شاه عباس (١٥٨٧ - ١٦٢٨) .

شظرت هذه الدولة العالم الإسلامى والتركى إلى شطرين ثم ضعفت بعد ذلك واضمحلت السلالة .

(٤٢) الأوشار Avsarlar

جلس نادر شاه اوشار (١٧٣٦ - ١٧٤٧) على عرش شاهات الصفويين ، بينما كان أحد أمراء (بكات) التركمان ، هو آخر فاتح عالمى فى التاريخ التركى . قام بحملات واسعة للسيطرة على قفقاسيا وتركستان والهند . كان سنيا حنفيا فى باطنه . غير أنه لم يتمكن من اعلان المذهب السنى فى إيران الشديدة التشيع . حاول أن يحمل الخليفة فى استانبول على الاعتراف بالمذهب الشيعى الجعفرى المعتدل ، لكنه لم يوفق .

(٤٣) القاجاريون Kacarlar (١٧٧٩ - ١٩٢٥) :

القاجار ، هي آخر سلالة تركمانية جلست على العرش الإيراني . خرجت إيران من عداد الدول العظمى وانسحبت من قفقاسيا عندما غلبتها روسيا في ١٨١٣ و ١٨٢٨ .

خلع الشاه رضا ، الشاه القاجارى السابع أحمد شاه قاجار عن عرشه وأسس السلالة البهلوية وأنهى عهد الحكام الأتراك الذى دام ٩ قرون (كانت امه كذلك تركية) .

(٤٤) الامارات التركستانية :

بعد أن طرد الشيبانيون ، وهم إحدى فروع سلالات جنكيز فى ماوراء النهر (١٥٠٠ - ١٥٩٩) ، التيموريين من تركستان وقذفوا بباورشاہ إلى الأفغان ، وزحفوا على الهند لفتحها ، كونوا دولة ذات قدرة كبيرة (قاعدتهم سمرقند وعلى الأغلب بخارى) .

مؤسس السلالة محمد شيباك (شيبانى) خان (١٥٠٠ - ١٥١٠) ، من الشعراء المتميزين فى اللغة التركية .

غلبه الشاه إسماعيل وقتله . كان عبد الله خان (١٥٨٣ - ١٥٩٨) من أقدر حكام السلالة ، وقد خرجت تركستان أى خاقانية الترك الشرقية بعده من عداد الدول العظمى ثم تمزقت تركستان بين خاقانيات الترك الصغرى وفقدت مكانتها فى التاريخ العالمى .

بسط الجانيون (١٥٩٩ - ١٧٨٥) الذين اعقبوا الشيبانيين وكانوا من سلالة جنكيز مثلهم ، نفوذهم على قسم كبير من ماوراء النهر . كانت قاعدتهم بخارى .

وقع المانغت (١٧٨٥ - ١٩١٩) الذين احتلوا مكانهم تحت سيطرة الروس فى ١٨٧٣ وتركوا للروس حتى طاشقند وسمرقند . استمر حكمهم فى بخارى وجوارها حتى ١٩١٩ ، وفى الثورة الشيوعية ، تأسست فى البداية جمهورية بخارى ، ثم جمهورية اوزبكستان التابعة للاتحاد السوفيتى . وهكذا انتهى عمليا ١٩١٩ الوجود السياسى التركى فى تركستان .

دامت سلطنة خانات خزر (١٥١٢ - ١٨٠٤) ، ثم سلالة كونغرات (١٨٠٤ - ١٩١٩) و كليهما من سلالة جنكيز في البلاد التاريخية المسماة خزر (خوارزم) في جنوب بحيرة آرال في قره قاليبستان الحالية ، واتخذوا حيوة عاصمة لهم . سقط هؤلاء كذلك تحت النفوذ الروسى فى ١٨٧٣ وبقى حكمهم الذاتى وسلالتهم حتى قدوم الشيوعيين فى ١٩١٩ .

الحقت إمارة (خانية) خوقند فى فرغانة (١٧١٠ - ١٨٧٦) بروسيا . تقلصت إمارة قازاق (١٤٥٠ - ١٨٧٣) التى يترأسها خانات من سلالة جنكيز فى قازاخستان الحالية وانفصلت إلى أقسام .

جاهدت فى استمرار كيائها تحت الاحتلال الروسى حتى ١٨٧٣ . فتح قينسارى قاسم خان (وفاته ١٨٤٧) أحد خانات القوزاق ، استمر جهادهم ضد الروس لمدة ٣٠ سنة .

استطاع يعقوب (١٨٧٠ - ٧٧) وبك قولو (١٨٧٧ - ٨٢) فى كاشغر فى تركستان الشرقية أن يحافظا على استقلالهما فى مواجهة الصين مع استمرار تبعيتهما للعثمانية ، لكنهما لم يتمكنوا فى النهاية من صد الاجتياح الصينى ، وجدير بالذكر أن الحركات الاستقلالية فى تركستان الشرقية قد استمرت حتى عصرنا الحاضر ولقد تم لعدة مرات اعلان تأسيس دول تركية ، ولكن استولى عليها الصينيون .

انكسر الفريق الأول عبد النياز بك مع جيشه التركى البالغ ٨٠,٠٠٠ جندي ، أمام الجيش الروسى - الصينى الاتحادى واستشهد (١٥ / ٨ / ١٩٣٧) .

(٤٥) أتراك الشمال :

تعتبر إمارة قرم (١٤٢٧ - ١٧٨٣) من أهم الدول التى تكونت على أنقاض خاقانية الطون أوردى كما هى الحال فى دول أتراك الشمال الأخرى فى أوربا الشرقية . وهذه الامارة يجب النظر اليها ضمن إطار التاريخ العثمانى .

أما إمارة (خانلق) قران (١٤٣٧ - ١٥٥٦) التى تنحدر من فرع جوجى اولو صو لسلالة جنكيز فهى مثل إمارة قرم ، ظلت حتى عام ١٤٦٧ ، تحت سيادة

إمارة موسكو الكبرى . وحتى يتسنى لها الاستمرار فقد تبعت العثمانية لفترة من الزمن . لكنها تعرضت للاستيلاء الروسى . أما إمارة قاسم (قسيم) الصغيرة (١٤٤٥ - ١٦٨١) والتي كان حكامها من بنى جنكيز فقد تمكنت من الاستمرار بخضوعها إلى سيادة موسكو فى ١٥٠٦ رغم أن مدينة عرشها تقع على مسافة ٢٣٠ كم جنوب شرقى موسكو .

لم تتمكن إمارة آسترخان (١٤٦٦ - ١٥٥٧) - من بنى جنكيز كذلك ، رغم أنها تبعت العثمانية لفترة - من صيانة استقلالها تجاه الروس . وبذلك لم يكن الروس فى ١٥٥٦ - ٥٧ قد امتدوا بسهولة على ضفاف الفولغا فحسب بل كانوا قد تمركزوا فى دلتا الفولغا وتوصلوا إلى شمال بحر الخزر ، وإن كانوا لا يزالون بعيدين جدا عن البحر الأسود بسبب المانع العثمانى ، وعن البلطيق بسبب المانع السويدى .

احتل خانات تمن Tumen (١٥٦٣ - ١٦٥٦) من بنى جنكيز سيبيريا الغربية ، مكان خانات قرغز (١٢٠٠ - ١٥٦٣) الذين سبقوهم وتعرضوا لاستيلاء الروس .

وقبل عدة سنوات من حلول عام ١٦٠٠ دخل الروس سيبيريا أو بالأحرى آسيا وامتدوا إلى المحيط ، وخلال قرن واحد ، أصبحوا جيران الصين فى الشمال .



الباب الثالث

توكية قبل العثمانية

(٤٦) فتح الأتراك للأناضول :

كانت بعض الأقوام التركية قد غزت الأناضول قبل الإسلام ، فقد جاب الجنود الأتراك الذين دخلوا فى خدمة الخليفة العباسى بعد الإسلام بخيولهم سفوح جبال طوروس وسواحل الفرات عصورا طويلة لحساب بغداد . وفى هذه الفترة كانت الأناضول من جملة الأراضى البيزنطية (روما الشرقية) .

تمكن العرب من فتح جنوب شرقى الأناضول ~~سقط~~ ودعوة سكانها إلى الدين الإسلامى ، ومن الواضح انه لم يتسن القضاء على البيزنط .

أخذت السلالات العربية الحاكمة الصغيرة تتولى مهمة الغزو والجهاد ضد البيزنط والدفاع عن الحدود الإسلامية فى الأناضول ، بعد أن ضعفت الدولة العربية العالمية (العظمى) وفقد الخليفة سلطانه فى بغداد . وقد أهمل الهدف الذى كان قائما فى صدر الإسلام وهو جعل الأناضول أراضى إسلامية والانتصار على البيزنط ، والحقيقة ان ازدياد القوة العسكرية البيزنطية على أيام السلالة المكدونية ، وحملات الجيش البيزنطى المؤثرة على أعماق سوريا ، جعلنا تحقيق هذا الهدف غير ممكن . ولكن الحقائق التاريخية تؤكد أن أول من فكر فى فتح الأناضول هم السلاجقة .

وفى ١٠١٥ ، أجرى سلجوق أوغلو جفرى بك أول حملة أناضولية تعرف فيها على مقاومة البيزنط فى الأناضول الشرقية ، وفى هذه الحملة هزم سلجوق أوغلو قتالشم بك الجيش البيزنطى فى حرب باسينلر Pasinler الميدانية قرب أضرورم ، وأسر القائد العام Liparit مع ١٠٠٠٠٠ بيزنطى (١٨ / ٩ / ١٠٤٩) ، وأرسل الامبراطور البيزنطى فدية إلى الخاقان الأكبر أرطغرل بك (وهو أخو جفرى بك وعم قتالشم بك) لاعادة Liparit . إلا أن أرطغرل بك أعاد الفدية ووعد باطلاق سراح لباريد مقابل إعادة فتح الجامع الذى أغلق فى استانبول لعبادة المسلمين المقيمين فيها ، وقد تم بالفعل فتح الجامع وتلى فيه اسم أرطغرل بك بعد اسم الخليفة العباسى .

جاء أرطغرل بك بنفسه إلى الأناضول فى ١٠٥٤ ، وأخذ قلعة بايرت Bayburt ووقف أمام قلعة ملازغرت Malazgirt لكنه لم يوفق فى إسقاطها ، فعاد بعد تجواله حول محيط بحيرة وان .

قام ملوك السلاجقة وأمراء الأتراك بترتيب غزوات على الأناضول فى كل سنة تقريبا وأخذوا يتقدمون فى غزواتهم نحو الغرب .

كان هذا الوضع عند وفاة أرطغرل بك فى ١٠٦٣ ومجىء خلفه ابن أخيه سلطان ألب - أرسلان بن جاغرى بك .

أخذ أفشين بك أحد أمراء (بك) السلجوقيين ، قيصرى بعد أن هزم الجيوش البيزنطية فى ١٠٦٦ فى حصن منصور (آدى يمان) وفى السنة التالية قرب ملاطية . دخل أفشين بك التابع لأمر سليمان - شاه بن قتالشم بك الموجود فى آذربيجان ، إلى قونية فى ١٠٦٩ ، وبعد أن هزم فى السنة التالية قرب نهر قيزل ايرمق الأمير Manuel Komnenos تقدم إلى دنيزلى ، وأدخل وحداته الطليعية حتى بحر إيجه ومرمرة .

وبعد هذه الغزوات التى كسرت قدرة البيزنط الدفاعية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية ، أرسل أفشين بك تقريره حول مواتة الفرصة لفتح الأناضول إلى قائده سلجوق أوغلو سليمان - شاه والى الخاقان الأكبر السلطان ألب - أرسلان .

دخل ألب - أرسلان فى صيف ١٠٧٠ إلى الأناضول وأخذ مدينة ملازغرت ، وانتقل منها إلى عامد (دياربكر Diyarbakir) وبقي مدة فى هذه المدينة التى يحبها كثيرا . ورغم جهوده التى دامت مدة ٥٠ يوما ، لم يتمكن من إسقاط قلعة أورفه البيزنطية ، فجاء إلى حلب واستراح فيها وغادر الأناضول عن طريق عامد - بتلس - أخلاط ، مصمما على أن يعاود الكرة فى السنة القادمة .

(٤٧) وقعة ملازغرت الميدانية (٢٦ آب ١٠٧١)

تقابل السلطان ألب - أرسلان ، وجيشه البالغ ٥٠٠٠٠ جندى مع جيش إمبراطور البيزنط Romanos Diogenes البالغ عدده ٢٠٠٠٠٠ جندى أمام سفوح قلعة ملازغرت صباح يوم الجمعة الموافق ٢٦ آب . أباد السلطان ألب - أرسلان الجيش البيزنطى وأسر الإمبراطور .

من بين أسباب الانتصار التركى ، تشكيل الجيش البيزنطى من عناصر متعددة لا يعرف أحدها لغة الآخر ، وانتقال الوحدات الأجيعة الناطقة بالتركية كالبجنك Peçenek والأوز Uz التى لم تدخل الإسلام بعد - إلى صفوف السلاجقة قبل الحرب بمدة وجيزة ، كما أن مشاة البيزنط لم تدرك قصد مناورات الخيالة التركية والوحدات التركية التى استهدفت غش العدو . أمر السلطان ألب - أرسلان ابن أخيه قتالمش أوغلو سليمان - شاه بفتح الأناضول بعد واقعة ملازغرت .

تعد واقعة ملازغرت إحدى الحوادث الأم فى التاريخ ، التى أسفر عنها تحول الأناضول إلى أراض إسلامية ووطن ثان ، كما تعد هذه الواقعة كذلك إحدى الحوادث السياسية فى تأسيس الدولة التركية وتكوين الحملات الصليبية ، وعلى العموم يمكن النظر إليها على أنها كانت الحادثة التى هیأت الأسباب لولادة الدولة العالمية العظمى ، العثمانية .

(٤٨) تأسيس الدولة التركية (١٠٧٤) :

فتح الغازى سليمان - شاه الأناضول بسرعة . جاء إلى اسكدار وإلى الضفة الأناضولية من البوغاز واستشرف قبه إياصوفيا . أرسل السلطان ملكشاه بن ألب

أرسلان - الذى اعتلى العرش حديثا فى نهاية العام ١٠٧٤ - إلى سليمان - شاه منشور سلطنة الأناضول .

تأسست الدولة التركية وكانت مدينة العرش إزنك Iznik القرية جدا إلى بحر مرمرة .

أخذ السلطان سليمان - شاه الأول مخرج البيزنط إلى أوربا تقريبا ، فاتح الأناضول ، باني الدولة التركية وسلطانها الأول ، أنطاكية من البيزنط (١٣ / ١٢ / ١٠٨٤) . جاء مئات الآلاف من الأتراك ، من الشرق واستوطنوا الأناضول مبتدئين بالمدن أولا ، مات سليمان - شاه (٥ / ٦ / ١٠٨٦) فى حرب مع ابن أخيه (سلطان قطلش بن ألب - أرسلان) قرب حلب . خلفه ابنه الطفل قيليج - أرسلان الأول .

كان سليمان - شاه قد ولى على أزمير التى فتحها .

يعتبر الأميرال جقا بك فى ١٠٨١ ، هو المؤسس لأول أسطول تركى فى التاريخ . ذلك أن الأتراك حتى ذلك التاريخ كان يشتهرون بقوة جيوشهم ، ولم يكونوا يهتمون بالبحر .

تعتبر تركيه هى الدولة الوحيدة التى اهتمت بالبحر . أمر جقا بك بصنع ٤٠ سفينة حربية فى أزمير ، فتح جزر ايجيه (ساقز ، مديللى ، رودس ، سيسام .. الخ) .

٤٩) الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩) وسلطان قيليج - أرسلان الأول (١٠٨٦ - ١١٠٧) :

تشير جميع الشواهد ومن بينها وصول الأتراك إلى المضائق : مرمرة وإيجيه فى حملة واحدة ، إلى أنهم سوف يفتحون البيزنط وأن البيزنطيين سوف لا يتمكنون من صددهم ، قد ولد هذا الهياج فى أوربا . فالمرابطون فى أسبانيا والأتراك فى الأناضول قبضا على خناق أوربا من جانبيها وكانا يخنقان العالم المسيحي الذى كان متدهورا من الناحية الاقتصادية ، وقد ولد هذا الهياج فى أوربا ولذا تشكلت الحملة الصليبية الأولى .

جاءت القوة المسيحية التي تجمعت من هنا وهناك ، والتي تقدر بـ ١٥٠٠٠٠ شخص ، إلى منطقة قرية من إيزنك مدينة عرش تركيا ، فأفناها السلطان قيليج - أرسلان . اتحدت الموجة الثانية من الحملة الصليبية الأولى ، التي تبلغ نحواً من ٦٠٠٠٠٠ مسيحي ، مع الجيش البيزنطي وعبرت إلى الأناضول . كانت الدولة التركية فتية جداً . لم يكن عمرها قد بلغ ربع القرن . ولم يكن من الصعب على قوة صليبية كهذه ان تغلق الأتراك من الأناضول وتخرجهم وتطاردهم حتى إيران . استسلمت إيزنك ونقلت العاصمة التركية إلى قونية . جابه السلطان قيليج - أرسلان ، الجيش الصليبي في اسكيشهر (٣٠ / ٦ / ١٠٩٧) ، حيث جرى قتال دموى شديد ، لم يتمكن جيش السلطان من إفناء جيش العدو . استخدم البادشاه السلجوقي مع العدو حرب العصابات وكبدهم خسائر جسيمة .

خسر الصليبيون أثناء خروجهم من الأناضول نصف مليون شخص ، وتركوا الأناضول متوجهين لاحتلال أنطاكيا ، والقدس مع ١٠٠٠٠٠ شخص فقط . استرجع البيزنط الذين استفادوا من هذا الوضع من الأتراك كامل إيجيه ومرمرة وسواحل البحرين الأبيض والأسود .

اضطرت الدولة التركية — التي أزيحت عن البحار — إلى الدخول في صراع طويل الأمد لاستعادة منافذها على البحار .

تمكن قيليج - أرسلان الأول من الحفاظ على كيان واستقلال الدولة التركية . أخذ الموصل ، ولكنه غرق أثناء عودته مع حصانه في النهر ودفن في ميافارقين (Silvan) . خلفه ابنه : السلطان ملك شاه (١١٠٧ - ١١١٦) ، وعلى أثر وفاته في سن الـ ٢٠ خلفه مسعود الأول .

٥٠ (السلطان مسعود الأول (١١١٦ - ١١١٥) والحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ٤٩)

جلس السلطان مسعود حفيد سليمان شاه الأول (الذي مات وعمره ٤١ سنة) ، وابن قيليج أرسلان الأول (الذي مات وعمره ٣٤ سنة) على العرش وهو في الـ ١٨ من عمره ، في الوقت الذي كانت لاتزال التأثيرات السيئة للحملة الصليبية الأولى مستمرة ، وكانت تركيا قد حرمت من النفاذ إلى البحار ، وكانت

الدولة اللاتينية (الكاثوليكية) التي تكونت فى الأناضول ، سوريا ، وفلسطين ، قد أصبحت بلاء مسلطا على العالم الإسلامى ، فقد اكتسب البيزنط قوة وباتوا ينتظرون الفرصة المناسبة .

قديم عشرات الألوف من الأتراك سنويا من الشرق وسكنوا فى الأراضى الأناضولية ، وكان الإقطاعيون الأتراك فى الأناضول الذين يعترفون بتبعيةهم للدولة السلجوقية الأناضولية ، أى للسلطنة التركية ، قد أصبحوا وكأنهم حكام مستقلون . وخلال هذه الأزمة ، تكونت الحملة الصليبية الثانية .

تقدم امبراطور ألمانيا Konrat الثالث مع جيشه البالغ ٧٥٠٠٠ شخص إلى حدود سهل قونية . أفنى مسعود الأول الصليبيين الذين اصطدم معهم فى الحرب الثانية الميدانية اسكيشهر (٢٥ / ١٠ / ١١٤٧) . لجأ الامبراطور مع ٥٠٠٠ من جنده إلى إيزنك . دخل الأناضول بعده ملك فرنسا لويس ٧ مع ١٥٠٠٠٠ جندى ، ولما لم يكن جيش السلطان مسعود بالعدد الذى يمكنه من التغلب على هذه القوة فى معركة ميدانية ، فقد فضل الانسحاب على احتمال التفريط فى مستقبل دولة تركيه الفتية ، ومارس حرب العصابات مع الصليبيين أثناء اجتيازهم جبال طوروس وكبدهم خسائر فادحة .

انسحب ملك فرنسا من الأناضول . توفى مسعود الأول بعد سلطنة دامت ٣٩ سنة وعمره ٥٧ سنة ، فخلفه ابنه قيليچ - أرسلان وعمره ٣٩ عاما وهو خامس حكام تركيا .

(٥١) قيليچ أرسلان الثانى (١١٥٥ - ١١٩٢) ، مريوكفالون (١١٧٦) والحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢) .

أخضع السلطان قيليچ أرسلان الثانى الأمراء الاقطاعيين فى الأناضول تحت سيطرته وألغى وصفى بعض الاقطاعيات واستخدم سياسة إعمارية واسعة فى الأناضول .

تمكن بسياسته الحكيمة من إسكان ملايين الأتراك الذين قدموا إلى ذلك التاريخ ، فعمّر المدن الصغيرة الفقيرة وحولها إلى مدن كبيرة .

بدأ البيزنط الذين شاهدوا تزايد قوة تركيا الفتية واستيطانها في الأناضول ، بصورة تامة ، باتخاذ التدابير .

دخل الامبراطور Manuel Komnenos الأراضى التركية . واجه قيليج أرسلان الجيش البيزنطى فى موقع مريو كفالون Miryokefaion على مقربة من شمال بحيرة اغريدنر Egridir وهزمه شر هزيمة (١٧ / ٩ / ١١٧٦) .

أمر الخليفة فى بغداد بإقامة احتفالات كبيرة والدعاء لأرواح الشهداء الأتراك فى خطبة الجمعة .

أصبح من الثابت عدم إمكان هدم الدولة التركية وعدم إمكان إزاحة الأتراك من الأناضول ، ولم يحاول أحد بعد ذلك التاريخ أن يقوم بشئ من هذا القبيل . لكن موجات الحملة الصليبية الثالثة . اصطدمت بالأناضول مرة أخرى ، وذلك عندما دخل امبراطور ألمانيا فريديريك بارباروسا Friedrich Barbarossa الأناضول مع ٢٠٠٠٠٠ جندى ومعهم ٤٠٠٠٠٠ من شذاذ الآفاق ، وجاء إلى قونية . وبعد أن تكبد خسائر جسيمة ، تقدم فى سواحل البحر الأبيض ومات غرقا فى النهر ، وبقي فى الأراضى الأناضولية ، وبينما انشغل السلطان التركى بى دفن الامبراطور الألمانى ، كان صلاح الدين الأيوبي يقاتل ملوك إنجلترا وفرنسا فى فلسطين .

(٥٢) أبناء قيليج أرسلان الثانى (١١٩٢ - ١٢١١)

توفى قيليج أرسلان الثانى وهو فى سن ٧٦ ، فخلفه أصغر أبنائه كيخسرو الأول (١١٩٢ - ١١٩٦) ، ثم كبير أبنائه سليمان شاه الثانى (١١٩٦ - ١٢٠٤) ، وعلى أثر وفاته — وهو فى سن ٥٤ — اعتلى العرش كيخسرو الأول مرة أخرى (١٢٠٥ - ١٢١١) ، حيث استشهد وهو يجابه البيزنط وعمره ٤٢ سنة . ولقد اقضى هذان الحاكمان المهمان أثر أيهما فى إزاحة بيزنط من الأناضول على قدر الإمكان ، كما نفذوا إلى سواحل البحر الأسود مرة أخرى ، وعلى رأس المنافذ التى حازاها مدينة صصون .

(٥٣) كيكاووس الأول (١٢١١ - ١٢١٩) وعلاء الدين كيكباد
(١٢١٩ - ١٢٣٧) :

جلس على العرش التركى بعد غياث الدين كيخسرو الأول ، السلطانان التاسع
والعاشر فى التاريخ التركى ، وهما أكبر أبنائه عزالدین كيكاووس الأول وعلى أثر
وفاته فى سن ٣٥ أعتلى العرش أخوه علاء الدين كيكباد .

استولى كيكاووس على سينوب وأسس فيها معملا للسفن وأسطولا للبحر
الأسود . أصبحت امبراطورية طرابزون البيزنطية تحت السيادة التركية . يطلق على
أخيه السلطان كيكباد لقب « علاء الدين الكبير ، علاء الدين المعلى » وهو فى
تركيا السلجوقية ، بمثابة السلطان سليمان القانونى فى تركيا العثمانية . امتاز عهده
بالرفاهية وزيادة العمران وتطور التجارة وتنمية الصناعة وتقدم الزراعة استطاع أن
يجعل من تركيا أغنى بلد فى العالم . وقد كان ذلك بسبب سياسته العسكرية
الراجحة ودبلوماسيته المتفوقة .

أرسل أسطولا إلى قرم وأخضعها للسيادة التركية ، وارتبطت الملكية الأرمنية
فى كليكيا ، بقونية بروابط أكثر متانة ، كما قوى السلطان علاء الدين علاقته بالعالم
الإسلامى بمصاهرته السلطان الأيوبي الملك العادل .

ألغيت الامارات الاقطاعية التركمانية فى الأناضول واستعيض عنها بإدارات من
الولاة يتم تعيينهم مركزيا .

أخذت من البيزنط جميع سواحل البحر الأسود المنحصرة بين أركلى وأوניה
(كانت السواحل البيزنطية تبدأ اعتبارا من غرب قره دنيز اركليسى وسواحل
امبراطورية الروم فى طرابزون شرقى اوניה) تم اخضاع امبراطورية طرابزون للسيادة
التركية ، وارتبطت بها بروابط متينة .

خلال هذه الأيام ، وكمغامرة دخل خاقان أترك الشرق (تركستان) جلال
الدين خوارزم شاه إلى الأناضول ، فخرج إليه خاقان أترك الغرب (تركيا) وقابله
قرب ارزنجان وأخرجه من الأناضول (الحرب الميدانية ياصى جمن ١٠ / ٨ /
١٢٣٠) . وفى هذه الحرب ، كان بك أخلاط أرطغرل بك موجودا فى جيش
علاء الدين كيكباد أى فى الجيش التركى . ارطغرل بك هو أبوعثمان غازى الذى

يعتبر مؤسس الدولة العثمانية . وقد وضع السلطان السلجوقي حجر أساس الدولة العثمانية بمنحه ارطغرل أراضي على الحدود البيزنطية ، مكافأة لخدماته في هذه المعركة .

وصل السلطان علاء الدين إلى أرضروم . أعلن ملكا حلب والشام الأيوبيان ، إنهاء تبعيتهما للسلطان الأيوبي في مصر وأعلنا خضوعهما للسلطان علاء الدين كيكيباد .

استولى علاء الدين الذى اتخذ لقب « سلطان الأعظم » وأعلن أنه الخلف الشرعى للسلطانين الأيوبي والسلجوقي على سواحل البحر الأبيض اعتبارا من خليج فينيقية Finike نحو الشرق . وأسس فى علائية (آلايا) مصنعا للسفن وأسطولا للبحر الأبيض . أخضع المناطق المحيطة ببحيرة وان ، وقبل تابعة آتابك الموصل وأربيل . كان ملوك الأيوبيين فى ميفارقين (Silvan) وحصن كيفاء (Hasankeyf) وملوك أرتقلو فى ماردن تابعين لقونية .

اضطرب السلطان الأيوبي - الأكبر فى مصر ، استصحب معه ١٦ ملكا أيويا وحاول دخول الأناضول مع ١٠٠٠٠٠ شخص ولكنه خسر وانسحب ، صادق الخليفة العباسى فى بغداد بصورة رسمية على لقب السلطان الأعظم « أعظم سلطان إسلامى » ، الذى أطلق على علاء الدين . فى نفس الوقت شعر البادشاه العثماني باقتراب الخطر المغولى فرفع ميزانية الدفاع السنوية إلى ١٠٠ مليون دينار ذهبى ، وكانت هذه أكبر ميزانية عسكرية فى العالم . مات مسموما وعمره ٤٥ سنة . ولم يفلح السلاجقة بعد ذلك ، وبدأ الانحطاط فى فترة غير متوقعة أبداً ، مع مجيء ابنه الذى خلفه غياث الدين كيخسرو (١٢٣٧ - ١٢٤٦) .

٥٤) بنو سلجوق الأخيرون (١٢٣٧ - ١٣٠٨) :

آخر خاقانات تركية من بنى سلجوق هم كيكاووس الثانى (١٢٤٦ - ١٢٥٦) (١٢٥٦ - ١٢٦١ وفاته ١٢٧٨) بن كيخسرو الثانى ، ثم ابنه قيليج أرسلان الثالث (١٢٥٦ - ١٢٥٧) (١٢٦١ - ١٢٦٦) ، ثم ابنه كيخسرو الثالث (١٢٦٦ - ١٢٨١ - وفاته ١٢٨٣) ، وكيكيباد الثالث (١٢٩٧ - ١٣٠٢) وغياث الدين مسعود الثانى . توفى مسعود الثانى (١٢٨١ - ١٢٩٧) (١٣٠٢ - ١٣٠٨) بن كيكاووس الثانى وعمره ٥٠ سنة فى سراى قيصرى .

كان من أهم أسباب تهيفة الجو لاضمحلال الدولة التركية الاستيلاء المغولي ، بالإضافة إلى عدم كفاءة السلاطين ، وقلة الوزراء الحريصين ، وقلة المخلصين منهم .

وكذلك الحكام الذين ارتقوا العرش وهم فى سن الطفولة .

فر الجيش السلجوقى أمام الجيش المغولى فى كومه داغ شرقى سيواس (٣ / ١٢٤٣) ، ولكنه لم يدخل تحت سيطرة المغول حتى ١٢٧٦ . حيث سقطت تحت سيطرة المغول (الایلخانين) التامة اعتبارا من ١٢٧٦ واستولى المغول على الأناضول .

٥٥) الدولة التركية فى الأناضول فى عهد السلاجقة :

عاشت بعض الدول التركية التابعة لخاقانية تركية التى سلف وصفها فى الأراضى الأناضولية تحت سيطرة السلالات التركمانية : بنى دانشمند (١٠٩٥ - ١١٧٥) . [الذين اتخذوا مدن نكسار ، ملاطية ، قيصرى ، سيواس كمواصم] ، وبنى سلتوق Saltukogullari (١٠٨٠ - ١٢٠١) فى أرضروم ، وبنى منكجك Mengucekogullari (١٠٧١ - ١٢٥٢) [الذين اتخذوا مدن ارزنجان ، كماه ، ديوريكى عواصم] ، وبنى سكمن Sokmenogullari (١٠٩٨ - ١٢٣١) بنى ارتق Arlukogullari (يتنسب إلى هذه السلالة بلك Belek بك المشهور الذى سقط شهيدا فى جهاده ضد الصليبيين) وبلغاز (١١٠٤ - ١٢٤٠٧) فرع بنى ارتق فى ماردين ، بنى سكمن (١١٨٥ - ١٢٣٣) فرع بنى ارتق فى خربوطة ، وملوك الأيوبيين (١٢٠٠ - ١٢٥٩) فى ميافارقين (حاليا سلفان) ، وأتابكات أخلاط (١١٠٠ - ١٢٠٧) الذين يطلق عليهم اسم أرمن - شاهيون ، وأتابكات دياربكر (١٠٩٥ - ١١٨٣) الذين يطلق عليهم اسم بنى اينان ، والسوتاي (١٣١٢ - ١٣٥٠) الذين اعقبوهم فى عامد (اسمها الحالى دياربكر) . واكثرية هؤلاء قضى عليهم السلاجقة .

٥٦) الإمارات الأناضولية :

تزايد الأمراء التركمان الذين يطلق عليهم اسم أوج بك (أمراء الايالات الحدودية) بعد خضوع الامبراطورية التركية لسيادة الایلخانين واسس كل منهم

سلالة حاكمة أدت دورا فى صيانة الحدود التركية - الإسلامية تجاه البيزنط والمسيحيين فى الأناضول الغربية ، وقد كان هؤلاء حتى عام ١٣٠٨ أمراء تابعين لسلطة البادشاه المقيم فى قونية (وأحيانا فى قيصرى) .

لم يتوج الایلخانيون بعد وفاة مسعود الثانى فى ١٣٠٨ ، ملكا سلجوقيا على العرش التركى ، وإنما كان أمراء (بكات) التركمان هؤلاء يتبعون ایلخان المقيم فى تبريز مباشرة ، وتحت رقابة والى الأناضول العام الایلخانى المقيم فى أناضول الوسطى أو الشرقى .

دام هذا الوضع حتى عام ١٣٣٥ ، وعندما بدأت الدولة الایلخانية فى الانهيار (انهارت تماما فى ١٣٤٤) ، صارت الامارات الأناضولية مستقلة تماما . انقسمت الأناضول إلى دول متعددة وأصبحت مشابهة لألمانيا القرون الوسطى . وهكذا انفصم الاتحاد التركى ، واستمر الوضع على هذا المنوال حتى مجيء العثمانية واخضاع هذه الامارات والقضاء عليها الواحدة تلو الأخرى .

من ناحية أخرى كانت هنالك فى الأناضول ، أراضٍ لدول أخرى أيضا ، مثل مناطق : انطاكية ، عنتب ، مراش ، ملاطية ، حصن منصور (حاليا آدى يامان) ، كانت تابعة لممالك مصر - سوريا ، واقصى الأناضول كان تابعا للجلاترين الذين خلفوا الایلخانيين ، ولأصحاب الخرفان السود ، ولأصحاب الخرفان البيض وإلى ملوك الارتوقيين والأيوبيين الذين يقون على كيانهم ، وكانت الامبراطورية الرومية قائمة فى مناطق طرابزون ، ريزه ، أرتفين ، والموانىء كاماسرا ، صمصون ، بيغا كانت فى حوزة الجنويين . أما البيزنط فقد بقيت لهم أراضٍ قليلة فى الأناضول ، إذ إن السلالات التركمانية فى الأناضول الغربية ، فتحت الأناضول الغربية واخرجت البيزنط منها كما اخرجتهم من البحر الأبيض وابعجه . ان إمارات بنى بروانه Pervaneogullari (١٢٧٧ - ١٣٢٢) ، بنى جوبان çobanogullari الأمير الكبير لقطاع شمال الأناضول الغربية المتاخم لحدود البيزنط فى قسطنطينى (١٢٠٤ - ١٣٢٠) ، ارتنا أوغللى Eretnaogullari فى سيواس وقيصرى (١٣٢٧ - ١٣٨٠) وقاضى برهان الدين الذى احتل مكانهم وأسس دولة قوية فى القطاع الشرقى من أناضول الوسطى (١٣٨٠ - ١٣٩٨) - لاتعتبر من الامارات التركمانية الأصلية للأناضول الغربية .

أهم السلالات التركمانية الأصلية التي سميت الامارات الأناضولية باسمها هي :
بنو قره مان (١٢٥٠ - ١٤٨٧) الذين اتخذوا بين فترة وأخرى مدن أركلى ،
أرمئك ، لارندة (حاليا قره مان) وقونية .. عواصم لهم . اشتهر قره مان أوغلو
محمد بك الأول باعلانه فى ١٣ آيار ١٢٧٧ فى مدينة قره مان ، اللغة التركية ،
اللغة الرسمية الوحيدة المعتبرة . حيث قد أكثر بنو سلجوق من استعمال الفارسية
فى الشعر والعريية فى المعاملات الرسمية ، ولم يكن للشعب معرفة بهاتين اللغتين .
بلغ الحد الأقصى الذى توصل إليه توسع بنى قره مان (نحو ١٣٦٠)
١٠٠٠٠٠ كم^٢ تقريبا . وقد عاشوا مدعين انهم الورثة الشرعيون للسلاجقة وإن
كانوا لم ينجحوا فى جعل هذا الإدعاء مقبولا .

بنوجرميان Germiyanogullari (١٢٦٠ - ١٤٢٩) ، وهؤلاء كانوا أمراء
حدود كبارا للقطاع الجنوبى من الأناضول الغربية المتاخم للبيزنط . قاعدتهم
كوتاهية ، حدهم الأقصى فى التوسع هو ٤٤٠٠٠ كم^٢

بنو قراسى Karasiogullari (١٣٠٣ - ١٣٤٥) ، أقصى ماحكموا من
الأراضى ٢٤٠٠٠ كم^٢ . مركزهم بالكسير . قواعد بنى آيدن Aydinogullari
(١٣٠٠ - ١٤٥٥) هى آيدن (قديما كوزل حصار) ، برغى ، أيا سلوغ
وزامير ، أقصى مساحة توصلوا إليها ٢٠٠٠٠ كم^٢ . وقد أسس آيدن أوغلو
غازى عمر بك أسطولا كبيرا وسيدلر على بحر إيجة . وحقق هجمات بحرية كثيرة
على الجزر واليونان ، وثرانيا وأنزل فيها جيوشه ، واستشهد فى أزمير أمام الصليبيين
فى ١٣٤٨ .

بنو صاروخان Saruhanaogullari (١٣٠٠ - ١٤١٠) ، بلغت مساحة
مملكتهم ١٤٠٠٠ كم^٢ ، قاعدتهم مانسيا .

بنو منتشه (١٢٨٠ - ١٤٢٦) أقصى مساحة توصلوا إليها فى حكمهم
٢٣٠٠٠ كم^٢ فى بجين وبالاظ ، استمر حكمهم فى ولاية مغلا الحالية .

بنو أشرف Esrefogullari (١٢٨٠ - ١٣٩١) ١٦٠٠٠ كم^٢ ، قواعدهم
أولوبورلو ، أغريدز ، حامد آباد (حاليا اسبارطه) وأحد فروعهم بنو تكة
Tlekcogullari (١٣٠٠ - ١٤٢٣) ١٤٠٠٠ كم^٢ فى أنطالية وقور قودالى .

بنو إينانج Inançogullari (١٢٧٦ - ١٣٦٨) ، فى لادك (حاليا دنيزلى)
٨٠٠٠ كم^٢ وهم فروع من بنى كرميان .

ومن الإمارات التى تستحق الذكر الإمارة التى سميت فى البداية جاندار أوغللى
ثم اسفنديار أوغللى (١٢٩١ - ١٤٦١) وسعتها العظمى ٥٠٠٠٠ كم^٢
قواعدها افلاننى ، قسطنطينى وسينوب .
تاج الدين أوغللى (١٣٠٨ - ١٤١٥) بلغت سعتها العظمى ١٢٠٠٠ كم^٢
قاعدها نكسار .

قوتلو شاهلر (١٣٤٠ - ١٣٩٣) ، سعتها العظمى ٥٠٠٠ كم^٢ فى آماسيا .
راحت أوغللى ، فى سيواس خلال القرن ١٣ - ١٤ .
جمهورية آخيلر فى أنقرة (١٢٩٠ - ١٣٥٤) .

بنو دلقادار Dulkadirogullari (١٣٧٧ - ١٥٢٢) حدها الأعظم فى الاتساع
٧٠٠٠ كم^٢ فى البستان وقد تبعت المماليك حتى ١٣٩٩ ، وبعدها تبعت
العثمانية ، دام حكمهم على شكل إمارة حاجزة بين الدولتين الكبيرتين . تصاهر
دلقادار أوغللى مع العثمانيين بعدد كبير كبنى جاندار وبنى قره مان . وعلى سبيل
المثال فإن عائشة خاتون والدة السلطان سليم الذى أدمج السلطنة المملوكية فى
الدولة العثمانية ، أميرة دلقادرية .

بنو رمضان Ramazanogullari (١٣٥٢ - ١٦٠٨) ، إمارة أخرى حاجزة بين
المماليك والعثمانية . حدها الأعظم فى الاتساع ٣٣٠٠٠ كم^٢ ، حكمت فى
البستان وبعد ١٣٨٣ فى أدنة . سيطرت على جقوراوفا . خضعوا للمماليك حتى
عام ١٥١٦ . استمروا بعد ذلك كولاة للعثمانية .

استمرت هذه الإمارات بدخول معظمها فى خدمة العثمانية ، ولا يزال بعضها
الآخر مستمرا حتى يومنا هذا .

٥٧ (الحياة الثقافية فى تركيه السلجوقية :

عاش كل من مولانا جلال الدين الرومى (١٢٠٧ - ١٢٧٣) ، وحاجى
بكتاش ولى (١٢٠٩ - ١٢٧١) ، ويونس أمره (١٢٤٠ - ١٣٢٠) فى تركيا

السلجوقية . تأسست فى الأناضول فى هذا العصر طريقتان كبيرتان كالمولوية والبكتاشية تخاطب إحدهما المثقفين وتخاطب الأخرى الشعب .

جادت قريحة يونس امره بأجمل نماذج الشعر الصوفى ، ومن الناحية الأخرى نشأ وتطور الشعر الكلاسيكى التركى ، ويعتبر دهانى أكبر شاعر كلاسيكى تركى فى القرن ١٣ ، وقد جاء من خراسان ، وسكن فى قونية .

أما المؤسس الحقيقى للطريقة المولوية فهو سلطان ولد (١٢٢٦ - ١٣١٢) ابن مولانا ، ويعتبر عاشق باشا (وفاته ١٣٣٧) من بين الشخصيات الممتازة التى كتبت الشعر الصوفى التركى .

نصر الدين خوجا (خوجا نصر الدين) (١٢٠٨ - ١٢٨٤) الذى يعتبر داهية المزاج التركى ، من رجال العصر ذاته .

أحمدى (١٣٣٤ - ١٤٣٣) من الذين نهضوا بالشعر الكلاسيكى وخاصة فى أغراض الغزل والمثنوى .

وأخيرا ، نسمى الذى أعدم فى السنوات الأولى للقرن ١٥ لكونه حروريا . من أصحاب الشعر الصوفى الوجدانى الذين ظلت اشعارهم تتلى فى العالم التركى لعصور طويلة .

وكتاب ده ده قورقود الجامع والذى يحتوى على ١٣ حكاية ملحمة يعتبر من روائع الأدب التركى الكبيرى ، وقد حرر باللغة الكتائية فى أواخر القرن ١٥ ، غير أنه مشبع بعناصر التراث .

كان الأتراك الذين استوطنوا فى الأناضول وأسسوا الدولة التركية ، ينطقون بلهجة أوغز (أو الغرب) التركية . انقسمت هذه اللهجة فى أواخر القرن ١٥ إلى ٣ لهجات : اللهجة العثمانية أو الأناضولية أو التركية ، اللهجة الآذرية ، واللهجة التركمانية . أما لهجة أترك الشرق الأدبية ، فكانت لهجة جغتارى ، واستعملت حتى نهاية القرن ١٩ .

وقد كونت اللهجات المحلية كذلك ، أدبا جديدا فى القرن ١٩ . وحتى العصر ١٥ ، سميت اللغة المستعملة فى الأدب التركى فى تركيا (لغة) أناضول القديمة ثم التركية (اللغة) العثمانية .

لقد حاولنا فيما تقدم أن نرصد ونوضح الخطوط الرئيسية للتاريخ التركى غير العثمانى ، ولاشك فى أن ذلك يمثل فائدة ، بل مدخلا ضروريا هاما قبل البدء فى تناول التاريخ العثمانى . وتزداد هذه الفائدة والضرورة وضوحا بالنسبة للقراء الأجانب والمثقفين .

مصادر الكتب . إن مصادر الكتب بالنسبة للدول التركية الإسلامية ، متنوعة جدا وغنية جدا ، ولعدم تعلقها بموضوعنا فقد تحاشينا كتابتها . ومعظم المصادر لفترة قبل العثمانية من تاريخ تركية مدون باللغة العربية الفارسية واليونانية ، أما البحوث فمعظمها باللغة التركية ، وهى عبارة عن الكتب التى نشرت فى السنوات الأخيرة . وسوف تأتى مصادر الكتب لفترة تركية قبل العثمانية فى نهاية كتابنا ضمن مصادر العثمانية وضمن بحث بداية العثمانيين .



البحث الثاني

ظهور الدولة العثمانية وتطورها (١٢٢١ - ١٤٥٢)

ظهور العثمانية وتطورها (١٢٣١ - ١٤٨٣)

(١) منشأ بنى عثمان :

أرطغرل بك هو الشخصية الأولى - التى لدينا معلومات تاريخية عنها - من الأسرة التى سميت فيما بعد « عثمان أوغلو » (بنو عثمان) .
أرطغرل بك هو : أرطغرل بن كندز ألب بن قايا ألب بن كوك ألب بن صارقوق ألب بن قايا ألب . وهذه هى شجرة أرطغرل بك الافتراضية ، ومن المعلومات المؤكدة انه ينحدر من القبيلة الأولى من قبائل أوغز البالغة ٢٤ ومن عائلة بكات إحدى عشائر قايا التى تعتبر سلالة خاقانية ، ومن المعلومات المؤكدة أيضا أن أباه وأجداده هم بكات (أمراء) هذه العشيرة . ومذهب الأسرة هو المذهب السنى الحنفى .

يقال أن القصة التى شاعت أخيرا حول أن أول من اعتنق الإسلام من الأسرة هو أرطغرل بك وابنه عثمان بك ، قصة قد لفقت لاعلاء شأن العائلة .

من المحتمل أن قبيلة قايا ، التى تحتل الدرجة الأولى بين أجداد بنى عثمان ، هى من الأوغز Oguz الذين استوطنوا فى الأناضول الشرقية بعد انتصار ملازغرت مباشرة فى ١٠٧١ . إن الفرضية التى تقول بأن الاستيطان حدث نحو ١٢٢٠ على أثر زحزحة جنكيز الأوغزيين المقيمين فى الوطن الأعلى (تركمنستان الحالية وشمالها) من أماكنهم وإجباره إياهم على الفرار إلى الأناضول عن طريق إيران ، هى فرضية غير صحيحة ، حيث إن أجداد بنى عثمان سكنوا مدة طويلة فى أخطاط .

والمعروف أن بنى سلجوق عندما انتقلوا من ماوراء النهر إلى خراسان نحو عام ١٠٤٠ ، جاءت قبيلة قايى خان كذلك إلى ماهان جوار مرو . ويفترض أن هذه القبيلة قد انتقلت بعد ١٠٧١ إلى الأناضول الشرقية ، ومن المحتمل أن قايى آلب جد أرطغرل غازى كان على رأس قبيلة قايى عند القدوم إلى الأناضول (إذا كانت ولادة أرطغرل غازى فى ١١٩١ ، فإن الأمر يقتضى أن تكون ولادة قايى آلب فى ١٠٢٤) .

ومن حيث شجرة الأنساب العثمانية الرسمية ، فإن عثمان غازى بن أرطغرل غازى ، هو حفيد منه الذى يطلق عليه الأتراك اسم « أوغز خان » فى البطن الـ ٤٦ ، وبذلك يكون قايى آلب حفيده فى البطن الـ ٤٠ ، وإذا كان فرق السنين بين ولادة منه وعثمان غازى نحو ١٥٠٠ عام ، وإذا قسمت هذه المدة على ٤٦ يكون الناتج ٣٢,٥ سنة ($1500 \div 46$) فإن ٣٢,٥ سنة تعتبر مدة مثالية لنسل (بطن) واحد . (وفاة منه ، ١٧٤ ق . م) .

والمعروف أن عشيرة قايى قد سكنت فى المراعى المجاورة لاخلاط وأن هناك أحجارا وقبورا كثيرة لأجداد بنى عثمان الذين هم أمراء (بكات) عشائر قايى .

اخلاط قصبة تركية وبلدة مهمة من بلدان القرون الوسطى تقع على الساحل الشمالى - الغربى من بحيرة وان الكبرى فى شرق الأناضول (حاليا مركز قضاء فى ولاية بتلس) .

إن اسم والد أرطغرل بك هو كندز آلب ، ويبدو أن الروايات التى تقول بأن هذا الاسم هو سليمان شاه ، ضعيفة . والأرجح أن سليمان شاه هو ذكرى باقية من اسم فاتح الأناضول ومؤسس الدولة التركية ومن اسم أول سلطان لها ، وأن التفكير فى هذا الاسم قد نشأ ليكون اسما يربط بنى سلجوق ، ببنى عثمان ، خاصة أن بنى عثمان قد ظهوروا على مسرح التاريخ مدعين أنهم الخلفاء الشرعيون لبنى سلجوق .

ومن المحتمل كذلك أن كندز آلب كان أميرا من الدرجة الثانية فى خدمة الملك المنصور ناصر الدين ارتق أرسلان ، الملك السادس لبنى ارتق ماردين . ومن المعلوم أن بنى ارتق أيضا ينحدرون كبنى عثمان من قبيلة قايى . ويحتمل أن قايى

بك جاء إلى الأناضول كأحد أمراء اكسيك أوغلو ارتقى بك أحد فاتحي الأناضول .
وتدل المعلومات على أن عشيرة قايى قد تحركت من أخلاط نحو عام ١٢٢٩ ،
ثم تركت أخلاط إلى جهة أخرى ، ومع أننا لانعرف سبب ذلك ، فإنه يحتمل
أن لذلك علاقة بالاضطراب الذى أحدثه الاجتياح المغولى الذى وصل حتى أبواب
الأناضول . ياترى هل دعيت العشيرة تحت قيادة كندز ألب بأمر من ارتقى أرسلان
الأمير الارتقى فى ماردين للانضمام إلى الجيش الارتقى للدفاع عن ماردين دون
المغول أو جلال الدين خرم شاه أو أيوبى حلب ؟ ان احتمالا كهذا وارد كذلك .
(المسافة بين أخلاط وماردين ، عبارة عن ٢٠٠ كم) .

ونحن لانعلم كذلك سبب هبوط كندز ألب من حوض بحيرة وان إلى حوض
نهر دجلة ، ومجيئه من ماردين إلى مسافة ٢٥٠ كم (مسافة مستقيمة) إلى جوار
قلعة جابر نحو الجنوب - الغربى من سواحل الفرات . يحتمل أن ذلك كان بناء
على أمر من الملك الأرتقى ، خاصة أن من المؤكد أنه كانت هناك علاقة بين
جابر وبنى عثمان .

أما بالنسبة للرواية الكلاسيكية التى تقول بفرق سليمان شاه أبى أرطغرل بك
بحصانه أثناء عبوره الفرات قرب جابر ، فإنه لايمكن القطع بها ؛ فمنطقة جابر
هذه تقع بين رقه ومسكنه ، وهذا المكان ليس بعيدا عن المكان الذى سقط فيه
قتيلا فاتح الأناضول سلجوق أوغلو سليمان شاه (٥ حزيران سنة ١٠٨٦) ، كما
أن قبليج أرسلان الأول بن سليمان شاه ثانى سلاطين تركيا ، قد غرق كذلك مع
حصانه فى خابور رافد دجلة فى شرق تلك المنطقة أثناء عودته من الموصل (تموز
١١٠٧) ، ومن الأمور المحتملة كذلك أن يكون مبعوث كندز ألب قد هاجم
الأيوبيين فى حلب وغرق فى النهر أثناء ذهابه إلى تلك المنطقة .

على كل حال فإنه من المعلوم أن الفرنسيين قد وافقوا على ترك الموقع المسمى
تورك مزارى أى « القبر التركى » - قرب جابر ، للأتراك فى معاهدة لوزان
١٩٢١ ، ١٩٢٣ على الرغم من أنه يقع داخل الأراضى السورية ، كما سمح
الفرنسيون للأتراك بحق رفع العلم التركى على هذا الموقع وحراسته بجنود أتراك .
إن قصة جابر مازالت قصة لايمكن القطع بصحتها ومن المحتمل أن تكون

القصة برمتها قصة ملفقة ، وعندئذ تكون عشيرة قايى قد جاءت من أخلاط رأسا إلى الشمال الشرقى إلى ارزنجان التى تبعد عنها ٢٧٠ كم .

وعموما فإن تمحيص الموضوع يمكن أن يوصلنا إلى نتيجة تبدو أكثر صحة وأقرب إلى المنطق ، فضلا عن أنه يمكن استنباطها من جميع الروايات التاريخية . تلك هى أن اسم أبى أرطغرل غازى على الأرجح هو كوندز ألب وان هذا الشخص توفى فى ١٢٣٠ أو نحو ذلك وترأس العشيرة بعده أرطغرل بك .

يقال إن أرطغرل غازى من مواليد ١١٩١ . وبذلك يكون عمره فى عام ١٢٣٠ ، ٣٩ وهى سن نضج . نجد أرطغرل فى الشمال على مقربة من ارزنجان التى تقع على مسافة ٤٣٠ كم من جابر . أكثر مما نجده فى ضفاف الفرات وسوريا .

يلاحظ أنه فى ١٠ آب ١٢٣٠ كانت ارزنجان ميدانا لإحدى أكبر الحروب فى القرون الوسطى ، حيث تقابل الجيشان الأخوان التركيان ، السنيان - الحنفيان : عندهما اجتاز السلطان جلال الدين خاقان الترك الشرقيين وآخر سلطان خزرزم - شاهى الذى طرده المغول من أراضى أجداده فى تركستان - حدود سلطنة تركية ودخل الأناضول وأخذ يتقدم فيها غير مبال بنصيحة السلطان علاء الدين كيكبدا ، والتقى بجيش علاء الدين الكبير قرب ارزنجان حيث انكسر وترك أراضى الدولة التركية وابتعد عنها .

وقد يجدر أن نضيف إلى ما تقدم أن علاء الدين الكبير عندما دعا محاربين كثيرين للانضمام إلى الجيش الأناضولى ، كان من بين من سارع بتلبية هذه الدعوة أرطغرل وعشيرة قايى ، حيث شاركوا فى حرب ياصى جمن Yassicemen ، وهى حرب مهمة فى التاريخ التركى .

وتعتبر هذه من الحقائق التاريخية المستنبطة من الحكاية الموضوعية لاكساب السلالة العثمانية شرف الانضمام إلى الجانب السلجوقى وتأمين انتصار علاء الدين الكبير .

ومن الأمور المؤكدة أن أرطغرل غازى وعشيرة قايى قد اكتسبوا تقدير البادشاه التركى ، وكوفئوا على ذلك بتمكينهم من الحصول على أراض فى الغرب على

الحدود البيزنطية . وما لاشك فيه أن أرطغرل بك لم يعامل كأحد الأمراء الكبار المرتبطين بالحاكم التركي وبقوניה . حيث يبدو أن عدد عشيرته لم يكن كبيرا جدا ، ولكن البادشاه السلجوقي منح أرطغرل غازى بك قطاعا حدوديا صغيرا جدا ليتمكن من صيانة الحدود وتوسيعها واعطى أرطغرل غازى لأمر أمير بنى جوبان ، الأمير الأكبر القطاع الشمالى من الحدود البيزنطية .

وهكذا أستوطن أرطغرل بك وعشيرة قابى فى القسم الشمالى - الغربى من الأناضول . وقد كان ذلك فى عام ١٢٣١ على أرجح الأقوال .

٢) أرطغرل بك (١٢٣١ - ١٢٨١) :

قطع أرطغرل بك من ارزنجان نحو الغرب ٩٠٠ كم (مسافة مستقيمة) وجاء اقطاعيته (بالتركية : ديرلك) . تقع الأراضى التى أعطيت له ولعائلته لادارتها والتى تسمى بالتركية « يورد » عند حدود اسكيشهر - ييله جك - كوتاهية من الجمهورية التركية الحالية . وتقدر مساحة هذه الاقطاعية بما بين ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ كم^٢ . وهكذا وضع حجر أساس الدولة العثمانية فى ١٢٣١ .

اكتسب طغرل بك لقب « غازى » نتيجة غزواته المستمرة ضد البيزنط . استطاع توسيع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمر (وال) على مقاطعة حدودية (بالتركية أوج بك Marquis) ، إلى ٤٨٠٠ كم^٢ تقريبا . توفى فى ١٢٨١ وعمره ٩٠ سنة ودفن فى قصبة سوغت التى استولى عليها من البيزنط واتخذها قاعدة له . تضم الدولة التى خلفها أرطغرل بك ، بالنسبة للتقسيمات الإدارية الحالية ، بصورة تقريبية : سوغت وبوزيوك التابعة لولاية ييله جك ، اقصيه دومانج لولاية كوتاهية وناحية يارمجه الواقعة بين نهري بورسك وسقاريا لولاية اسكيشهر ، والقسم الشمالى من أسكيشهر إذا ما تركنا مدينة أسكيشهر فى الخارج .

هذه هى معالم الإمارة التى دامت نصف قرن (٥٠ سنة) لغاية ١٢٨١ . ونستعرض فيما يلى الصفات المميزة لهذه الإمارة .

٣) الصفات المميزة للمقاطعة (الولاية) الحدودية العثمانية (اوج بكلك) :

كتب الشاعر نامق كمال بك الأبيات التالية :

نحن ذلك النسل الكريم من العشيرة العثمانية

أصولنا امتزجت بدم الشهادة من الرأس إلى القدم

نحن أصحاب همم عالية ، نحن اصحاب جد واجتهاد

استطعنا بذلك أن نكون دولة عالمية كبرى من عشيرة واحدة

تعكس أبيات نامق كمال بك عددا من الحقائق ، فقد كانت عشيرة قايمى التى ينتسب اليها أرطغرل بك عبارة عن ٤٠٠ خيمة ، لايحتمل أن يزيد عددها على ٤٠٠٠ شخص بمن فيهم النساء والأطفال . وهؤلاء الذين كونوا نواة الدولة ، وانضم إلى هؤلاء فيما بعد ودخلوا تحت سيادة أرطغرل بك التركمان الذين قدموا بعد ذلك عندما اتسعت رقعة أرطغرل بك بالأراضى التى استولى عليها من البيزنط خلال نصف قرن ، كما اصبح من بين رعايا إمارته مسيحيون (روم) نتيجة الفتوحات .

يشكل التركمان الرحل القادمون ، القلب النابض فى المقاطعات الحدودية العثمانية وأمثالها ، وقد كان هؤلاء أكثر فعالية من الأتراك ذوى الثقافة الفارسية والعربية المستوطنين فى المدن الكبيرة فى الأناضول ، لقد كان هؤلاء التركمان محاربين جيدين ، يتلهفون إلى الجهاد والغزو ، ينتسب كل منهم إلى أحد شيوخ الطرق وإلى إحدى التكايا ، حيث تعلموا معنى وجاذبية وسمو « إعلاء كلمة الله » .

كان الشيوخ والدرأيش (يسمون أحيانا الغزاة الدرايش) المستحمسون لترويج طرق « أولياء خراسان » يقومون بتربية التركمان الذين ليست لديهم روابط وثيقة بالدين الإسلامى تربية إسلامية ويشجعونهم بالقيم التى تتمثل فى تعظيم فتح الأقطار لاكتساب أراضٍ جديدة لتوسيع رقعة دار الإسلام . ويتم توطين هؤلاء فى الأراضى التى فتحت حديثا ويتم تحريك الكتل الأكثر حيوية وحماسة وشبابا إلى أقصى الغرب إلى نهاية الحدود . وتحور القصبات إلى مدن تركية إسلامية ، مركزها المسجد الذى تقام حوله مؤسسات اجتماعية مثل التكية والمكتب (مدرسة

ابتدائية) ، والمدرسة (مؤسسة التحصيل المتوسط) ، والحمام ، والجشمة (حنفية ماء للوضوء والشرب مشيدة بشكل خاص) ، وكان أمراء (ولاية) المقاطعات الحدودية يسدون ضرائب طفيفة جدا إلى البادشاه السلجوقي في قونية ومن ثم إلى إيلخان في تبريز ويتلون الخطبة باسميهما ويستعملون مسكوكاتهم التي يسكانها .

كان أرطغرل غازي يتقاضى حتى من تكفور قلعة ييله جك الرومي خراجا سنويا . إذ لم يكن لديهم بعد السلاح الكافي لفتح قلعة . ومن المعلوم أن قواتهم كانت تعتمد في ذلك الوقت على الخيالة .

٤ (عثمان بك (١٢٨١ - ١٣٢٤) :

احتل عثمان بك - وهو في سن الرابعة والعشرين على الأرجح - مكان أبيه أرطغرل الطاعن في السن ، كان عثمان بك أيضا من ولاية المقاطعات الحدودية (أوج بك ، بالفرنسية : Marquis) وكان الوالي الحدودي الكبير (بالفرنسية : Duc) في القطاع الشمالى من الحدود البيزنطية فى الأناضول الغربية : تابعا جوبان : ألب - يورك بك ، ثم مظفر الدين يلك أرسلان بك (١٢٨٤ - من جوبان : ألب - يورك بك ، ثم مظفر الدين يلك أرسلان بك (١٢٨٤ - ١٢٩٢) ، وآخرهم ناصر الدين محمود بك (١٢٩٢ - ١٣٠٠) ، ثم احتل بنو جاندار مكان بنى جوبان ولعل هذا يفسر استكبار بنى جاندار على العثمانيين بعد ذلك (ان بنى جاندار كبنى جوبان أما بنى عثمان من قبيلة قابى الأوغزية فقد استوطنوا فى أراضيهم كأمرء عشيرة قابى) .

أما القطاع الجنوبى للحدود البيزنطية ، فكان يتولاها فى البداية بنو دانشمند كأمرء مقاطعات كبار ، ثم تولاه بنو جرميان الذين احتلوا مكانهم . أما أمراء الحدود الصغار كبنى آيدن وبنى ساروخان ، فهم أمراء (بكات) بنى جرميان من قبيلة آوشار الأوغزية . أما كاراسى أوغللى الذين ينحدرون من بنى دانشمند ، فقد كانوا مستوطنين فى غرب بنى عثمان على ضفاف آسيا من بوغاز جناقلعة . وقد تبع عثمان بك بنى جرميان لفترة من الزمن بدلا من بنى جوبان الذين فقدوا

أهميتهم . وقد كان مما زاد فى أهمية واعتبار بنى جرمان قيام أمرائهم (أمير آيدن ، وأمير ساروخان ، وأمير منتشه) بالاستيلاء على كافة ضفاف ايجه من يد البيزنط .

والسؤال الآن : كيف برزت العثمانية بين هذا العدد من أمراء المقاطعات الحدودية ؟ لقد كانوا فى البداية إحدى أكثر الإمارات الحدودية تواضعا ، حتى انه لم تكن بأيديهم بلدة يمكن أن تكون بمثابة مدينة . فأيمة معجزة تلك التى أبرزت بنى عثمان والمعتهم كالشمس بينما لم يبق لسلالات الامارات الحدودية العديدة الأخرى من اسم ولاجسم ؟ .
ان لذلك سببين رئيسيين :

السبب الأول جغرافى - سياسى ، وهو يدخل فى إطار ضربات الحظ الاستثنائية التى لا تتكرر ، فقد أتاحت الظروف لأرطغرل بك وطننا فى جنوب شرقى بحر مرمره وكأنه على مدخل البيزنط ، وبذلك فقد كان أرطغرل بك أقرب أمير من حدود البيزنط ، ولم يكن سواه من الأمراء الحدوديين فى مثل هذا الوضع الخطير . وقد أوجب هذا الوضع على العثمانية أن تتخذ الحذر الدائم ، وأن تكون على أهبة الاستعداد للقتال والجهاد والغزو فى كل لحظة ، وهو موقف يبرره أن اكتساح الروم لمثل هذه الإمارة بوضعها الجغرافى كان من الناحية الجغرافية يسهل من اكتساح غيرها من الإمارات .

والسبب الثانى : هو الخصائص الجسمية والنفسية لأرطغرل بك ونسله الذى جاء من أخلاط إلى دومانيج . ونحن لانكاد نجد لدى الإمارات التركمانية فى الأناضول الغرية عسكريا وإداريا داهية بالمعنى التام عدا آيدن أوغلو أوامور بك ، أما الآخرون فلا يزدون على كونهم قادة يقومون بأداء واجباتهم على الوجه الأكمل . وعلى خلاف ذلك كان الوضع بالنسبة للسلالة العثمانية ، فقد أنجبت دهاة متعاقبين ، وكل حاكم اعتلى العرش تفوق على من كان قبله بامكانياته وخصائصه ، كما تميزوا بالقدرة على التخطيط والحركات العسكرية المحسوبة التى كانت تستهدف كل منها هدفا معينا ، وأيضا قاموا بتنظيم أنفسهم فى تشكيلات جيدة جدا ، ولقنوا رعاياهم الاعتماد الكبير على أنفسهم .

كان عثمان غازى الذى خلف أباه فى اعتلاء إمارة المقاطعة الحدودية تابعا فى البداية لجوبان أوغلو (قسطنطينى) ، ثم للسلطان السلجوقى من خلال جرميان أوغلو (كوتاهية) ، الذى كان تابعا بدوره لایلخان . وانا لنجد فى الحقيقة أن البادشاه السلجوقى قد فقد فى هذه الفترة القدرة الفعلية على تسيير الأمور ، وكان لایلخان يسيّر اعماله بواسطة الولاة العاملين الذين هم فى الوقت ذاته قادة عامون يعينهم فى الأناضول ، وكان على الأمراء الحدوديين - ومن بينهم عثمان بك - أن يرسلوا الجند فى حالة طلب والى لایلخان ذلك .

ازدادت أهمية عثمان بك قبل مضى ١٠ سنوات . فتح قره جه حصار قرب اسكيشهر فى ١٢٨٨ أو ١٢٩١ ، وجعلها قاعدة له وأمر بتلاوة الخطبة باسمه . وبطبيعة الحال ، فإنه كان يذكر أولا اسم الخليفة العباسى فى مصر ، ثم لایلخان المقيم فى تبريز ثم البادشاه السلجوقى فى قونية ثم اسم عثمان بك . وفى كانون الثانى ١٣٠٠ ، أرسل السلطان السلجوقى علاء الدين كيكباد الثالث إلى عثمان غازى علامات السلطنة كالطبل ، والعلم (الراية) وشارة الرأس (طوغ) . وبذلك أصبح عثمان بك - بصورة رسمية - أمير مقاطعة حدودية كبيرا (بيوك اوج بك) . (الفرنسية : Duc) ، لا يفوقه فى وضعه هذا أى أمير حدودى آخر . وفى هذه الفترة كان عثمان بك تابعا لسلجوق أوغلو بصورة مباشرة ، ثم تابعا لایلخان فى تبريز بصورة مباشرة بعد وفاة البادشاه السلجوقى الأخير مسعود الثانى بعد ١٣٠٨ وحتى ١٣٣٥ حقق عثمان بك فى هذه الفترة انجازات ضخمة ، فقد هزم تكفور (والى) بورصة البيزنطى الذى سار اليه بـ ٥٠٠٠ جندى فى الحرب الميدانية قويونحصار (٢٧ / ٧ / ١٣٠٢) وأصبح اسمه مشهورا لدى البيزنط . على الرغم من أن عثمان بك كان يستهدف بورصة فإنه أسس فى عام ١٣٠١ قصبة ينشهر على طريق ايزنك - ييله جك ، واتخذها قاعدة مؤقتة له لفترة من الزمن .

وبكل المقاييس فإن عثمان بك يعتبر مؤسسا للسلالة ، ولا يقدح فى ذلك أنه لم يسم خانا أو سلطانا إلا بعد وفاته ، حيث إنه لم يلقب حال حياته بغير بك (أمير) وان كان من المعروف أنه لقب بألقاب أخرى مثل فخر الدين ومحى الدين .

ومن الأمور التي ينبغي أن تذكر أن العثمانية قد قدمت عددا كبيرا من أمرائها شهداء في حروبهم مع البيزنط ، ومن بين هؤلاء الشهداء كوندز ألب بك (المسمى باسم جده) أخو عثمان بك الذي استشهد في عام ١٣٠٦ ، والأخ الآخر لعثمان بك والمسمى غازي صار يياطي صابوحي بك الذي استشهد في عام ١٢٨٨ ، وابنه بكخوجة بك الذي استشهد في عام ١٢٨٧ .

بلغت مساحة الإمارة التي تركها عثمان غازي في ١٣٢٤ ، ١٦٠٠٠ كم^٢ فقط . وإذا ما وضعنا في الاعتبار أن أبا عثمان بك ترك له ٤٨٠٠ كم^٢ من الأراضي فإن ١٦٠٠٠ كم^٢ التي تركها عثمان بك تعادل تقريبا ٥ / ٣ أضعاف مساحة الإمارة التي تركها أبوه .

ومن الأمور التي تلفت النظر أن فتوحات عثمان بك كانت ذات أهداف ومغزى ، شمالا وصل إلى الضفة الشرقية من نهر سقاريا واقترب كثيرا إلى مدخل النهر والبحر الأسود . وفي الغرب نفذ إلى البحر حيث استولى من البيزنط على الضفاف الجنوبية لبحيرة ايزنك وكذلك أخذ الضفاف الشرقية لبحيرة اولوباد (Apolont) ونفذ إلى بحر مرمرية بعد أن ظفر على الضفاف الجنوبية لخليج كملك ورسيف مودانيا الذين يقعان بينهما في منطقة متوسطة . (تعتبر ليزنك أهم مدينة للبيزنط في الأناضول تقع على الحدود العثمانية) .

ولقد كان عثمان بك استراتيجيا بعيد النظر حيث وجه فتوحاته إلى البيزنط باعتبار أن كل فتح يناله منهم سيزيد من قوته . كما أنه في نفس الوقت تحاشى بكل جهده التصادم مع جيرانه أمراء الأناضول المحيطين به كإمارة جيرمان أوغلو القوية التي كانت تغطي كامل جنوب امارته ، وكأمانة جمهورية آخى شرقا في أنقرة التي كانت تحت نفوذ وحماية إمارة قره مان المقتدرة ، وكأمانة جاندار أوغللري التي تقع الى الشمال الشرقي من إمارته ، وأراضى كاراسى أوغللري الواقعة غربا . وعلى الرغم من أن كل هذه المنطقة كانت تشكل مجالا ملائما للانتشار العثماني من حيث الخروج إلى البحار المفتوحة فإن عثمان بك ، لم يمسه .

من فتوحات عثمان بك اسكيشهر في ١٢٨٨ ، يليه جك في ١٢٩٩ (أو ١٣٠٤) ، وفي العام نفسه ابنه كول ، ومودانيه في ١٣٢١ ، حاصر عثمان بك

بورصة سنوات عديدة . ولم يكن فى ذلك الوقت يملك الأسلحة الكافية لاسقاط هذه القلعة بالقوة ، ومات قبل استسلامها ، ولو تم له فتحها لكان بذلك قد حصل على مدينة وقاعدة حقيقية وبالنسبة للتقسيمات الإرادية الحالية فإن الدولة التى تركها عثمان بك عبارة عن : ولاية ييله جك ، وقضاء اسكيشهر المركزى ، واقضيه كيفه ، وآيازى ، وخندق التابعة سقاريا ، وقضاء دومانج فى كوتاهية ، واقضيه مودانيه ، وينيشهر ، وابنه كول فى ولاية بورصة .

٥ (السلطان أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢) :

اشتهر أورخان بك فى عهد أبيه كمسكرى ممتاز ، تولى الإمارة وعمره ٤٣ سنة كأمر كبير لمقاطعة حدودية (بيوك أوج بل) . كلف اخيه علاء الدين على بك بانجاز الأعمال المدنية ، فقام بانجاز ما كلف به حتى استشهد أمام البيزنطيين فى ييغا عام ١٣٣٣ (استمر نسله لغاية ١٥٣٠) .

استولى أورخان غازى على بورصة فى ٦ نسيان ١٣٢٦ واتخذها قاعدة له . وأصبح بعد هذا الفتح سلطانا وملكا حقيقيا . لم يرفض تبعيته لایلخان حتى ١٣٣٥ ، وفى هذا التاريخ اصبح مستقلا تمام الاستقلال ، وبصفته أقدر أمراء ورثة السلاجقة التركمان ، فقد أعلن بصورة رسمية أنه الخلف الشرعى للعرش السلجوقى الذى خلا .

اختلفت مواقف الإمارات الأخرى إزاء هذا الإدعاء ، فبينما عارضته صراحة إمارة قره مان أوغلو الذى كانت بيده قونية مدينة عرش السلاجقة ، تأرجحت مواقف الإمارات الأخرى بين التعاون مع إمارة قره مان أوغلو والموافقة على موقفهم المعارض أحيانا وبين مساندتهم لبنى عثمان كسبا لودهم وخشية من قوتهم العسكرية المتنامية أحيانا أخرى .

بعد فتح بورصة فتح أورخان غازى ليزنك التى تمتاز بأنها أكبر بورصة (فى ذلك العهد) فى أيار ١٣٢٩ وبصورة قطعية فى ٧ / ٣ / ١٣٣١ ، ولم تغلح حملة الامبراطور البيزنطى Andronikos Poleologos الثالث على العثمانية لتخليص ليزنك عندما قابل أورخان غازى الامبراطور فى موقع Pelekanon بالقرب

من كتره داريجاسى فى شمال خليج ايزمت مع جيشه البالغ ٨٠٠٠ شخص .
تمكن اوزخان غازى من هزيمة العدو بسهولة ، وجرح الامبراطور ، وفقد أورخان
فى هذه الواقعة ٢٧٥ شهيدا فقط ، وغنمت العثمانية السراقد الامبراطورية
والرايات الامبراطورية وطلب الامبراطور بحث طرق المصالحة .

طبقت شهرة السلطان أورخان بك العثمانى العالم بأسره . وحصل نحو عام
١٣٣٥ على ألقاب « سلطان » و « سلطان الغزاة » و « غازى ابن الغازى »
و « شجاع الدين ، اختيار الدين ، سيف الدين » .

إن هزيمة الحاكم البيزنطى الذى يعد (امبراطور روما) والحاكم الأول من
جهة الألقاب والتشريفات الأوربية فى حرب صحراوية مفتوحة ، زادت فى نفوذ
السلطان أورخان فى تركية ونفوذه على الإمارات الأناضولية ، كما أنه غدا ينظر
إليه فى البلقان كمعصر موازنة .

بدأ السلطان أورخان فى اتباع سياسة دقيقة مع البيزنط تساندها القوة العسكرية
ولاتميل إلى البدء بالاعتداء . صرحت العثمانية منذ ذلك بسياستها التى تتلخص
فى النفاذ إلى البحار المفتوحة والوصول إلى المضائق .

ألحقت بالعثمانيين فى ١٣٤٥ أول إمارة تركية ، كاراسى . وهكذا ضبط
العثمانيون ضفاف آسيا من بوغاز جناق قلعة ، والضفة المقابلة كانت أوربا .

إن العثمانيين الذين وصلوا فى الجنوب إلى خليج جاندارلى أخذوا من البيزنط
آخر الأراضى المتبقية فى جنوب بحر مرمرة (كيرماستى وقره جه بك ١٣٤٢ ،
شبه جزيرة قابودا فى ١٣٤٥ ، جزر مرمرة ١٣٥٢) ، وقد دخلت شبه جزيرة
قوجا إيللى حوزة العثمانية . وهكذا فتح الجانب الآسيوى من ضفاف بوغاز
استانبول كذلك ، عدا بعض القرى . انتقلت اسكدار إلى حوزة العثمانية . بولو ،
فى ١٣٢٦ وبصورة قطعية فى ١٣٥٤ ، انتقلت الإمارة الصغيرة التى كانت تحت
نفوذ جاندار اوغللى الذين يطلق عليهم أومور بك أوغللى إلى العثمانية . انتقلت
كافة سواحل البحر الأسود من رصيف آقجه قوجا إلى البوغاز ، وجميع ضفاف
مرمرة الجنوبية والشرقية ، إلى العثمانية ، وأخيرا فى ١٣٥٤ ، أخذوا انقره وانتهت
جمهورية آخى . كان هذا التطور يكسب العثمانية وفرة فى العدد وفى القوة

الاقتصادية اللازمة . ولم تعد بها حاجة إلى التصادم مع جاراتها أورخان أوغلو الجنوبية - الغربية ، كرميان أوغلو الجنوبية ، قره مان أوغلو الجنوبية الشرقية ، ارتنا أوغللى الشرقية ، جاندار أوغلو جارتها الشمالية - الشرقية .

(٦) الغازى سليمان باشا والعبور إلى روملى (١٣٥٣ - ١٣٥٧)

يعتبر العبور إلى روملى ودخول الأتراك العثمانيين إلى البلقان والقارة الأوروبية ، أحد أهم الوقائع التاريخية ؛ إذ إنه عدا تأمينه تأسيس الامبراطورية العثمانية ، فانه غير مجرى التاريخ الأوروبى ومصير الدول الاوربية كذلك .

كان رئيس البيزنط حاكم شبه جزيرة البلقان السابق ، على خلاف مع الاقوام والدول البلقانية ، ولم يكن قادرا على إدارتهم . وعندما تقابل أورخان بك بالامبراطور فى ١٣٤٧ فى اسكدار تناولا بالحديث التدابير المشتركة .. تجاه الخطر السلافى فى البلقان .

وفى ٣ شباط ١٣٤٧ ، دخل - كحلفاء وبدعوة من الامبراطور - ٦٠٠٠ - جندى عثمانى ليلا إلى مدينة (استانبول) البيزنطية ، وكان الامبراطور قد دعا السلطان اورخان كذلك إلى المدينة ، لكن البادشاه لم يقبل الدعوة . منذ ذلك الحين اخذت الوحدات العثمانية - وعلى الاغلب بقيادة ولى عهد .. شهزاده سليمان باشا الابن الاكبر للسلطان أورخان ، فى العبور إلى روملى ، يحاربون السلاف الذين أصبحوا بلاء على البيزنطيين ، ويعودون .

جاء طليعة الغازى سليمان باشا ، وهو آيدن أوغلو غازى أو موربك مع جيشه وأسطوله عدة مرات لمساعدة الامبراطور البيزنطى ودخل روملى ثم عاد . وفى المرة الأخيرة وعندما طلب الامبراطور المساعدة من أو موربك ، اجابه آيدن أوغلو بأنه مشغول بالحرب مع الكاثوليك اللاتين - اعداء البيزنط - فى أزمير ، ومن ثم فانه سوف يتعذر عليه المجيء ، وأوصاه بطلب المعونة من أورخان بك بن عثمان . وقد نفذ الامبراطور ذلك .

وفى ١٣٤٧ ، أراد سليمان غزو جزيرة امروز ، لكنه هزم . ثم اجتاز سليمان باشا إلى روملى مع ١٠ ٠٠٠ جندى فى البداية ، وفى ١٣٤٩ مع ٢٠ ٠٠٠ جندى وأوقف أعداء الأمبراطور عند حذهم .

وصل سليمان باشا في حملته الاخيرة هذه إلى سلانيك وخلص المدينة من الحصار ، وقد كانت على وشك السقوط في يد الصرب ، وسلمها إلى الامير Mattheos Kantakuzinos . اشتركت في هذه الحملة ٢٢ قطعة من سفن العثمانية .

وفي عام ١٣٥٢ عبر إلى عهد - شهزاده غازى سليمان باشا إلى روملى ، وشتت بسهولة جيش الاتفاق الصربى - البلغارى الذى كان بنوى الحملة على استانبول في الحرب الميدانية Dimetoka .

اعترافا بفضل سليمان باشا ، أهدى الامبراطور إليه في ١٣٥٣ قلعة جمبة Gimpa الصغيرة الواقعة على الضفة الاوربية من بوغاز جناتقلعة ، لتسهيل عبوره إلى أوربا .

وهكذا حازت العثمانية وللمرة الأولى أرضا في القارة الأوربية بصورة رسمية وشرعية . وذلك بعد ٩٠ عاما من الاجتياز الأول للامارات التركمانية الذى كان في عام ١٢٦٣ (يعتبر اجتياز عام ١٣٥٣ هو الاجتياز الـ ١٧) . وعلى ذلك فان فتح روملى يكون نتيجة جهود مرحلة تحضيرية طويلة .

وعند إلحاق العثمانية دولة قراسى أصبحت تمتلك أسطولا صغيرا أيضا . وبالحاق دولة قراسى بالعثمانية أصبح للعثمانية أسطول صغير ، فقد كان لبنى قراسى (قراسى اوغوللرى) أسطول حرى وجنود بحرية وأميرالات مجربون .

طور سليمان باشا هذا الاسطول وجهاز رصيف أدنجك (آيدنجك) المواجه لباندرمه ، في الرأس الشرقى لخليج اردك ليكون قاعدة بحرية لهذا الأسطول . وبهذا الأسطول عبر سليمان باشا بوغاز جناتقلعه وفتح في ٢ آذار ١٣٥٤ قلعة غاليبولى ذات الأهمية البحرية - كقاعدة - في جهة بحر مرمره من شبه جزيرة غاليبولى على الساحل الأوربى ، ولذلك فان هذا الفتح يشكل إحدى وقائع التاريخ التركى المهمة .

وحتى الهول ١٣٥٧ ، وزلل أرجل حصان سليمان باشا وكبوته ووفاته باصطدام رأسه على الحجر وعمره ٤١ سنة ، (اى خلال مدة ٣/٥ سنة) - استطاع سليمان باشا الاستيلاء على كامل شبه جزيرة غاليبولى ، وفتح المناطق في الشمال حتى لوله برغاز ، ووصل في الغرب إلى حدود نهر مريچ ، وفتحت جورلو مع لوله برغاز في العام ذاته (١٣٥٧) ، وبذلك أصبح البيزنط محاصرين من الغرب كذلك .

ترأس حركات روملى بدلا من سليمان باشا ، أخوه ولى العهد الشهزاده (الامير) مراد بك واستمر فيها .

توفى السلطان أورخان فى آذار ١٣٦٢ بعد سلطنة دامت ٣٨ سنة ، وعمره ٨١ سنة . بلغت مساحة الأراضى العثمانية فى هذا التاريخ ٩٥٠٠٠ كم^٢ ، وهى تمثل ٦ أضعاف الاراضى التى كانت عند جلوس السلطان أورخان : تشمل هذه المساحة كامل ولايات ييله جك الحالية ، بورصه ، بالكسير - مع جزر مرمره - ، سقاريا ، قوجا ايلي ، وبالإضافة إلى ولاية جناقلعه : اقضية ييغا ، امروز (كوكجه آدا) ، بوزجا آدا ؛ ولاية أسكيشهر عدا جفته لروسيد غازى ، قسم آسيا من استانبول عدا عدة قرى فى الجزر والبوغاز ، اقضية كشان وايسالا لولاية ادرنه ، وقضاء لوله برغاز لولاية قرقر ايلي ، ولاية تكرداغ عدا قضاء سراى ، اقضية سوما وقرق آغاج لولاية مانيسا ودومانج لولاية كوتاهية وبرغامة وديكىلى وقينق لولاية أزمير ، أقضية المركز ، نالليخان ، بك بازارى ، عياش ، قيزاجه حمام ، حيماننا ، بولاتلى لولاية أنقره .

وهكذا ترك السلطان أورخان قطرا لا يستهان به ، خاصة اذا عرفنا أن تعداد هذه الاراضى فى ذلك العصر كان يفوق بكثير تعداد ملكية إنكلترا (الدولة العثمانية نحو ١٣٦٢ ، أكثر بقليل من ٣ ملايين تقريبا ، أما إنكلترا فكانت مليونين اثنين) . الأمر الآخر الذى ينبغى الإشارة إليه أنه منذ ١٣٣٢ ، كان للسلطان أورخان ٩٠ ٠٠٠ جندى (٤٠ ٠٠٠ منهم خيالة و ٥٠ ٠٠٠ مشاة) ، وعند فتح إمارة قراسى فى ١٣٤٥ ، انضم جنود هذه الامارة البالغ عددهم ٢٥٠٠٠ إلى العثمانية ، ولم يكن على هذه الایام لای امير اناضولى بصورة قطعية ١١٥٠٠٠ جندى . وعلى سبيل المثال فان من بين أقدر الجيوش ، كان جيش قره مان اوغلو ، وهو عبارة عن ٥٠٠٠٠ جندى منهم ٢٥٠٠٠ خيال و ٢٥٠٠٠ مشاه . وتبين هذه الارقام مقدار أرجحية كفة الميزان لصالح العثمانية . ولقد ولد توفير الغازى سليمان باشا الفرصة لنفسه من أعماله فى روملى وقدمه إلى انقرة ، وقبول انقرة الانضمام إلى العثمانية دون اية مقاومة مثل دولة قراسى - قلقا جديا فى قره مان ، وأخذت تتراءى فى الافق حرب عثمانية - قره مانية اكيدة .

(٧) مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩) يفتح البلقان

عقدت ولاية العهد لمراد الأول قبل أربع سنوات ونصف من وفاة السلطان أروخان وذلك بدلاً من شقيقه سليمان باشا الذى يكبره بعشر سنوات . وعند وفاة السلطان أروخان جلس على العرش السلطان مراد وعمره آنذاك ٣٦ سنة . جلس فى آذار ١٣٦٢ وفى تموز من العام ذاته أخذ أدرنة .

اصبحت أدرنة مركزا لروملى ومدينة العرش الثانية ، وتحولت من مدينة بيزنطية متواضعة كبورصة إلى بلدة إسلامية تركية كبيرة .

كان السلطان مراد امبراطورا حقيقيا (سلطانا معظما) ، نال بصورة رسمية ألقاب : « سلطان الغزاة والمجاهدين ، ملك المشايخ ، غياث الدنيا والدين ، شهاب الدين غازى هنكار خداوندكار ، ليث الاسلام ، او الفتح ، غياث المسلمين ، السلطان العادل » وقد صادق على هذه الألقاب الخليفة العباسى فى القاهرة .

فى السنة التالية لجلوس السلطان مراد ، أى فى عام ١٣٦٣ ، اجتاز نهر مريچ نحو الغرب ، وفتح فيلييه واجتاز مريچ نحو الشمال وفتح اسكى زغرا ووصل جبال البلقان .

دعا البابا اوربانوس الخامس ، المسيحيين إلى حملة صليبية ضد « الاتراك الكفرة » .

اتحد ملوك المجر : صربيا وبوسنة مع أمير رومانيا (افلاق) ، واقتربوا إلى مسافة عدة كيلو مترات من أدرنة . لم ير حاجى البك ضرورة لانتظار البادشاه ، وجابه العدو فى الموقع الذى سيدعى صرب صنديفى وأباده فى ١٣٦٤ . وبذلك يكون العثمانيون قد قطعوا فى البلقان مسافة لا يستهان بها .

نجح ملك المجر لايوش الاول من الموت صدفة . وعند عودته إلى بلاده شيد كنيسة لمرضاة السيدة مريم ، إظهارا لشكره . هذه هى الحملة الاولى التى جهزت ضد العثمانية .

فتحت وأخذت الاراضى حتى تساليا ومكدونيا ، والمراكز كده ده آغاچ (١٣٦٢) ، كمولجينه (١٣٦٣) ، ساماكوف (١٣٦٧) ، قاوالا (١٣٧١) ،

دراما (١٣٧١) . اعترف ملك بلغاريا الذى اتخذ ترنوفاً مركزاً له فى ١٣٧٠ بتبعيته للعثمانية .

تحالفت بلغاريا ورومانيا عسكرياً وأرادتا دفع الاتراك إلى الخلف . وفى الحرب الميدانية جبرمن Girmen (١٣٧١/٩/٢٦) هزم جيش بلغاريا ورومانيا ، وقتل كل من ابنى ستيفان دوشان ، أحدهما ملك صربيا فوكاشين (١٣٥٥ - ١٣٧١) وأخوه ولى العهد - أمير اوكليشا Uglisa . وصل الغزاة الاتراك ، إلى سواحل الادرياتيكي .

وفى عام ١٣٦٥ اعترفت جمهورية دبروفنك (بالايطالية Ragusa) الواقعة على الادرياتيكي بسيادة العثمانية . وانتقلت المراكز مثل كارافيرا (١٣٧٢) ، كوستندل (١٣٧٢) ، نيش (١٣٧٥) ، صوفيا (١٣٨٢) ، مناسطر ، كوريجه ، اوهرى ، دبره (جميعها فى ١٣٨٥) ، ترنوف ، لوفجه ، بلونه ، زشتوفى ، رسجك ، تتركان ، سليستره (جميعها فى ١٣٨٨) إلى الاتراك . اعترفت ملكية الصرب بالسيادة العثمانية عليها ، وحذاً أمير دوبروجه حنوها فى ١٣٨٨ . اخذ الأتراك تساليا ووصلوا شمالاً إلى الطونة وجنوباً إلى آتيكا وغرباً إلى البانيا وفى الشمال - الغربى إلى بوسنه .

اضطر حميد أوغلو إلى ترك أكثر من نصف أراضى الإمارة بسمر رمزى قدره ٨٠ قطعة ذهبية . وانتقلت الاماكن مثل آقشهر ، بكشهرى ، سيديشهرى ، يالواج ، شرق قره آعاج - إلى حوزة العثمانية .

فصلت الدولة العثمانية إمارتى جرميان وقره مان ودخلت بينهما وأصبحت تحاصر قره مان من الشمال ومن الغرب .

وفى ١٣٨٢ ، اعترفت إمارة حميد بالسيادة العثمانية ، وفى السنة التالية اعترفت أيضاً إمارة جاندار بالسيادة العثمانية ، وأعقب هؤلاء أمير آماسيا فى ١٣٨٥ . ورغم أن بنى جاندار وبنى قره مان تراوجوا مع العثمانية وارتبطوا بروابط قرابة متينة ، لكنهم كانوا بعيدين عن فكرة الموافقة على إحداث وحدة أناضولية لصالح العثمانية . وفى جوكهزا ، أضرمت نار أول حرب عثمانية - قره مانية فى ١٣٨٦ - ١٣٨٧ .

كانت قره مان تعتمد على ملكية قبرص اللاتينية وعلى سلطنة مصر المملوكية التى

تدعى (أى قره مان) أنها تحت سيادتها . وعندما عقدت معاهدة صداقة بين السلطانين العثماني والمملوكي في ١٣٨٦ ، حرمت قره مان من المساندة المملوكية . ورغم ذلك تجاسرت على احتلال بك شهرى التى أخذتها من إمارة حميد العثمانية .

سار السلطان مراد إلى قره مان بـ ٧٠ ٠٠٠ جندى ، وبمناورة عسكرية آنية أجراها ولى عهد - شهزاده بايزيد التى أكسبته لقب « يلدزم » (برق) وأسفرت المناورة عن انهزام القره مانين بسرعة البرق ، شتت الجيش القره مانى .

ذهبت نفيسة ملك سلطان خاتون زوجة قره مان أوغلو علاء الدين بك ، إلى أبيها السلطان مراد وانكبت على قدميه طالبة العفو عن زوجها . وجاء قره مان أوغلو وقبل يد أبى زوجته البادشاه ، فعفا عنه .

كان للسلطان مراد شأن فى البلقان ، ولم يكن يرغب فى زج نفسه فى قضايا الأناضول الوسطى ، وكان يعلم ان كل انتصار يحرزه فى البلقان سيكون السبب فى انضمام إمارة جديدة فى الأناضول إلى العثمانية دون قتال .

دخل قولاً شاهين باشا إلى بوسنة مع ٢٠ ٠٠٠ جندى فى عام ١٣٨٨ . هزم فى بلوشنيك قرب نيش وخسر ١٥ ٠٠٠ جندى بين شهيد وأسير وجريح . أما الوزير الاعظم جاندارلى - زاده على باشا ، فقد خرج مع ٣٠٠٠٠ جندى على ضفاف الطونة ، واستولى على آخر ماتبقى لدى ملكية بلغاريا من الاماكن .

قام الصرب - البوسنويين الذين أثبتوا إمكان الانتصار على الأتراك بواسطة ٣٠ ٠٠٠ جندى ، بمحاولة تنظيم حملة صليبية جديدة . تجمع جيش مسيحي جديد . بقيادة حاكم صربيا لازار ومساعدته ملك بوسنة Tvrtko . شارك فى هذه الحملة كل من أمراء المجر ، بولونيا ، رومانيا (أفلاق) ، مولدافيا (بغداد) وبلغاريا بوحداتهم .

التقى السلطان مراد وابناه الاثنان مع العدو فى صحراء كوسوفا فى ٢٠ حزيران ١٣٨٩ . دامت الحرب الميدانية الكبرى مدة ٨ ساعات ، أيّد العدو عن بكرة أبيه ومعه قائده العام . استشهد السلطان مراد وعمره ٦٣،٥ سنة بعد سلطنة دامت ٢٧ سنة و٣ أشهر أثناء تفقده ساحة الحرب بعد الانتصار على يد أمير صربى جريح أقرب منه بدعوى أن لديه مايعرضه . دفنت أحشاؤه فى صحراء كوسوفا فى القبر الذى

سمى مشهد خدازندكار والذي بقى حتى يومنا هذا مقاما مقدسا بالنسبة لمسلمى
البلقان . نقل جثمانه إلى بورصة .

ادخل انتصار كوسوفا الساحق البلقان تحت الحكم التركى الاسلامى لمدة ٥٠٠
سنة . ترك السلطان مراد إحدى أقوى الامبراطوريات العالمية وخاصة من الناحية
العسكرية . بلغت مساحة الامبراطورية عند وفاة السلطان مراد ٥٠٠ ٠٠٠ كم^٢
تقريبا . (مساحة الاراضى الاوروبية فى البلقان ٢٩١٠٠٠ كم^٢ ، والاراضى
العثمانية فى الأناضول فى آسيا تتجاوز ٢٠٨٠٠٠ كم^٢) .

وتفصيلا على الوجه التالى :

فى الأناضول (بالنسبة إلى التقسيمات الإدارية الحالية) : ولايات بورصة ،
بالكسیر ، بيله جك ، قوجالىلى ، سقاريا ، أسكيشهر ، بولو ، كوتاهيه ، أفيون ؛
ولاية جناقلعة عدا مروز وبوزجه آدا ؛ ولاية أنقرة عدا كسكين ، قيرقلعه شرفلى
قوجحصار ؛ ولاية استانبول عدا الجزر ؛ اقضية آقشهر التابعة لقونيا ، أقضية بك
شهرى ، سيدى شهرى ، بالواج التابعة لاسبارطه ، شرق قره آعاج ، سوما التابعة
لمانيسا ، قرق آعاج ، برغامة التابعة لازمير فينق ، ديكيل ، وكمناطق حماية : اماره
جاندار (ولايات قسطنطينى ، سينوب ، صمصون ، زنفداق ، جانقرى وقسما
جورم) ، اماره اماسيا ، اماره حامد (ولايتى بوردر واسبارطه) .

وفى البلقان : شبه جزيرة غاليبولى Gelibolu ولايات ادرنه ، قرقلارابلى ،
تكرداغ ، قضاء جتالجه ، كامل بلغاريا الحالية ، تراقيا الغربية عدا جزيرة سمندرك ،
مدينة سلاتيك بشبه جزيرة هالكيدكيا ، مكدونيا الجنوبيه عدا جزيرة تاشوز ،
تساليا ، مكدونيا الشمالية (مكدونيا اليوغسلافية) ، كوسوفا ، نيش (صربيا
الجنوبية) ؛ شرق ألبانيا ، شرق قره داغ وكمناطق حماية : جمهورية دبروفنك اماره
دوبروجه ، اماره صربيا .

وهكذا تكون مساحة الامبراطورية التى خلفها السلطان أورخان قد تضاعفت
أكثر من ٥ أضعاف خلال ٢٧ سنة .

ونورد فيما يلى آراء بعض المؤرخين المسيحيين بشأن السلطان مراد :

كتب أحدهم : « خاض السلطان مراد بنفسه ٣٧ حربا ، انتصر فيها جميعا ، أصبحت له شهرة القائد الذى لا يقهر ، تميزت كل تحركاته بأنها كانت تستند إلى خطة ، وحتى فى شيخوخته لم يفقد شيئا من قدرته ودهائه » (المؤرخ البيزنطى المعاصر له Phrantzes ، طبعة بون ، ص ٨١) .

وكتب آخر :

« قاد ٣٧ حربا فى روملى والأناضول وانتصر فى جميعها . كان جسورا ، رابط الجأش ، فعالا ، شديدا ونشيطا فى شيخوخته كما فى شبابه ؛ منظما ، لا يهمل أى تدبير ، ولا يشرع فى عمل مالم يخططه بكامل وجوهه . يعامل الدول والأشخاص الذين يطيعونه ويقومون بخدمته بالحسنى واللين والكرم مهما كانت أديانهم . كان قاسيا على من يظهر له العدا . لم ينج أحد من قبضته . يصدق فى قوله حتى ولو انقلبت الأمور إلى ضده بعد ذلك ، حصل على ثقة الجميع سواء من الأعداء أو الأصحاب » (المؤرخ البيزنطى المعاصر له Khalkokondylas طبعة باريس ، ص ٢٩) .

وكتب ثالث :

« كان متفوقا على جميع معاصريه من الحكام ورجال الدولة فى العالم . فاق الحدود التى تخيلها والده . أمن مصالح الدولة العثمانية التى هى أحد التطورات المذهلة جدا فى التاريخ كله ، نال ثقة الروم وربما محبتهم . عامل الأرثوذكس معاملة أفضل بأضعاف من معاملة الكاثوليك للأرثوذكس » (المؤرخ الانكليزى Gibbons ، اوكسفورد ١٩١٦ ص ٥٢) .

وكتب رابع :

« لا يمكن أن يعثر على حاكم على مستوى السلطان مراد ، بين معاصريه من الحكام الأوربيين . لم يكن داهية عسكريا وأستاذ استراتيجيا فحسب ، بل كان فى ذات الوقت دبلوماسيا مرهفا . كان حاكما بالفطرة . جعل من العثمانيين ، أمة موحدة . عرفهم بالمثل وزودهم بها . كان عند وفاته قد أمن مستقبل هذه الدولة لـ ٥ قرون » (المؤرخ الفرنسى Fernard Grenard ، باريس ١٩٣٨ ص ٥٢) .

(٨) يلدزم بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٢)

يحقق وحدة الأناضول

بايزيد هو الأبن الأكبر للسلطان مراد وولى عهده ، أطلق عليه لقب « يلدزم »
(برق) منذ حملة قره مان ١٣٨٧ .

اعتلى العرش وعمره ٢٩ سنة ، فى عام ١٣٧٨ صاهر جرميان أوغلو الذى تنازل له عن مدينة عرشه كوتاهية وجوارها كجهاز لابنته . جلس بايزيد على عرش جرميان فى كوتاهية ، وفى ١٣٨٦ ، أصبح إضافة لذلك أول لواء (وال ، سنجق بك) لحמיד (اسبارطة) كما أصبح لفترة من الزمن ، أول لواء (وال) على آماسيه . اشترك فى حملات أبيه بجنود هذه الألوية وكان يقود على الأغلب الجناح الأيمن للجيش العثمانى. نودى به سلطانا فى ساحة الحرب على إثر استشهاد أبيه فى صحراء كوسوفا .

ثارت قره مان واحتلت كوتاهية بينما كانت العثمانية فى معركة البقاء أو الفناء فى كوسوفا ، وأغرى ذلك بعض الإمارات الخاضعة للنفوذ العثمانى كصاروخان ، آيدن ، تكه ، جرميان وحتى إمارة حميد التابعة لحكم العثمانية المباشر - بالثورة . أعلنت تلك الإمارات أنها لن تسمح بحدوث أى تغيير فى الموازين الحالية بين الإمارات الأناضولية ، ولن تسمح بتحقيق الوحدة التركية . من الواضح أن قره مان كانت ترى أنها مادامت لم تتمكن من تأسيس الوحدة فى تركية السلجوقية ، فإنها لن تسمح للعثمانيين بإنجاح ذلك .

أنهى يلدزم بايزيد أعماله فى روملى ، وجاء مسرعا إلى بورصة . وفى الأيام الأولى من عام ١٣٩٠ تحرك نحو الجنوب . ودخل خلال أشهر شباط وآذار بالتسلسل إلى إمارات جرميان ، آيدن ، منتشه ، صاروخان ، عرض الأمراء طاعتهم للبادشاه وتخلوا عن إماراتهم لصالح العثمانية دون أية مقاومة . أعطى بايزيد لكل منهم مقاطعة (ديرلك) . الحقت بالعثمانية ولايات صاروخان (مانيسا) ، ازميز ، آيدن ، منتشه (موغلا) ، اوشاق ودينزلى . وبذلك حاز العثمانيون أعظم الموانئ فى ايجيه ، آيدن ، منتشه ، كما حازوا أسطول صاروخان ونفذوا من سواحل منتشه إلى البحر الأبيض . كما حازوا قلعة آلاشهر وهى القلعة الأناضولية الوحيدة التى بقيت لدى البيزنط .

جاء السلطان بايزيد إلى أنقرة ، وهى أكبر مركز لاإالة أناضولى ، وقضى شتاء عام ١٣٩٠ - ٩١ فيها .

أقلق قضاء الجيش العثمانى فصل الشتاء فى الشمال وفى موقع مركزى ، عدو العثمانية قاضى برهان الدين المتمركز فى القسم الشرقى من الأناضول الوسطى ، كما أقلق قرة مان المتمركز فى القسم الغربى منها . وفى خريف عام ١٣٩١ ، تحرك البادشاه من أنقرة إلى أسبارطة مرة أخرى ومنها دخل إلى مدينة قونية ، كان قره مان اوغلو داماد علاء الدين بك زوج أخت السلطان بايزيد قد هرب من قونية إلى طاش لىلى ، دعاه السلطان بايزيد وأخبره بأنه سترك الإمارة له ، شرط الاخلاص له وعدم الخروج على تبعيته ، ثم ترك قونية . رافق الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى ، يلدزم بايزيد فى حملته الأناضولية الثانية . وقد كان بايزيد ينظر إلى الامبراطور على أنه تابع له بينما كان الامبراطور يعتبر نفسه حليفاً على قدم المساواة مع السلطان بايزيد ، ظل الامبراطور مانويل الثانى ضيقاً فى سراى بورصة مدة طويلة وكان شخصاً عالماً ومحسن التكلم بالتركية ، وقد التزم باتجاهات السياسة العثمانية الخارجية إزاء البيزنط .

دكت ٦٠ قطعة من قطع الأسطول العثمانى جزر ساقز ، كيكلاذ ، آغيبوز التى يحتلها اللاتين الكاثوليك وبذلك يكون السلطان بايزيد قد أخطر جمهوريات البنادقه ، الجنوبيين والايطاليين ، إنه كان يستعد لهاصرة البيزنط .

وفى ١٣٩١ اصطف ٦٠٠٠ جندى تركى على امتداد السور وراقبوا الدخول والخروج لمدة ٧ أشهر ، ويفهم من هذا الإجراء إنه لم يكن حصاراً بالمعنى المفهوم للحصار وإنما كان مجرد حجز ، وقد كان السلطان يأمل أن يخضع له الامبراطور دون حرب كما فعل أمراء الأناضول .

وفى صيف ١٣٩١ ، ولأول مرة اجتاز بايزيد الطونة نحو الشمال ودخل رومانيا ، وشنت الجيش الرومانى فى الحرب الميدانية Argeso . وأمر الأمير Mircea .

ودخلت رومانيا المسماة افلاق (رومانيا الجنوبية) تحت الحماية العثمانية ، وسيظل هذا الوضع ٤٨٧ سنة حتى ١٨٧٨ .

وفى ١٣٩٢ ، فتح البادشاه سلايك وأخذ شبه جزيرة هالكيدكيا من البيزنط

وقطع ارتباط البيزنط بمكدونيا ، ثم جاء إلى كارافيريا وبنى شهر (باليونانية . Larissa) ، وألحق تساليا .

وفي ١٧ تموز ١٣٩٣ ، دخل الجيش التركي إلى ترنوبا وخلع ملكها الأخير شيشمان من العرش ، أما أخوه الأمير ستراتسمير فقد تمكن من البقاء حتى ت ١٣٩٦/١ .

(كانت ترنوبا وفيدين يحكمهما أميران بلغاريان يتبعان الإدارة العثمانية) .

وفي الوقت الذي كان فيه البادشاه في روملي ، شكل في الأناضول كل من قره مان - وجاندار وقاضى برهان الدين حلفا ضد العثمانية .

جاء السلطان بايزيد من بورصة إلى قسطنطينية . أراد جاندار اوغلو سليمان باشا الثاني ، صهر فاتح روملي ولي عهد - شهزاده غازي سليمان باشا ، صده ، ولكنه هزم وسقط قتيلا (ت ١٣٩٢ / ٢) . انتقلت ولايات قسطنطينية ، زونغلداق ، جانتقيري ، جورم إلى العثمانية . أما اسفنديار بك أخو سليمان باشا الثاني الموجود في سينوب - من بنى عثمان من جهة الأم - فقد عرض طاعته .

أما الحرب مع قاضى برهان الدين فقد كانت أشد ، كان الجيش العثماني قد دخل في البداية إلى سيواس ، ثم قيصري (إبريل ١٣٩١) . هزم القاضى برهان الدين ، الجيش العثماني الذي يقوده ابن يلدرم الثاني شهزاده أرطغرل في حرب قرق ديلم الميدانية قرب جورم وقتل الشهزاده (تموز ١٣٩٢) . جاء شهزاده محمد إلى آماسيا مع ٣٠.٠٠٠ جندي (ك ١٣٩٣ / ٢) .

استمرت الفتوحات في مكدونيا الشمالية وفي البانيا . فحقت اسكب التي استعادها الصربيون لفترة ، بصورة نهائية (١٣٩٢ / ١ / ٦) .

وفي ١٣٩٧ ، جاء السلطان يلدرم بايزيد إلى اليونان . دخل أثينا . انتقل إلى مورا . أرغم أمراء البيزنط الموجودين في مورا على قبول خضوعهم لسيادته . وقعت هذه الحملة بعد انتصار نيغبولو .

عاود قره مان التمرد عندما كان الجيش العثماني في نيغبولو ، فسار إليه يلدرم بعد عودته من حملة اليونان ألغى البادشاه الذي دخل قونيا في ١٣٩٧ إمارة قره مان

وألحقها كايالة ثالثة بعد ايلالتى اناضولى وروملى .

جاء يلدرم إلى مدينة لارنده (قره مان) . أمر باعدام زوج أخته قره مان أوغلو علاء الدين بك وانتقلت قونية ، نيفغه ، اقسراى وديوه لى حصار - إلى العثمانية . سمح يلدرم لفرع من بنى قره مان بأن يستمر تحت سيادة العثمانية فى الجنوب فى سواحل البحر الأبيض ، فى موت ، سلفكه وآنامور (انجل وطاش ايلى) .

وفى ربيع عام ١٣٩٨ ، جاء يلدرم إلى صمصون . ألحقت العثمانية سواحل البحر الأسود إلى الحكم العثمانى حتى نهر هارشيت . كانت أراضى امبراطورية طرابزون الرومية (البيزنطية) تبدأ من شرق نهر هارشيت . قتل قاضى برهان الدين فى هذه الأيام (تموز ١٣٩٨) . دخل ولى عهد - شهزاده سليمان مع ٢٤٠٠٠ جندى سيواس وضم جميع أراضى قاضى برهان الدين إلى العثمانية .

وفى ربيع عام ١٣٩٩ ، جاء يلدرم كذلك إلى سيواس وشاهد الوضع . أصبح شهزاده محمد جلبى واليا على سيواس . أخذ البادشاه ملاطية من المماليك فى صيف عام ١٣٩٩ ، وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك فى الوقت الذى كان فيه خطر تيمور ماثلا على أبواب الأناضول (ايلول ١٣٩٩) .

احتل يلدرم كذلك المدن المملوكية كحصن منصور (آدى يمان) ، كاهته ، بسنى دارنده ، ديوريفى ، البستان ووصل الفرات بسيطرة تامة . اعترف بنو دلقادر بعد ذلك بالسيادة العثمانية عليهم (١٣٩٩/٩/٢) ، وخضعت خربوت وارزنجان . وهكذا تكونت الوحدة الأناضولية وأعيد إحياء تركية علاء الدين كيكباد .

(٩) نيفبولو (٢٥ ايلول ١٣٩٦)

كان من نتائج عبور العثمانية من شمال أطلونه ودخولها الأراضى الرومانية والمجرية ، وتهديدها البيزنط بصورة خطيرة ، توحيد جميع أوربا ضد تركية . كما أن محاصرة أو حجز العثمانيين للبيزنط للمرة الثانية طيلة أشهر صيف عام ١٣٩٥ ، وماترتب على ذلك من عدم إمكان الدخول إلى الأسوار البيزنطية أو الخروج منها دون موافقة العثمانية ، بالإضافة إلى قيام السلطان بايزيد بتشديد القلعة المسماة كوزلجه حصار (اناضولى حصارى) على الضفة الآسيوية من البوغاز ، ومحاولة العثمانيين لإخراج

اللاتين الكاثوليك من بحر الخرز (ايجيه) .. كل ذلك حرص أوروبا على تشكيل حملة صليبية جديدة .

حشدت أوروبا ١٣٠.٠٠٠ جندي مسيحي مجهزين بصورة جيدة ومن خيرة وحدات كل قطر .

أرسلت ملكية المجر ، وملكة فرنسا ، وملكة إنكلترا ، وإمبراطورية ألمانيا ، وملكة بولونيا ، وجمهورية البندقية ، وملكة كستيليا (اسبانيا) ، وملكة آراغون ، والبابوية ، وفرسان رودس ، وملكة النرويج ، وملكة اسكتلندا ، وفرسان توتون Toton ، وجمهورية جنوة ، ودول أوربية صغيرة أخرى - وحداتها الممتازة جدا للانضمام إلى هذا الجيش . ووضعت البندقية أسطولها تحت أمر الحملة . استغرقت الاستعدادات وقتا طويلا ، وكان البابا هو صاحب الدعوة . صرفت الدراهم بمبالغ لم يسبق أن شوهدت في أوروبا القرون الوسطى .

كان كل ذلك يشير إلى أن أوروبا قد قررت بصورة نهائية إخراج الأتراك من البلقان وسوقهم إلى الأناضول ، ثم يأتي بعد ذلك الجيش الصليبي إلى القدس ليخلصها من المماليك ! كانت هذه هي الخطة فيما يبدو .

اجتمع المجلس العسكري الأعلى في بودابست وانتخب ملك المجر سيفوسمند الأول للقيادة العامة . أعلنت تركيا التي كانت على علم بكل هذه الترتيبات الحرب على المجر في شباط عام ١٣٩٦ . اجتاز الجيش الصليبي الحدود المجرية - التركية ودخل الأراضي العثمانية . وجاء أمام قلعة نيقبولو على الضفة الجنوبية من ألتونة . لم يستسلم قائد القلعة دوغان بك ، وجاء يلدريم بايزيد أثناء ذلك مع ٧٠.٠٠٠ جندي إلى ترنوبا ، وأتم استعداداته النهائية وسار إلى الصليبيين الذين جاءته الأنباء بتوقفهم منذ ١٥ يوما أمام قلعة نيقبولو . وكان يلدريم بايزيد أرسل من ناحية أخرى ٢٠.٠٠٠ جندي إلى نمر شبقا لم يشتركوا في الحرب .

كان الجيش الصليبي مؤلفا من ١٣٠.٠٠٠ جندي ، ٦٠.٠٠٠ منه عبارة عن جيش ملكة المجر المكون من أقوامها المختلفة . والوحدة الكبيرة التي تليه هي ١٠.٠٠٠ فرنسي بقيادة الأمير الفرنسي قورقوسز (الجسور) Jean . لم يكن هؤلاء قد شاهدوا حربا بهذا الحجم ولاطالعوها في الكتب . كانوا جنودا جيدين ،

لكنهم كانوا قد اعتادوا على مقاتلة خمسة أو عشرة آلاف شخص وجها لوجه على أكثر تقدير . كل منهم لا يجيد لغة الآخر ، وكانوا يجهلون تكتيك الحرب التركي . اضطربوا عندما ضيق يلدزم بايزيد عليهم الخناق ، وأرادوا النجاة عن طريق الطونة ، لكنهم شاهدوا أن النهر من أوله إلى آخره مرصوف بالسباهية الأتراك . كان الأتراك يقتلون بالسيف من لم يستسلم منهم . سقطت الراية الفرنسية الكبرى على الأرض ورفعت ست مرات لسقوط ستة رجال مختلفين من حملة الراية ، قتل . أخذ الأتراك الراية عند سقوطها للمرة الأخيرة من يد قائد القوات البحرية الفرنسية الأميرال Jean de Vienne الميت . لم تنجح هذه المقاومة العنيدة في تلافي وقوع الهزيمة .

مات أو غرق في نهر الطونة حوالي ١٠٠ . ٠٠٠ جندي مسيحي ، كما وقع حوالي ١٠ . ٠٠٠ جندي أسرى في يد الأتراك وتمكن حوالي ٢٠ . ٠٠٠ من الهرب بشكل منفرد . (خسائر الأتراك غير معلومة ؛ تذكر المصادر الأوربية أن حجم الخسائر قد بلغ ٣٠ . ٠٠٠ جندي تركي بين قتيل وجريح) من بين القتلى الأمير فيليب دي لا بار والاميرال Devienne .

ومن بين الذين تمكنوا من الهروب ، ملك المجر سيغسموند ، هنري الرابع ملك انكلترا القادم ، الأميرال الكبير البندق Mocenigo (الذي أصبح بعدها رئيسا للجمهورية) ، Friedrich Von Hohenzollern قائد فرسان تولون Tolon . اما اهم الذين وقعوا في الأسر ، فهم كونت بوركونديا Jean Sons Pour (قورقوسز جين اى جين الجسور) الذي لايهاب ، وهو أحد الشخصيات المهمة في التاريخ الفرنسي) ، الأمير Philippe de Capet - Artois - Eu ، الأمير Hnri Jacques de Copet - Bourbon - de la Marche ، الأمير هنري دي لورين Henri delorraine ، المارشال Bouci cault ومجموعة من ٢٧ شخصا من أكبر أشراف فرنسا ، وأمثال ذلك من الأئمة الأخرى .

جرى حصار استانبول الثالث في ١٣٩٧ بعد نيبولو ، وجرى الحصار الرابع خلال ١٣٩٩ - ١٤٠١ على إثر ذهاب الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني لانكلترا وزيارته المراكز الأوربية مدة ١٣ شهرا لطلب المساعدة . وكان الحصار الرابع ويحتمل الأخير مستمرا عند دخول تيمور إلى الأناضول . تحقق للقوة البحرية التركية التفوق

البحرى فى بحر ايجيه ، بعد نيغولو وسبقت البندقية فى هذا المجال وقامت بتحركات مهمة .

(١٠) واقعة أنقرة (٢٨ تموز ١٤٠٢)

وخلال هذه السنين أسس تيمور بك الكبير خاقان أتراك الشرق (تركستان) ، امبراطورية عظمى تمتلك أقدر جيش ودولة فى العالم تمتد من الصين إلى مصر . وكان يلدزم بايزيد قد أثبت خاصة بعد انتصاره فى نيغولو - لأوربا المتحالفة ، انه يملك دولة كبرى وجيشا عظيما ، وانه المقتدر الثانى فى العالم بعد تيمور .

لا يمكن لدولتى العالم الأولى والثانية الكبيرتين أن تقيما علاقات حسنة من الناحية الجغرافية السياسية ، حتى ولو كانتا تتكلمان اللغة ذاتها وتدينان بالدين والمذهب ذاته . وهذا ماحدث . تمكن يلدزم من النجاة من بلية تيمور باتباعه دبلوماسية دقيقة . كانت مواهب يلدزم العسكرية أكثر تفوقا من مواهبه الدبلوماسية .

اقرب تيمور إلى تركيا وهو متردد . حمت العثمانية أعداء تيمور بشكل سافر . كان تيمور قد أصبح كبير السن ولم يكن كثير الرغبة فى الحملة على يلدزم بايزيد بنى عثمان الذى يعتبر أكبر الغزاة فى العالم الإسلامى وإثارة مشاعر العالم الإسلامى التى لم تكن أساساً فى صالحه . لكنه كان عازما على فتح الصين وادخال هذه البلاد إلى الإسلام ، وكان يعلم أن العثمانية لاتبلى بأية حدود ، وكان يخشى من استيلائها على أقطار الشرق الأوسط وأقطار الحكام الذين لجأ بعضهم إلى بورصة التى فتحتها تيمور حديثا . من المعلوم أن يلدزم كان شابا جسوراً مغروراً وحريصا .

قام تيمور بحملته الأولى على الأناضول فى عام ١٤٠٠ . جاء إلى سيواس . أقام بالقوج أوغلو مصطفى بك دفاعه الطويل والخييف بـ ٤٠٠٠ من جنده تجاه مالا يقل عن مائتى ألف من جيش تيمور . دخل تيمور المدينة وخرّبها . قتل كافة الأسرى العثمانيين وعددا غير قليل من الشعب . لكنه لم يكن قد شاهد خلال حياته الطويلة صمود قلعة إلى هذه الدرجة من الشدة . وأدرك عدم إمكان اسقاط القلاع الأناضولية الواحدة تلو الأخرى على هذا المنوال . كان عليه ان يظفر بالجيش العثمانى السيار ، ويبيده . انسحب تيمور من الأناضول إلى قفقاسيا بعد أن أخذ من العثمانية ملاطية (١٤٠٠/٩/١٥) ، وخلال ذلك كان السلطان بايزيد قد حضر مع جيشه

إلى قيصرى . رفض تيمور الحرب ، كان يأمل أن يقر يلدرم بتبعيته له مثل سلاطين
الطون اوردى ، الممالك والهند . لم يتحقق أمله هذا ، وردّ يلدرم طلب تيمور
بصيغة فيها تحقير . حاول تيمور خلال قضائه الشتاء في قفقاسيا ، اقناع امرائه بشن
حرب نهائية مع العثمانية . كان رأى أمراء تيمور وحتى أولاده وأحفاده ، أنه لا يلقى
بهم الحملة على الدولة العثمانية السنية - الحنفية مثلهم والتي تنطق بالتركية والتي تعتبر
حاملة لراية جهاد الدين الإسلامى . أقنع تيمور قواده الذين خالفوه فى رأيه باحتمال
ضرب يلدرم الجيش التيمورى من الخلف أثناء حملته على الصين . وساعده على
إقناعهم بهذا سياسة يلدرم .

دخل تيمور الأناضول مجددا فى ١٤٠٢ ، وفى شهر تموز وصل أنقرة . تجول
مدة طويلة فى الأناضول وأتعب يلدرم الذى كان يتعقبه . كان لديه ٣٠٠ ٠٠٠
جندى وجميعهم منظمون جدا . وفى مقدمة الجيش ٣٢ فيلا مدرعا تدش الناظرين .
كان أبناء تيمور واحفاد كثيرون له قواد فرق فى الجيش . جاء يلدرم مع ١٢٠ ٠٠٠
جندى . بدأ الصدام فى صباح يوم ٢٨ تموز واستمر حتى غروب الشمس . لجأ
جميع الأمراء التركان الذين حرمهم يلدرم من عروشهم إلى تيمور وانضموا بوحدات
اماراتهم إلى جيشه . كان ذلك أحد الأسباب الكبرى فى هزيمة العثمانية . ذلك
بالاضافة إلى أن فارق العدد كان كبيرا ، ونحو العصر ، قطع ولى عهد - شهزاده
سليمان مع الوزير الأعظم جاندارلى - زاده على باشا الأمل فى النصر ، فتركا ساحة
الحرب مع فيلق مؤلف من ٣٠ ٠٠٠ شخص .

كان البادشاه فى القلب وقد ظل يحارب إلى أن أسر ليلا فى جتالتبه .

كانت خسائر تيمور ٤٠ ٠٠٠ ، وهى خسارة لم يسبق له أن تكبدها ، فقد
كان أقصى ماتكبدته من خسائر فى معارك سابقة لايزيد على ٦٠٠٠ . كان طريق
سمرقند - انقره ، الذى يبلغ طوله الحقيقى حوالى ٦٠٠٠ كم بعيدا جدا عن قاعدته .
وقد أخطأ يلدرم خطأ كبيرا بقبوله الحرب الميدانية بدلا من حرب العصابات .

كانت معركة أنقرة أكبر حرب ميدانية حدثت على وجه الأرض خلال القرون
الوسطى (٤٧٦ - ١٤٥٣) . وفى هذه الحرب التحم اثنان من أكبر الحكام
العسكريين فى التاريخ ، وفيها تبارى لاحراز النصر خاقانان تركيان مسلمان كانا
يقتسمان الاقطار بين الصين والادرياتيک ومعهما أبناؤهما .

ولذلك فإن معركة أنقرة تعد في التاريخ التركي إحدى أكبر الكوارث التي أخرجت نمو العثمانية وفتوحاتها نصف قرن ، كما أطالت عمر البيزنط والقرون الوسطى ٥٠ سنة ، بالإضافة إلى أنها أخرجت وحدة الأناضول ٧٠ سنة . ولم يتمكن السلطان ياوز سليم من ضم بعض الأراضي التي كانت على عهد يلدريم أراضى عثمانية إلى الأراضى التركية مجددا إلا بعد ١١٥ عاما من معركة أنقرة .

عاش السلطان بايزيد الذى أسره تيمور فى الأسر مدة ٧ أشهر و ١٢ يوما . توفى فى آقشهر قرب قونية فى ٣ آذار ١٤٠٣ . ارسل جثمانه إلى بورصة . وعلى أثر وفاته ، اطلق تيمور سراح موسى جلبي أحد ابني بايزيد الذين أسرا معه . وأحضر مصطفى جلبي ابنه الآخر الذى يكبره إلى سمرقند .

دامت سلطنة يلدريم بايزيد مدة ١٣ سنة ، وشهراً ، و ٨ أيام وكان عند وفاته فى سن ٤٣ .

نال بصورة رسمية وكذلك بتصديق من الخليفة العباسى فى القاهرة لقب « سلطان إقليم روم » وأعلن نفسه امبراطورا على روما وأضاف هذا اللقب إلى سلطنته حيث إنه كان متبوعا لامبراطور روما الشرقية .

بلغت مساحة دولة تركية قبيل معركة أنقرة ٩٤٢٠٠٠ كم^٢ ، بما يعنى أنها توسعت خلال ١٣ سنة نحواً من ٤٤٣٠٠٠ كم^٢ منها ٤٤١٠٠٠ كم^٢ منها فى أوروبا فى البلقان ، ونحو ٥٠٠ ٠٠٠ كم^٢ فى آسيا فى الأناضول .

أما الدول المستقلة ذاتيا فى هذه الأراضى فهى : إمارة افلاق (رومانيا) وإمارة الصرب وإمارة مورا البيزنطية ودوقية أثينا اللاتينية وإمارة دلقادر . وبقية الإمارات كان يديرها الولاة العثمانيون بصورة مباشرة .

من أشهر القواد الذين ساعدوا يلدريم والسلطين الذين سبقوه فى هذه الفتوحات : حاجى ايليكي (وفاته ١٣٦٤) والوزير لالاشاهين باشا (وفاته ١٣٨٦) والوزير الأعظم جاندارلى خير الدين باشا (وفاته ١٤٠٦) والوزير قره تيمور طاش باشا (وفاته ١٤٠٤) وغازى افرنوس بك (وفاته ١٤١٧) وغازى اسحق بك (وفاته ١٤١٥) .

(١١) دور الفترة : سليمان الأول (١٤٠٢ - ١٤١٠) و
موسى جلى (١٤١٠ - ١٤١٣)

خلف يلدزم بايزيد أبناء كثيرون وهم حسب تسلسل أعمارهم : سليمان الاول (١٣٧٥ - ١٤١٠) (ولى عهد فى ١٣٨٩ - ١٤٠٢) ، شهزاده ارطغرل (١٣٧٦ - ١٣٩٦) عيسى جلى (١٣٧٨ - ١٤٠٥) ، مصطفى جلى (١٣٨٠ - ١٤٢٢) ، محمد الأول (١٣٨٢ - ١٤٢١) ، موسى جلى (١٣٨٨ - ١٤١٣) ، شهزاده قاسم (١٣٩٧ - ١٤١٧) ، شهزاده يوسف ، شهزاده إبراهيم الذى توفى وأبوه على قيد الحياة ، شهزاده حسن (وفاته ١٤٠٣) ، وابن آخر شهزاده بيوك موسى جلى مات وهو طفل نحو ١٣٨٨ .

ترك أولو شهزاده سليمان ومعه اخوانه ، ساحة حرب أنقرة وجاء إلى بورصة ، وخرج من مدينة العرش على وجه السرعة بحيث ترك فيها الخزينة وارشيف الدولة ، فقد كان يطارده ٣٠.٠٠٠ خيال تركستانى واثنان من أحفاد تيمور سلطان محمد وأبو بكر ميرزا . نهب التيموريون خزينة بنى عثمان التى كانت حصيلة ٤ بطون وحرقوا أرشيف الدولة ، لذلك فإن الوثائق الرسمية الموجودة فى حوزتنا التى ترجع للقرن ١٤ من التاريخ العثمانى غير وافية . جاء أبو بكر ميرزا بعد ذلك إلى ايزنك ونهبها كذلك .

اجتاز شهزاده سليمان البوغاز وذهب ناجيا بنفسه إلى ادرنه . أعلن نفسه سلطانا باسم سليمان الأول . وخلال ذلك أعاد تيمور إلى أمراء الأناضول السابقين دولهم التى أخذها منهم يلدزم بايزيد قبل عدة سنوات .

لم يحاول العبور إلى روملى ، فقد كان يخشى الكومانندو الخيالة فى روملى الذين يسمون (روملى آقنجيلرى) الذين سمع بشهرتهم وشجاعتهم فى القتال ، وكان يريد فى الوقت ذاته الإسراع فى الذهاب إلى الصين . أعيد احياء امارات (بكلك) قره مان ، آيدن ، صاروخان ، منتشه ، جرميان ، جاندار ، تكة .

أعطى تيمور إلى اثنين من أولاد يلدزم هما عيسى ومحمد جلى المناطق الأخرى من الأناضول ، أما سليمان الأول الذى يحكم الأراضى الأوربية ، فقد قبل أن يكون تابعا لتيمور .

جاء تيمور أمام أزمير ، وكانت المدينة مقسمة بين الأتراك وفرسان رودس (Saint - Jean) ، قسم من القلعة كان بيد الفرسان وكان يسميها الأتراك « كاوور أزمير » بمعنى « أزمير الكافرة أو غير المسلمة » ، وكان آيدن أوغلو غازى أومور بك قد سقط شهيدا أمام أسوار هذه القلعة عندما أراد استرجاعها .

احتل تيمور القلعة بعد حصار دام ١٥ يوما وسلمها إلى آيدن أوغلو ، ويعتبر هذا هو العمل المجدى الوحيد الذى حققه فى الأناضول .

انهى تيمور حملة الأناضول المشقومة وقد أصبح الأناضول تابعا لـ ٦ امبراطوريات ؛ ألتون أوردى (أوربا الشرقية التركية) ، والمملوكية المصرية - السورية ، والهندية ، والتركية (العثمانية) ، والبيزنطية وامبراطورية طرابزون الرومية ، ولعشرات الملوك ومئات الأمراء . ذهب نحو تركستان لحملة الصين ، ولو شاء يتمكن من فتح البيزنط خلال عدة أسابيع ولو فعل ذلك لحصل على شرف كبير ، لكن سحر الصين كان قد غلب عليه .

يطلق فى التاريخ العثمانى على الفترة الزمنية المنحصرة بين حرب أنقرة وتوحيد تركية تحت إدارة واحدة على يد محمد الأول « دور الفترة » (فترت دورى) ، وهى فترة الخصام على العرش بين أبناء يلدزم بايزيد ، ومدتها ١٠ سنوات ، و١١ شهرا ، و٨ أيام . كان تيمور فى الأناضول فى الثمانية أشهر الأولى منها (غادر تركية فى آذار ١٤٠٣) .

لاشك فى أن البادشاه كان هو سليمان الأول الموجود فى أدرنة ، وكان أخوه محمد جلبي المقيم فى آماسيا يمتلك أراضى كبيرة . أما عيسى جلبي ، فانه سيطر لفترة من الزمن على بورصة لكن أخاه الصغير محمد جلبي نجاه وقتله .

وكان أصغر الأخوة هو موسى جلبي . وكل الأخوة كانوا يعترفون بلا شك بسلطنة سليمان الأول ، لكنهم كانوا يسعون لحصره فى حدود ضيقة ، أو اسقاطه إذا أمكن .

أنهى إقامة السلطان سليمان فى أدرنة دور مدينة بورصة كقاعدة ومدينة عرش دامت ٧٦ سنة ، و٤ أشهر (١٣٢٦ - ١٤٠٢) وبدأ دور مدينة أدرنة التى ستظل

مدينة العرش لمدة ٥١ سنة (حتى عام ١٤٥٣) . ظل دور بورصة مستمرا كمدينة عرش للأراضى الأناضولية .

حاول السلطان سليمان ، حيازة الأراضى الأناضولية . أخذ بورصة ، أنقرة ، أزمير . بقى لدى محمد جلبي منطقة أماسيه - توقات - سيواس فقط .

دخلت آيدن وجرميان تحت سيادة محمد جلبي واعتبراه سيدا لهما .

أخذ السلطان سليمان الذى جاء إلى أزمير آيدن من حوزة ايدن اوغلو جنيد بك وانهى إمارته مرة أخرى .

كان قره مان ضد السلطان سليمان ويزعم انه حليف لمحمد جلبي . اعلن موسى جلبي طاعته لاختيه الكبير محمد جلبي واجتاز إلى روملى بغية اسقاط السلطان سليمان لحساب محمد جلبي وباسمه .

اعترف أمير رومانيا (افلاق) بتبعيته لموسى جلبي ، أما أمير صربستان فقد اعترف بسيادة السلطان سليمان .

وقع الصدام الأول قرب جتالجه ، وفر موسى جلبي أمام اختيه الكبير . لكن بعض القواد لم يكونوا مرتاحين للسلطان سليمان ، فدعوا موسى جلبي الذى هرب إلى رومانيا . بوغت السلطان سليمان بالهجوم على مسكنه ، فترك ادرنه ، وقتل فى الطريق (١٤١٠/٥/١٨) وعمره ٣٥ سنة . دامت سلطنته ٧ سنوات ، و ٩ أشهر ، و ٢١ يوما .

اعتلى السلطان موسى العرش . بينا كان قد وعد بأخذ روملى من أكبر اخوته السلطان سليمان باسم محمد جلبي الذى ساندته على هذا الأساس . كان عسكرها شديدا ، من جهة الأم من بنى كرميان ومن جهة أم أمة من أحفاد مولانا جلال الدين الرومى . أعلن نفسه سلطاناً وبقي أخوه محمد جلبي فى الأناضول .

كان محمد جلبي دبلوماسيا حاذقا . أخذ الأمبراطور الذى تخلص من الحصار بصعوبة ، بمساندة محمد جلبي بكل إمكانياته .

أراد موسى استعادة سلانيك من البيزنط ولكنه لم يوفق ، واستعاد جتالجه وهزم قرب جتالجه أخاه محمد جلبي الذى ثار عليه . جرح محمد جلبي وذهب إلى البيزنط

ونجا بنفسه ، وبقي مدة في استانبول كضيف على الامبراطور الذى رحب به وعمل على معالجته .

كرر موسى خطأ أخيه سليمان وأغضب أمراء صاعقة روملى المغاوير ، بدأت كفة الميزان تميل فى غير صالح موسى ، وأعلن أمير الصرب تبعيته لمحمد جلى ، وجه أمراء صاعقة روملى الدعوة لمحمد جلى ، عبر محمد جلى إلى روملى للمرة الثالثة ومعه ٣٠٠٠٠ جندى وانضم إليه مغاوير روملى كما أرسل أمير صربيا وحدات عسكرية إليه ، هزم جيش موسى جلى قرب ويزه .

تعقب محمد جلى أثر أخيه الصغير موسى وهزمه وقتله فى الحرب الميدانية جامورلو دربند التى وقعت قرب ساماكوف فى جنوب شرق صوفيا . أرسل نعهشه إلى بورصة كما أرسل نعهش سليمان الأول . كان عمره ٢٥ سنة . دامت سلطنته ٣ سنوات ، وشهرا ، و٢٣ يوما . لم يعقب ولدا ، أما سليمان الأول فقد خلف الشهزاده أورخان (١٣٩٥ - ١٤٤٩) ، الشهزاده محمد - شاه (١٤٠٨ - ١٤٢١) و ٣ اطفال باسم باشا - ملك - خاتون ، وأحفاد كثيرون من هؤلاء . أرسل أصغر أبناء تيمور الرابع الخاقان الأكبر سلطان شاه رخ ، كتابا إلى محمد جلى الذى كان تابعا له ، يكدره فيه لقتله أخيه موسى . أجابه محمد جلى برسالة يعتذر فيها ، وحصل بهذه الرسالة على مصادقته على سلطنته . وهكذا انتهى دور الفترة .

قضى محمد جلى على اماره صاروخان فى دور الفترة منذ ١٤١٠ ، واعترفت أكثرية الامارات الاناضولية التى أحيائها تيمور عدا قره مان ، بسيادة بنى عثمان عليها منذ عهد الفترة ، ورغم ذلك فإن الأراضى التى تحت حماية أو حكم العثمانية فى ١٤١٣ ، تسجل نقصا قدره ٢٤٧٠٠٠ كم^٢ عما كانت عليه فى عهد يلدزم فى ١٤٠٢ ، وهذه خسارة لا يستهان بها . كان محمد جلى فى ١٤١٣ يسيطر على أراض تبلغ مساحتها ٦٩٤٠٠٠ كم^٢ منها ٣٦٨٠٠٠ كم^٢ فى أناضولى و ٣٢٦٠٠٠ كم^٢ فى روملى . مناطق تكة ، آيدن ، دلقادر ، افلاق ، صربستان ، (محميات دبروفنك ضمن هذا العدد) . أما إمارات جرميان ، جاندار ، منتشه ، وقره مان ، فقد كانت تدعى الاستقلال تماما أو الاعتراف بسيادة بنى تيمور .

(١٢) السلطان محمد جلبى (الأول) (١٤١٣ - ١٤٢١)

أصبح الآن على عاتق السلطان محمد جلبى العمل على توحيد الوضع الدبلوماسى المبعثر إلى درجة كبيرة فى الأناضول ، والوصول بالدولة - قدر الإمكان - إلى مرحلة من القوة التى كانت عليها أيام والده ، وبالنظر إلى التوفيق الكبير الذى صادف السلطان محمد جلبى فى تحقيق ذلك ، فإن بعض المؤرخين العثمانيين يعتبرونه المؤسس الثانى للدولة .

وبينما كان السلطان محمد منشغلا فى روملى ، لم يضيع الفرصة ابن عمته قره مان اوغلو محمد بك الثانى الذى زاد فى غضبه ، إعلان جرميان اوغلو يعقوب بك خضوعه لمحمد جلبى ، وسار إلى بورصة ولكنه رغم محاصرته حاجى عوض باشا الذى دافع عن القلعة مدة ٣١ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . وعلى اثر ذلك أخرج من قبر يلدرم بايزيد الموجود خارج القلعة عظام البادشاه الذى توفى قبل ١٠ سنوات ، وقام بعمل شنيع لايقبله العقل فأحرق عظام خاله يلدرم بايزيد ، الذى يعتبره مسلمو العالم أجمع سلطان الغزاة وأكبر بطل إسلامى ، واثناء ذلك كانت وحدة عثمانية صغيرة تجلب نعش موسى جلبى إلى بورصة ، فظن قره مان اوغلو ان هذه الوحدة طليعة للجيش العثمانى ، وأعطى أمر الانسحاب . لم يتالك أحد القره مانين من ضباط الخاصة الملقب « هارمان داناسى » الذى تأثر لهذا الأمر ، إلا أنه قال : « سيدى السلطان ، تهرب من ميت بنى عثمان بهذا الشكل ، فماذا يكون حالك لو جاءك حيه ؟ » اعدم هذا الضابط شنقا فى الحال لجرأته على هذا القول .

وهكذا بدأ السلطان محمد جلبى سلطنته فى مثل هذا الجو الفوضى . كان لدى محمد جلبى تجربة حكم لمدة ١١ سنة فى دور الفترة . جاء إلى أزمير . ألغى إمارة آيدن . قبل خضوع جاندار اوغلو . استصحب معه وحدات تابعة جاندار وجرميان وسار على قره مان . أسر ابن عمته قره مان اوغلو محمد بك الثانى ، لكنه بعد أن سمح له بتقبيل يده وأخذ منه عهد الاخلاص - الذى لن يوفى به أبدا - أطلق سراحه . قلص حدود قره مان بصورة كبيرة وذلك بالحاقه سيورى حصار ، بك بازار ، بالواج ، شرق قره آغاج ، قيرشهرى ، آقشهر ، بكشهرى ، سيد يشهرى التى اعطاها تيمور لقره مان ، إلى العثمانية . مثل فى حضرة السلطان - خلال حملته الأناضولية هذه - كل من أمراء جرميان ، منتشه ، تكة ، استاذ اعظم رودس وأمراء

جنوه وقبلوا يده . أرسل الأسطول بقيادة جالى بك إلى جزر أغريوز وكيكلاد التابعة للبندقية . وفي أيار عام ١٤١٦ ، جاء الأسطول البندقى إلى مدخل بوغاز جنقلعة للانتقام . جرح الاميرال Loredano ، واستشهد جالى بك الذى كان قائدا لـ ٤٢ سفينة .

استمر ملوك المجر وبوسنه فى البلقان على موقفهم المعادى للعثمانية . انتخب ملك المجر سيكسموند Sigismund فى ذات الوقت امبراطورا على ألمانيا . ومن ثم فقد تحتم على العثمانية اتخاذ التدابير حيال تفاقم الخطر فى شمال الطونة . اقرب الامبراطور - الملك سيكسموند إلى الحدود التركية ، فالتقى غازى اسحق بك بجيش العدو فى Doboj فى خرواتيا فبعثه . أدى انتصار قائد تركى برتبة لواء (سنجق بك) فى معركة ميدانية على امبراطور إلى إخافة أعداء الأتراك فى البلقان . أعلن دوق هرسك طاعته للبادشاه . فتحت بعض الأماكن فى بوسنه . تقدم اسحق بك حتى وصل سلوفينيا . سقطت القصبه الصغيره المسماة (سراى بوسنه) SaraJevo التى يسميها الاتراك « بوسنه سراى » على يد العثمانية بعد حرب Doboj عام ١٤١٥ ، وقد جعل الاتراك من هذه القصبه الصغيره بلدة كبيرة وشرعوا فى تجهيزها لتكون مركزا لبوسنه .

وفى ١٤١٦ استصحب السلطان محمد الوحدات التى أرسلها إليه تابعيه قره مان وجاندار ، واجتاز الطونة نحو الشمال ودخل رومانيا . شيد قلعتى تورنو ويركوى داخل رومانيا فى شمال الطونة . ربط افلاق بتركيا براوطة أمتن . عقابا للمجر رتب السلطان محمد هجمات على ترانسلفانيا (بالتركية : اردل) فى السنوات ١٤١٦ ، ١٤٢٠ و ١٤٢١ على التوالى . (الحملة الأولى على جرت فى ١٣٩١) .

دخل اسحق بك إلى ستيريا . أراد الجيش الألمانى - المجرى الدفاع عن شبه الجزيرة (شبه الجزيرة التى يقع عليها ميناء تريسته) . خسر ١٢٠٠٠ قتيل من المشاة ، ٧٤٠٠ من الخيالة ، ٣ جنرالات . أغرى هذا النصر اسحق بك فصار إلى ترانسلفانيا ؛ لكنه استشهد فيها .

ارتبطت دوبروجا بالنظام العثمانى بروابط متينة .

دخل الجيش العثمانى بيسارابيا وحاصر قلعة Cetatea Alba (بالتركية : اكيرمان) . لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها .

جاء السلطان محمد فى السنة التالية إلى سينوب وصامصون وألحق بامبراطوريته بعض أراضى جاندار بصورة مباشرة .

فى غضون ذلك كله ، بدأ عصيان الشيخ بدر الدين .

من هو الشيخ بدر الدين وما أفكاره ؟

كان الشيخ بدر الدين عالما إسلاميا كبيرا ، ألف فى العلوم الدينية باللغة العربية ، تولى وظيفة « القاضى عسكر » جلجى ، شارك فى مناظرات دينية عديدة فى حضرة تيمور فى تبريز ، وعندما ذهب إلى القاهرة ، أصبح استاذًا للسلطان المملوكى فرج .

بدأ الشيخ بدر الدين فى نشر عقيدة غريبة وجمع حوله حشودا، مستثمرا الآثار الناشئة عن اضطرابات وآلام دور الفترة ، الأمر الذى أحدث تأثيرا فى النظام .

تتلخص آراء الشيخ بدر الدين فى : إنكار الوجود المادى للجنة ولجهنم موثلا ماورد فىهما من آيات على محمل الأثر النفسى الذى يجده المؤمن من عمل الحسنة أو اقتراف السيئة ، ويرتبط بذلك إنكاره للقيامة والبعث بعد الموت

- تساوى الموسويين والمسلمين فى الناحية الإيمانية

- أن الرسول ﷺ ليس أفضل من غيره من الرسل ، وأن رسالته لا تختلف عنهم

- إنكار حق التملك ، والقول بشيوعية المال والملك .

كثر اتباع الشيخ بدر الدين ، وأخذوا فى نشر مذهبهم بالقوة والتعرض للناس والأموال ، فقتلوا الآلاف واجترعوا على أمير لواء أزمير اسكندر بك وقتلوه .

قبض على الشيخ بدر الدين فى دلى لورمان جنوب دوبروجه فى روملى ، وحاكمه السلطان محمد فى Serez واعدمه فى ١٤٢٠ .

ظهر مصطفى جلجى الأخ الأكبر للسلطان محمد فى مثل هذا الجو .

كان تيمور قد أرسل مصطفى جلجى إلى سمرقند ، وبعد سنوات طويلة اطلق سراحه وعاد إلى تركيا .

لأتوجد معلومات عن حياته وأعماله خلال هذه الأعوام ال ١٦ .

وعلى الرغم من أنه من الثابت أنه الابن الحقيقي للسلطان يلدرم بايزيد ، فإن جلبي محمد أعلن أنه شخص محتال وأنه « ددزمه مصطفى » أى مصطفى المزيف .

مكث مصطفى عند قدومه إلى تركيا في نيغده قره مان أولا ، ثم ذهب هناك إلى افلاق ، وحصل على تأييد أميرها وتأيد آيدن اوغلو جنيد بك الذى عين واليا (سنجق بك) على نيغبولو في جنوب افلاق ، ثم نزل إلى الجنوب مع بعض الوحدات التى انضمت إليه . هزمه أخوه السلطان محمد قرب سلايك . تمكن من الحرب مع جنيد بك إلى سلايك ولجأ إلى البيزنط . نفاهما الامبراطور إلى جزيرة ليمنى ، واقسم الامبراطور على عدم إطلاق سراحهما مادام مصطفى جلبي حيا مقابل ٣٠٠ ٠٠٠ آقجه يتسلمها كل عام .

جاء السلطان محمد إلى إستانبول ، وزار الامبراطور مانويل الثانى بصورة رسمية للمرة الثانية . كان مجيء السلطان محمد بواسطة البحر ، ونزل إلى البر في دوله بقجه . وعند عودته عبر معه الامبراطور إلى اسكدار ، أى حتى حدود الأراضى العثمانية .

وفى ١٤٢١/٥/٤ توفى غياث الدين غازى جلبي سلطام محمد خان ، فى سن ٣٩ فى ادرنه ، ونقل إلى بورصه ودفن فى قبرها المشهور بيشيل تربه (أى القبر الأخضر) ، لم يدع خبر وفاته مدة ٤١ يوما ، وأغلقت كل الحدود لحين حضور ابنه الذى كان واليا فى آماسيا ، إذ كان يخشى من قدوم السلطان مصطفى من ليمنى التى هى أقرب إلى ادرنه وجلوسه على العرش .

دامت سلطنته منفردا ٧ سنوات ، ٩ أشهر ، ٢٦ يوما . وإذا أدخلنا دور الفترة تصبح المدة ١٨ سنة و ٩ أشهر و ٧ أيام . كانت مساحة الامبراطورية عام ١٤٠٢ (٩٤٢٠٠٠ كم^٢) ، وعند وفاة السلطان محمد عام ١٤٢١ كانت مساحة الامبراطورية ٨٧٠٠٠ كم^٢ ، ولا ينبغي النظر إلى الفارق (وقدره ٧٢٠٠٠ كم^٢) على أنه نقص ، بل إن الدولة تعتبر قد قطعت مرحلة كبيرة . أما هذا النقص فقد نشأ أساساً عن ظروف دور الفترة وما اكتنفها من كثرة مناطق الحماية (كانت مناطق الحماية : جمهورية دبروفنك ، إمارة افلاق ، إمارة صربيا ، إمارة قره مان ، دلقادر ، جاندار ، تكة ، متشه وجرميان) .

(١٣) مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) :

فترة سلطته الاولى

ولد في آماسيا في ١٤٠٤ ، أمه دلقادر أوغلوا أمينة خاتون ، تولى العرش وهو في سن الـ ١٧ في جو متأزم ، فقد أعلن السلطان مصطفى الذي خرج إلى ميناء غاليبولي ، سلطته للمرة الثانية ، بعد أن أطلق الإمبراطور البيزنطي سراحه ، ومعه جنيد وعشرة من رجاله عند وصول مراد الثاني إلى أدرنه بعد وفاة والده بـ ٤١ يوما كما أشرنا من قبل .

اعترف الجيش في روملي بسلطته السلطان مصطفى على أساس انه مادام العم موجودا فلا مبرر لجلوس ابن الأخ على العرش ، جاء مصطفى جليبي إلى أدرنه وجلس على العرش (١٤٢١/٨/٣٠) .

لم يبق أمام مصطفى جليبي إلا أن يحتل الأناضول وينحى ابن أخيه . اجتاز بوغاز جناتقلعه من غاليبولي وصعد إلى البر من لابسكني (١٤٢٢/١/٢٠) . وسار نحو بورصة حيث السلطان مراد مع ١٢٠٠٠ خيال و ٥٠٠٠ من جنود المشاة . تقابل الجيشان في ساحل نهر اولوباد .

لم تكن لدى الطرفين رغبة في القتال ، وأخذ الطرفان ينظر أحدهما إلى الآخر دون أن يشهر أحد منهم السلاح . وبعد حوار ونقاش ، رجحت كفة الطرف الذي يساند السلطان مراد .

هرب السلطان مصطفى مع معية قليلة إلى غاليبولي ، ومنها إلى أدرنه ، طارده ابن أخيه ، وقبض عليه في شمال أدرنه وأعدمه بدعوى أنه متتحلل للشخصية الحقيقية لمصطفى .

دامت سلطته الثانية هذه في أوروبا ٩ أشهر (آذار ١٤٢٢) . كان عمره عند إعدامه ٤٢ سنة .

وفي ١٤٢٥ قبض على ابنه الشهيد وعلى ايدن أوغلو جنيد بك وأعدموا في ايسالا .

حاصر مراد الثاني البيزنط لإطلاقهم سراح عمه وهو الأمر الذي تسبب في حرب داخلية .

استمر هذا الحصار - وقد كان من أشد المرات التي ضرب فيها الحصار - مدة ٦٤ يوما بأسطول وجيش قوامه ٣٠.٠٠٠ جندي ، لكن المدافع التركية لم تحدث أضرارا جدية في الأسوار ، ومع ذلك فقد كان احتمال سقوط المدينة كبيرا .

رفع مراد الثاني الحصار على اثر ادعاء أخيه الصغير أمير ايسالا (حميد) كوجوك (الصغير) مصطفى البالغ عمره ١٣ سنة - بتحريض من البيزنط - السلطنة في ايزنك . (كان الشهزاده مصطفى قد قدم إلى استانبول وقابل الامبراطور) . قبض عليه وأعدم .

عقد صلح مع البيزنط شرط دفعهم ٣٠٠.٠٠٠ آقجه ضريبة سنوية (١٤٢٤/٢/٢٢) .

كان السلطان مراد قد حاصر سلانيك عام ١٤٢٣ ، لكنه لم يتمكن من أخذها . وافقت البيزنط على دفع ١٠٠.٠٠٠ آقجه في السنة كخراج عن سلانيك .

وجه السلطان مراد حملته بعد ذلك إلى الأناضول على الإمارات التي تمردت أثناء انشغاله مع البيزنط .

جاء إلى إمارة جاندار وقلص حدودها ، لكنه ترك جاندار اوغلو اسفنديار بك في منصبه لأعباءات خاصة ، فقد كان اسفنديار بك من بنى عثمان من جهة الأم ، وزوج ابنته من مراد الثاني ، كما تزوج ابنا اسفنديار اوغلو باختي البادشاه .

نزل السلطان مراد بعد ذلك إلى البحر الأبيض في ١٤٢٥ . وقضى بصورة نهائية على إمارتي منتشه (موغلا) وآيدن . ومنيت إمارة تكة بالعاقبة نفسها .

حاول قرة مان اوغلو محمد بك الثاني الاستيلاء على المرفأ العثماني انطاليه ، ولكنه مات بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة . ومع أنه حفيد مراد الأول من جهة الأم ، كان ألد أعداء العثمانية زوج السلطان مراد أخواته الثلاث بأبناء محمد بك الثلاثة وأرسلهم إلى روملي كأمرأء ألويه .

توفي جرميان اوغلو يعقوب بك وهو طاعن في السن (ك ١٤٢٨/٢) ، وأوصى عند وفاته باعطاء إمارة جرميان (كوتاهيه) إلى قريبه مراد الثاني ونفذت وصيته .

وهكذا أمتحت في السنوات الأولى من جلوس السلطان مراد ، كل من امارات آيدن تكة ، منتشه ، جرميان وأصبحت في ذمة التاريخ .

بدأت الحرب التي سوف تستمر ٥ سنوات مع جمهورية البندقية في ١٤٢٥ ، وفي هذه الحرب انضمت ألمانيا والمجر إلى البندقية .

هزم مراد الثاني الذي اجتاز الطولونه من فيدين ، الجيش المجرى (١٤٢٦) . دخل الجيش المجرى صربيا بقيادة الأمبراطور - الملك سيكسموند ، هزمه أمير لواء فيدين سنان بك (١٤٢٨) في الحرب الميدانية كورجينليك Guverinlik .

طلبت المجر الهدنة لمدة ٣ سنوات بعد هذه الحرب التي خسرها فيها امبراطور امام أمير لواء (Tumgeneral) وبقيت البندقية بمفردها أمام تركيا . سار البادشاه نحو سلانيك ، كان هذا الميناء المهم البالغ تعداد أهله ٤٠ . ٠٠٠ نسمة يديره البنادقة باسم البيزنط قد بقي ٨ سنوات و ٤ أشهر تحت الإدارة التركية على عهد يلدرم ثم استعاده البيزنط الذين استفادوا من هزيمة أنقرة .

فتح مراد سلانيك بشكل نهائى (١٤٣٠/٣/١٣) . بعد حصار استمر لمدة ٣ أسابيع واستعمل الاتراك فيه المدافع .

فتحت يانيا (١٤٣١/١٠/٩) واستعبدت اثير التي خرجت من حوزة العثمانية بعد هزيمة أنقرة .

طلبت البندقية الصلح واعترفت الجمهورية التي وقعت على معاهدة غاليبولى Gelibolu بالفتوحات التركية (١٤٣١) .

وعلى إثر تدخل المجر في صربيا وبوسنة ، نشبت الحرب مجددا مع هذه الدولة . كانت المجر والبندقية قوتين كبيرتين في العالم المسيحي ؛ فقد كانت المجر أقدر دولة برية ، وكانت البندقية أقدر دولة بحرية في ذلك العصر .

انضمت ألمانيا إلى المجر . دخل الوزير صاريجه باشا إلى سمندره مركز إمارة صربستان . وعقد صلحا وتزوج مراد الرابع بانه أمير صربيا مارا .

في عام ١٤٢٦ قام افرنوس اوغلو على بك بحملة رابعة على ترانسلفانيا (اردل) ،

وفى ١٤٣٢ ، قام بحملة خامسة قوامها ٧٠ ٠٠٠ من خيالة الصاعقة ، وفى ١٤٣٧ قام بحملة سادسة .

جاء مراد الثانى فى العام ذاته إلى ترانسلفانيا وقضى فيها ٤٥ يوما ، ثم أخذ سمندره بالقرب من جنوب بلغراد بعد حصار دام ٣ أشهر (١٨/٨/١٤٣٩) . وخلال ذلك ، قام البادشاه بحملة على قرعة مان لإخماد عصيان إبراهيم بك الثانى .

وفى ١٤٣٩ ، حاصر افرنوس اوغلو على بك القلعة المجرية المستحكمة ببلغراد لمدة ٦ أشهر ، ولم يتمكن من إسقاطها . وفى غضون عدة سنوات ألغيت إمارة صربيا وأديرت باسم لواء سمندره . اعترفت ملكية بوسنه فى المعاهدة التى عقدت معها (ت ١ / ١٤٣٢) بسيادة البادشاه . وقبلت تسديد ضريبة سنوية . وقد أغار جنود الصاعقة مرات عديدة على خرواتها .

جاء السلطان شاه رخ بن تيمور المتبوع السامى لجميع الدول الموجودة فى تركية ومنها العثمانية والحقاقان التركستانى ، إلى شرق الأناضول مرتين فى ١٤٢٩ وفى ١٤٣٥ .

قلقت تركيا والسلطنة المملوكية لذلك ، وإن كان مراد الثانى قد أرسل اليه تعظيماته بواسطة السفراء .

تجدد عصيان قره مان اوغلو ١٤٣٧ ، ولكنه خنع عندما ثار عليه أخو زوجته مراد الثانى ، وعلى الرغم من عدم ارتياح الممالك لنفوذ العثمانية على إمارتى قره مان ودلقادر فإن وضع العثمانيين كأكبر غزاه مجاهدون المسيحية فى هذا الوقت ، حال دون أن يترجم الممالك عدم ارتياحهم إلى صورة عملية .

كان الأمبراطور Ioannes الثامن (١٤٢٥ - ١٤٤٨) ، يراقب ازدياد قوة الدولة العثمانية بقلق ، رغم سياسة مراد الثانى التى تبدى جانب الصداقة .

تجول فى أوروبا لطلب قروض ومساعدات عسكرية لمواجهة الأتراك .

أعلن البابا اوجينيوس الرابع فى ١٤٣٩ الحملة الصليبية ضد الأتراك ، وفى ١٤٣٩ عندما أصبح ملك بولونيا لاديسلاس ملكا على المجر وبوهيميا فى نفس الوقت ، تشكلت فى شمال الطونه كتلة كاثوليكية مقتدرة معادية للاتراك ، وكانت هذه الدولة

تمتد - بواسطة إمارة مولدايفيا - (بقدان) التى تحت سيادتها - من البلطيق إلى البحر الأسود ؛ وظهر كذلك فى هذه الآونة Hunyadi Janos اكبر عسكري مسيحي فى عصره .

كان Hunyadi Janos ابنا غير شرعى لملك المجر السابق وأصبح قائدا للمجر ، وكان كاثوليكيًا متعصبًا هدفه الوحيد فى الحياة إخراج الأتراك من البلقان ومن أوروبا . درس تكتيك الحرب العثمانى بصورة جيدة ، وتمكن بهذا من الانتصار على بضعة جيوش عثمانية سارت إليه . اضطر السلطان مراد أن يحمل بنفسه على العدو وسط الشتاء ، وعلى اثر انهزام طليعة السلطان مراد فى الممر المسمى Izladi Derbendi فى شرق صوفيا (١٤٤٣/١٢/٢٤) ، انسحب إلى أدرنه لمعاودة الحملة فى الربيع . وصل هينادى إلى فيلييه يرافقه الملك الشاب لاديسلاس ، وبينما كان الوضع متأزما إلى درجة لم يسبق لها نظير فى روملى ، بدأت فى الأناضول تحركات مضادة للعثمانية .

فى هذه الظروف عاود الأمل قرة مان أوغلو إبراهيم بك الثانى فأرسل إلى ملك المجر - بولونيا رسالة كان من بين فقراتها « لتسر أنت من الأمام وأنا من الخلف ؛ لتكن روملى لك وأناضولى لى ؛ ولنزىل العثمانية من الوجود » ، ثم اجتاز حدوده ودخل الأراضى العثمانية ، لكنه انسحب إلى قونيه على اثر حملة ولى عهد - شهزاده ٣ علاء الدين على عليه ..

أثناء هذه الأيام توفى عهد - شهزاده فى أماسيا (آذار ١٤٤٣) وعمره ١٨ سنة ، كانت وفاته كارثة كبيرة بالنسبة للسلطان مراد . نقل جثمان ولى العهد إلى بورصه ودفن فيها ، وأصبح شهزاده محمد بن البادشاه الثانى الذى يبلغ عمره ١١ عاما ، وليا للعهد .

وافق البادشاه فى ظل هذه الظروف على إجراء مفاوضات للصلح مع المجر (١٤٤٤/٥/٢٢) ، فاهتمت معاهدة Segedin (١٤٤٤/٧/١٢) ، وتم تبادل نسخ المعاهدة بين أدرنه وبودابست .

اقسم الملك « بالانجيل » و « البادشاه » ، بالقرآن ، على عدم مخالفتها شروط هذه المعاهدة ماداما على قيد الحياة .

أسست إمارة صربيا مجددا على أن تكون تابعة للعثمانية ، وهكذا أنشئت منطقة عازلة بين تركيا والمجر .

عقد السلطان مراد في الشهر ذاته معاهدة صلح مع قره مان .

أفتى مؤرخ الدولة المملوكية - الكبير والفقير الشافعي ابن حجر العسقلاني (وفاته : ١٤٤٨) وسعد الدين ديري من قضاة المذهب الحنفي بالقاهرة (وفاته ١٤٦٢) ، بوجوب قتل إبراهيم بك إن لم يتب ويستغفر بسبب ضربه العثمانية من الخلف أثناء جهادهم للكفار .

اضطر قره مان اوغلو تحت وطأة الضغط المعنوي إلى الاقتراب من الصلح ، ونفذ قسمة مدة ٧ سنوات حتى وفاة مراد الثاني في (١٤٥١) ، ثم ثار على محمد الثاني بعد وفاة مراد الثاني بحجة أن قسمة كان لشخص البادشاه .

نظرا لاحتساس السلطان مراد الثاني بالتعب ، فقد تخلى وعمره ٤٠ سنة عن العرش لصالح ابنه وانسحب إلى سراي مانيسا (آب ١٤٤٤) .

جاء محمد الثاني إلى ادرنه وجلس على العرش وعمره ١٢ سنة ونصف .

(١٤) فترة السلطنة الثانية لمراد الثاني (١٤٤٤ - ١٤٥١) انتصارى فارنا (١٤٤٤) وكوسوفا الثانية (١٤٤٨)

بطبيعة الحال فإن تخلى سلطان كمراد الثاني - بخبرته المشهودة - على العرش ، وتنازله عن السلطة إلى طفل ، -أنعش الأمل في صدور الأوربيين وعلى رأسهم المجر والبيزنط . وبالفعل فقد أبلغ الكاردينال جيساريني ، ملك المجر - بولونيا الملك لاديسلاس ، بأنه في حل من القسم الذي تعهد به لأنه قسم جرى مع « المسلمين الكفرة » ، ومن ثم فإن البابا يبطل هذا القسم .

اتحدت المجر ، بولونيا ، ألمانيا ، فرنسا ، البندقية ، البيزنط ، البابوية وبرغونديا ، وتشكلت الحملة الصليبية الخامسة ضد العثمانية .

دخل الجيش الصليبي الذي يقوده ظاهرا الملك لاديسلاس ، ويقوده فعلا هنيادي ، إلى تركيا ونزل إلى ساحل البحر الأسود واقترب من فارنا ، حاولوا في

طريقهم أخذ قلعتى فيدين ونيغولو ، ولكنهم لم يوفقوا ، نهبوا كل المدن والقصبات والكنائس الأرثوذكسية التى صبادفتهم فى طريقهم ، وكان ملك بولونيا - المجر الشاب لاديسلاس قد خطط للذهاب إلى استانبول ليكون صهرا للإمبراطور ولم يخطر بباله أن البادشاه سوف يجزؤ على العبور من الأناضول إلى روملى .

بينما تجرى هذه التحركات اجتمع مجلس شورى السلطنة فى أدرنة ، واتخذ قراراً أبلغه الوزير الأعظم جاندارلى زاده خليل باشا إلى محمد الثانى الطفل ، هذا نصه : « لا يمكننا الرد على مقاومة العدو ، اللهم إلا إذا أعتلى والدك السلطان مكانك . أرسلوا والدكم ليجابه العدو وتمتعوا براحتكم . تعود السلطنة إليكم بعد إتمام هذه المهمة . »

أرسل محمد الثانى فى دعوة والده مراد الثانى الموجود فى مغيسيا ، غير أن مرادا الثانى - تحاشيا لكسر سلطان ابنه-أبلغه أن الدفاع عن دولته من واجبات ذاته السلطانية ، فكتب محمد الثانى إلى والده العبارات التالية :

« إن كنا نحن البادشاه فإننا نأمرك : تعالوا على رأس جيشكم ، وإن كنتم أنتم فتعالوا ودافعوا عن دولتكم » . جاء مراد الثانى إلى أدرنه واختار من الجيش أحسن ٤٠ ٠٠٠ جندى وجاء إلى فارنا Varna دون أن يخلع ابنه .

كان قد مضى على واقعة نيغولو ٤٨ سنة وشهران عندما واجه حفيد غالب نيغولو ، الصليبيين (١٠/١١/١٤٤٤) .

بدأت الحرب بهجوم هنيئدى على ميمنة الجيش التركى وجناحه الأيسر، ترك السلطان مراد العدو يتوغل إلى عمق صفوف الأتراك ، ثم أعطى أمر الهجوم . لم يدرك الملك لاديسلاس أن الأتراك قد طوقوه . اقترب الأتراك بعد قتلهم ٥٠ فارسا من الحرس الملكى نحو لاديسلاس الذى كان يقاتل بنفسه .رمى أحد جنود المشاة البلطة (نوع من الفئوس) على ساق حصان الملك فسقط الملك . قطع نقيب المشاة ، المسمى قوجا قره جه خضر آغا ، رأس الملك بالسيف وقتل الكاردينال Cesarini كذلك .

وضع رأسا الملك والكاردينال جسارينى على مزراقين ومعاودة سكدين على

مزارق آخر وشهرت على الكتابات التركية المظفرة . لم تستغرق الحرب وقتاً طويلاً
فقد بدأت مساء في الظلام في الساعة التاسعة .

وفق عدد قليل من العدو من بينهم هنيادى في الهروب . بلغ عدد أسرى العدو
ما بين ٨٠ و ٩٠ ألف جندى وأبيد البقية . استشهد من الأتراك نحو ١٥٠ ، لكن
عدد الجرحى كان كبيراً . من بين شهداء الأتراك جنرالان هما : داماد قره جه باشا
(زوج أخت البادشاه وكانت رتبته بكلربك = فريق أول ، واستشهد فور بدء
الحرب) ، وعثمان بك حفيد تيمورطاش وابن اوامور باشا (وكانت رتبته سنجق
بك = لواء) .

يعتبر موت لاديسلاس الثالث ملك بولونيا ، المجر ، بوهيميا ، دوق كبير ليتوانيا
الذى يحكم المنطقة المنحصرة بين البلطيق - الادرياتيك - البحر الأسود ، التى تبدأ
من الحدود الشرقية من غرب موسكو ، وعمره ٢٠ سنة بدون وارث من أهم وقائع
التاريخ الأوربي ، فقد انفصلت إثر ذلك بولونيا والمجر عن بعضهما مرة ثانية بل
وحرصتا على عدم الظهور أمام تركيا كدولة واحدة .

خطت واقعة فارنا مصير البيزنط الذى سنراه بعد ٩ سنوات ، وتؤكد عدم إمكان
قلع حكم الأتراك الموجود في البلقان .

لم يقتصر الاحتفال بهذا النصر على تركيا وحدها بل امتد إلى العالم الإسلامى
أجمع ، وفي الجمعة الأولى من وصول الخبر إلى القاهرة (١٤٤٥/٤/١) ، أمر
السلطان جقمق بتلاوة اسم السلطان مراد - مجاملة - بعد اسم الخليفة العباسى
والدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين في الأقطار المملوكية ، وأقيمت الاحتفالات بهذا
النصر في مصر .

طلب الجيش وأدرنه ، بعد واقعة فارنا ، اعتلاء مراد الثانى العرش مجدداً . اعتلى
مراد الثانى العرش مرة ثانية في (١٤٤٥/٢) ، ولكنه تخلى مرة أخرى عن العرش
بعد ١١ شهراً (١٤٤٥/١٢/١٢) ، ثم قبل مضى ٥ أشهر وبإصرار من رجال
الدولة ، اعتلى العرش للمرة الثالثة في (١٤٤٦/٥/٥) . وفي غضون هذه المدة اعتلى
ابنه محمد العرش وتخلّى عنه مرتين .

كان مراد الثاني قد قام بحملته الأولى على مورا في (١٤٣٩ - ١٤٤٠) ، وفي (١٤٤٦ - ١٤٤٧) ، قام بحملة ثانية على مورا . حاصر (١١/٢٧ / ١٤٤٦) قلعة كورينثوس Korinthos واستولى عليها (١٠ / ١٢) ودخل شبه الجزيرة واحتل باتراس . مات في هذه الأيام من البیزنط Ioannes الثامن وعمره ٥٧ سنة (١٠/٣١ / ١٤٤٩) فجاء أخوه الأمير كونستانتين من مورا إلى استانبول واعتلى العرش (هو كونستانتينوس الحادى عشر آخر امبراطور بيزنطى) .

وفي ربيع عام ١٤٤٧ ، استنصحب البادشاه ابنه محمدا الثانى البالغ عمره ١٥ سنة وخرج في حملة إلى ألبانيا (غرنو و طلك) .

كان السبب في قيام هذه الحملة عصيان اسكندر بك في ألبانيا بمساندة الدول الأوربية وخاصة ملكية نابولى ، (اسكندر بك هو أحد أمراء ألبان ارتد عن الدين الإسلامى وتنصر) . كانت الحملة الأولى لمراد الثانى على البانيا في عام ١٤٢٣ .

بعد فارنا بأربع سنوات ، أراد Yunyadi Janos (Yanos) تجربة حظّه ، فجهز الحملة الصليبية الـ ٦ ضد العثمانية . اتحدت في هذه الحملة المجر ، ألمانيا ، بولونيا ، صقلية ، نابولى ، البابوية ومولدافيا .

دخل في هذه المرة جيش صليبي مؤلف من ١٠٠ . ٠٠٠ شخص إلى تركيا من الغرب . وتقدم حتى صحراء كوسوفا . (تعتبر هذه صدفة مشغومة بالنسبة للصليبيين ؛ فقد لقي الصليبيون في هذا الموقع ضربة قاسية جدا قبل ٥٩ سنة ، شمال شرق ألبانيا) .

جاء السلطان مراد مع ابنه محمد الثانى البالغ من العمر ١٦/٥ سنة آنذاك .

استمرت الحرب ٣ أيام و ٣ ليال (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت ١ / ١٤٤٨) ، وكان الطرفان يملكان المدافع .

كان الصليبيون منقسمين إلى ٣٨ كتيبة ، معظمها لاتعرف إحداها لغة الأخرى ، قاتلت الكتائب وخاصة المجرية بشجاعة . وفي اليوم الثالث فقط حاصر السلطان مراد الثانى العدو المنهوك القوى ، بعد أن كلف تورخان بك (باشا) باغلاق طريق العودة ، وعند دخول المساء ، كانت الوحدات الكبيرة للعدو قد أيدت .

قاوم هنيادى حتى حلول الليل ، وعندما حل الظلام تمكن من الهرب . خسر المسيحيون ١٧٠٠٠ قتيل ، وأسر الباقي ، وبلغ عدد شهداء الأتراك ٤٠٠٠ شهيد وفق مآذكره المصادر الأوربية .

وقد تجدر الإشارة إلى أن حجم الآمال التى كان يعلقها الصليبيون على فارنا أكبر بكثير من حجم الآمال التى كانوا يعلقونها على كوسوفا ، ولكنهم فى كل الأحوال كانوا يقومون بالمحاولة السادسة والأخيرة التى يؤملون منها إخراج الأتراك من البلقان ، وذلك أنهم تحولوا بعدها إلى موقف المدافع وليس المهاجم ، وقد توقفت أوربا بعد واقعة كوسوفا لعصور طويلة عن التفكير فى إخراج الأتراك من جنوب الطونة . كان بطل انتصار كوسوفا الثانى هو مراد الثانى ، وبطل انتصار كوسوفا الأول هو ابن حفيد مراد الأول .

وفى صيف عام ١٤٤٩ ، استصحب السلطان مراد ابنه محمدا الثانى الذى تجاوز عمره الـ ١٧ سنة وسار مرة أخرى فى حملة على ألبانيا ، لكنه لم يتمكن من العثور على اسكندر بك .

زوج مراد الثانى ابنه محمدا الثانى باينة دلقادر أوغلو مكرمه خاتون فى أدرنة (١٥/١٢/١٤٤٩) ووضع ابنه على عرش صاروخان (مانيسا) التى يتقلد ولايتها (سنجق بك) ، وكان هذا لقاءه الأخير مع ابنه الذى أحبه كثيرا .

فى ٣ شباط ١٤٥١ ، توفى فى سراى أدرنة سلطان المجاهدين ، أبو الخيرات غازى ، السلطان مراد خان الثانى بعد مرض دام ٤ أيام . كان عمره يتجاوز الـ ٤٦ - ٨ أشهر . مجموع سلطاته الثلاث ٢٩ سنة ، وإجمالى المدة من جلوسه لحين وفاته ٢٩ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٦ يوما . نقل جثمانه إلى بورصة ودفن فى قبره المفتوح . كان مراد الثانى عالما ، شاعرا ، موسيقيا . حمى الفن والعلم بكل ما فى الكلمة من معنى ، وأصبح المبشر بالنهضة العثمانية .

لم يفكر قط فى حرب تيمور أوغلو سلطان شاه رخ ، وعلى الرغم من أنه حاكم ثانى الدولتين المقتدرتين فى العالم ، فإنه لم يرفض سيادة شاه رخ - حتى وفاته فى ١٢/٣/١٤٤٧) ، ولو كان ذلك اسما . وفى ١٤٤٧ ، أصبح سلطانا للدولة العظمى الأولى فى العالم .

كان تحصيله العلمى ممتازا . كان ابن عرب - شاه (١٣٨٩ - ١٤٥٠) أحداً من أساتذته . كان من أكابر المهتمين بالاعمار ، فالجوامع والكلليات الموجودة فى بورصة وفى أدرنة من انجازاته وكذلك دار الحديث (١٤٣٥) ، والجامع ذو الثلاث شرفات (١٤٤٧) وكلياته ، واوزون كوبرى على نهر أركنه الذى استغرق تشييده ١٦ سنة وافتتح فى ١٤٤٣ ، وكان طوله ٣٩٢ متراً، من بين انجازاته المهمة التى شيدتها بأموال الغنائم . ولقد كان من بين الأسباب التى عمقت محبته فى القلوب لعصور طويلة ، أنه كان يخوض معاركه من أجل الدفاع عن الوطن ، وانه كان الشخصية الوحيدة فى التاريخ العثمانى والتركى التى تخلت عن العرش و رئاسة الدولة بمحض إرادته دون أن يتعرض لأى ضغط مادى أو معنوى .

كانت شخصيته مشابهة لأبيه جلى محمد الأول ، ومخالفة لشخصية جده بيلدرم بايزيد وابنه الفاتح محمد الثانى .

قد أجهل المؤرخ البيزنطى Chalcondylas الذى اجتمع معه شخصياً وصف شخصيته فى عبارته : « كان رجلاً مستقيماً وعادلاً » .

ويقول عنه المؤرخ البيزنطى المعاصر Prens Dukas (١٤٠٠ - ١٤٧٠ ، ٣٣ ، ١٣٩) ، « كان يفيض حباً للشعب ، وكرماً على المعوزين ، ولا يفرق فى هذا بين مسلم أو مسيحى من رعيته فكلاهما يلقى منه نفس المعاملة ، كان يفى بعهوده مع أعدائه ، ومن كان منهم ينقض عهده معه كان يتعرض لعقاب الله ، كان يتفر من الحرب ويفضل الانشغال بالعلوم والفنون والاعمار فى ظل السلام . لم يحارب إلا مضطراً ، وعندما كان ينتصر على أعدائه لم يكن يشحن فيهم إلى حد الإفناء بل كان يفتح الباب للجنوح إلى السلم .

ويقول المؤرخ الالماني فون هامر Van Hammer (٢ ، ٣٥٢ - ٣) : « حكم السلطان مراد فى امبراطوريته بعدالة وشرف طيلة ٣٠ سنة . كان عادلاً سليم النية مع رعيته دون التفرق بين الأديان . كان وفياً بوعدده فى الحرب كما هو فى السلم . يفضل الصلح ، لكنه لم يكن يتردد فى الحرب إن دعت الضرورة لذلك . كان انتقامه شديداً من الذين لا يوفون بعهودهم ، فلا بأس عنده فى هذه الحالة من إبادةهم . لم يفقد دهائه إلى نهاية سلطنته » .

ويقول المؤرخ الفرنسي Crenard (ص ٦٨) : « إن كان مراد الأول معمار
الامبراطورية العثمانية ، فإن مرادا الثانى هو بانها الثانى » .

(١٥) فتح استانبول (٢٩ آيار ١٤٥٣)

ولد محمد الثانى أمير لواء (سنجق بك) صاروخان (مانيسا) ، فى سراى أدرنة
الهامايونى ، فى الساعة الـ ٣/٠٨ من صباح يوم ٣٠ آذار ١٤٣٢ . توفيت أمه
هما خاتون فى بورصة فى أيلول ١٤٤٩ قبل اعتلائه العرش ، لكنها شهدت سلطنة
ابنها فى طفولته (فى آب ١٤٤٣) . صار محمد الثانى وليا للعهد فى حزيران عام
١٤٤٣ وعمره ١١ سنة اثر وفاة أخيه الكبير علاء الدين على الذى كان يكبره بـ
٧ سنين .

بعد وفاة السلطان مراد فى شباط ١٤٥١ ، جاء الخاقان الجديد البالغ عمره ١٩
سنة إلى أدرنة وجلس على العرش . قام بعد مدة قليلة (صيف عام ١٤٥١) بحملته
الهامايونية الأولى على قره مان الذى عصى وأخذ منه بعض الأماكن وعاد .

كان اهم الأكبر للسلطان محمد هو البيزنط ، ولاسقاط البيزنط ، كان يجب
السيطرة على بوغاز استانبول وإحكام الرقابة التركية على جميع السفن المارة من
البوغاز . ومن أجل هذا شيد محمد الفاتح روملى حصار المسمى « بوغاز كسن
حصارى » أى القلعة قاطعة البوغاز (آذار - تموز ١٤٥٢) .

تم بناء هذه القلعة فى زمن قياسى خاصة إذا علمنا أن ارتفاع القلعة عن سطح
البحر يبلغ ٨٢ مترا ، وأنها تشتمل على ٣ أبراج إرتفاع كل منها ٢٦/٧٠ م ، وأن
مساحة الأرض التى تشغلها ٢٥٠ ٣٠ م^٢ . تعلو أمامها على الضفة المقابلة أناضولى
حصارى التى شيدها أبو جده بلدرم بايزيد . لم يكن ممكناً لأية سفينة أن تمر من
البحر الأسود إلى البحر الأبيض أو بالعكس تحت النيران المتقاطعة للمدافع المثبتة على
الطرفين ، دون إذن من الأتراك ، ولم يحدث ذلك حتى يومنا هذا . لذا فان مؤسس
نظام المضائق ، هو السلطان محمد . من المعلوم أن الموقع الذى شيد فيه القلعتين
المتقابلتين هو أضيق نقطة فى مضيق استانبول حيث ينخفض العرض فى هذه النقطة
إلى ٦٦٠ م .

بهذا يعتبر السلطان محمد هو مؤسس نظام المضائق ، وبعد أن انتهى الخاقان إنشاء القلعة والتحكيكات اللازمة عاد إلى أدرنة في أول أيلول ١٤٥٢ .

وبينا انشغل الامبراطور الذى أدرك نية السلطان محمد بدعوة أوروبا إلى مساعدته ، قضى البادشاه شتاء عام ٥٢ - ١٤٥٣ فى أدرنة فى استعدادات مذهشة . أمر بسبك المدافع بأقطار لم يسبق أن شوهدت من قبل ، ومدافع الهاون التى استعملت لأول مرة فى التاريخ ، وقد خطط لهذه المدافع بنفسه كما اختبرها بنفسه . كانت نتيجة تجربة المدفع الكبير حسنة ، فقد سمع صوت انفجار البارود عند اشعاله بالنار ، من مسافة ١٠٠ ستاد (٢/٥ ميل) ، وسقطت القذيفة على مسافة ميل واحد وحفرت عند سقوطها حفرة بعمق ١ قولاج (مسافة مابين اليدين إذا فتحتا بشكل مستو) . وارتكزت فى التراب اللين وبقيت فيه (Dukas ، ٣٥ ، ١٥٢) .

انقسم البيزنطى إلى قسمين . كانت أوروبا تطلب من البيزنطى ، لكى تساعدوا ، ترك مذهبها الارثوذكسى واعتناق المذهب الكاثولىكى . اما الامبراطور البيزنطى ، فقد كان حاميا للمذهب الارثوذكسى وحاميا للبطريك العالمى الارثوذكسى ، ومن ثم فانه من غير الممكن أن يتبع البابا من الناحية الدينية . وعلى الرغم من عمق جذور العداوة التاريخية بين الكاثوليك والارثوذكس ، فقد جرت مراسم دينية على الأصول الكاثوليكية فى أياصوفيا أكبر كنيسة فى العالم فى ١٢ ك ١٤٥٢/٢ ، وتولى إدارة المراسم الكاردينال Isidore الذى أرسله البابا . اهتمت الشعب البيزنطى كله وقال رئيس وزراء البيزنطى الدوق - الأكبر Noraras جملته التاريخية معبرا عن شعور البيزنطية : لئننى أفضل أن أشاهد فى ديار البيزنطى عمامة الأتراك ، على أن أشاهد القبة اللاتينية (Dukas ، ٣٧ ، ١٦١) .

قضى البيزنطى شتاء مريرا تحت ظل أسوار قلعة (حصار) بوغاز كسن التى تمتد على طول ٢٠٠٠ م . لكنه كان يعتمد على أسواره - التى لم يتمكن من فتحها أشد الغزاة قساوة - وعلى تركيب نارهم (بالفرنسية : Feu grégoris) التى لايعلم سرها سوى البيزنطى والتى تزداد لهيبا كلما صب عليها الماء ، وعلى السيدة مريم .

كانت مناعة أسوار استانبول تأتى فى المرتبة الأولى فى العالم ، فقد كان ارتفاع الشرفات ١٧ م ومابين الشرفات ١٥ متراً ، ويبلغ السمك فى الذروة ٤ م وفى

القاعدة أكثر بكثير ، وكان عرض الخندق الموجود أمام الأسوار $\frac{1}{4}$ ١٨ متر وعمقه ٩ أمتار وكان مليئا بالماء ، وكان للأسوار المكونة من طوابق عديدة ٣٠ برجاً مكسياً بالرصاص . وكان المعروف أن المدينة لا يمكن إسقاطها إلا بحصار محكم يتمكن من إجاعتها لمدة ست سنوات ، ومن البدهى أن الدول الأوربية سوف تأتى خلال هذه المدة ، ومن ثم فإنه سوف يتعذر عملياً استمرار الحصار .

ولذلك كان تخطيط محمد الثانى يقوم أساساً على أن تتكفل مدافعه بإنهاء العملية قبل أن تصل أية نجدة أوربية .

وقد جرت الأمور على الوجه التالى :

- بدأت العملية بتسوية طريق أدرنة - استانبول بمعرفة ٢٠٠ عامل يشرف عليهم ٥٠ عاملاً ماهراً ، وتم لإخراج المدفع الكبير من أدرنة إلى الطريق فى شباط ١٤٥٣ يجره ٦٠ ثورا ، ٤٠٠ جندي على جانبيه الثيران (٢٠٠ جندي فى كل جهة لتأمين عدم التزحلق والميلان) . وصل المدفع على بعد ٥ أميال من أسوار استانبول فى آذار (٣٧ ، ١٥٨) Dukas) وكان على رأس قيادته قره جه ياشا الذى استولى ومعه ١٠٠٠٠ جندي على القصبات البيزنطية المجاورة . حصل البيزنط خلال أشهر الشتاء على إمدادات من الجنود والسفن والمهمات من أوروبا .

- تحرك البادشاه من أدرنة فى ٢٣ آذار ١٤٥٣ ووصل أمام استانبول بعد ١٣ يوماً فى ٥ نيسان .

- بدأ الحصار فى ٦ نيسان ، ويمكن تلخيص موقف الجانبين على الوجه التالى :
قام الأميرال بلطة أوغلو سليمان بك فى ١٨ نيسان باحتلال جزر استانبول وقرية طرايا فى البوغاز ، قوام الجيش التركى حوالى ١٠٠٠٠٠ شخص ، نظم الاتراك مدافعهم على شكل ١٤ فصيلة ، كان لدى الأتراك منجنيق هائل بحجم لم يسبق له مثيل ، صنعه محمد الثانى ، ذلك بالإضافة إلى أربعة أبراج متحركة ، وقذائف طيارة تتساقط كالشهب ، المدافع التى لدى الاتراك من النوع الثقيل الذى يحتاج إلى ٢٠٠٠ جندي لسحبه ، ويستطيع المدفع الواحد إطلاق سبع طلقات فى اليوم زنة كل منها طنان ، وإطلاقه واحدة بالليل ، حيث يستغرق ملء المدفع وتبريده ساعتين .

بدأت أربعة مدافع من النوع الكبير باطلاق النيران وتلتها فصائل المدفعية الأصغر ، وأطلق أول مدفع هاون في التاريخ يوم ٢١ نيسان على أسطول العدو في الخليج . على الجانب الآخر وفي مقابلة هذه القوة، التي تعتبر أكبر قوة حرية في العالم ، كان للبيزنط أسوار مستحكمة بطوابق متعددة ، ١٥٠٠٠ جندي غير المتطوعين ، بالإضافة إلى أسطول بيزنطي - جنوى - بندق - بابوى رابض في الخليج ينتظر في كل لحظة وصول الأسطول البندقى من البوغاز وقُدوم الجيوش التي سوف تدخل تركيا عن طريق الطونة .

في ١٨ نيسان جاء سفراء من المجر ، وأعلنوا باسم العالم المسيحي كله أن جيوش أوروبا المتحدة سوف تستولى على تركيا في حالة عدم رفع الحصار .

- تمكنت ٤ سفن جنوية وواحدة من مورا من دخول الخليج
- بلغ من شدة غضب محمد الثانى لهذا الحادث أن قام بعزل بلطه اوغلو سليمان بك - قائد القوة البحرية - الذى لم يتمكن بسبب اتجاه الريح من وقف هذه السفن ، وعين بدلاً منه المشير البحرى (قبودان دريا) احمد بك بن جالى بك أحد قواد البحر السابقين .

- كان خليج استانبول مغلقا بسلسلة غليظة جدا (السلسلة موجودة بالمتحف العسكرية حاليا) ومن ثم فانه كان يستحيل على السفن التركية اجتياز البوغاز .
- أفاد الوزير الأعظم جاندارلى - مزاده خليل باشا أنه قد يكون من الممكن اسقاط البيزنط إلا أن هذا سوف يجر تركيا إلى حرب مع أوروبا بأسرها (وقد تحقق هذا فعلاً) ، واقترح على البادشاه قبول ٧٠ ٠٠٠ ليرة ذهبية كضريبة سنوية وابرام الصلح مع الامبراطور .

- رابط الوزير الداماد رغانوس محمد باشا في انجاد قاسم باشا ومعه ١٥٠٠٠ جندي ، وطلق في قصف الاسطول البيزنطى المحصور في الخليج بمدافع الهاون ، فاصيبت عدة سفن بيزنطية .

- تمت في ليلة ٢٣ نيسان عملية مذهلة تمثلت في تسير ٦٧ قطعة صغيرة من الاسطول التركى على البر (لتفادى السلسلة الغليظة التي تغلق خليج استانبول) -

ومن بين مظاهر الإعجاز في هذه العملية أنها تمت في ليلة واحدة
ودين أن يشعر بها العدو .

- أحدثت هذه العملية انهياراً في معنويات البيزنط ، فقد أصبحوا يوم ٢٣ نيسان
على منظر الخليج ، وهو يموج بقطع الاسطول التركي .

يعبر بعض الشيء عن هذا التأثير ، ماكتبه المؤرخ البيزنطي والدبلوماسي الأمير
دوكاس والذي التقى بمحمد الثاني شخصياً ، كتب دوكاس : « مارأينا ولاسمعنا من
قبل بمثل هذا الشيء الخارق ، محمد الثاني يحول الأرض إلى بحار وتعبير سفنه فوق
قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الاسكندر الأكبر » .
فتح محمد الثاني استانبول ، وقضى على البيزنط ، وملك كافة المدن التي تزين العالم ،
(٣٨ ، ١٦٦) .

- خلال ليلة واحدة ، وهي الليلة التالية على ليلة ٢٣ نيسان ، نصب الاتراك
جسراً على الخليج يسمح عرضه بمرور ٥ جنود جنباً إلى جنب .

- أمر امبراطور البيزنط ليلة ٢٨ نيسان باهادة الاسطول التركي الذي نزل إلى
الخليج ، وتدمير الجسر الذي تم نصبه ، مهما كلف الأمر .

ولم تنجح هذه المحاولة ، فلم يدمر الجسر ، ولم تفرق سفينة تركية واحدة ، وفقد
١٥٠ بحاراً بيزنطياً حياتهم في هذه المحاولة .

- أعدم الأمبراطور الغاضب الاسرى الاتراك الذين تحت يده وعددهم ٢٦٠
أسيراً ، وقطع رؤوسهم وألقاها من الأبراج امام الاتراك .

- أغرق الاتراك سفينة الاميرالية لاسطول العدو التي لجأت إلى سواحل وأسوار
الخليج ، وغرقت سفيتان تركيتان بالنيران التي انهمرت من الأبراج .

كان لدى البيزنط مدافع ، ولكنها كانت بدائية واطفئت من أن تقوم بالدور الذي
تلعبه المدافع التركية ، وكان اعتماد البيزنط أساساً على النار المسماة « روم آتشي »
(نار الروم) أو « نار غريغوار » التي كانوا يحتفظون بتركيبها لعصور طويلة كسر
وطنى .

- في ٥ مايس حرك الاتراك بعض فصائل المدفعية حيث ركزوها على مرتفعات
بك اوغلو .

- في ٦ مايس أمر الخاقان بالهجوم العام الأول من المنطقة المقابلة لطوبقابوسى .

- في ١٢ مايس أمر الخاقان بالهجوم العام الثانى من المنطقة المقابلة لادرنة قابوسى .

- كان يواكب كل ذلك محاولة ملء أجزاء من الخندق العميق المملوء بالماء الموجود أمام الأسوار - بقطع الحجارة ، وأيضا أحدث الأتراك ثغرات كبيرة فى الأسوار ، كان يتعذر على الشعب البيزنطى اصلاحها ، على الرغم من أنهم كانوا جميعا يعملون ٢٤ ساعة متصلة .

- في ٢٣ مايس أوفد محمد الثانى ، اسفنديار اوغلو داماد قاسم بك إلى البيزنط كسفير ليبلغ الامبراطور أن المدينة معرضة للسقوط فى أول هجوم عام ، وانه إذا أعلن الإمبراطور استسلام المدينة ، فانه وفقا لقواعد الإسلام لن يصاب أحد من أهلها بسوء وسيأمن الجميع على أموالهم وأنفسهم ، أما إذا اسقطت بالقوة فان السلطان محمدا الثانى لن يكون مسؤولاً عما يحدث وعن الدماء التى ستهدر .

- افاد الامبراطور بأن مايراد تسليمه ليست قلعة بل هو أكبر تاج امبراطورى مسيحى يرجع تاريخه إلى ألف وخمسمائة عام ، وأنه مستعد مقدما لقبول أية شروط من البادشاه علدا تسليم المدينة ، وأنه فى نفس الوقت سوف يقاتل حتى الموت .

- بدأ الأتراك فى ١٦ آيار فى حرب انفاق دموية .

- فى ٢٦ آيار حضر من الهجر إلى محمد الثانى وفد كبير باسم المسيحية وهدد بأن أسطول البندقية (الذى كان الأسطول الأول فى العالم فى ذلك التاريخ) معزز بأساطيل أوربا المختلفة ، على وشك اجتياز بوغاز جناق قلعة ، وأن جيشا مسيحيا كبيرا اكمل استعداداته الأخيرة لاجتياز ألطونة نحو الجنوب .

كان قرة مان أوغلو إبراهيم بك قد اتفق كذلك مع البنادقة على ضرب العثمانية من الاناضول حالما يتعرض الجيش المسيحى من الشمال .

كرر الوزير الأعظم خليل باشا نصيحته للامبراطور بأنه يرى فرض شروطه ورفع الحصار .

- عارض مرشد الخاقان الشيخ آق فمىس الدين ذلك بشدة معلنا أنه تلقى بشارة

فتح استانبول وتلا الحديث الخاص بالفتح : « لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » .

- زهدت كثافة القصف التركي إلى أقصاها .

- في ٢٧ أيار (مايس) استشهد مراد باشا أثناء محاولته الدخول إلى المدينة من إحدى الثغرات .

- في ليلة ٢٨ أيار ، جمع الامبراطور البيزنطيين في اياصوفيا ، وأجرى لهم مراسم دينية واخبرهم باقتراب وقت قدوم السيدة مريم .

- جمع محمد الثاني المجلس العسكري ، وأعلن انه سوف يمنح الذين يسبقون غيرهم في الصفود إلى الأسوار ، رتبة اضافية .

- بعد أن أذى البادشاه صلاة الصبح يوم ٢٩ أيار ، امتطى جواده وتقدم إلى الصف الأمامي مع جميع أركانه ، وبدأت المدفعية في اطلاق نيرانها مع أشعة الشمس الأولى ، وبدأ الجند تحت ستار هذه النيران في الضغط على الأسوار ، ومحاولة تسلقها من جميع الجهات ، وفرق المهتر (الموسيقى العسكرية) تدوى نغماتها بشكل تمن له السماء والارض ، ورجال الدين والطرق يتجولون بين الصفوف يشجعون المقاتلين ويتلون الأدعية وينشدون الأشعار والمنظومات الدينية ، ويرددون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحت على الجهاد والقتال في سبيل الله .

- لم يتم الشعب البيزنطي ليلة ٢٨ - ٢٩ أيار . استراح قسطنطين الحادى عشر الذى خرج من الاحتفال الدينى ، عدة ساعات في سراى Vlaherna (بالتركية ، تكفور ، سراى) ثم جاء إلى باب Ayios Romanos (بالتركية ، طوبقابوسى) . أما محمد الثانى ، فكان في الجهة الثانية من هذا الباب ، حيث ستحدد في هذه الجهة النتيجة النهائية لهذه المعركة .

كان مشاة البحرية يتسابقون إلى إلقاء أنفسهم في البحر في سواحل مرمره ، مجازفين بحياتهم في سبيل تسلق الأسوار التي تشرف على بحر مرمره ، وكانت المعركة الدائرة أمام أسوار طوبقابو دموية وشديدة يقاتل فيها كلا الطرفين بتضحية وبسالة مستميتين في القتال .

كانت موجات الجنود الأتراك الذين يصعدون على الأسوار بالسلام ، تنال الاستشهاد في الحال بأسلحة البيزنطيين ، وفي نفس الوقت كان الشعب البيزنطي ، يخلى البيوت والشوارع ملتجئاً إلى الكنائس وهو في أشد حالات الاضطراب والفرع لمشاهدته الجنود الأتراك ، أما الجزء الذى لم يهرب منهم فكان يدافع مع الجيش البيزنطي ، أما الكنائس التى لم تكف أجراسها عن الصليل فقد كانت في الحقيقة توحى بقرب حلول اللحظات الأخيرة .

استمر ضغط الأتراك وتعزيز وحدتهم بصورة مستمرة ، ولم تستطع الأحجار الكبيرة التى تلقى على الجنود أو نار الروم المعروفة أن تثنى الموجات المتتالية من الجنود الأتراك عن محاولات تسليق الأسوار من جهة طوبقابوسى .

وفي الوقت الذى كان فيه الامبراطور يقوم بسوق ماتبقى من احتياطاته الاخيرة التى يقودها الامير Nicolas Paleologos والامير Demetrios Kantakuzinos إلى طوبقابوسى ، جرح الجنرال Givstiniani وترك ساحة الشرف بغير شرف قائلاً : « سأسلك الطريق التى فتحها الله للأتراك » .

كانت أصداء تكبيرات الغزاة الدراويش في صفوف الجيش التركي التى يتجول بينها أستاذنا الخاقان آق همس الدين وملا كوراني ، والدعاء الذى رددوه عقب صلاة الصبح ، والخطاب القصير المؤثر الذى ألقاه البادشاه فسرى كالكهرباء في أعصاب الجيش التركي - كان ذلك كله يؤتى ثمرته فيتجسد أمواجاً متعاقبة على الأسوار البيزنطية ، تلتطم بها لتجتاز أكبر قلاع القرون الوسطى المستحكمة ، وتنتشر كولوالة مزينة داخل البلدة الكبرى جوهره الدنيا وامبراطورة المدن . أما قسطنطين الحادى عشر ، الخلف الشرعى لـ Augustus فقد استمر في الدفاع مبدياً الشجاعة دون أن يترك مكانه ، لكنه كان ينظر بعيون غارقة بالدموع وبجفن شديد إلى تصدع وانهدام وانفتاح الأسوار البيزنطية .. تحت وطأة الهجمات التركية المتعاقبة التى لاتفتقر .

اقتربت الساعة من الساعة ، كانت أواخر أيام الخريف ، حيث أخذت الحرارة اللطيفة الفاترة الخاصة باستانبول تنتشر في هذا الموسم .

لم يغيب عن فصره محمد الثانى الذى يراقب الوضع بكل كيانه ، التوقف الآنى الذى نشأ عن ترك Giustiniani وجنوده الايطاليين الدفاع ، فأصدر امره للصف

الرابع من الجيش التركى يتسلى أسوار طوبقابوسى ، وقد كان هذا معنى ان البادشاه يعتقد أن ذلك هو الهجوم النهائى .

سبق ضابط شاب صغير الرتبة حديث السن اسمه اولوبادلى حسن مع ٣٠ جنديا من معيته مفارز الهجوم الاخرى وركز راية الخاقان فوق اسوار طوبقابوسى ، واستشهد فى نفس اللحظة بنار وسهام وحجارة البيزنطيين التى وجهت اليه من مئات المواضع . واستشهد معه ١٨ من معيته ، لكن بقية الـ ١٢ حافظوا على الراية فلم تسقط من أيديهم ، ولم تسقط بعد ذلك أبدا .

ترجل محمد الثانى عندما شاهد العلم التركى يرفرف فوق طوبقابوسى عن حصانه وخر على الارض ساجدا سجدة الرحمن ، حامدا المولى على تحقيق نبوءة الرسول ﷺ على يديه . ومنذ تلك اللحظة نال محمد الثانى لقب « الفاتح » .

كان القطاع بين طوبقابوسى واكرىقابو (باب Caligaria / Charsias) مليئا بالاجساد البشرية من كلا الطرفين ، بحيث لايمكن اجتيازه . انتقلت باب Kerkopoorta (بالتركية : جنبازخانه) لحوزة الاتراك بعد دقائق من تركيز العلم التركى ، ودخل إلى المدينة من هذا الموقع ، اول جندى تركى . تم اجتياز السور الثانى كذلك .

أوقف ضابط الوحدة الاولى التى دخلت وحدته خلف الوحدة البيزنطية ، ولم يتقدم نحو المدينة . هجم البيزنطيون الذين شاهدوا ذلك جنودا ومدنيين ، على هذه الوحدة بغرض ابادتها . تم تعزيز الوحدة بالامدادات فلم يستطع البيزنطيون ابادتها ، ولما لم تنجح من مكانها ، فقد قطعت طريق الرجعة على جيش البيزنطى ، وحالت دون هروبه نحو المدينة .

اصيب الشعب البيزنطى سواء الذى شاهد الجيش التركى فى المدينة او الذى علم بقدمه بالفرع وأخذوا يتجمعون فى طريق أباصوفيا .

قاوم الجيش البيزنطى الذى قطعت عليه سبل العودة بشده ، واحتشد عدد كبير من الجنود فى ساحة ضيقة وتداخل مع بعضه بحيث سحق الامبراطور الذى جرح وسقط على الارض تحت الاقدام . أنزل أحد جنود البحرية الضربة الاخيرة على الحاكم . (كان عمره يتجاوز الـ ٤٩ بـ ٣ شهر ، ١٩ يوما) فتح الجيش التركى

الذى دخل المدينة أبواب القلاع الواحد تلو الآخر ويسر دخول كافة الوحدات التركية .

أخذ الجيش الهمايوني الذى قضى على أوكار المقاومة الأخيرة بالسير فى تشكيل نظامى نحو ميدان أياصوفيا الذى شاهد تجمع الشعب فيه .

أخذ البيزنطيون الذين لم يدخلوا أياصوفيا منذ اتحاد الكنيستين يملكون المعبد الكبير فى انتظار انشقاق الجدار وظهور ملك (بفتح الحرف الثانى) بيده سيف ليخلصهم من الأتراك . ولكن هذه الاسطورة التى كانوا يعتقدون فيها منذ عصور لم تتحقق . كتب الامير دو كاس يقول : إنه لو ظهر فى تلك اللحظة ملك وسأل البيزنطيين ، عما اذا كانوا يفضلون أن يصبحوا كاثوليك وينجوا من الاتراك ، أم أن يظلوا ارثوذكس ويعيشوا تحت إدارة الاتراك ، لفضل كل بيزنطى الشق الثانى (٣٩) .

وهكذا انتهى الحصار ال ٢٩ والأخير لمدينة استانبول . وقف الجيش الذى تجمع فى اقسراى بنظام الصفوف أمام أياصوفيا فى انتظار البادشاه ، ولم يكن وقت صلاة الظهر قد حان بعد . وفى غضون هذه اللحظات كانت مقاومة بحارة كريت فقط مازات مستمرة فى باغجه قابو . أعجب البادشاه بهذه البطولة فأمر بعدم أسرهم والسماح لهم بالذهاب إلى سفنهم مع اسلحتهم وعودتهم إلى جزيرتهم (لقد كان مثل هذا التصرف معارضا لعقيدة القرون الوسطى . لكن محمدا الثانى ، كان رجل العصر الحديث . كما ستؤكد ذلك فيما بعد تحركاته القادئة) .

لم يعتد الجيش على أحد من عشرات الألوف من البشر المتجمعين فى أياصوفيا ولم يمسهم بأذى سوء وأخذ فى انتظار الحاقان وماسيأمره بشأن هذا الشعب .

دخل السلطان محمد خان إلى المدينة من طوبقابوسى وقت الظهر . جاء إلى أياصوفيا بصفة « فاتح » و « امبراطور روما » بين تصفيق الشعب البيزنطى وأصوات تكبيرات وأذان الجيش التركى .

سجد كافة الشعب وعلى رأسهم الرهبان الكبار على الأرض . قال السلطان محمد « انهضوا .. لا تخشوا بعد هذه اللحظة على حياتكم ولا على حريتكم » ، ثم ساعد بطريك الارثوذكس العالمى الذى كان راكعا على النهوض وكرر عليه الكلام نفسه . أفرغ أياصوفيا وتفقدتها . أمر برفع الأذان ، وأدى صلاة العصر بداخلها فوراً . امر

بالبحث عن جثة الامبراطور واحضرها وسلمها إلى الرهبان وأمر بدفنه باقامة المراسم ذاتها التي أقيمت على الامبراطور السابق .

عزل في اليوم التالي ، البطريرك الارثوذكسى العالمى ، وأمر المجلس الروحانى بانتخاب بطريك جديد بدلا منه ، وذلك بسبب تأييده البابا في الاتحاد الارثوذكسى - الكاثوليكي واقامته المراسم الكاثوليكية في اياصوفيا . اما Cennadinos الذى انتخب بدلا منه ، فكان مخالفا لهذا الاتحاد .

كان ذلك يوم جمعة ١ حزيران . أقيمت صلاة الجمعة في ايا صوفيا ، حيث تلا الخطبة آق فمس الدين باسم الفاتح .

اخذ فاتح عملة غلطة من حوزة جمهورية جنوه ، وأنهى تجارة جنوة الحرة في البحر الأسود ، وهكذا خرجت جنوه من عداد الدول العظمى .

وفي ١٩ تموز ، عزل جاندارلى خليل باشا وأعدم . وقد اختلفت الاقوال في سبب إعدامه ، فقد قيل إنه بسبب معارضته فتح استانبول بدعوى ان ذلك سيسبب اثارة العالم المسيحى بأجمعه ضد الدولة العثمانية (وقد حدث ذلك بالفعل) ، وقيل انه بسبب بقاء مقام الصدارة منذ ٩٠ عاما لدى أسرة جاندارلى ، وعدم رغبة الفاتح في تأسيس سلالة خاصة بالصدارة بموازاة سلالة السلطنة لتوقعه محاذير من ذلك .

أعلن الفاتح ، مدينة استانبول ، مركزا للدولة ومدينة العرش . غادر استانبول في ٢١ حزيران متوجا إلى أدرنة ، وبذلك فانه يبدو أنه بقى فيها ٢٣ يوما .

لم يكن يسكن في ذلك التاريخ داخل أسوار استانبول ، أكثر من ٥٠ . ٠٠٠ بيزنطى (عدا قرى البوغاز والضواحي) . فقدت استانبول سكانها البالغ عددهم اكثر من مليون نسمة في الاجتياح اللاتينى في ١٢٠٤ ، وأخذت بعد ذلك في التقلص . قبل أن يمضى شهر ايلول جلبت إليها ٥٠٠٠ عائلة من أناضولى ومن روملى واسكنت فيها .

بدأ العمل لاعمار المدينة على قدم وساق ، واشتغل في هذا الاعمار البيزنط الذين نجوا من الموت واسروا ، وقد اطلق سراحهم عند انتهاء العمل بأمر الفاتح على أساس انهم سدّدوا فديتهم بعملهم .

عومل الروم والكنيسة الارثوذكسية بلين لايتصوره العقل ، ولعل أحد الاسباب لذلك ، ضمان عدم اقترابهم من العالم الكاثوليكي ، وتفادى وقوعهم في أحضان البابا الذى يشكل روح الاتفاق الأوربي ضد العثمانية .

كان سرور العالم الإسلامى بالفتح كبيرا . أنبرت القاهرة أياها طويلة وأقيمت فيها احتفالات كبيرة (ابن اياس) ٢ ، ٤٤) . أرسل السلطان المملوكى ، و سلطان الهند الجنوبية البهمنى وحكام مسلمون عديدون سفراء خاصين لتهنئة السلطان محمد الفاتح .

يعتبر فتح استانبول أكبر حدث فى التاريخ التركى ، فقد بشر ذلك الفتح بصورة قطعية بأن تركيا سائرة فى طريق الدولة العظمى . والمعروف أن الفتح هو نهاية القرون الوسطى وبداية القرون الحديثة . بجّل الاتراك الفتح باطلاقهم عليه اسم « فتح مبین » ، وبلغ التبجيل حد القول بانهم اكتشفوا ان تعبير « بلدة طيبة » الموجود فى « القرآن » يشير بحسب الالبجدية إلى التاريخ الهجرى للفتح المبین .

يعتبر الفتح ، من أهم الوقائع فى التاريخ الأوربي كذلك . كتب البابا ، على أثر وصول خبر سقوط البيزنط ، خطابا إلى جميع الحكام الأوربيين طالبا منهم تشكيل اتفاق صليبي جديد .

وفيما يلى رأى بعض المؤرخين الأوربيين القدامى والجدد حول الفتح والفتح :

« انختن Labarum » (راية الامبراطورية البيزنطية المشغول عليها علامة عيسى عليه السلام) أمام الراية (السنجق) الشريفة . ارتجف الغرب مدة قرنين أمام اباطرة المسلمين الذين سيطروا منذ ذلك اليوم على بوغاز إيحي (مارشال فون مولتكه ، ص ١٥١) .

« كافح البيزنطيون كفاحا شديدا طوال مدة أكثر من قرنين ، لحماية الأناضول من العرب . ولقد كانت هذه حادثة فى الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لمستقبل الحضارة الأوربية . ولو خسر البيزنط وتحقق الفتح الإسلامى فى ٦٧٣ أو ٧١٧ وليس فى ١٤٥٣ ، فماذا كان سيحدث عندئذ لوضع أوربا التى لم تثبت رشدتها حتى الآن ؟ لما أمكن حدوث أية حركة إصلاحية أو نهضة علمية .. تفكك البيزنط فى القرن ١١ نتيجة لاستيلاء إسلامى ثان أكثر شمولا من الاستيلاء العربى . كان ذلك

بسبب فتوحات الأتراك السلجوقيين . انقذ العرب سورية ، وادى الرافدين ومصر فقط من اليونانية ، ثم أصبحوا ساميين مجددا . أما الاناضول فخلال مدة ٢٠ سنة ، أصبحت تركستان جديدة . وانسحبت حدود أوروبا من أرمنستان إلى بوغاز إيحي . كان الأتراك في أيزنك . ان فتح ١٤٥٣ كاد يتحقق في غضون ١٠٨١ ، لولا التدخل الغربى الذى غير القدر . تحرك الغرب لتقوية البيزنط بفرض دفع آسيا إلى خلف الأماكن التى حازتها من أوروبا . لا يمكن اعتبار الحروب الصليبية تجمعات ايدولوجية صرفة ولاحروب فتوحات . إنها تظهر رد الفعل الأوربى الدفاعى تجاه التهديد الآسيوى . بدأت الجولة الإسلامية الثالثة ، مع العثمانيين . كان العثمانيون فى القرن ١٤ فى بورصة ، وفى القرن الـ ١٧ وصلوا إلى فيينا ، وبانسحابهم فى ١٩١٢ إلى أدرنه ، انتهت هذه الجولة ... وفى النهاية وفق العثمانيون فى انجاز فتح الامبراطورية الرومانية ؛ لوجودهم على ضفاف مرمرية ، ولانه تيسر لهم حكاما عظاما جدا تلا احدهم الآخر . ان هؤلاء الحكام كانوا على درجة من الدهاء العسكرى ، لا يمكن مقارنته بدهاء أعدائهم . كانوا على علم بما يريدون ، ولم تكن لهم أية غاية عدا الفتوحات . وفق بنو عثمان ، السلالة الاستثنائية ، فى إحياء الغاية المقدسة للحملات النبوية بعد عصور طويلة (René Grousset ، الأكاديمية الفرنسية ، L'Empire du Levant ، ص ٨ - ١١ ، ٦٠٩ - ٦١٠) .

« إن اسباب توفيق الأتراك الذين أنهوا القرون الوسطى ، هى وضعهم تكتيكا جديدا للحرب وتأسيسهم جيشا منظما » (Histoire du Monde , R. Sedillot ، ص ١٨٤) .

« كان تكتيك الحرب لدى الأتراك الذين أنهوا القرون الوسطى ممتازا إلى درجة انهم استعملوا قذائف اللهب الطائرة التى تعتبر الاصل فى اكتشاف سلاح ٧-١ ، لأول مرة فى فتح البيزنط . اهتم المهندسون الأوربيون فى القرن ٢٠ بنظام عمل هذه القذائف بعد أن نسى لعصور طويلة » (Benoit - Méchin ، ص ٥٤ - ٥٥) .

« فتح استانبول هو أحد أكبر وقائع التاريخ العالمى . كان تأثيره كبيرا جدا على مستقبل أوروبا . بدل سير التاريخ بأكمله . أغلق القرون الوسطى وفتح القرون الحديثة » (Gustave Schlumberger Introduction) .

« إن قبول أوروبا جميعها بعد فتح استانبول ل سلاح المدفع ووضعه على السفن ،
واخذ الاسطرلاب عن العرب ، أجبر أوروبا التي اختنقت بالفتوحات التركية ، وقطع
الطريق عليها ، ان ترمى بنفسها بكل قوة نحو البحار المفتوحة ، وان تبحث عن
ايجاد طرق جديدة وتعويض احتياطي ذهبها الذي نفذ » (Histoire ، Pirenne ،
Universelle ، ٢ ، ٣٠٠) .

« من أهم لحظات التاريخ ، ويحتمل أن تكون أهمها جميعا : فتح الاتراك
لاستانبول » (Mehmed der Eroberer ، Franz Bobinger ، الترجمة الفرنسية ، ص
٧) .

لايشك أحد في كون السلطان محمد امبراطور روما . أن الذي يستولى على مدينة
عرش الامبراطورية هو امبراطور من الناحية الشرعية ، ومدينة عرش الامبراطورية
الرومانية ، هي استانبول (الأسطر التي حررها المؤرخ البيزنطى Yorgios
Trapezutios في ١٤٦٦) .

« السلطان محمد ، هو أحد فلاسفة عصرنا الذين يملكون ذكاءً يمتاز بالحدة
الشديدة » (المؤرخ البيزنطى Kitovulos ، ص ١٧٧) .

« السلطان محمد ، يندر أن يضحك . ذكاؤه يعمل بصورة مستمرة . كريم
جدا ، عنود وجسور وجريء في تصميمه ، ذكاؤه متقد . هو كإسكندر الكبير
لايشبع من الشهرة والرفعة . يتحمل البرد والحر والجوع والعطش . كلامه قطعى .
لا يخشى أحداً . بعيد عن اللهو والمجون . يتكلم التركية واليونانية والعربية بصورة
جيدة ويجيد قراءة وفهم اللغات الأخرى . يعكف على المطالعة كل يوم مدة من
الزمن . ومن الكتب التاريخية التي يطلعها ، التاريخ الرومانى ، كتب التاريخ الأخرى
Laerce ، هيرودوت ، Quinte - Curse ، Tite - Live تاريخ البآبوات ، أباطرة ألمانيا
وملوك فرنسا ولبارديا . له علم بجغرافية إيطاليا بصورة دقيقة وبكامل فروعها . على
علم كذلك بجميع الحكومات الموجودة في أوروبا . لا يستغنى عن خارطة كبيرة
لاوروبا . يتبع العلوم العسكرية والجغرافية برغبة شديدة . ماهر في تكييف نفسه على
عادات وتقاليد الأقطار المختلفة الموجودة في دولته » (معاصره الايطالى Zorzo
Dolfen ، ص ٢٤) .

« السلطان محمد ، هو أعظم حاكم فى يومنا ، أعظم من كيروس ، من إسكندر الكبير ، من سيزار وبكلمة واحدة أعظم من جميع الحكام السابقين » (Babinger ، نقلا عن البيزنطى Yorgios Trapezuntios ، ٢٩٨) .

« فاتح ، ليس متخصص لغات من الدرجة الأولى ، ومؤرخا وفيلسوبا فحسب ، بل هو إلى جانب ذلك إدارى عظيم ، خيال وخبير فى استعمال الأسلحة بشكل خارق للعادة (The Harem , N . M . Panzer ، لندن ١٩٣٦ ، ص ٢٣٧) .

« يبدأ عصر النهضة العلمية ، مع فتح البيزنط فى عام ١٤٥٣ على يد الفاتح . فاتح ، أحد أكبر حماة الإصلاح والنهضة العلمية الحديثة (Renaissance) . إن عصر النهضة العلمية مدين بالكثير لتسامح فاتح وخلفيه الاثنين . يسر فاتح انتشار اللغة اليونانية القديمة فى أوروبا . دعا كل من بانزيد وباوز ، فى ١٥٠٦ و ١٥١٩ ، انجيلو وليوناردو دافينشى إلى استانبول بصورة رسمية . بينما لم يسمح لهما البابا بذلك ، (La Renaissance, P. Faure ، ٧ ، ٤٦ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤) .

« لكى ندرك التاريخ العثمانى ، لابد أن نعطى بنى عثمان حقهم كثنائى مؤسسين لامبراطورية روما الشرقية ، يقر المؤرخون البيزنطيون المعاصرون لفاتح مثل Kritovulos Chalcondylas , Dukas Trapezuntios بأن بنى عثمان قد احتلوا مكان أباطرة روما ، وأنهم أصبحوا خلفاءهم الشرعيين ، وأنهم يحملون هذه الصفة » (Grenard ، ١٠١ - ١٠٢) .

« ان فتح استانبول ، هو انجاز شخصى لمحمد الثانى . ولا يمكن قبوله كنتيجة للتطور الطبيعى للدولة العثمانية » (Voyageurs Francais dans l'orient , N . Lorge ، ص ٢١) .

إن إجادة فاتح اللغات اليونانية والصربية والإيطالية وفهمه عدة لغات أخرى ، هذا عدا اكتشافاته فى البلستك (ما يخص القذائل الحرية) ودهاؤه فى الرياضيات ومعرفته العلوم الدينية بصورة فائقة وإجادته العربية والفارسية تجبرنا على الاعتراف بأن السلطان محمد الفاتح هو أعظم حاكم وأكبر عسكري وأكبر رجل دولة سياسية ورئيس « الدولة العالم » الممتاز فى التاريخ العثمانى . وبالنسبة إلى كثير من المؤرخين فإن محمد الفاتح هو أكبر شخصية انجبتها الأتراك طوال التاريخ .

وقد تجدر الإشارة إلى تعداد العالم عام ١٤٥٣ أثناء الانتقال إلى القرون
الحديثة يقدر بـ ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ؛ ٢٧٥ مليون نسمة تسكن في آسيا ، و ٧٠
مليوناً في أوروبا ، و ٤٠ مليوناً في أفريقيا ، و ١٥ مليوناً في أمريكا .



البحث الثالث

نحو الدولة العالمية (١٤٥٣ - ١٥٢٠)

نحو الدولة العالمية (١٤٨٣ - ١٨٢٠)

(١) فاتح والبلقان (١٤٥٣ - ١٤٦١)

يطلق على الحملات العسكرية التي يكون البادشاه قائدها العام في علم الاصطلاحات الفنية العثماني ، (سفر همايون) أى الحملة الهمايونية ، وكان فاتح قد اشترك في الحملات الـ ٣ الأخيرة لأبيه مراد الثاني (الحملات الهمايونية مورا الثانية في ١٤٤٨ ، ألبانيا الثانية في ١٤٤٨ وألبانيا الثالثة في ١٤٥٠) .

أما الحملة الهمايونية الأولى لفاتح فهي حملة قره مان ، والثانية استانبول ، والثالثة إنز : Enez .

في الحملة الثالثة استولى الفاتح على إنز (ك/١٤٥٣) ، وهو مرفأ جنوى يقع على مصب نهر مريچ وكان تابعا للعثمانية منذ ١٣٨٣ ، وبعد أن استولى على المرفأ أرسل اسطولاً مؤلفاً من ٥٥ قطعة إلى كفه مستعمرة جنوة في قرم (تموز ١٤٥٤) .

قاد فاتح حملة صربيا الأولى وهي الحملة الهمايونية ٤ له (١٤٥٤) ، وبعد أن عاد إلى استانبول ، قام القيودان دريا (مشير البحر) حمزة بك بحملة على جزر إيجيه الشمالية ، بعد حملة كفه والحقها بالعثمانية ، وبذلك تكون الجزر التي ألحقت رأساً في بحر إيجيه هي بوزجه آدا (حزيران ١٤٥٣) وطاشوز (صيف عام ١٤٥٥) ، وفي حملة حمزة بك للسنة التالية (في ربيع عام ١٤٥٦) جزر ليمنى ، امروز ، سمنديرك .

وهكذا أصبح مدخل بوغاز جناقلعة مغلقة بصورة تامة .

وفي ١٤٥٥ ، هاجمت ٨٠ قطعة من الأسطول الهمايوني جزيرة رودس التابعة لفرسان سانت - جين ، لكنها لم تتمكن من أخذ الجزيرة .

خرج فاتح في ١٤٥٥ في حملته الهمايونية الخامسة (حملة صربيا ٢) . وفي عودته مر على صحراء كوسوفا وزار مشهد خداندكار . وفي ١٤٥٥ ، قبلت الامارة الرومانية (الارثوذكسية) مولدافيا (بالتركية : بغداد) تبعيتها للعثمانية ، وهكذا انضمت الامارة الرومانية الثانية إلى تركيه بعد ٦٠ سنة من انضمام افلاق . وانتقل ساحل البحر الأسود إلى العثمانية ، وحرمت ملكيتا المجر وبولونيا الكاثوليكيّتان اللتان كانتا تدعيان السيادة على بغداد ، من البحر الأسود .

الحملة الهمايونية الـ ٦ لفاتح ، هي حملة بلاد الصرب (١٤٥٦) ، وفيها اجتاح بلاد الصرب بجيش يتألف من ١٥٠ . ٠٠٠ مقاتل ، و ٣٠٠ مدفع ، ٢٠٠ قطعة من الأسطول الرفيع (الأسطول النهري الذي يتكون من قطع رفيعة وطويلة) ووصل امام قلعة بلغراد الجبرية القوية في الحدود الشمالية لبلاد الصرب حيث حاصرها مدة ٣٩ يوما (١٣ حزيران - ٢٢ تموز) ، ولم يتمكن من فتحها ، وفي هذه الحملة جرح فاتح ومات هنيادي يانوش متأثرا بجراحه أثناء دفاعه عن القلعة .

الحملة الهمايونية الـ ٧ ، هي حملة مورا الأولى (١٤٥٨) وفيها دخل اثينا التي يطلق عليها الاتراك « مدينة الحكماء » . سمح فاتح للدوق اللاتيني الأخير Franco Acciajuoli بأن يأخذ كامل ثروته ويذهب إلى إيطاليا .

دخل إلى مورا من برزخ كورينثوس وجاء إلى باتراس وأسس فيها لواء تركيا على الأراضي التي تشمل ثلث مورا ، وسمح لاميرين من سلالة Paleologos بإدارة الثلثين الباقيين ، تحت حماية العثمانية .

هدم فاتح بنيران مدفعيته ٢٩٢ قلعة من مجموع الـ ٣٠٠ قلعة الموجودة في مورا وترك ٨ قلاع فقط ، وهكذا انتهى القرون الوسطى في مورا .

الحملة الهمايونية الـ ٨ (١٤٥٩) ، هي حملة الصرب ٤ التي سقطت فيها سمندره (١٤٥٩/١١/٨) وانتهت فيها إمارة صربيا وتأسس لواء سمندره الذي يبدأ من السفوح الجنوبية لقلعة بلغراد التي تشكل حدودها الشمالية .

كانت إمارة الصرب قد لحقت بتركيا لمدة ٥ سنوات (١٤٣٩ - ٤٤) ، ثم تأسست مجددا تحت حماية العثمانية لتكون دولة عازلة بينها وبين المجر الكاثوليكية .

الحملة الهمايونية الـ ٩ (١٤٦٠) ، هي حملة مورا ٢ . وفيها ضم فاتح الأراضي التي كانت تحت الادارة المباشرة للاخوين الاميرين البيزنطيين ، وأخرجهما من مورا .
الأميران هما الأمير ديميتريوس والأمير توماس اخوا الامبراطور قسطنطين الاول ، وقد
توفي ديميتريوس في أدرنة عام ١٤٧١ بعد أن عاش حياة مرفهة كأحد رعايا الاتراك .
أما توماس ، فقد هرب ولجأ إلى البابا ، وتوفي في روما سنة ١٤٦٥ .

(٢) فاتح وجنوب البحر الاسود (١٤٦١ - ١٤٦٣) فتح امبراطورية طرابزون

الحملة الهمايونية الـ ١٠ لفاتح (بداية ١٤٦١) تم فيها فتح ميناء وقلعة آماسرا
التابعة لجنوة على البحر الأسود .

وفي الحملة الهمايونية الـ ١١ (ربيع ١٤٦١) ، وهي حملة اسفنديار ، تم القضاء
على تابع العثمانية امارة جاندار (واسمها الاخير اسفنديار) .

كان أميرها الاخير داماد إسماعيل بك رجلا من الأشراف . كان لداماد اسماعيل
بك في قلعة سينوب ١٠ ٠٠٠ جندي ، و ٢٠٠٠ مدفعي و ٤٠٠ مدفع . خرج دون
أية مقاومة وقبل يد فاتح . منحه فاتح إقطاعية فيلية . مات فيها في ١٤٧٩ وعمره
٦١ سنة . كان متزوجا بأخت فاتح . له كتاب مهم في الفقه استمرت سلالة بنو
اسفنديار إلى يومنا هذا من نسل اخيه سلطان - زاده (سليل العائلة السلطانية)
داماد (الصهر) قيزيل احمد باشا .

وبذلك تكون قد بقيت في الأناضول ٣ إمارات فقط من الأسر التركمانية ، وهي :
امارتا قره مان ودلقادر التابعتان للعثمانية وإمارة رمضان التابعة للمماليك مصر .

الحملة الهمايونية الـ ١٢ (صيف عام ١٤٦١) ، هي حملة طرابزون . سار فاتح
من سينوب إلى شبين قره حصار بجيش لم يسبق أن شوهه حجمه على هذه الأراضي
على مدى التاريخ ، ووصل أمام قلعة طرابزون بعد ان اجتاز - بالتسلسل - وسلسلة
جبال كموشخان ، قولات ، طرابزون بعناء كبير لكثافة الغابات .

دخل الأمير كاظم بك مع الاسطول إلى ميناء طرابزون . استسلم الامبراطور
David Komnenos دون ان يشهر السلاح .

وهكذا انتقلت إلى الحكم الاسلامى والتركى ٣ ولايات (طرابزون ، ريزه ، آرتفين) اللواتى لم يسبق ان دخلن إلى الحكم الإسلامى فى الاناضول ، وكذلك دخلت كافة السواحل الجنوبية للبحر الاسود دون استثناء ، تحت الحكم العثمانى المباشر فى حملة ١٤٦١ ، وانتهت سلطنة أسرة Komnenos التى دامت فى طرابزون سنة ٢٥٧ .

جرت الحملة الهمايونية ال ١٣ على رومانيا (بالتركية : افلاق) .

كان Wald Tapes الثالث (١٤٥٦ - ١٤٦٢) الذى يسميه الاتراك « قازقل فوفودا » (اى الامير ذو الاوتاد) المانيك (اى المجنون) - قد تمرد ورفض السيادة العثمانية ، هرب Wald Tapes من امام فاتح ولجأ إلى البحر . قبضت عليه الجمر وسجنته مدة ١٥ سنة بسبب اشتغاره بالظلم .

الحملة الهمايونية ال ١٤ (١٤٦٢) ، هى حملة بوسنة الأولى .

دخل فاتح أسكب بعد أن قضى على ملك بوسنة الكاثوليكي المتعصب الذى سحق البوشناق (البوسنويين) الذين يدينون بمذهب بوغوميل الذى اقتبس بعض أحكام الاسلام ، وفتح قلعة يايجه Yaye واخضع بوسنه كذلك .

الحملة الهمايونية ال ١٥ كانت على الامارة اللاتينية ، وتعتبر هذه الحملة الهمايونية حملة استثنائية لكونها عبر البحار ، إذ إن خروج السلاطين فى حملات عبر البحار كان محظورا فى العرف العثمانى .

قام فاتح بعملية إنزال على الجزيرة من آيواك Ayvalik بواسطة اسطول مكون من ٦٧ قطعة بحرية . وخلال ذلك أمر فاتح بانشاء قلعتين متقابلتين فى بوغاز جناقلعة للسيطرة عليه بالنار المتقابلة ، على غرار بوغاز استانبول ، فشيد استحكامات ومتاريس قلعة سلطانية (القلعة السلطانية) فى جناقلعة (جهة اسيا) وقلعة كليلد البحر (قفل البحر) فى جهة غاليبولى (أوروبا) .

الحملة الهمايونية ال ١٦ (١٤٦٣) ، هى حملة بوسنة الثانية ، وفيها وصل فاتح إلى صوفيا ثم قفل عائدا .

(الحرب الكبرى تجاه ٢٥ دولة (١٤٦٣ - ١٤٧٣)

الحملة الهمايونية ال ١٧ (١٤٦٤) ، هي حملة بوسنة الثالثة : اضمحلت ملكية بوسنة وألحقت بالعثمانية وكان قد اعتدى إلى الإسلام الخروات الذين يدينون بمذهب بوغوميل ، كما جاء كثير من الاتراك إلى بوسنة وهرسك واستوطنوا فيها . شهود اعتناق جماعات كبيرة في قطرين بلغاريين كالبانيا وبوسنة للدين الاسلامي ، وصار الألبانيون والبوشناق مسلمين صميمين مع انهم حافظوا على لغاتهم حتى يومنا هذا ، ودخلوا في نطاق الثقافة التركية ، ولا يزالون مسلمين حتى الآن .

حاول ملك المجر أخذ بوسنة ٣ مرات في ١٤٦٥ ، ١٤٧١ وفي ١٤٧٩ . وقد باءت محاولاته في المرات الثلاث بالفشل .

الحملة الهمايونية ال ١٨ (١٤٦٦) ، هي حملة قرمان الثانية (بعد ١٥ سنة من الأولى) ، وفي هذه الحملة ألغى فاتح الذى دخل قونية ، ثم احتل لارنده (قره مان) ، الامارة وأجلس ابنه الأوسط شهزاده (الامير) مصطفى (امه كلشاه خاتون وهي ابنة قرمان أوغلو إبراهيم بك) على عرش قرمان في قونية ، وتقبل شعب قونية هذا الوضع بارتياح ، حيث انه كان قد سئم من اتفاق امرائه مع المسيحيين ضد العثمانيين ، ذلك بالاضافة إلى أنهم شعروا بالفخر لتولى الامارة أمير هو ابن فاتح استانبول ، وفي نفس الوقت حفيد قرمان أوغلو إبراهيم بك الحاكم الذى توفى (١٤٦٤/٨/١٦) قبل سنتين بعد سلطنة دامت ٤٠ سنة . وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك أهمية لنسب الأم في ذلك العهد ، فإن ذلك كان من عوامل كسب ود القنويين .

ظل قسم من بنى قرمان ممتلكا سواحل البحر الأبيض : ايجل ، وطاش ، بالى .. لفترة اخرى .

الحملتان الهمايونيتان ١٩ و ٢٠ ، هما حملة ألبانيا الأولى (١٤٦٦) والثانية (١٤٦٦ - ١٤٦٧) ، وكلتاهما موجّهتان إلى تمرد اسكندر بك .

أسس فاتح في الحملة الاولى (١٩) قلعة ومدينة الباسان Elbasan . ولم يتمكن في الحملة الثانية (٢٠) من القبض على إسكندر بك .

وافت اسكندر بك المرتد منيته في ١٧/١/١٤٦٨ في Alessio (بالتركية : لش) ، وهكذا انتهى عصيان البانيا الكبير .

انتهت علاقة ملكية نابولي مع ألبانيا ، ولكن علاقة جمهورية البنادقة في الشمال استمرت مع ألبانيا فترة أخرى .
قامت بين تركيا والبندقية في ١٤٦٣ ، حرب شديدة وطويلة جدا تسمى الحرب الكبرى .

اتفقت على مر الزمن ضد تركيا نحو ٣٠ دولة . اضطرت تركيا للاستمرار في هذه الحرب بدون حليف .

وقد كان ذلك هو ماقاله منذ عشر سنوات جاندارلى - زاده الذى أعده فاتح السبب الظاهرى للحرب الكبرى هو الحاق ملكية بوسنة بتركيا ، ولكن السبب الحقيقى هو فتح العثمانية البيزنط ، وغلقها المضائق ، ومنعها مرور السفن إلى البحر الاسود ، وحيازتها على قوة عسكرية واقتصادية لاتسمح لاية دولة أن تنازلها منفردة .
كانت الاستعدادات الاولى لتشكيل ائتلاف ضد الاتراك قد جرت بقيادة البابا في الاجتماع الذى عقد في Regensburg ، منذ نيسان ١٤٥٤ .

كانت الاستراتيجية الأوربية في هذه المرة تستند على اساس فكر معين مؤداه :
إن هزيمة الاتراك عسكريا واستقطاع اقطار منهم أمر مشكوك فيه أو هو أمر صعب ، ولكنه ليس بالأمر المستحيل إذا ما اتحدت أوروبا بأكملها ، ولذلك يجب ضرب البادشاه الذى يطلقون عليه لقب « التركى الكبير » من الشرق ، ومن الاناضول بصورة مؤكدة .

لاتوجد في تلك المناطق دولة مسيحية عدا كرجستان .

كانت قرعة مان قد أخذت هذا الأمر على عاتقها في السابق ولمرات عديدة ، لكنها لم تتمكن من مقاومة العثمانية . لذلك فمن الضرورى تحريض الممالك ضد العثمانية ، ولكن ، القاهرة لاتقدم أبدا على اتفاق مع المسيحيين ضد الدول الإسلامية ؛ لكونها أولا مسلمة ؛ ولأنها تضررت كثيرا من الصليبيين سابقا . كما .. أن خلافات القاهرة مع العثمانية ليست مهمة بالدرجة التى تجعلها تقدم على دخول حرب واسعة .

لاشك في أن القاهرة لم تكن مستريحة لاطماع العثمانية تجاه قره مان (قونية)
ودلقادر (ماراش) ، لكنها على هذه الحال منذ مدة تقارب القرن ، ولم يؤد عدم
ارتياحها لهذا الوضع خلال تلك المدة إلى حرب عثمانية - مملوكية ، ومن الطبيعي
أن نتوقع أن تغيرا سوف يطرأ على موقف القاهرة من العثمانية لو أن الاخيرة ركزت
نظرها على بلاد رمضان وجوقور أوبا .

على كل الاحوال فانه لم تظهر على سياسة « التركي الكبير » ، أى فاتح ، أية
بواذر تشير إلى رغبته في اجتياز الفرات وجبال طوروس وانما كان كل امله في أوروبا .
وفي ضوء ذلك كله ، نجد أن الدولة الوحيدة ذات المقدرة العسكرية التى يمكنها
أن تضرب التركي الكبير من الشرق ، هى اقويونلو (اصحاب الخرفان البيض)
الامارة التركمانية المتضخمة .

كان أوزون حسن بك الذى أظهر في السنوات الاخيرة تقدما كبيرا جدا ، وأثبت
قدرة عسكرية هائلة ؛ حتى اطلقوا عليه في اوربا « كوجوك ترك » (التركي
الصغير) - مستعداً للقيام بهذه المهمة ، فهو يسيطر على الاناضول الشرقية ويتميز
غيظاً من فاتح الذى قوض امبراطورية طرابزون (التى يرتبط بها بروابط القرابة) ،
والذى قضى على قره مان وأخل بالتوازن . ولو أمكن إعطاء الدور الذى لعبه تيمور
إلى أوزون حسن ، لكسبت أوروبا الحرب من الناحية الاستراتيجية ، وحتى ان لم
يتيسر لها دحر القدرة العثمانية ، فانه سيكون في إمكانها حصرها في حدود المعقول .

استغرق تجهيز الاتفاق ضد العثمانية وقتا طويلا ، وتم تدبيره بأناة ، وتم التفاهم
في النهاية على خطة التقسيم التى تحصل الجبر بموجبها على حصة الاسد لتخصيصها
أكبر قوة عسكرية ، فلها بلاد الصرب ، بلغاريا ، بوسنة ورومانيا (افلاق) ،
ويحصل البنادقة كذلك على حصة كبيرة ، اذ إنهم وافقوا على تحمل القسم الاكبر
من النفقات المالية علاوة على تخصيصهم لاسطول البندقية القوى . وتحصل
« الجمهورية المهيبة » على مورا ، آتيكا ، تيساليا ، اير . ويعاد إحياء الامبراطورية
البيزنطية ، على ان تنحصر حدودها في تراقيا ، ولا تعطى حدودا واسعة لكونها
ارثوذكسية وتكون بمثابة .. الدولة العازلة .. وبذلك يتم إخراج الانراك من أوروبا
بشكل كامل .

أما ما هي الأراضي التي ستبقى لدى العثمانية في الأناضول ، فإن ذلك شيء يعود إلى آقويونلو « كوجوك ترك » أوزون حسن الحليف الكبير للاتفاق ، ولأشأن للدول الأوربية بذلك . ومن المؤكد ان أوزون حسن سيعيد تأسيس دولة قرمان وطرابزون تحت حمايته وسيضم أراضي العثمانية في الأناضول الوسطى كذلك . وستبقى العثمانية منحصرة بين البحر الاسود - مرمره - إيجيه - البحر الأبيض كما كانت في السابق ، ولئن يسمح باقترابها من الأناضول الوسطى خصوصا ، ويمكنها أن تعيش في غرب الأناضول ، بشرط تحسين علاقاتها مع آقويونلو !

كان العنصر الأساسي في تطبيق خطة خيالية كهذه ، هو إجبار العثمانية على دخول الحرب بدون حليف (وهذا ماحدث .. لم تتمكن من اتخاذ أى حليف) . ومن حيث المنطق لو ان مايقرب من ٣٠ دولة قامت بتطبيق هذه الخطة بتصميم ، فإن النجاح سوف يكون مضمونا ، وسوف تتعرض العثمانية للعتل ولمصاعب كثيرة وستردى اقتصاديا وعسكريا كلما طال الحرب وستكون مرغمة في النهاية على وقف الحرب (وبالفعل فإن فاتحا لما طال الحرب ، وضع اليد باسم الجيش على إيرادات الأوقاف غير مبال بعدم الارتياح ولا بالانتقادات الكبيرة التي تعرض لها) . ولكي يتحقق الانتصار في حرب كهذه ، فإنه لا يكفي استحوار الجيش على الأولوية في العالم ولا يكفي الأسطول الذي أصبح على يد فاتح متفوقا على الأسطول البندقي وجهازه بمدافع ممتازة وجعله الأسطول الأول في العالم ، ولكن الأمر يحتاج إلى سياسة خارجية مكيفيلية وجهنمية دقيقة جدا ، ولقد رضى فاتح بالحرب ، لأنه كان مقتنعا بأنه سوف يتمكن من السيطرة، على هذا العنصر كذلك ، وقد كان بإمكانه الحيلولة دون وقوع الحرب لو أنه اعطى بوسنه إلى المجر واعاد استقلال دولتي قرمان وطرابزون وجعلهما دولا عازلة بينه وبين آقويونلو وفتح البحر الأسود للبنادقة ، لكنه لو كان فعل ذلك ، فهل تقف الترضيات عند هذا الحد ؟ وهل يمكن لدولة تقدم مثل هذه الترضيات إن تثبت دعواها في كونها الدولة الأولى في العالم ؟

تعرضت الدولة الصغيرة دلقادر لضغوط شديدة في حرب العمالققة هذه ، ولم يخضع التركمان المرعشين لهذا الضغط ، ولم يتركوا أبدا تبعيتهم للعثمانية ورفضوا كافة الضغوط التي مارستها الدولتان ذوات القدرات العظيمة كمصر

(المماليك) و إيران (آقويونلو ، أى اصحاب الخرفان البيض) بشأن انفصالهم عن العثمانية .

من ناحية أخرى ، فإن القاهرة ماكانت لترضى بالتحرك ضد بنى عثمان ، صحيح أن القاهرة كانت ترى فى أجلس بنى عثمان ابنهم المتوسط على عرش قره مان ، وفى صاحب عرش مراش التابع المخلص للعثمانية ، خطرا يهددهم فى سوريا ، لكن كل ذلك ماكان ليجعلهم يتحركون ضد بنى عثمان الغزاة العظام ، وبخاصة عندما تكون هذه الحركة بالاتفاق مع أوربا ، لقد كانوا يرون أن ذلك لايلىق بهم .

إن « مصر - سوريا » كانت تسر لانتصارات العثمانية فى أوربا .

وفى ١٤٥٦ ، احتفلت مصر وسوريا ٣ أيام بلياليها عند التأكد من عدم صحة خبر موت فاتح بمرض الطاعون .

لم تكن « مصر - سوريا » مستعدة للاقدام على الحرب مع الدولة العثمانية بسبب مسألة قره مان ودلقادر .

أما آراء فاتح بالنسبة للدولة المملوكية وسلطينها ، فلم تكن طيبة على أى حال من الأحوال رغم إخافتها بدقة ومهارة ، كان السلاطين المماليك بالنسبة لفاتح « عبيدا شركسيين » لانهحدرون مثله من أوغزخان ، واضافة إلى ذلك فإن هذه الدولة تحتفظ بالخلافة ، وتسيطر على ٣ مدن إسلامية مقدسة مكة ، مدينة ، والقدس . وبفضل هذه العناصر المعنوية . كانت تدعى بأنها دولة الإسلام العظمى . من الجائز أنها كانت كذلك فى وقت ما .. لكن تركيا كانت قد وصلت إلى أوربا الوسطى بعد أن قدمت ٤ ملايين من الشهداء خلال ٤ قرون مبتدئة من ملازغرت ١٠٧١ . كان فاتح هو الخلف الشرعى لبنى سلجوق (هذا هو الرأى الرسمى للدولة العثمانية منذ بدايتها وحتى اضمحلها) . وبنى سلجوق هم أسياى أسياى (الانابكة الزنكيين) الايوبيين الذين هم أسياى المماليك .

كان العثمانيون قد تقلدوا سيف الإسلام ، أما المماليك فكانوا يتمتعون بفضل الإسلام .

بطبيعة الحال لم تكن القاهرة على علم بمثل هذه الأفكار الخطيرة التي لدى العثمانيين عنهم ، واستمرت القاهرة فى محبتها للعثمانية حتى النهاية .

علم فاتح وقد كان يملك أقوى شبكة للاستخبارات ، فى العالم وله عيون وأرصاد فى كل منطقة من أوربا ، إجراءات الاتفاق الذى رتب ضده ، خطوة بخطوة ، فسبقهم فى التحرك .

بدأ فى الحرب فعلا يوم ٣ نيسان ١٤٦٣ ، وبناء على ذلك أعلنت البندقية الحرب على تركية فى ٢٨ تموز والمجر فى ٣٠ تموز .

سحق الوزير الأعظم محمود باشا ، المجر فى الحرب الميدانية Zvornik . تمكن ملك المجر Mathias ابن Hunyadi Janos من النجاة من الموت بصعوبة . غادر البابا بيوس الثانى روما (١٨ / ٦ / ١٤٦٤) لقيادة الجيش الصليبي بنفسه ، لكنه مات فى الطريق ، وتحرك كذلك دوج (رئيس جمهورية) البندقية من البندقية بالسفينة (٢ / ٨ / ١٤٦٤) تجاه تركيا ، ولكنه رجع إلى البندقية عند سماعه خبر وفاة البابا . منح فاتح ، دولة فلورنسا (توسكانا) امتيازات تجارية كبيرة ، وحسن أحوالها المالية بشكل واسع وذلك بغرض إضعاف القدرة المالية والاقتصادية للبندقية .

وبينما كانت تتنازع الدول الأوربية ، والدول الآسيوية كإيران (أصحاب الخرفان البيض) ملكية كرجستان (ارثوذكسية) ، ملكية قبرص (كاثوليكية) - فى إعلان الحرب على تركية ، كان فاتح معنيا بشكل خاص بالبندقية ، ذلك أن فاتح لم يكتف بالنسبة للبندقية بالتدابير المتعددة التى اتخذها لتدمير الجمهورية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية ، بل إنه قام معها بمناورات سياسية معقدة جدا ، فقد فتح معها الباب لمفاوضات الصلح (وهذا أمر لايجرى والحرب دائرة) ، ولكن شروط الصلح المغرية بهزت عيون البنادقة ، فأوقفوا الحرب مدة من الزمن ، استطاع فاتح خلالها القضاء على أعدائه الآخرين ، ثم أعلن بعد ذلك أن المفاوضات دخلت فى طريق مغلق ، وبدأت الحرب مع البندقية مجددا . لقد ابتلعت البندقية ذات الدبلوماسية الراقية ، هذا الطعم مرات عديدة !

ضعفت الحملات الواسعة النطاق التى بدأت فى ١٤٦٩ ، البندقية بدرجة

كبيرة ، قامت البندقية حتى تموز ١٤٧٩ فقط ، بترتيب ١٤ مؤامرة لاغتيال السلطان محمد الفاتح ، ولم توفق فى أى منها (Babinger ، ٣٤٧) .

سار فاتح فى صيف عام ١٤٧٠ بجيشه فى إحدى حملاته الكبرى وهى الحملة الهمايونية ٢١ ، حملة آغريوز (أكرىوز) تجاه البندقية . وقد كانت هذه الجزيرة - وهى أكبر جزر إيجة - كأنها ملتصقة بشبه جزيرة آتيكا (تبلغ مساحتها ٢٩٧ كم^٢) ، بحوزة البنادقة منذ ١٢١٠ ولمدة ٢٦٠ سنة . (وقبلها كانت بحوزة البيزنط) .

دخل الأسطول الهمايونى المكون من ١٠٠ سفينة حربية شرعية كبيرة (كالون) و ٢٠٠ سفينة نقل إلى بوغاز آغريوز فى ١٤٧٠ . أما الجيش الهمايونى (الامبراطورى) فقد دخل إلى تيساليا من ممر ترمويل وانتقل منها إلى آتيكا . وجاء إلى منطقة مجاورة لـ Tebai Tep (وصعد إلى قلعة Chalkis Egripo التى تشكل مركز الجزيرة التى يطلق عليها الأتراك اسم الجزيرة نفسها : آغريوز . كانت القلعة الواقعة وسط بوغاز آغريوز وفى النقطة التى تقترب فيها الجزيرة إلى البر بمسافة ٥ كم ، إحدى أقوى قلاع البنادقة المستحكمة . وحتى يسر فاتح لجيشه البالغ ٧٠٠٠٠ شخص مهمة العبور ، فقد صف ٢٠٠ سفينة جنبا إلى جنب وبذلك تمكن من إقامة جسر طوله ٥ كم . لم يكن اسطول جمهورية البندقية الذى يقوده الاميرال Nicolo Canale بعيدا ، لكنه لم يجسر على الاقتراب من الأسطول التركى .

دام الحصار ١٧ يوما ، ثم سقطت القلعة فى الهجوم الخامس (١٢ / ٧ / ١٤٧٠) ، وقد ولد سقوط آغريوز تأثيرا كبيرا فى أوروبا ، كسقوط استانبول وطرابزون .

ثم قام الوزير الأعظم كديك أحمد باشا بعد ذلك باحتلال نيغده (١٤٧٠) وعلاقيه (آلانية) (١٤٧١) وسيلفكة (١٤٧٢) ووصل إلى سواحل إمارة رمضان فى جقوراوفا التى كانت تحت حماية المماليك ، وبذلك حقق سيطرة عثمانية تامة على سواحل البحر الأبيض .

يمكن تصوير الوضع عند اقتراب نقطة تحول الحرب ولحظتها الجهنمية في ١٤٧٣ على الوجه التالي :

- أوربا تعلق الأمل أكثر من أى وقت مضى على التركي الصغير .
كان فاتح بالنسبة لأوربا Great Turk Gran Tureo, Grand Turc . أما أوزون حسن فهو التركي الصغير Piccolo Turco, Petit Yurc, little Turk .
- ازداد بشكل كبير تبادل السفارات بين البندقية وتبريز - أخذت معاهدات الاتفاق تتلو إحداها الأخرى .

- الدول الأوربية من جهة وإيران من جهة أخرى - من المتعذر إجراء صلح منفرد - تتضمن المؤامرة تطبيق خطة التقسيم بعد أن يبديد أوزون حسن جيش العثمانية السيار في حرب ميدانية - تتمثل خطة التقسيم في أن البلقان للدول الأوربية ، أما الأناضول فهي لأصحاب الخرفان البيض - تقسيم البلقان والأناضول سيكون بالتراضي بين الأوربيين وأصحاب الخرفان البيض ، بمعنى أن أوزون حسن سوف لايتدخل في البلقان ، ولايتدخل أوربا في الأناضول .

وبطبيعة الحال كان أوزون حسن قلقا بشأن قدرة الأوربيين على سحق العثمانيين واسقاط تلك القلاع المتينة بما فيها من وحدات الصاعقة وجيش روملى واخراجهم من البلقان ، ولكن ذلك لم يكن يعنيه ، وإنما الذى يهمه هو حكم الأناضول حتى ازмир وغاليبولى ، وتكوين امارات عازلة تتولى مهمة الانشغال بالعثمانية التى سوف تستمر فى بورصة وحواليها ، ومن هنا فإنه سوف لاينشغل بأمور الأناضول الغربية ، وإنما سيكون على الأغلب فى موقف الحكم .

كان أوزون حسن مغترا بقتله خاقانين كبيرين جدا من الأتراك واهادة جيشهما ، (الخاقانان هما خاقان قره قويونلو (اصحاب الخرفان السود) جهان شاه والخابان التيمورى أبو سعيد) .

يحكم أوزون حسن الآن المنطقة الواقعة بين أفغانستان وقره مان ، وبين قفقاسيا وسوريا ، وكذلك كانت إيران والعراق وقفقاسيا الجنوبية والأناضول الشرقية تحت حكمه .

وكان أوزون حسن يعلم بالطبع أن الجيش العثماني السيار ، أقوى من جيش

قرة قويونلو وتيمور . لكن جيشه كان أكثر عددا ، وقد كان يتصور أنه سيتمكن من إخضاع فاتح ، كما تمكن تيمور من إخضاع يلدرم . لكن الحال كان مختلفا فأوزون حسن لم يكن تيمور ، كما أن فاتح لم يكن يلدرم .

عقدت معاهدة ٢ شباط ١٤٦٨ بين البندقية ، البابوية ، ميلانو ، صقلية ، جنوه ، فلورنسا ، مودينا ، سيينا ، فرارا ، بيسا ، مانتوفا ، تريستو ، لوكا ، وأدخلت جميع الدول الإيطالية ضمن الاتفاق . أما المجر فقد جمعت حولها ألمانيا ، بولونيا ، كاستيليا (إسبانيا) ، آراغون ، فرانسا ، برغونيا ، قبرص ، رودس وكرجستان . لقد تجاوز عدد دول الاتفاق ضد العثمانية لفترة من الزمن الـ ٢٥ دولة .

تمركز اسطول صليبي في لارنقة ، من بين سفنه ٥٨ سفينة حربية بندقية ، وأخذ يقصف قلاع تركية في البحر الأبيض ، ولكنه لم يتمكن من تحقيق شيء يذكر ، كذلك لم يتمكن من تمرير الأسلحة النارية التي وعد بها أوزون حسن .

تحرك أوزون حسن مع ٣٠٠٠٠٠ من خياله من خربوت إلى ارزنجان تاركا وراءه ١٠٠٠٠٠ من خياله .

غادر فاتح استانبول (١١ / ٤ / ١٤٧٣) وجاء إلى سيواس بجيش يتكون من ١٩٠٠٠٠ جندي على شكل ٥ فيالق بتنظيم لا يصدقه العقل بالنسبة لذلك الزمن . اضطر إلى ترك قوات كبيرة في روملي ، وكان مطمئنا إلى أنه سوف يعوض فرق العدد بين جيشه وجيش أوزون حسن بأسلحته النارية . ولم يكن يغيب عن فاتح شجاعة خيالة أوزون حسن التركمان .

أخذ الجيشان يبحث أحدهما عن الآخر ثم التقيا في أوطلوكبلي Dtlukbeli .

تقع أوطلوكبلي ، في المنطقة التي ينبع منها نهر جوروه Goruh وعلى الساحل الشرقي منه ، وبالقرب من جنوب النهر يصب أحد الروافد الصغيرة لنهر قره صو ، وتعلو جبال بولور Pulur في الشمال الشرقي ، وفي الجنوب جبال كشيش . جنوب شرقي قسبة كلكيت ، وجنوبي غربي بايورت ، وعلى مسافة ٤٠ كم من شمالي شرقي ارزنجان . وحاليا ، في أقصى جنوب كموشخانة وتقع على بعد كيلو متر واحد شرقيها .

إن الرسائل التي أرسلها السلطان أوزون حسن في غضون الأيام التي سبقت للحظة الجهنمية إلى حلفائه الثلاثة ملك البندقية ، وامبراطور ألمانيا فردريك الثالث وملك المجر Matthias Corvinus تدعو إلى الاهتمام .

كتب أوزون حسن في هذه الرسائل أن العثمانية بادرت بالهجوم عليه ، وأن جيشها كبير لكن جيشه أكبر منه ، وأن هجومها هو لطف من الله ، حيث إنه لا يمكن الاستيلاء على الأناضول ما لم يتحقق إفناء الجيش العثماني ، وعكس ذلك ، فإن العثمانية سوف تتحيز الفرص للانقضاض عليه واستعادة أراضيها ، وإن إبادة الجيش العثماني خلال عدة أيام أمر مؤكد وأنه لا يستطيع أن يتكهن بما إذا كان سيمكن أسر البادشاه أم لا ، كما تضمنت رسائله ان العثمانية ذات تسعة أرواح ، فقد استطاعت استعادة حيويتها حتى بعد إبادة جيشها ولم تنهز (يشير بذلك إلى واقعة انقرة التي جرت قبل ٧١ سنة) ، لذا يجب على الحلفاء الأوربيين عدم التأخر في احتلال أراضي العثمانية في روملي فور إبادة الجيش العثماني ، ولو أنه لا يمكن بهذا القضاء على العثمانية بشكل تام ، لكنها على الأقل ستصبح بعد ذلك دولة من الدرجة الثانية وتسقط إلى درك إمارة اعتيادية ، عديمة الشأن والمنزلة ، وسوف لا تتمكن دولة بنى عثمان القاهرة من تهديد أحد !

كانت البندقية عازمة على تكرار مقاومت به تجاه الامبراطورية البيزنطية في ١٢٠٤ ، حيث كانت قد أعطت أمر اجتياز مضيق جنقلعة واحتلال استانبول فور علمها بخبر إبادة الجيش العثماني السيار . ستؤسس فيها امبراطورية رومانية شرقية العوبة . لا بد أن تنتهى الحرب بكل سرعة .

أبلغت المجر وألمانيا ، البنادقة بفشلهما في مجابهة الصاعقة وأنهما سوف لم يتمكننا من ذلك ، بالاضافة إلى ذلك فإن رسائل أوزون حسن كانت تفيد عدم إمكان محو العثمانية من سطح الأرض والقضاء على دولتها .

يبدو أن تصور البنادقة كان يقوم على إمكان اختراق الأسطول التركي واحتلال إستانبول ، ولكن أيا من الأمرين يتعذر تحقيقه ، فالأسطول التركي يفوق الأسطول البندقي ، واستانبول يحميها جيش غير قليل ، ومن الناحية الأخرى فإنه إذا كان من المنتظر أن يسير جيش الحلفاء من الشمال فإن ذلك تكنتفه صعوبتان كبيرتان هما : قوة قلاع روملي ، وشدة مراس الصاعقة المغاوير .

كانت سياسية فاتح الخارجية بقدر ماهي جريئة وحافلة بالمفاجآت فانها تتسم بالحدز والدقة والواقعية ، وتتجه نحو الغاية ، كما كانت في نفس الوقت مجهولة وخافية على الأطراف الأخرى .

أما سياسة أوزون حسن ، فكانت تقوم على التظاهر والغرور .
لم يكن فاتح يعلن شيئا عن قوته وقدرته وإنما كان يحقق ذلك فعليا في ساحات الحرب .

كان أوزون حسن مستمرا في الفخر بنفسه ، وقوته ، وقدرته ، وكيف أنه تمكن من هزيمة خاقانين في حربين ميدانيتين وقتلهما . لقد استطاع السلطان - زاده (سليل العائلة المالكة ، هزيمة ابن عمه فاتح بير أحمد بك - وهو من بنى قره مان - من جهة الأم) ، اللاجيء في سراي تبريز ، والعليم بالتشكيلات العسكرية العثمانية - أن يؤثر على أوزون حسن باطرائه له وامتداحه المستمر لانتصاراته على أصحاب الخرفان السود والتموريين ، ونجح بذلك في تهوين القدرة العسكرية العثمانية في نظر أوزون حسن ، أما بالنسبة لفاتح فانه ماكان يسمح لأحد أبدا بامتداحه في وجهه ، فيما عدا الشعراء بطبيعة الحال .

كان هذا هو وضع كل من عثمان أوغلو (بنى عثمان) السلطان محمد البالغ عمره ٤١ سنة وأقويونلو السلطان أوزون حسن البالغ عمره ٥٠ سنة ، كانا يعتقدان أن لهما حقا متساويا في خاقانية الترك الكبرى ؛ لأن كليهما ينحدران من أوغزخان ، أحدهما من سلالة قايي خان والآخر من سلالة بايندرخان . كان أوزون حسن ، يعتبر العثمانية « جتاق » أى كثيرة الاختلاط بالأجانب ، متفرنجة ، الأمر الذى جعلها مختلطة الثقافة ضعيفة الدين ، لكنه لم يكن يفكر في الكفاح المرير وكمية الشهداء الذين ضحت بهم في مواجهتها لأوربا كلها ، حتى وصلت إلى هذه المرحلة .

٤ (حرب أوطلوق بلى الميدانية (١١ آب ١٤٧٣) :

كان فاتح قد أعد خطة احتياطية في حالة دخول المماليك في الاتفاق ضده ، وذلك بأن يجعل كلا من مصر وإيران (كلتاهما اترك) خارج الصف ، كلا على

حده ، غير أنه لم تعد هناك حاجة إلى ذلك حيث لم يشترك المماليك فى الحرب .
وبدأت الحرب الفعلية مع آقويونلو قبل أوطلوق بلى بمدة طويلة .

اجتاز جيش آقويونلو الحدود ودخل تركية فى ١٤٧٢ . نهب سيواس وتوقات دون أن يتمكن من إسقاط القلاع بالمباغنة واجتاز قيصرى من الخارج واقترب من قونية . كان ينوى طرد الشهزادة (الأمير) العثمانى من قونية وإجلاس قره مان أوغلو بدلا منه . كان يوسفجه ميرزا أحد أبناء أوزون حسن ، هو القائد العام لجيش آقويونلو . اضطربت استانبول لاحتلال توقات . اجتاز فاتح إلى اسكدار ، رغم مضى موسم الحملات . وبينما هو على وشك التحرك تسلم خبر انتصار الأمير مصطفى .

سار الأمير مصطفى بككربك (أمير ، والى) قره مان من قونية مع مريه كديك أحمد باشا وداود باشا والى الأناضول (مركزه كوتاهيه) . بدأت الحرب الميدانية فى الموقع المسمى قيرالى Kireli الواقع على مقربة من شرق بحيرة بكشهرى ، أيد جيش آقويونلو (١٨/٨/١٤٧٢) .

أسر القائد العام يوسفجه ميرزا ، وأخواه الاثنان و (٢) ميرزا من بنى تيمور ، وتمكن كل من أبناء عمات فاتح ، قره مان أوغلو بير أحمد بك وقاسم بك اللذين كانا فى جيش آقويونلو ، من الهرب . كان الأسطول الصليبي أثناء ذلك قد قصب ميناء أزمير ، لكنه انسحب عندما علم بهزيمة آقويونلو .

سار فاتح من استانبول (١١/٤/١٤٧٣) قبل مضى (٨) أشهر من هذا الحادث . بدأت طليعة الجيش الهمايوني (الفرقة المؤلفة من ١٢٠٠٠ شخص بقيادة خاص مراد باشا) بالهجوم على آقويونلو ، ولكنها انهزمت ، واستشهد الباشا .

دخل فاتح بعد أسبوع إلى صحراء أوطلوق بلى ، حيث كان أوزون حسن ينتظر فيها مع ٣٠٠ ٠٠٠ من خيالته (١١/٨/١٤٧٣) .

كان الجيش الهمايوني يتألف من (١٩٠ ٠٠٠) جندى ومقسما إلى (٥) فيالق .

كان البادشاه على رأس الفيلق المركزى فى القلب (رئيس أركانه الوزير الأعظم محمود باشا) وكان على رأس فيلق الجناح الأيمن « أولو شهزاده » ولى العهد « بايزيد الثانى » (رئيس أركانه كديك أحمد باشا) ، وعلى رأس فيلق الجناح الأيسر شهزاده مصطفى (رئيس أركانه داود باشا) ، احتفظ فاتح بالفيلقين الباقيين للاحتياط (بقى الابن الأصغر للبادشاه الشهزاده جم فى إستانبول كمحافظ للعرش - نائب للسلطنة) .

كان أوزون حسن وهو عسكرى مجرب قد سمع بقدرة الجيش العثمانى ، لكنه لم يكن قد شهد بعينه الجيش العثمانى السيار . ومما يروى عنه أنه عندما شاهد الجيش عند دخوله صحراء أوطلوق بلى ، ونشره البيارق ، وعزف الموسيقى العسكرية (مهتر) ونوعية قماش البدلات العسكرية للجنود ، وتجهيزاته الثقيلة قال : « ويحك يا بنى عثمان العاهرة ، أى بحر هذا الذى جهزه ١٩ » .

لم يكن أوزون حسن قد شهد طيلة حياته حربا تجرى « بالمدافع والبنادق » (نشرى ، ٢٢٨ ب) .

شاهد وهو فى حالة من التأثير الشديد ككائب الخيالة التى تتساقط الواحدة تلو الأخرى بنيران المدفعية العثمانية والمشاة حملة البنادق الثقيلة ، ولم يتمكن من السيطرة على وحداته التى كانت قد تبعثرت بفعل الأسلحة النارية على الرغم من شجاعتهم وشجاعة خيولهم .

قطع فاتح ، الذى أعطى أمر غلق الملقط للفيلقين فى الجناحين ، بفيلقيه الاحتياطيين طريق الفرار على جماعة آقويونلو الذين حاولوا التخلص من رأس الملقط .

حمل الأمير مصطفى مع فيلقه على جناح آقويونلو الأيسر ، وأباده مع قائد الجناح زينل ميرزا بن أوزون حسن ، وأسر (٣) أمراء إمبراطوريين من بنى تيمور . وفى الساعة الثامنة والأخيرة للحرب ، سار أولو شهزاده بايزيد إلى سرادق أوزون حسن . هرب البادشاه حسن الذى عجز عن المقاومة ، وامتنطى جواده العربى المشهور فى زمانه تاركا سراحه .

من المشهور عنه أنه قال وهو يترك ساحة القتال ، مخاطبا سليل السلطنة (سلطانزاده) قره مان أوغلو بيز أحمد بك : « يا قره مان أوغلو ، خرب الله

سلالتك ، سببت عارى وخزى . مالى وبني عثمان ! .

لم يأمر فاتح بمطاردة أوزون حسن وفلول آقويونلو .

مكث (٣) أيام فى صحراء أوطلوق بلى . وبمناسبة خلاص الدولة من أكبر الأخطار التى مرت عليها منذ تيمور ، اشترى بدراهمه الخاصة الأسرى البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ وخلى سبيلهم (من المعلوم أن عتق الأسرى من أفضل القربات إلى الله فى الدين الإسلامى) .

دخلت الوحدات العثمانية شبن قره حصار فى ٢٤ آب .

بعد هذا الحادث لم تبق أمام الدولة العثمانية مشكلة تسمى مشكلة آقويونلو . عقد أوزون حسن فوراً صلحاً مع العثمانية رغم إصرار الكثيرين ورجاء الدول الأوربية .

اعترف أوزون حسن فى الصلح بإلحاق طرابزون وقره مان ، وجمع أولاده وأوصاهم بعدم الهجوم أبداً على العثمانية . اتخذ بنو آقويونلو بعد ذلك فى الشرق ، وضع الحليف بالنسبة للدولة العثمانية . تزوج أوغورلو محمد ميرزا بن أوزون حسن بابنة فاتح الوحيدة جوهر خان سلطان ، وأصبح باشا وفريق أول فى الدولة العثمانية . وتزوج كوده أحمد بك الذى ولد من هذه الزيجة . بإحدى بنات خاله بايزيد ثم صار سلطاناً على آقويونلو .

توفى فى (١٤٧٤/١٢/٢٥) الشهزادة مصطفى الذى عاد من حملة آقويونلو فى بور قرب نيغده قبل وصوله إلى قونية وعمره (٢٣) سنة . كان عالماً شاعراً وقائداً عظيماً . نقل جثمانه إلى بورصة ودفن فيها . خلف ابنتين . يعد انتصاره فى الحرب الميدانية قيرىلى Kireli بـ ٥٠.٠٠٠ جندى على ٦٠.٠٠٠ جندى مع آقويونلو من الخدمات الكبيرة (كان فيلقه من جنود الأناضول ، وفيلق الأمير بايزيد ذو الـ ٤٠ كتيبة ، من جنود روملى) .

استمرت الحرب الكبرى بعد ذلك مدة خمس سنوات ونصف ، وإن كان الحلفاء قد خسروا الحرب — من الناحية العملية — فى أوطلوق بلى فى (١٤٧٣) . كان فاتح قد حصل على النتيجة الاستراتيجية لحرب أوربية كبيرة جداً ، فى أناضول الشرقية .

المرحلة الأخيرة للحرب الكبرى (١٤٧٣ - ١٤٧٩)

بدأت الحملات على البندقية والمجر وألمانيا تزداد كثافة بمرور الأيام ، حيث قد أصبحت تركية حرة في الشرق . وعلى سبيل المثال ، اجتاز ميهاو أوغلو غازي علاء الدين على باشا (١٤٥٣ - ١٥٠٧) أحد أمراء الصاعقة ، ألطونة (٣٣٠) مرة نحو الشمال بغرض الغارة . أسر إحدى بنات ملك المجر Matthias Corvinus ، مهتاب خانم وتزوجها ، أنجب منها (٥) أبناء صاروا أمراء صاعقة مشهورين . ولم يكن أخوه الوزير غازي إسكندر باشا (١٤٤٠ - ١٥٠٦) بأقل منه شهرة . وفي حملة المجر التي احتل فيها على باشا فارادين في (١٤٧٣) ، جلب (١٨٠٠٠) من أفراد الصاعقة إلى تركيا ٦٠,٠٠٠ أسير و ٩٠٠,٠٠٠ رأس من الماشية . وتبين هذه الأرقام مقدار الضرر الذي طرأ على القوة الاقتصادية للعدو ، وبالتالي على قوته الحربية . وحملة غاليجيا وبودوليا التي جرت في خريف عام (١٤٧٤) لاختضاع ملكية بودوليا . هي من الحملات الكبرى كذلك .

استمرت الحملات على البندقية متصاعدة على مر الزمن نحو الشمال - الغربى . إن أفراد الصاعقة الذين اجتازوا في (١٤٤٧) نهري Isonzo و Tagliamento ، حاربوا المنطقة حتى نهر Piave . اشترك في الحملات التي جرت على البندقية في (١٤٧٨) ٣٠,٠٠٠ شخص . كان القادة إسكندر باشا وأخوه على باشا مع مالقوج أوغلو بالي بك . خربت الحملات سهل البندقية ، واحتلت Friul وأفراد الصاعقة . دخل داود باشا أوستريا في (١٤٧٩) ، وفي (١٤٧٦) ثم احتلال « زغرب » مركز خزراتيا و Kalgemfurt مركز Karintiya (أوستريا) ، وجاء طره خان أوغلو عمر بك أمام مدينة البندقية مجتازا نهر Piave (١٤٧٧/١١/٢) ، وشتت الجيش الذي حاول الدفاع عن البندقية ، وأسرقائدهم ، وشاهد الشعب البندقي أفراد الصاعقة أثناء تجوالهم في بحيرة البندقية .

لقد أنهت وفاة أوزون حسن في (١٤٧٨) محريض البندقية اليائس لأقويونلو . وافقت البندقية على شروط تركية الصعبة في معاهدة أستانبول وانسحبت من الحرب (١٤٧٩/١/٢٥) . أجبر السلطان محمد الفاتح الذي يطلق عليه Franz

Babinger لقب « غالب الكون » البندقية . على دفع غرامات الحرب والخراج السنوى . ولم تبق إلا المجر . وفي (١٤٧٩) ، دخل (٤٣٠٠٠) من المغاوير ، المجر لاختضاعها . اشترك في هذه الحملة (١٢) من المغاوير برتبة لواء (سنجق بك صاعقة) بقيادة القائد العام ، علاء الدين على باشا . وفي حملة (١٤٨٠) ، توغل في النمسا إلى Graz .

قام فاتح في نهاية سنوات الحرب الكبرى بـ (٣) حملات همايونية . حملته الهمايونية الـ ٢٣ (ربيع وصيف ١٤٧٦) ، هي حملة بغداد (مولدافيا) ، وفي هذه الحملة أعيدت هذه الإمارة الرومانية التي خرجت على سيادة تركية في الحرب الكبرى وأخذت مكانها في الاتفاق المضاد .

والحملة الهمايونية (٢٤) (نهاية ١٤٧٦) ، كانت على المجر ، وهي الحملة التي نظمت للرد على محاصرة ملك المجر Matthias Corvinus سمندره دون جدوى . أسفرت هذه الحملة عن عودة فاتح بسبب فوات موسم الحرب ، وكذلك بسبب عدم سقوط سمندره .

والحملة الهمايونية (٢٥) (١٤٧٨) كانت حملة ألبانيا ٣ والبندقية .

إحدى أماني فاتح كانت خلع البنادقة من قواعدهم في البلقان . كان والى روملى الفريق الأول سليمان باشا قد حاصر في شمال ألبانيا قلعة البنادقة الشهيرة أشكودرا في (١٤٧٤) مدة ٣/٥ أشهر ، ولكنه لم يتمكن من إسقاطها . وكذلك كان قد حاصر في (١٤٧٧) Lepanto (بالتركية : اينه بختى) المواجهة لـ Patras في اليونان ولم يتمكن من إسقاطها ، فتم عزله .

فتح ميهال أوغلو على بك Kroya (بالتركية آقجه حصار) بعد حصار دام (١٣) شهراً (١٤٧٨/٦/١٦) . كانت آقجه حصار مركزاً لـ « إسكندربك » ، وعند وفاته انتقلت إلى حوزة البنادقة . استولى فاتح في البداية على Alesso (بالتركية : لش) ، التي كانت قلعة للبنادقة بين آقجه حصار واشكودرا . حاصر اشكودرا بشدة . سلمت المدينة إلى تركيا (١٨٧٩/١/٢٦) استعمل فاتح في حصار اشكودرا ، بالونات لا تحترق وصواريخ حريق و (١١) مدفعاً ضخماً جداً ، وصواريخ طيارة تتفجر في المكان الذى تمسه .

حملة اشكودرا في (١٤٧٨) هي الحملة الخامسة والعشرين لفاتح وهي آخر حملاته ؛ ذلك أن حملته الـ (٢٦) لم تكتمل بسبب وفاته .

(٦) إلحاق إمارة (خانلق) قرم (١٤٧٥/٦/١)

إن إمارة قرم هي أهم الدول التي ظهرت على أثر تجزئة خاقانية ألتون أوردي (أوروبا الشرقية) التركية . لعبت قرم أهم دور سياسي بين هذه الدول التي انحدرت من السلالات الملكية ، التي تآقت على رأسها سلالة جوجي أولوسو Cui Ulu، أى من نسل كبير أولاد جنكيز الـ (٤) جوجي خان . كانت هذه الدولة التي تأسست في شبه جزيرة القرم تشمل بشكل واسع أوكرانيا الحالية وتمتد نحو قفقاسيا الشمالية ونحو روسيا . كانت توجد على سواحل قرم عدة قلاع - مرافئ جنوبية . كانت تجارة البحر الأسود حتى فتح إستانبول تقريبا تحت سيطرة جمهورية جنوة (بالإيطالية : Genova) . أصبحت الجمهورية في وضع حرج للغاية عند غلق فاتح المضائق وأخذ منطقة غلطة في استانبول من حوزة الجنوبيين . انحلت جمهورية جنوة من عداد الدول العظمى ، واضطرت إلى دفع أجور المرور إلى العثمانية عند مرورها من المضائق لنقل البضائع بين أوروبا ومستعمراتها في (قرم) . كان فاتح يخلق المصاعب للجنوبيين بسبب عدم استحسانه علاقة دولة أوربية بالبحر الأسود . كان فاتح قد أرسل أسطولاً إلى (قرم) في تموز (١٤٥٤) ، بعد فتح استانبول بعده أشهر . وأجبر « كفه » الميناء الجنوبي الرئيس في قرم على دفع خراج سنوي .

كانت قرم التي تبلغ مساحتها (٢٦٠٠٠) كم^٢ تستند بدرجة كبيرة في وجودها على مستعمراتها الواسعة في الشمال ، وكان أكبر أعدائها الإمارة الكبرى لروسيا في الشمال وملكية - دوقية كبرى - بولونيا في الشمال - الغربي . كانت دولة ألتون أوردي التي مركزها مدينة سراي على نهر الفولغا ، مازالت مستمرة في ذلك التاريخ . لكنها كانت قد سقطت إلى درك إمارة (خانلق) محلية . كان في إمكان قرم (التي تمتد على أراض تبلغ مساحتها نحو مليون كم^٢ وأحيانا ترتفع إلى مليوني كم^٢ أن تجهز إذا اقتضت الضرورة (٢٠٠,٠٠٠) جندي خيال . كان هؤلاء الجنود يحاربون على النمط الجنكيزي ، وكانوا مخيفين رغم أنهم لم يجددوا من أساليبهم التي

كانوا عليها فى القرون الوسطى . كانت « باغجه سراى » مدينة خان قزم تبعد عن موسكو (مسافة مستقيمة) (١٢٦٠) كم ، وعن وارسو (١٢٨٠) كم ، عن فيينا (١٢٧٠) كم ، لكنها تبعد عن استانبول (٦٠٠) كم وعن سينوب (٣٣٠) كم .

كانت سياسة فاتح فى جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية سياسة معلومة . كان قد أرسل منذ صيف (١٤٥١) وفور اعتلائه العرش ، مشير البحر (قبودان دريا) بلطه أوغلو سليمان بك مع (٥٠) سفينة حربية إلى سواحل البحر الاسود . أحتل سليمان بك باطوم فى الجنوب ، وأدخل الحكم العثمانى على الآجار (أتراك قبحاق الذين أصبحوا كرج) وكذلك أحتل « سوخوم قلعة » فى الشمال ، وأدخل الحكم العثمانى على الابهازه (الابهازه عبدة الأصنام) . وبناء على ذلك ، تكون جميع سواحل كرجستان قد انتقلت إلى حوزة تركيا منذ (١٤٥١) وكانت إمبراطورية طرابزون الرومية أيضا قد حوصرت من شرقها . أما سواحل البحر الأسود الشمالية، التى تبدأ من سوجى نحو الشمال الغربى ، فقد كانت تحت رقابة امارة قزم . كانت الاقوام الصغيرة التى تسكن فى هذه المناطق وفى قفقاسيا الشمالية فى ذلك التاريخ ، من عبدة الأصنام ، وقسم قليل منهم صار مسيحيا أرثوذكسيا . (سيسلمون كلهم فى العهد العثمانى) .

انتقلت آجارستان وباطوم إلى الحكم العثمانى بشكل حاسم فى (١٤٧٩) . أسلم الآجاريون . لكنهم ، رغم كونهم أتراكا ، حافظوا على الديانة الكرجية ولو إسميا إلى يومنا هذا . وفى صيف عام (١٤٦٩) ، شوهد المشير البحرى يعقوب بك فى قزم ، وقام بانزال جيش فيها ، وقد كانت هذه الحركة ضد الجنوبيين . أما بنى جنكيز فى قزم ، فعدا أنهم تنازعوا فيما بينهم على الإمارة ، كانوا لايفتشون يحاربون الإمارات التركية الأخرى، وكان ذلك يحقق مصلحة للروس .

كان المبدأ الذى يتمسك به فاتح ولايقبل تغييره ، هو عدم رفع أى علم عدا العلم العثمانى فى البحر الأسود ، لقد قطع فاتح على الجنوبيين طريق كفه - إيطاليا ، وكان الجنوبيون فى كفه ، يستعملون طريق قزم - المجر - ألمانيا - إيطاليا المتعب جدا ويسددون من أجل ذلك ضريبة إلى خان قزم .

سار مشير البحر كديك أحمد باشا من استانبول (١٤٧٥/٥/١٩) بأسطول لم يشهد البحر الأسود طوال تاريخه مثيلا لعظمته (١٨٣ سفينة حربية + ٢٩٠ سفينة

نقل = ٤٧٣ قطعة) ، ورسا في ميناء كفه في قرم (١٤٧٥/٦/١) . استسلمت كفه (٥ حزيران) ، ثم مرافئ الجنوبيين الأخرى وهي سوغداق (Sudak) ومنكب Menqüp . كانت منكب الواقعة في أقصى جنوب قرم ، وعلى مقربة من غرب بالطه ، لدى الكومنان Comnéne . وهكذا قضى على البقية الأخيرة من بقايا البيزنط . ثم انتقل الأسطول الهمايوني من بوغاز كرج إلى بحر آزوف (آزاك) .. واحتل ميناء Tana (بالتركية : آزاك) النهرى الواقع على الضفة الشمالية الشرقية من بحر آزوف على دلتا نهر الدون (بالتركية : تن وحاليا ضاحية روستوف) . شيدت في آزاك قلعة عثمانية وتشكيلات لواء . وأسست في كفه المدينة الكبيرة البالغ تعدادها (٧٠ . ٠٠٠) نسمة ، وأيضا تشكيلات لواء عثمانى .

وافق خان قرم على الخضوع للعثمانية . ونصت المعاهدة التى وقعها خان قرم مع فاتح ، والتى سوف تشكل نظام قرم لمدة (٣٠٠) سنة ، على أن يتعهد البادشاه بالاحتفاظ بإمارة قرم في نسل جنكيز خان ، فالبادشاه حر في تعيين أى شخص خانا (أميراً) على قرم شريطة أن يكون من نسل جنكيز ، ويسمح البادشاه في مقابل ذلك بذكر اسم الخان في مساجد قرم بعد اسم الخليفة العباسى واسم البادشاه ، كما يسمح بطبع اسم الخان بعد اسم السلطان على قطع النقود التى يسكها الخان (مادة ١ ، ٤) .

تم تأسيس لواء في كفه (أصبح إيالة فيما بعد) يديره العثمانيون مركزيا ولاعلاقة له بإمارة قرم .

كان البادشاه يعتبر كافة الضفاف الشرقية لقرم التى استولى عليها من الجنوبيين ، هدية له من خان قرم ، ويتضح من ذلك أنه يراد أن تبقى الإمارة تحت الرقابة العسكرية العثمانية . كانت هذه الاراضى تشمل الضفاف الجنوبية - الشرقية لشبه الجزيرة ، المناطق المحيطة ببوغاز كرج ، شبه جزيرة تامان ، الموانئ الواقعة على مصر نهر دنير (بالتركية : أوزو) ، وكذلك أوزجاكوف (بالتركية : أوزو) ، مصب نهر الدون وخليج تاغانروغ وآزاك (روستوف) .

وتضمنت المعاهدة كذلك تعهد قرم بتزويد الجيش العثمانى بالعدد الذى تطلبه الحكومة العثمانية من الجند وفي الوقت الذى تعينه ، ومن ناحية أخرى ، توافق كذلك

على تنفيذ المهام التي يكلف بها الجيش القرمى منفردا ، وأن ترسل حصة البادشاه من الغنائم .

زوج خان قرم (١٤٦٧ — ١٥١٤) منكلى (باللهجة العثمانية : بنلى) كيراي خان (الأول) ، ابنته بأمرى العثمانية الأمير (شهزادة) ياوزسليم ، والأمير محمد حفيدى فاتح وابنى أولو شهزاده (ولى العهد) بايزيد (الثانى) الرابع والسابع .

شاهد منكلى كيراي الأول سلطنة صهره السلطان سليم ، أما صهره الصغير الأمير محمد ، فقد تولى لواء كفه حتى وفاته (ك ١٥٠٤ / ١) ، وعند وفاة الأمير محمد ، ذهب الأمير سليمان (القانونى) ابن صهره الكبير السلطان ياوزسليم ، إلى كفه لتسلم ولايتها .

وهكذا اكتسب الحكم العثمانى صفته القطعية فى البحر الأسود ، ودخل البحر تحت الحكم العثمانى ، وامتدت حدود الدولة العثمانية دفعة واحدة إلى خط عرض (٥٥) درجة جنوب موسكو . وفى غضون ذلك ، فتحت جزيرة (سيسام) فى شرق (إيجيه) ودخلت ساقز تحت الحماية العثمانية (١٤٧٥) . وفى (١٤٧٩) ، تم فتح مصب نهر كوبان حيث شيدت فيه قلعة آنابا ، وهى منفذ بلاد الشركس إلى البحر .

كان فاتح متأثرا من وجود كافة المدن والمقدسات الإسلامية لدى المماليك ، فى الوقت الذى تعتبر العثمانية أقوى دولة إسلامية .

بدأت القاهرة تتنبه عندما ادعى فاتح الذى يرسل الدراهم سنويا إلى مكة والمدينة كأجداده ، بعض الحقوق فى هاتين المدينتين .

أدرك أولا سلطان خوشقدم نية فاتح ، لكن الذى أدرك مجيء الخطر من العثمانية بصورة مؤكدة ، هو الحاكم الكبير السلطان قايتباى (١٤٦٨ — ١٤٩٥) . وفى ١٤٧٧ جاء بنفسه إلى الأناضول وفتح قلاع المماليك فى أورفه وعتتب .

وخلال تلك الأيام حاول فاتح احتلال رودس للمرة (٣) (١٤٨٠) . كانت هذه الجزيرة قد انضمت فى عهد معاوية إلى الخلافة الإسلامية مدة (٨) سنوات (٦٧٢ — ٦٨٠) ثم استرجعها البيزنط . وعندما طرد المماليك أتباع طريقة

Saint - Jean Hospitalier اللاتينية الكاثوليكية العسكرية من عكا في (١٢٩١) هام أتباع هذه الطريقة حتى عام (١٣٠١) في شرق البحر الأبيض على غير هدى ، وفي تمام (١٣٠١) أسكنهم ملك قبرص ميناء ليماسول ، وفي (١٥ آب ١٣٠٨) ، احتلوا رودس من البيزنطيين واستوطنوا فيها ، ثم فتحوا جزر الاثنى عشر وجزر نيكاريا ، كارباتوس ، وكاشوت ، وجزيرة مئيس الصغيرة ، وميناء بودرم في الاناضول ، وحتى إخراجهم منها على يد تيمور في (١٤٠٢) ، كانوا قد فتحوا قلعة ميناء أزمير الكائنة في قطاع أزمير المسمى « كاوور أزمير » .

قام المماليك بـ (٣) حملات (١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦) على قبرص و(٣) حملات (١٤٤٠ ، بواسطة ٨٠ سفينة ٤٢ — ١٤٤٣ ، ٤٤ — ١٤٤٥) على رودس ، وأجبروا قبرص على دفع ضريبة سنوية ، أما رودس فعلى الرغم من تخريبهم إياها إلا أنهم لم يتمكنوا من إسقاطها .

أرسل فاتح إلى رودس بعد الحملة المملوكية بـ (١٠) سنوات المسير البحرى حمزة بك (١٤٥٥) ، كرر فاتح عملية فتح رودس في (١٤٦٧) ، ولم تنجح أى من الحملتين .

تم تعزيز « رودس » بشكل واسع تجاه الخطر التركى بمساعدات ضخمة من جميع الدول الأوروبية . كانت حملة رودس (٣) التى قادها مسيح باشا ، أقوى من الحملتين السابقتين بمراحل ، فقد تلقى الباشا أمرا مؤكدا من فاتح باحتلال الجزيرة ، ذلك أن فاتح الذى كان يستعد لفتح إيطاليا ، لم يكن يرغب فى أن يترك وراءه بؤرة تولد خطرا عليه فى المستقبل . كان الأمل الوحيد لأصحاب الطريقة العسكرية الذين يحكمون رودس ، هو إشعال حروب مقدسة مع المسلمين ، وقد كانوا يهاجمون سفن المسلمين ويكبدونها خسائر جسيمة .

سار مسيح باشا بـ (١٦٠) قطعة من السفن و٧٠,٠٠٠ جندى من غاليبولى ، ورسا أمام جزيرة رودس (١٤٨٠/٩/٢٣) . وأثناء الحصار ، كان أسطول عثمانى آخر مكون من (١٠٠) قطعة يقوم بإنزال على إيطاليا . وبينما كانت القلعة على وشك السقوط ، وركزت الأعلام التركية على الأسوار ، أبلغ الباشا القائد أمره بمنعه كافة أنواع النهب والأسر وأخذ الغنائم والحرق ، وأن كل الغنائم ستول للخزينة .

لقد كان مثل هذا الأمر مخالفا للقواعد المتعارف عليها وغير مرضي للعسكريين ،
إذ إن استحوّاز الخزينة على الغنائم لا يكون إلا في حالة استسلام الموقع من تلقاء نفسه ،
فهذه هي القاعدة المتعارف عليها دوليا .

وإزاء إعلان هذا الأمر لم يتحرك الجند من أماكنهم ولم يدخلوا القلعة ، وخرج
الروديون الذين شاهدوا ذلك وكبدوا الأتراك خسائر ليست قليلة .

تكبد الأتراك (٩٠٠٠) شهيد (استشهد ٣٥٠٠ منهم خلال الهجوم الأخير)
و (١٥٠٠٠) جريحا خلال الحرب التي دامت (٢ شهر ، ١٢ يوما) . ولم يتمكن
مسيح باشا من تنفيذ حصار بحري تام ، واستمر إرسال الإمدادات للعدو . رفع
الحصار .

سوف يتدارك السلطان سليمان هذه الأخطاء بعد (٢٤) سنة ، إلا أن ذلك
على كل حال تسبب في تأخير فتح (رودس) (٤٢) سنة ، كما تسبب في هدر
دماء العديد من المسلمين خلال هذه المدة . وبعد أن وبخ فاتح مسيح باشا ،
وضربه ، أنزل رتبته من وزير (مارشال) إلى لواء (سنجق بك) .

٧ - فاتح وإيطاليا :

فتح كديك أحمد باشا جزر أيونيا (اليونان) الواقعة خارج كورفو ، من دوقات
سلالة Tocco الإيطالية .. وهذه الجزر هي Kefalonya (٦٠١ كم^٢) ، Zanta ،
(ZaKynthos) (٤٠٨ كم^٢) ، Santa Maura (Leukas , Levkas , Aya Mavri)
(٣٠٠ كم^٢) . وهي مصفوفة على بحر أيونيا (اليونان) على سواحل اليونان .

كانت هذه مقدمة لحركة فتح إيطاليا .

كان من بين أهداف فاتح ، أن يكون إمبراطورا على روما موحدة . ومنذ
(١٤٥٣) ، كان يطلق عليه لقب قيصر روم ، أي (إمبراطور روما الشرقية =
البيزنط) ، ولكي يكون إمبراطورا على روما ، ويوحد تاجي الامبراطوريتين
الموجودتين في أوروبا ، كان يجب عليه فتح إيطاليا وروما .

كانت الدولة الكبرى الكائنة في شمال شرق إيطاليا هي البندقية ، وكانت بين

البندقية وإيطاليا مصالحة ، ويمكن صرف النظر عنها . إذ أنها كانت خارج خطة فتوحات فاتح .

وكانت الدولة الكبيرة في جنوب إيطاليا هي ملكية نابولي التي تضم صقلية التي كانت تحت نفوذ أسبانيا (Aragon) ، كانت هذه الملكية هي الهدف .

كان منتصف شبه الجزيرة ، تابعا للبابا ، ومن ناحية أخرى ، كان في شبه الجزيرة دول أصغر ، كدوقية فلورنسا (Toskana) ، ودوقية ميلانو (لمبارديا) ، وكانت كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، ولم تكن أى من هذه الدوقيات على نفس مستوى أهمية جمهورية جنوة .

من الواضح أن فاتح كان يفكر في إلحاق جنوب إيطاليا ، لتكون له السيادة - بصفته إمبراطورا على روما - على الدول الإيطالية الأخرى . ولقد كانت دول إيطالية عديدة قد تقبلت فاتح بهذه الصفة مقدما .

إن الأنواط التي سكتها هذه الدول باسم فاتح والتي تحمل صورته ، موجودة في حوزتنا حاليا ، وتستطيع أن تقرأ على هذه الأنواط باللاتينية عبارة Svltni » Mohammeth Othomoni Vgli Bizantii Imperatoris 1481 / Svltnus « وتعنى « سلطان محمد » Mohammeth Othomanvs Tvrcorvm Imperator بنى عثمان إمبراطور الأتراك وروما الشرقية » .

لقد عاشت صقلية في القرون الوسطى حكما عربيا إسلاميا لامعا . ولقد كان من حق فاتح - بصفته إمبراطور روما - طرد الأسبان من صقلية ونابولي ، فقد كانت هذه الأماكن في ذلك الحين تابعة للإمبراطورية البيزنطية .

سار الوزير الأعظم السابق والمشير البحرى (قبودان دريا) -الحالى كديك أحمد باشا- بالنصف الآخر من الأسطول الهمايونى إلى إيطاليا ، في ذات الأيام التي تحرك فيها مسيح باشا إلى رودس . كان الأسطول الهمايونى قد عظم شأنه إلى درجة تمكنه من القيام بحركتين عبر البحار على أوسع نطاق .

تجمع الأسطول الهمايونى الذى يتكون من (٤٠) سفينة حربية كبيرة و (٥٢) صغيرة و (٤٠) سفينة نقل في البداية في ميناء Avlonya الواقع على بوغاز Otranto ، وتحرك منها (١٤٨٠/٧/٢٦) .

اجتاز بوغاز أوترانتو (٧٥ كم) ، وقام فى (٢٨) تموز بإنزال ١٨٠٠٠ من المشاة ، و (١٠٠٠) خيال وعدد كبير من المدافع فى إيطاليا . كان موقع الإنزال قرب قلعة أوترانتو لإيالة Apulya (بالتركية : بوليا) . كان أسطول البنادقة المكون من (٦٠) قطعة فى قاعدة كورفو . ولم يكن تدخله وارداً بسبب الصلح القائم من البندقية .

استسلمت قلعة Otranto بعد مقاومة شديدة استمرت (١٤) يوما . مات نحو من (١٢,٠٠٠) من جملة (٢٢,٠٠٠) من حامية القلعة . قسم كديك أحمد باشا جيشه إلى فرقتين وساق إحداهما إلى الشمال - الشرق إلى برنديزى ، والثانية إلى الشمال - الغربى إلى تارانتو . وجعل أوترانتو ، مركز لواء . كان الأتراك الذين سيطروا على كعب الجزمة (الحذاء الطويل) الإيطالية ، على وشك السيطرة على إيالة Pulya .

بقى آمر لواء أوترانتو خير الدين مصطفى بك فى القلعة مع (٦٥٠٠) من المشاة و (٥٠٠) خيال . لم يجسر ملك نابولى Ferrante على الهجوم على الأتراك . بدأ الشعب فى ترك بيوته فى مدينة نابولى وهو فى حالة فرع .

أبلغ أحمد باشا الملك بأن يسلم إيالة بوليا ، وإن لم يتم ذلك ، فإن البادشاه سياتى فى الربيع إلى إيطاليا ومعه (١٠٠,٠٠٠) من المشاة و (١٨٠٠٠) من الخيالة ومدافع بحجم لم تسبق مشاهدته .

٨ - وفاة الفاتح السلطان محمد خان الثانى (٣ أيار ١٤٨١) وشخصيته

غادر الخاقان سراى طوبقايو يوم (٢٥ نيسان ١٤٨١) . اجتاز البوغاز وجاء إلى إسكدار ، ونصب السراىق الهمايونى فى الموقع الذى سُمى بعد ذلك إضافة له « هنكار جايرى » ، أو « سلطان جايرى » (أى مرج السلطان) ، بين مالتبه وكبزه . كان قد شرع فى الاستعداد لحملة كبيرة موجهة على الأغلب إلى إيطاليا . أصابه مغص فجائى ، توفى بعد عدة أيام نهارا حوالى الساعة - / ١٦ . كان عمره يتجاوز الـ (٤٩ سنة بـ ١ شهر ، ٥ أيام) .

مات فاتح نتيجة السم الذى دسه له بصورة تدريجية العميل البندقى أحد أطبائه الخاصين المسمى Maestro Lacopo ، الذى ادعى أنه اهتدى إلى الإسلام وتسمى باسم يعقوب باشا .

تعتبر هذه هى المحاولة (١٥) التى رتبها البندقية لاغتيال فاتح . مرق الجنود الأتراك فى الحال اليهودى البندقى ، ولم يتمكن من تسلّم المكافأة الكبيرة التى وعدته بها البندقية (هذه المكافأة بالسعر الرائج حالياً (١٧) مليون دولار) (Babinger ٣٤٩ ، ٤٩٢ - ٤) . علمت البندقية خبر موت فاتح فى (١٩ أيار ، بعد ١٦) يوماً من الحادث . كانت الرسالة التى جلبها حامل البريد السياسى لسفارة البندقية فى إستانبول تحتوى على هذه الجملة التاريخية La Grand Aquila é Morta = مات النسر الكبير .

دقت أجراس كافة الكنائس الأوربية، وجرت مراسم الشكر لمدة (٣) أيام مع ليالها بأمر البابا .

جملة سلطنته (٣١ سنة ، ٢١ يوما) (سلطنته (٣) الأخيرة دامت (٣٠) سنة ، ٢ شهر ، ٢٨ يوماً) نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن قرب جامعته . لم يدفن لا فى قبر فاتح ولا فى قبر حفيده ياوز أحد غيرهما ، هما ينفردان فى قبريهما . من المعلوم أنه قد دفن فى قبور كافة السلاطين الآخرين ، أشخاص آخرون من متسبى السلالة . فاتح ، هو أول سلطان يدفن فى استانبول بينما دفن الذين سبقوه فى بورصة .

ولد له (٣) أبناء وبنت واحدة فقط ، هى كنة السلطان أوزون حسن .

فتوحات فاتح كبيرة ، مهمة وذات مغزى .

إن القواعد المتينة للدولة العثمانية العالمية العظمى ، قد تم إرساؤها فى هذه الفتوحات .

وصلت الدولة فى حزيران (١٤٥٣) ، بعد فتح استانبول إلى العظمة والقوة التى كانت عليها على أيام يلدرم بايزيد فى (١٤٠٢) ، بل إنها اجتازتها .

كانت الإمبراطورية تمتد على أراض مساحتها (٩٦٤٠٠٠) كم^٢ (٤٨٠ . ٠٠٠)

كم^٢ في الأناضول ، ٤٨٤٠٠٠ كم^٢ في البلقان) . كان هناك توازن تام في الجناحين (أناضولى وروملى) ، والجناحان مفتوحان بشكل جاهر للطيران . وبالطبع ، كانت الدول المستقلة ذاتيا هي : الامارات التركمانية جاندار (اسفنديار) ، قره مان ودلقادر ، ملكية بوسنه ، إمارة الصرب ، جمهورية دوبروفنك ، إمارة افلاق الرومانية ، إمارة مورا البيزنطية ، دوقية (Attika) اللاتينية ، دوقية هرسك ، وكانت أهمها قره مان .

لم تكن لتركية بعد أية جزيرة في إيجة . كانت موانئ Enez ، آماسرا وبودرم في الأناضول لاتزال في حوزة المسيحيين (الأولى في تراقيا الشرقية) وكذلك كانت ولايات طرابزون وريزه وأرتفين في حوزة المسيحيين ، وعدا ذلك ، كانت أناضول الشرقية في حوزة إمبراطوريتى التركان الإيرانية أولا قره قويونلو ، ومن ثم آقويونلو ، وكان قسم من أناضول الجنوبية . لدى سلطنة مصر .

كان الجيش العثماني هو الجيش الأول على وجه الأرض دون منافس . أما الأسطول العثماني ، فقد كان الثاني بعد الاسطول البندقى ، كان أقوى بقليل من نصف الأسطول البندقى .

وبعد (٢٨ سنة ، في ١٤٨١) ، عند وفاة فاتح كانت الخارطة التركية ومكانة تركية في العالم قد تغيرت من أساسها ؛ اتسعت ووصلت إلى (٢٢١٤٠٠٠ كم^٢ ١٧٠٣٠٠٠) كم^٢ منها في أوروبا و (٥١١٠٠٠) كم^٢ في آسيا (الاناضولى) . إن قرم وحدها كانت تشمل الأراضى التى تبلغ مساحتها (٩٨٢٠٠٠) كم^٢ . وبذلك تكون مساحة الأراضى الأوروبية قد زادت كثيرا على مساحة الأراضى الآسيوية . وقد أصبحت تركية - عدا كونها في البلقان - قوة كبيرة في شمال البحر الأسود وأوروبا الشرقية .

كانت تركيا ، عدا قرم ، بالنسبة لأراضها في البلقان فقط هي الأولى بين الدول الأوروبية من حيث التعداد ، ومن حيث المساحة أيضا .

إن الدول التابعة التى كانت تحت الحماية في (١٤٥٣) ، وزال استقلالها الذاق وألحقت بالإدارة العثمانية المباشرة هي : ملكية قره مان ، إمارة اسفنديار ، ملكية بوسنه ، دوقية هرسك ، إمارة الصرب ، إمارة مورا البيزنطية ، دوقية أثينا . كان

الاستقلال الذاتي لإمارة افلاق (رومانيا) ، جمهورية دوبروفنك الصغيرة وإمارة
دلقدار مستمرا . وقد أضيفت دول تابعة جديدة هي إمارة بغداد (مولدافيا) ،
إمارة (خانلق) قرم ودوقية خرواثيا . وبقبول بغداد الحماية العثمانية في
(١٤٥٥/١٠/٥) ، أصبحت الامارتان الرومانيتان تحت حماية الدولة ذاتها .

كانت إمارة قرم تشمل قرم ، القسم الأكبر من أوكرانيا ، والأيلات الروسية
الحالية Kursk , Rostov , Voronej , Krasnodar Volgograd . كانت أراضي قرم
وقسم من هذه الأراضي تحت حكم العثمانية المباشر ، وكانت العثمانية قد سيطرت
كذلك بشكل كامل على القسم الغربي من قفقاسيا الشمالية بسيطرتها على Taman
و Anapa .

كذلك كان جوار أوترانتو في إيطاليا أرضاً عثمانية ، كما أن مينائى Enez الواقع
على مصب مريخ، وآماسرا في الأناضول ، كانا قد أخذا من الجنوبيين ، وفتحت كامل
البانيا وقره داغ تقريبا ، ولم يبق في حوزة البنادقة من هذه الأراضي سوى عدة
أرصعة بحرية وعلى رأسها Drac .

تم فتح جزر بوزجه آدا ، امروز ، ميديللى ، لمنى سيسام ، طاشوز ، سمندريك
القرية من الأناضول الواقعة في الأرخبيل ، وأخذت ساقز تحت الحماية . وفتحت
كذلك آغريوز أكبر جزر البحر الواقعة في الجهة اليونانية . وأخيرا ، انتقلت جزر
أيونيا (اليونان) ، عدا كورفو ، إلى الحكم العثماني .

ألحقت طرابزون وريزه والقطاع الساحلى لآرتفين ، وهى الولايات الأناضولية
الأخيرة التى فتحت من المسيحيين . كان قسم من ولاية كموشخانه قد أخذ من
أصحاب الخرفان البيض .

استتب الحكم العثماني في جميع الضفاف الشرقية للبحر الأسود اعتبارا من
آجارستان (باطوم) إلى سوخوم قلعه (آهازستان) ، ومنها إلى بوغاز كرج .
وبذلك توطن الحكم العثماني بشكل متين جدا ، من الفرات وجبال طوروس إلى
أطونة .

بذلك يكون فاتح قد فتح إمبراطوريتين: (روما الشرقية - البيزنطية وطرابزون) ،
(٤) ملكيات: (قرم ، قره مان ، بوسنة ، الصرب) و (١١) إمارة ودوقية (أى

١٧ دولة ، ٥ منها تركية ، والأخرى مسيحية . أما الاقطار ، والمدن ، والقلاع والجزر التى أخذها من الدول الأخرى فهى خارج مجموع الـ (١٧) هذه .

لاشك فى أن فاتح قد اتخذ هذه السياسة بغرض تقوية القوة المركزية للدولة ، ومن ضاعف خلال الـ (٣٠) سنة قدرة وقوة الجيش والأسطول ، إلى عدة أضعاف . إذ جعل من الجيش قوة ضاربة كبيرة جدا على نطاق عالمى ، وعززه كذلك بمدفعية واسعة النطاق لأول مرة بين جيوش العالم .

كان الأسطول العثمانى ، عند اعتلائه العرش ، يحتوى على (٣٠) سفينة حربية (صف حرب ، قادرغه) والأخرى قطع صغيرة ، وكان الأسطول البندقى متفوقا على الأسطول التركى بمراحل . وقبل (١٤٧٤) ، جعل فاتح هذا الأسطول يفوق الأسطول البندقى (٩٢ قادرغه ، وأكبر منها (١٦) طرادا ، ونحوها من (٤٠٠) سفينة نقل وإنزال) ، ووضع المدافع على السفن . ولم تبق أية سفينة حربية بلا مدفع . وكون قبيل وفاته ، فى (١٤٨٠) ، أسطولا يعادل ضعفى الأسطول البندقى ، (٢٥٠) سفينة حرب و (٥٠٠) سفينة نقل . وتعبير Franz Babinquer (ص ٥٣٥) تحققت قوة بحرية نتيجة جهود « تستحق الدهشة تفوق الأساطيل الأوربية » . ولأول مرة فى التاريخ ، أحرز الأتراك الأولوية بين دول العالم فى القوة البحرية ، وسوف يتمكنون من الحفاظ على وضعهم هذا مدة قرنين ونصف .

أسس فى (١٤٥٣) جامعة إستانبول الحالية . وقد استطاع بالتعاون مع وزيره الأعظم الأخير - من سلالة مولانا - قره مانلى محمد باشا وكتابه ليث - زاده محمد جلبى من وضع الدستور المسمى « فاتح قونانامه سى » (أى دستور فاتح) والذى بقيت مبادئه الأساسية سارية المفعول فى الدولة العثمانية حتى (١٨٣٩) .

« يعد فاتح بالنسبة للعالم التركى ، هو أكبر الأباطرة حتى يومنا هذا ، من الصعب مقارنته بأى شخصية فى التاريخ البشرى ... محمد الفاتح ، كان بالنسبة للشعب التركى ، الشخصية الخارقة للعادة ، والتى لا يمكن تكرارها فى التاريخ كله » (Babinger ، ١٩٥٣ ص ٤٩٨ - ٤٩) .

« ظهور فاتح ، خطط مصير الغرب بشكل واضح . إن شخصيته القوية التى يحتمل أن تقاس بنابليون فقط ، قد غيرت أوروبا بصورة جذرية . إن شخصية فاتح

تعكس الذكاء البشرى فى أعلى مراتبه ، لقد مثلت نظرة فاتح إلى البشرىة والعالم طرازاً فريداً ومتميزاً عند الخروج من القرون الوسطى (Babinger ، ٥١٨) .

« كان محمد الثانى لا يحمل إطلاقاً موقفاً معادياً تجاه الأديان الأخرى وذلك على خلاف الحكام الأتراك والمغول ... وفى أعمار استانبول ، أصبح جوستينيان (جوستينيانوس) المسلم وكافة الروحانيين الأرثوذكس يلهجون بالامتنان لحارس دينهم العجيب . وقد أظهروا هذا الامتنان فى كل مناسبة ... ورغم ذلك ، كانت فترة سلطنة محمد الثانى بالنسبة لسلالات كثيرة فى آسيا وأوربا ، كأنها يوم من أيام القيامة » (Lavis - Rambaud Histoire Générale ، (٢ ، ١٨٩٤ ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩) .

لم تقتصر المؤلفات المنظومة والمنشورة التى كتبت عن فاتح ، على اللغات التركية والعربية والفارسية فحسب ، بل إن كثيراً من هذه الكتابات أوربية .

إن أطول القصائد من بين آلاف القصائد التى كتبت عنه ، هى منظومة Giovanni - Maria Filelfo المكونة من (٤٧٠٦) بيتاً . وقد صار بعد وفاته كذلك ، موضوعاً لآلاف من المؤلفات الفنية .

لقد ألفت فى إنكلترا فقط خلال السنوات (١٥٩٤ - ١٧٤٩) من طراز المسرحية فقط (٦) مسرحيات عاجلت موضوع فاتح . ويمكن قياساً على ذلك تصور ماكتب عن فاتح فى اللغات الأخرى وفى الحقول الأدبية الأخرى .

وقف فاتح أمام Matteo , Gentile Bellini الفيرونى اللذين دعاها من البندقية وسمح لهما برسم صورته الشخصية .

إن أعمال فاتح المؤثرة ، كقطعه طريق الشرق على الأوربيين ، واكتساحهم ، ودفعهم - باحثين عن النجاة - نحو البحار المفتوحة ، وتحقيق تفوق العثمانيين البحرى فى البحر الأبيض ... كل ذلك يعد من الأسباب المعقولة لدفع أوربا نحو المغرب (العالم العربى الغربى) بحكم كونه أضعف ، كما يعد أيضاً من الأسباب التى دفعت الأوربيين إلى التفات على المحيطات . وقد أدى تفاهت الأوربيين على المحيطات إلى زيادة الحيز المكافى المعروف فى العالم (الاكتشافات الجغرافية) غير أنه من المحتمل أن يكون أهم من ذلك كلة الانقلاب الذى ترتب على إبراز فاتح لسلاحه المسمى

« مدفع » وتأكيده لدور « المدفع » كعنصر استراتيجى فعال .

لقد أثبت فاتح بصورة مؤكدة فى (أوطلوق بلى) ، دور المدفع كسلاح من الدرجة الأولى فى الحروب الميدانية .

إن أوروبا لم تدرك دور المدفع فى الحروب الميدانية ، إلا بعد حروب ياوز الميدانية ، وبصورة مؤكدة فى الربع الثانى من القرن (١٦) . لكن المدفع كسلاح هدام وثاقب للقلاع والأسوار كان معلوما قبلها ، إذ إن أى غاز منذ ألف سنة هدم الأسوار البيزنطية ، لكنه لم يتمكن من ثقبها واختراقها . وفى تلك الفترة ، كان الملوك فى وضع حرج مع الإقطاعيين ، وكان الإقطاعيون الصغار والكبار يخبثون وراء قصورهم المستحكمة ويعصون ملوكهم ، ويرسلون ضرائبهم وجنودهم إلى الدولة كما يحلو لهم . وعندما بدأ الملك فى حيازة المدفع وهدم هذه القلاع ، ظهرت فى أوروبا دول حقيقية مقتدرة ، تستند على النظام المركزى ، وتتمكن من جمع ضرائبها كما تشاء ، وتنظم فاعلياتها العسكرية والاقتصادية والثقافية فى المستويات العالية بالإمكانات التى تيسرها هذه الدراهم . ولم يتمكن بعد ذلك الدوق - الكبير ، الدوق ، الأمراء ، ولادة الحدود (ماركيز) ، القمامس (الكونتات) وكلاء القمامس (الفايكونتات) البارون ، البارونيت (البارونة) ، السنيور والفرسان من التمرد على ملوكهم كما كانوا يفعلون من قبل . وهكذا نجد أن المدفع يمثل صلب هذا التطور .

على أنه ينبغى ألا ننسى أن ذلك قد جرى ببطء ، إذ إن أوروبا لم تتمكن من تكوين الجيش النظامى المحترف ، الذى كونه العثمانية فى بورصة ، إلا فى القرن (١٧) . والأمر المؤكد أنه نتيجة لذلك ، طويت تماما صفحة قرن مضى ، وفتحت صفحة قرن جديد .

وقد تجدر الإشارة فى النهاية إلى الأخطاء الرئيسية لفاتح . إن أكثر ما انتقده فيه الأتراك فى العصر الحديث ، هو مسألة الامتيازات التى منحها للأرثوذكسيين والكنيسة الأرثوذكسية ، فقد كانت هذه الامتيازات غير طبيعية بالنسبة لذلك العصر . غير أنه يجب النظر إلى هذا الموضوع فى ضوء ظروف تركية فى القرن (١٥) ، وليس القرن (١٩) ، والإنصاف يقتضى أن نتنظر من الديپلوماسى أن

ينظر إلى فترة معقولة من المستقبل ولا تنتظر منه أن يتحسب الظروف القادمة بعد قرون عديدة .

كان فاتح مضطرا في ذلك العهد إلى ربط العالم الأرثوذكسى به ، حتى لا يتحد العالم الأرثوذكسى مع العالم الكاثوليكي ، ويشكل تجاهه جبهة موحدة تكون خطرا على تركية بشكل كبير . كانت المسيحية منقسمة إلى قسمين : كاثوليك وأرثوذكس فقط ، إذ لم يكن المذهب البروتستانتي قد ظهر بعد ، وكان هم الكاثوليك في ذلك القرن يدور حول إفناء المسلمين . ولم يستهدف هذا الاتجاه - كما سيظهر بوضوح في الحروب الصليبية - أخذ القدس فحسب ، بل كان يتعدى ذلك إلى احتلال مكة ذاتها . أما الأرثوذكسية ، فقد اعتادت العيش مع الإسلام جنبا إلى جنب منذ عهد عمر (ر . ع) .

أيضا نجد أن فاتح قد انتهج سياسة أضرت بالكيان الوطنى بصورة كبيرة ، لقد كانت سياسة فاتح سحق الأرستقراطية التركية ، وتقديمه الدوشرمة (الذين يختارون وهم أطفال ، من العائلات المسيحية والإسلامية ، ويجرى تعليمهم لدى طائفة الانكشارية أو في سراى البادشاه) .

وبدأ فاتح بهذا العمل فور فتحه إستانبول بإبعاده أسرة جاندارلى عن السلطة واستمر فى تلك السياسة ، ورغم أنه تراجع فى سنواته الأخيرة وعين قره مانى محمد باشا فى السلطة فإن حزب الدوشرمة ، كان قد حصل على قوة كبيرة خلال ربع القرن ، واستمرت على هذا الحال مدة قرنين على أقل تقدير . لم تتكون فى تركية أرستقراطية تركية حقيقية كما فى أوروبا . فقد الأشراف الأتراك الذين سيطروا على الدولة حتى عهد فاتح ، نفوذهم . انفتحت أبواب كافة الوظائف (ومنها رئاسة الوزارة) إلى زمرة الدوشرمة عديمى النسب والتاريخ ، الذين تربوا فى السراى ويعرفون البادشاه فقط سيدا لهم ، فهم لا يستمدون قوتهم من عائلاتهم أو ثرواتهم أو ماضيهم ، وإنما يستمدونها بصورة مباشرة من البادشاه والسراى .

لاشك أن فاتح قد اتخذ هذه السياسة بغرض تقوية القوة المركزية للدولة ، ومن الواضح أن فاتح لم يكن يرتاح كثيراً ، إلى أمراء الأناضول التركان الاقطاعيين بسبب عدم اقترابهم من الاتحاد التركى ، وإفلاتهم منه على الدوام . ولأنه رجل عصر جديد ، فقد كان مقتنعا عند اعتلائه العرش بأنه لكى يتمكن من إنجاز أعمال على

نطاق عالمي ، فإنه يلزم أن تكون السلطة المركزية كبيرة ومطلقة ، وإنه لاسبيل إلى ذلك ، إلا بتطورها في شخص الخاقان ، ولا يمكن استمرار فاعلية عجلة الدولة إلا بذلك . وعكس ذلك ، فإن الدولة العثمانية ستكون مثلاً ، كإمبراطوريات المملوكية والتميمورية وتهدى إلى مصاف الدول الخادمة ، وتفقد كل قدرة لها على الحركة . لم يكن من شأن حاكم كفاح أن ينتهج سياسة خامدة وثابتة ، فمثل هذه السياسة ستكون معوقة لظهور وتكامل الدولة العثمانية .

كان السلطان محمد الفاتح مولوداً كأييه . شيخه : أمير عادل جلبى .

كان شاعراً ، إخصائياً في موضوع الأزهار والأحجار الكريمة ، ومهماً في صناعة الأقواس .

قابلته (مولدته) : إبه خاتون ، مربيته وأمه بالرضاعة: أم كلثوم هاند خاتون .
أساتذته في العسكرية الوزير صاريجه قاسم باشا (وفاته ١٤٦٠) ، داماد زاغانوس محمد باشا (وفاته ١٤٦٢) ، خضر جلبى (وفاته ١٤٥٩) ، خادم سليمان باشا (وفاته ١٤٩٣) .

Yorgios Amirutzes الطرابزونى ، أحد أساتذته المسيحيين الذى تلقى عنه اليونانية الكلاسيكية بصورة منتظمة (وفاته ١٤٧٥) . وأخذ عن Ciriaco Anconitato (١٣٩١ - ١٤٥٥) اللاتينية ، التاريخ القديم ، الجغرافيا ، علم الآثار ، الإيطالية . وأخذ عن Giovanni Mario Angielello (١٤٥١ - ١٥٢٥) التاريخ الإيطالى والأورنى .

ويمكن ذكر قصاب - زاده محمود بك ، نيشانجى إبراهيم باشا ، شهاب الدين شاهين باشا بين أساتذته الآخرين في العسكرية .

أشهر أساتذته في العلوم الأخرى هم : حسن جلبى (وفاته ١٤٨٦) ، ملا إياس ، جلبى - زاده إسبارطه لى قينالى عبد القادر أفندى ، خطيب - زاده محى الدين محمد أفندى ، شيخ الإسلام ملا خسرو ، نيشانجى ملا سراج الدين محمد باشا (وفاته ١٤٨٢) ، ملا خير الدين (وفاته ١٤٧٥) ، خواجه - زاده مصلح الدين مصطفى صالح أفندى (وفاته ١٤٨٨) ، ملا زيرك ، ابن تمجيد (وفاته

(١٤٥١) ، ملا أفضل - زاده حميد الدين ، شاعر العصر (١٥) العثماني الداهية الوزير بورصة لى أحمد باشا (وفاته ١٤٩٧) ، أماسيه لى ملا إلیاس فقيه ، شكر الله جلبى (فى التاريخ وعلم الموسيقى) ، الوزير الأعظم سنان باشا ، مرشده محمد آق شمس الدين (١٣٩٠ - ١٤٥٩) ، آخر رئيس فريق أساتذته فى فترة إمارته شيخ الإسلام ملا كورانى (١٤٠٨ - ١٤٨٨) ، كل محمده ده شيروانى (أستاذه فى التفسير) ، ولى الدين أفندى (وفاته ١٤٥٣) (أستاذه فى الموسيقى) .

٩ - بايزيد الثانى والسلطان جم (١٤٨١ - ١٤٩٥) .

تم إبلاغ خير الوفاة إلى أولو شهزاده بايزيد ، الذى كان واليا على لواء أماسيا ، على أثر وفاة فاتح ، ولحين قدوم بايزيد أعلن ابنه الثالث الموجود فى إستانبول الأمير قورقود نائباً للسلطنة لمدة (١٧) يوما . علم السلطان جم صغير أبناء فاتح الذى كان واليا على قونية ، بالخبر متأخرا . لم يتمكن من الهجىء إلى إستانبول ، لكنه لم يعترف بخاقانية أخيه الذى يكبره بـ (٩) سنوات وادعى السلطنة . تأجل إجراء مراسم تشييع جثمان فاتح حتى مجىء بايزيد الثانى ، وأجريت المراسم بعد وفاة الحاكم بـ (١٩) يوما فى (٢٢) أيار . اكتنف السلطان بايزيد بنفسه تابوت أبيه . صلى الشيخ وفاء أفندى صلاة الجنازة فى جامع فاتح مناديا « أركيشى نيته » (الصلاة لصلاة الميت) ودفن فى قبره المتواضع ، بجوار الجامع .

دعا الوزير الأعظم صارى إسحق باشا صهره الوزير الأعظم السابق كديك أحمد باشا ، إلى إستانبول بصورة مستعجلة . أخذ أحمد باشا الأسطول والقسم الأكبر من الجنود وغادر إيطاليا . حاصر الجيش الإيطالى قلعة أوترانتو . أخبر أمير لواء أوترانتو خير الدين باشا ، ملك نابولى Ferrante ، بأنه سترك القلعة إذا سمح له بركوب السفن والمغادرة دون تعرض . وافق الملك . إخذ الباشا جنده البالغ عددهم (٨٠٠٠) وخرج من القلعة (١٠/١٠/١٤٨١) . جاء إلى تركية . استمر حكم العثمانية الأول فى شبه جزيرة أوترانتو مدة (١٣) شهرا . لم يلتفت أى من السلاطين الذين تلوه إلى خطة فتح إيطاليا .

انكسر السلطان جم أمام أخيه الذى سار إليه بنفسه فى بنى شهر فى بورصة (١٤٨١/٦/٢٠) . لم يتمكن جم ، الذى أمر بتلاوة الخطبة باسمه وسك النقود باسمه

في بورصة، من المقاومة في قونية كذلك ، أكثر من ثلاثة أيام . جاء إلى أدة . استقبال رمضان أوغلو التابع للمماليك الشهزادة وقبل يده . ضيف الشهزادة (الأمير) الذى جاء إلى الشام مع (٣٠٠) شخص في سراى Ablah . انتقل منها إلى القاهرة (١٤٨١/٩/٢٦) . أرسل السلطان بايزيد ابنه الكبير أولو شهزاده داماد عبد الله ، بدلاً من أخيه إلى عرش قره مان في قونية .

استقبل السلطان قايتباى ، « جم » في القاهرة استقبالا جيدا وحضنه . رحب الشعب من صميم قلبه بابن فاتح البيزنط . بقى « جم » ضيفا على القاهرة عدة أشهر ، ذهب خلالها إلى الحج . الأمير « جم » هو الشخص الوحيد من بنى عثمان ، الذى حج طوال (٨) قرون (هناك من حج من السلطانات أى الأميرات العثمانيات) . ومع أن ذلك غريب بالنسبة لسلالة حملة الخلافة أكثر من ٤ قرون ، لكن هذه هي الحقيقة التاريخية .

خرج « جم » من القاهرة (١٤٨٢/٣/٢٦) ، وذهب إلى حلب (٦ آيار) ، أدنه (١٤ آيار) ومنها أجتاز الحدود المملوكية - العثمانية ودخل تركيا، وكان قد رفض عرض أخيه الكبير بايزيد الثانى بأن يعطيه مليون آقجه كمخصصات سنوية حالة تركه ادعاء السلطة وإقامته فى بلد مملوكى معقول كالقدس . كالقدس .

استقبل « جم » الذى جاء إلى الأناضول بعد أخذه (٦٥٠٠٠) ليرة ذهبية من السلطان قايتباى خاله قره مان أوغلو سلطان - زاده قاسم بك . توجه « جم » إلى قونية (٢٧ آيار) ، ومنها إلى أنقرة . ولم تقبله المدينتان . أراد الشهزاده الذى خاب أمله ، العودة إلى مصر ، فعبر إلى رودس بالسفينة (٢٩ تموز) ، وكان الأستاذ الأعظم Pierre d'Aubusson (كان فرنسيا) قد أقسم على إيصال الأمير إلى مصر . لكنه لم يف بقسمه ، وأخرج الشهزاده ومعيته الذين مكثوا (٣٤) يوما في رودس إلى البر في نيس بعد سفرة بحرية دامت (٤٦) يوما . وهكذا بدأت إقامة « جم » في فرنسا التى سوف تستمر « ٦ » سنوات و « ٤ » أشهر . نقل من قلعة إلى أخرى من قلاع الفرسان . تعهد بايزيد الثانى في اتفاق (٧ ك ١٤٨٢/١) ، بدفع ٤٥٠٠٠ ليرة ذهب في ١ آب) من كل سنة إلى الأستاذ الأعظم لقاء نفقات العناية بأخيه . وعد السلطان قايتباى بـ (١) بمليون ليرة ذهب لإرسال « جم » إلى مصر . لم

تم الموافقة . أخذت (٤) دول كبيرة هي : فرنسا ، الجرج ، البندقية ومصر في الضغط على الفرسان لتسليم الأمير إليهم ، وبعد مفاوضات طويلة قرر الفرسان أنهم لا يملكون القدرة على الاحتفاظ بالأمير لديهم ، ووافقوا على تسليمه إلى البابا ، بموجب الاتفاقية المحررة في (٥ ت ١٤٨٨/١) .

جاء بالأمير إلى ليون في (١٨ ت ١) ، وبعد أن استضيف فيها مدة (٤٧) يوماً ، نقل إلى طولون في شباط (١٤٨٩) ، ثم سيق منها بالسفينة إلى إيطاليا . دخل روما (١٤٨٩/٣/١٤) . وبذلك بدأت مرحلة النفى الثانية في إيطاليا .

خلال هذه السنين ، حقق بايزيد الثانى حملته الهمايونية الأولى على الجرج Morava (١٤٨٣) ، ثم قام بحملة بغداد (١٤٨٤) . غادر استانبول في (١٨٨٤/٥/١) بعد أن استجم فيها بعد حملته الأولى مدة (٥/٥) أشهر . جرت حملة بايزيد الثانى على بغداد (مولدافيا) بعد (٨) سنوات من حملة أبيه عليها . وطبعاً جرى ذلك لتتبع الإمارة الرومانية بروابط أمتن . فتحت Kilye (١٥ تموز) و Akkerman (٩ آب) .

كانت القلعة الثانية، أى (Akkerman = Cetacea Alba) الواقعة على الشرم الذى يصب فيه دنيستر فى البحر الأسود ، قلعة مهمة . اشترك خان قرم منكلى كيراي فى الحصار مع (٧٠,٠٠٠) خيال . كان العثمانيون قد حاصروا أكرمان (٣) مرات فى (١٤١٩ ، ١٤٥٤ ، ١٤٧٤) ولم يتمكنوا من أخذها . أرسل سلطان فاس سفيرا خاصا وهناً بايزيد الثانى . جردت إمارة بغداد من البحر الأسود ، ولم يترك لها ساحل على هذا البحر . وانتقل القسم الساحلى إلى الحكم العثمانى المباشر . كما ألحقت به الأراضى المنحصرة بين Dnyestr , Prut .

أصبح البحر الأسود بحيرة تركية بصورة تامة .

بقى بايزيد الثانى شتاءين متعاقبين فى أدرنة ولم يعد إلى استانبول إلا بعد سنتين فى (١٤٨٦) .

بدأت الحملة الهمايونية (٣) بمجىء البادشاه إلى صوفيا أولاً . لكن البادشاه، الذى ولى سليمان باشا حملة المنجر التى هدفها بلغراد ذهب إلى ألبانيا ، عاد إلى استانبول بعد (٥ / ٩) شهور فى الأيام الأخيرة من سنة (١٤٩٢) . أما

سليمان باشا ، فقد حاصر بلغراد (وهى المحاصرة العثمانية ٣) . لكنه لم يتمكن من أخذها .

دخل أمر لواء (والى) بوسنه قائد الصاعقة الشاعر يعقوب باشا ، إلى سلوفينيا ومن ثم إلى ستيريا Stirya مع (٨٠٠٠) من المغاوير ، إلى شبه الجزيرة التى تقع عليها تريسته . وأثناء عودته قطع الجيش عليه الطريق فى Adbina (بالتركية ، كاراتوفا) فى خرواتيا . قتل يعقوب باشا (٥٧٠٠) من جنود العدو وأسر (٢٥٠٠٠) منهم (١٤٩٣/٩/٩) . سجل انتصاره هذا بقصيدة منظومة .

مكث السلطان « جم » ٦ سنوات فى إيطاليا (١٤٨٩/٣/١٣ - ١٤٩٥/٢/٢٥) . استقبل فى روما بمراسم فوق العادة . تقابل مرات عديدة مع البابا Innocentius (٨) ، وبعدها مع خلفه Alessandro (٦) . خصص سراى سان آنجيلو لاقامته . وعند دخول ملك فرنسا جارلس (٨) إلى إيطاليا ، لم يتمكن البابا من مقاومة ضغوطه وسلمه « جم » . مرض الأمير أثناء ذهابه من روما إلى نابولى بصحبة الملك وتوفى فى نابولى (١٤٩٥/٢/٢٥) وعمره يتجاوز الـ (٣٥) سنة بـ (٣) أشهر ، (٣) أيام . والمعتقد بصورة أكيدة أن البابا قد دس له السم أثناء تسليمه إلى ملك فرنسا . ويحتمل كذلك أن بايزيد الثانى قد دفع رشوة للبابا لهذا الغرض . أعلن الحداد فى تركيا لمدة (٣) أيام بأمر السلطان بايزيد وأقيمت صلاة الميت للغائب، ووزعت الصدقات على الفقراء . لقد أصبح جثمان « جم » مسألة دولية . نقل النعش إلى تركية بعد مكوثه فى حديقة ملك نابولى مدة (٤) سنوات . أرسل إلى بورصة ودفن . سدد بايزيد الثانى للفرسان والبابا معا مبلغ (٦٠٠,٠٠٠) ليرة ذهبية لقاء العناية بأخيه .

لقد ترتب على بقاء السلطان « جم » فى أوربا مدة (١٢) سنة ، ٤ أشهر ، ٢٩ يوماً) تأثيرات مهمة فى الحياة الاجتماعية الفنية الأوربية ، فقد أجبر بايزيد الثانى خلال هذه المدة على الالتزام بسياسة محايدة تجاه أوربا . لم يتمكن البادشاه الذى اعتاد على سياسة كهذه ، من تغيير سياسته إلى سياسة أكثر فاعلية حتى بعد وفاة أخيه .

خلف « جم » - ذو الدواوين الشعرية باللغة التركية والفارسية - (٣) أبناء وابنتين . تزوجت ابنته جوهر - ملك سلطان ، بالسلطان قايتباى فى القاهرة فى

(١٤٩٥) . لكن السلطان المملوكى توفى بعد ٣ سنوات . جاءت جوهر - ملك سلطان إلى إستانبول وتزوجت مرة أخرى ، وابنتها خاتم - سلطان التى ولدت من هذه الزيجة ، كانت لا تزال حية فى (١٥٦٨) . توفى ابنا « جم » وهما طفلان ، وعاش ابنه الآخر الشهزاده مراد (١٤٧٥ - ١٥٢٢) فى القاهرة ورودس . وعند فتح الأتراك لرودس فى (١٥٢٢/١٢/٢٧) ، أعدم مع ابنه الشهزاده « جم » وأرسلت ابنتاه مع أمهما إلى إستانبول وأسكنوا فيها . طلب بايزيد الثانى من السلطان قايتباى ، أثناء وجود « جم » فى أوروبا ، لإرسال والدته « جم جيجك خاتون » الموجودة فى القاهرة مع ابنتى « جم » إلى إستانبول . ولما لم يستجب هذا الطلب ، أضرمت نار أول حرب عثمانية - مملوكية وهى الحرب التى يمكن النظر إليها على أنها حصاد توتر طويل الأمد .

(١٠) الحرب العثمانية - المملوكية (١٤٨٥ - ١٤٩١)

كانت تركيا ومصر فى ذلك التاريخ ، دولتى العالم الأولى والثانية . منذ قرن كامل ، لم تتحاربا أبدا مع أنهما جارتان . كانت السلطنة المملوكية من الدول النادرة التى لم تحاربها العثمانية . توترت العلاقات فى السنين الأخيرة . قدمت شكاوى عديدة حول سلب البدو للحجاج الأتراك فى الطريق ، وطلبت تركيا إذنا لإرسال جنود للمحافظة على الأمن فى طريق الحج فى الدولة المملوكية . أصر المماليك الذين غضبوا لذلك . المجوهرات التى أرسلها سلطان الهند الجنوبية البهمنى محمود شاه ، إلى السلطان بايزيد ، مدة طويلة فى مصر ثم أرسلوها إلى إستانبول .

بدأت الحرب بصورة فعلية على أثر إسقاط قرة كوز محمد باشا تحكيمات المماليك فى بوغاز كلك ، ودخوله جوقور أوبا (أيار ١٤٨٥) . كان قد مضى (٤) سنوات على وفاة فاتح .

من المهم أن نذكر هنا أن الإمبراطوريتين حاولتا جهديهما حصر الحرب فى نطاق محلى ، وعدم تصعيدها أو تحويلها إلى حرب شاملة .

ولم تطأ أقدام الحاكمين ساحة الحرب أبدا ، وكان قصد العثمانية - إن أمكن -

حيازة إمارة رمضان أى جوقورأوفا ، وقصد الممالك - إن أمكن - حيازة دلقادر ، أى منطقة ماراش ، ومن ثم عدم التقدم أية خطوة بعد ذلك .

احتل قرة كوز باشا طرسوس ونزل إلى البحر الأبيض . جاء رمضان أوغلو محمود بك إلى استانبول وعرض تبعيته للعثمانية وخروجه من تبعية الممالك .

رد الممالك على ذلك بدخولهم إلى دلقادر . كان دلقادر أوغلو علاء الدولة بورقورد بك أباً لزوجة بايزيد الثانى وأباً كذلك لوالدة الأمير (شهزاده) ياوزسليم . أخرج أمير لواء (والى سنجق بك) قيصرى يعقوب بك الممالك من دلقادر ، وجاء أمام القلعة المملوكية ملاطية . أباد القائد العام المملوكى أوزبك بك فى هذا الموقع ، يعقوب بك مع وحدته ، ثم دخل جوقورأوفا ، وأخرج العثمانيين منها ورمى بهم إلى الطرف الآخر من طوروس . مات كل من أمير لواء طرسوس داماد فرهاد بك وأمير لواء أذنة موسى بك أثناء دفاعهم عن جوقورأوفا .

وفى ك (١٤٨٦/٢) ، نزل أمير لواء (أمير الأمراء ، والى) أناضولى هرسك - زاده أحمد باشا إلى جوقورأوفا ، وانتصر عليه أوزبك بك وأسره ، وسبق إلى القاهرة .

وافق قايتباى على مقابلة داماد أحمد باشا الذى صار وزيراً أعظم بعد ذلك ، وطلب إليه أن يبلغ البادشاه بأن هذه الحرب لاطائل وراءها ، وأنه على استعداد لعقد صلح تقرر فيه الأطراف بمحدود ما قبل الحرب ، وأنه يبلغه أيضاً أنهم لا يرغبون فى الحرب مع العثمانية التى تجاهد بصورة مستمرة ضد المسيحيين ، وأن هذا لا يليق بهم ، كما طلب منه كذلك أن يبلغ البادشاه أنه لا ينوى ترك أراضى للعثمانية ، وخلق سبيله . جاء أحمد باشا إلى استانبول وسرد ذلك ، لكن الديوان العثمانى لم يكن قد اعتاد إنهاء حرب لم تتكامل بالنجاح .

احتل العثمانيون طرسوس مرة أخرى فى (١٤٨٧ . وفى صيف ١٤٨٨) ، احتل الوزير (وزير أعظم فى المستقبل) على باشا مع (٣) بدرجة فريق أول (بكربك) كامل جوقورأوفا وبضمنها أذنة .

لحق الأمير أوزبك رجل الحرب الكبير ، وهزم على باشا (١٦/٨/١٤٨٨) .

استسلمت أذنة للممالك بعد أن قاومت (٧) أشهر (٢/٤/١٤٨٩) .

وفي ١٤٩٠ ، حاصر أوزبك بك الذى انتصر على على باشا فى حرب آغا جايرى الميدانية ، قلعة قيصرى ، وأسر هرسك - زاده أحمد باشا ، الذى جاء للدفاع عن قيصرى للمرة الثانية . وسبق إلى القاهرة كذلك .

وفي هذه المرة ، عامل السلطان قايتباى ، صهر بايزيد الثانى أحمد باشا ببرود . لكنه تأثر عندما علم أن السلطان بايزيد سيخرج بمحملة . حيث لم يكن يرغب فى أن تتطور الأمور إلى حرب شاملة .

كان يعلم أن تيمور فقط هو الذى تمكن من الانتصار على العثمانية فى حرب شاملة فى تاريخ العثمانية بأجمعه ، وليس هناك مثال آخر .

اتصل بسلطان تونس الحفصى بحمى الثالث . وطلب إليه أن يتوسط لتأمين الوثام بينه وبين السلطان بايزيد ، والحيلولة دون إراقة دماء المسلمين .

وافق السلطان بايزيد على تدخل السلطان بحمى ووساطته ، واقترح السلطان بحمى الصلح على أساس ترك الوضع على حاله (Statu quo) . وافق الطرفان .

ثبتت الحدود كما كانت عليه قبل بداية الحرب ، فعادت إمارة رمضان أوغلو إلى تبعيتها للممالك ، وإمارة دلقادر إلى العثمانية . زوج السلطان بايزيد جوهر ملك سلطان ابنة أخيه جم . بالسلطان قايتباى وحاول إزالة البرود الكائن بينهما ، واستمر بعد ذلك متعقبا سياسة مساندة الدولة المملوكية بإخلاص كما سيظهر فيما بعد .

إن الحرب التى مرت بتفوق المملوكية على الأكثر ، وجهت أنظار العثمانية إلى جوقور أوبا التى احتلتها عدة مرات . إن سياسة الدولة العالمية التى اتبعتها العثمانية ، أظهرت لزوم توسعها فى الأناضول وهبوطها إلى العالم العربى .

(١١) الدولة العثمانية والأندلس :

فى هذا التاريخ كان قد تبقى فى أسبانيا العربية المسلمة ، فى الأندلس ، دولة إسلامية واحدة ، هى دولة النصريين أو بنى الأحمر . كانوا يحكمون منذ (١٢٣٢) ومدينة عرشهم غرناطة (بالأسبانية : Granada) ، لكنهم كانوا فى القرن (١٥)

قد أزيحوا ودفعوا إلى حدود ضيقة جدا . ومع ذلك ، فإنه من الممكن القول بأن تعداد تلك الدولة يصل إلى مليوني نسمة ، ومثل هذا العدد يعتبر بالنسبة لذلك العصر عددا كبيرا . أما العاصمة، غرناطة ، فقد كانت أكبر المدن كثافة في التعداد في كامل القارة الأوربية ، فقد كان تعدادها يبلغ (٥٠٠,٠٠٠) نسمة، فاقت استانبول غرناطة في تعداد سكانها في السنوات الأخيرة للعصر .

يتكون شعبها من البزبر والأسبان (Wisigoth) الذين أسلموا ويتكلمون اللغة العربية ، وكذلك العرب الخلف . كان للدولة كذلك رعايا كثيرون من المسيحيين (الكاثوليك) والموسويين .

وفي (١٤٨٢) ، اضطرت ملكية الأندلس ، أن تدخل تحت سيادة ملكية كاستيليا ومركزها طليطلة (Toledo) . فقد كانت متفوقة من حيث الحضارة والثقافة والصناعة ، ولكنها تتأخرة جدا من الناحية العسكرية .

دفعت ملكية كاستيليا الأندلس السنية - المالكية نحو الجنوب بصورة مستمرة وقلصت حدودها .

كانت كاستيليا دولة ذات جيش قوى . أما ملكية آراغون الكاثوليكية المتعصبة بنفس الدرجة ، والتي تأسست في الإيالات الشمالية - الشرقية من أسبانيا ، فقد كانت دولة بحرية مهمة في البحر الأبيض . لغة هذه الدولة هي القتلونية (حاليا كذلك) ، أما كاستيليا ، فقد كانت تتكلم الأسبانية، وهي لغة لاتينية تختلف عنها تمام الاختلاف .

أخذ الأسبانيون من العرب موأىء: جبل طارق (١٤٦٢/٨/٢٠) ، روندو (١٤٨٥/٥/٢٠) ، ألمرية (بالأسبانية : Almeria) ، مالقة (بالأسبانية : Malaga) ، مدينة ولزمالقة Velez Malaga (أخذت جميعها في ١٤٨٧) . انخضت دولة الأندلس إلى درك دول البحر الأبيض التي لأهمية لها ، وأصبحت مقصورة على غرناطة وأطرافها . لكن مع ذلك فإن مستوى شعب هذه الدولة البائسة ، كان مايزال هو الأول في العالم أجمع .

أشرف الحكم الإسلامى الذى كان مستمرا فى شبه جزيرة إيبيريا منذ (٧١١) سنة ، على الانتهاء . ومنذ ذلك الحين كان للملكيتى كاستيليا وآراغون ملايين من

الرعايا المسلمين ، الذين كانوا يحاولون الإبقاء على كيانهم في جو من الضغط والشدة لم يشهده التاريخ لإجبارهم على اعتناق الكاثوليكية .

كانوا يثورون بين الحين والآخر ، وكانت تسفر ثوراتهم عن مزيد من الشدة في سحقهم . . .

كان هدف ملكية كاستيليا، بوجه خاص ، اقتلاع الحكم الإسلامى بكامله من Reconquista أى شبه جزيرة إيبيريا ، ثم أضيف إلى هذا الهدف ، سياسة عدم الإبقاء على أى شخص ينتسب إلى الدين الإسلامى . كان الموسويون معرضين إلى ذات المعاملة التى تطبق على المسلمين .

من الذى سيقوم بإنقاذ هذه الجماعة الإسلامية البائسة التى كانت أستاذًا معلمًا ومربيًا لأوروبا في كافة المجالات الحضارية ؟ لاشك في أن هذه المهمة تقع على عاتق سلطنة فاس التى تعتبر من الدول الكبرى ، والتى حكمت في البداية في الأندلس كما تقع كذلك على بنى مرين .

كانت تركية ومصر في الجانب الآخر من البحر الأبيض ، وأساسا فإنه لم يكن لمصر القوة البحرية التى تمكنها من القيام بهذا العمل . أما السلطنة الحفصية في تونس فإنها كانت في حالة تدهور .

إن اتحاد ملكيتي كاستيليا وآراغون بصورة فعلية في (١٤٦٩) ، وتشكيلهما أسبانيا موحدة ، سبب زيادة مصائب الأندلس .

تزوجت ملكة كاستيليا إيزابيلا Isabella بملك آراغون Fernando el Catolico ، وكانت هذه الزيجة التى استمرت (٣٥) سنة لغاية وفاة إيزابيلا وعمرها (٥٣) سنة ، ثمرة للغاية بالنسبة لأسبانيا . وأضحت أسبانيا أقوى دولة في أوروبا والعالم المسيحى .

اعتلى فرناندو الذى يصغر زوجته سنة واحدة ، عرش أبيه في (١٤٧٩) ، أما إيزابيلا فإنها اعتلت عرش أبيها في (١٤٧٤) . وبناء على ذلك فإن الوحدة في (١٤٧٩) ، تأسست بشكل متين . ولم تفصل بعدها أبدا .

كانت ملكية صقلية تعود أساسا إلى آراغون ، وانتقلت ملكية نابولي إلى أسبانيا .

إن أسبانيا التى سيطرت بهذه الصورة على جنوب إيطاليا أيضا ، أصبحت دولة مقتدرة فى منتصف البحر الأبيض ، كما كانت فى غربه . وبدأت بتهديد كل الأطراف .

ولد سقوط مالقة المدينة العربية المسلمة منذ (٧٧٦) سنة ، التأثير والهيّاج فى العالم الإسلامى بأسره (١٤٩٨/٨/١٨) .

قرر الأسبانيون الذين أرادوا فى هذه الحملة أخذ غرناطة كذلك ، الانتظار مدة من الزمن . كانوا يخشون تدخل تركية ومصر .

كانت تركية ومصر فى هذه الأيام فى حالة حرب . وعندما عقدت الهدنة لفترة بين الدولتين ، اضطرت أسبانيا .

طلب ملك غرناطة أبو عبدالله محمد (١١) مساعدة استانبول وكذلك القاهرة بصورة رسمية . وقد كانت خشية الأسبان لمصر أكثر وأشد ؛ لأنهم لم يسمّعوا بعلاقة تركية بغرب البحر الأبيض وبالمغرب .

أرسل السلطان قايتباى راهب دير فرانسيسكن الكاثوليكي فى القدس كسفير إلى توليدو وأبلغهم بأنهم إن لم يرفعوا يدهم عن غرناطة ، فانه سيقّتل كافة المسيحيين الموجودين فى كنيسة قمامه فى القدس ، وأنه سيغلق فلسطين فى وجه كافة الحجاج المسيحيين .

لم تعر أسبانيا أية أهمية لهذا التهديد ؛ لأنها لم تكن قد سمعت أبدا بأن دولة إسلامية أضرت برعاياها المسيحيين المطيعين . حيث إن الماليك ، لم يمّسوا المسيحيين فى فلسطين بسوء ، ولم يمنّعوا الحجاج المسيحيين .

عرض السفراء الذين أرسلهم أبو عبد الله محمد (١١) الذى يسميه الأوربيون « بو عبد ال Boabdil » (بكسر الدال وتفخيم الواو) ، وعرب المغرب « بو عبد ال Bū Abdel » (بفتح الدال) ، على بايزيد الثانى الوضع الأليم المذكور أعلاه . قرر الديوان الهمايوى إرسال أسطول إلى غرب البحر الأبيض . وهكذا تحققت الحملة الأولى لكمال رئيس (١٤٨٧) ، وللمرة الأولى وطئت أقدام الأتراك غرب البحر الأبيض .

وهكذا دخلت تركيا الحرب تجاه (٤) ملكيات (كاستيليا ، آراغون ، نابولي ، صقلية) وباختصار تجاه إسبانيا . (سوف تستمر هذه الحرب قرونا طويلة دون عقد صلح) .

قصف قرّة مانلى كمال رئيس بالتسلسل جربة ، مالطة ، صقلية ، ساردونية ، كورسيكا ، جزر بالير وسواحل إيطاليا الجنوبية ودخل المياه الأسبانية . وقصف كافة موانئ آراغون (كاتالونيا) . واستولى بصورة فعلية على ميناء مالقة الذى أخذه الأسبان من العرب قبل عدة أشهر وأحرقه أثناء انسحابه .

عاد من مضيق جبل طارق وصعد نحو الشمال الشرقى إلى السواحل الفرنسية، ثم عاد فقصف الموانئ الأسبانية فى البحر الأبيض مرة أخرى . وعبر إلى بحر Tiren عن طريق مضيق Bonafacio الذى يفصل جزيرتي كورسيكا وساردونيا عن بعضهما . مر على بعض موانئ سلطان تونس الحفصى ، الذى قدم تسهيلات إلى الأسبان ، ورفع الراية فيها ثم عاد .

لكن هذا الاستعراض ، لم يثن عزم الحكام الكاثوليك . انتهى الحكم الإسلامى الذى دام فى أسبانيا - البرتغال (٧٨١) سنة باستسلام غرناطة (١٤٩٢/١/٢) . هرب محمد (١١) إلى فاس . أحرق بأمر أحد الكرادلة السفلة أكثر من (٥٠٠,٠٠٠) من الكتب المخطوطة فى ميدان غرناطة الكبير ، وكان هذا العدد من الكتب يفوق كافة الكتب الموجودة فى مكتبات أوروبا بكاملها ، وهى مؤلفات جمعت من جميع أنحاء العالم خلال (٨) قرون .

لم تكن فى هذا التاريخ فى أوروبا كلها مكتبة واحدة تمكنت من جمع (١٠,٠٠٠) مجلد .

فور سقوط غرناطة ، انتشر (٣٠٠,٠٠٠) عربى على سواحل أسبانيا . حالت مدافع الأسطول التركى دون إفناء هؤلاء وتم نقلهم إلى فاس والجزائر . مئات الألوف منهم ، أحرقوا بالنار بصورة جماعية . وضع اليد على كيان المسلمين كاملا . لكن عدة ملايين من المسلمين ، أصبحوا مشكلة أسبانيا الكبرى لمدة قرن ونصف . يكتب نامق كمال مايلى : « عندما أخذ الأسبان غرناطة أحرقوا الشعب بالنار لإجبارهم

على تبادل دينهم . وعندما أخذنا نحن استانبول ، منحنا الحرية الكاملة لسالك كل مذهب في ممارسة شعائره الخاصة .

بينما كانت غرناطة قد استسلمت شرط عدم المساس بأموال وأنفس وكافة الحريات الدينية للعرب . كانت أسبانيا في ذلك التاريخ تضم نحو (٣) ملايين من العرب المسلمين و (٣٠٠,٠٠٠) موسى . وفي (١٤٩٢) ، أصدرت أسبانيا أمراً ملكياً إلى الموسويين بترك أسبانيا دون استصحابهم أية حاجة ثمينة ، في حالة عدم قبولهم الكاثوليكية ، خلال فترة (٤) أشهر .

وفي (١٤٩٧) ، أعلن ملك البرتغال منشورا بنفس المحتوى . لكن البرتغال أعلنت أن اليهود الذين يتركون البلاد لا يمكنهم استصحاب أولادهم (بناتهم وأبنائهم) الذين تقل أعمارهم عن (١٤) ، سنة وأن هؤلاء سيظلون في البرتغال لتنشئتهم على المذهب الكاثوليكي .

قبلت تركيا يهود البرتغال والأسبان وأسكنتهم أماكن عديدة على رأسها استانبول ، وهذا هو منشأ يهود استانبول الذين ينطقون الأسبانية ، وكان هناك من قدم من العرب كذلك إلى استانبول وسكنوها، لكنهم على الأكثر كانوا يذهبون إلى فاس والجزائر لقرب المسافة .

أغضب هذا الظلم التعسفي الأتراك ، فقررت الدولة العثمانية التدخل في المغرب . وسوف نتناول سياسة العثمانية بشأن التدخل في المغرب في المبحث المخصص لذلك .

لقد تصادف أن يقع في عام واحد سقوط غرناطة واكتشاف الجنوى كريستوفر كولمبس لأمریکا ، فقد اكتشف كولمبس القارة الجديدة باسم أسبانيا وبدأت تتكون فيها مستعمرات أسبانية (مغادرة كولمبس ١٤٩٢/٨/٣ ، وصوله إلى جزائر بهاما ١٤٩٢/١٠/١٢) .

اقتحم الأسبان أفريقيا السوداء كذلك . إن تاريخ ذهاب أول قافلتين للزنج الذين ساقوهم إلى أمريكا لتشغيلهم بعد اصطيادهم من سواحل غينيا ، هو (١٥٠١) و (١٥٠٥) . وسوف لا ينقطع بعد ذلك سوق هذه القوافل من أفريقيا إلى أمريكا .

وهكذا تكونت إلى يومنا هذا أقلية زنجية قوية في أمريكا التي لم تكن تحتوى على زنجى واحد .

سار كمال رئيس بحملات عديدة على غرب البحر الأبيض . قصف أسبانيا ، نهبا . نقل المهاجرين إلى شمال أفريقيا . إن حملته الأخيرة في (١٥١٠) ، جرت بعد (٢٣) سنة من أولاهن . ذهب إلى فاس وقابل ابن محمد (١١) آخر ولى عهد للأندلس . كان يرافقه ابن أخيه محبى الدين بيرى رئيس الذى كان عمره (٢٠) سنة ، وهو أعظم راسم للخرائط الجغرافية وجغرافى بحار فى القرن (١٦) . كان أحمد كمال الدين بك المعروف بـ « كمال رئيس » لواء بحريا ، وهو ابن قره مانلى على ، هو مؤسس المدرسة البحرية العثمانية العالمية . مات أثناء غرق سفينته عند عودته من حملة أسبانيا بالقرب من قاعدته غاليبولى (١٥١١/١/١٦) .

كتب المؤرخ الفرنسى Michelet ، أن الاسبان أفنوا فى غضون الـ (١٠) سنوات الأولى بعد سقوط غرناطة (١,٠٠٠,٠٠٠) مسلم بطرق شتى كحرقهم بالنار ، وإجاعتهم وإغراق سفنهم فى البحر وقتلهم (Renaissance ١٣٥ - ٧) .

(١٢) فترة السلطنة الثانية لبازيد الثانى (١٤٩٥ - ١٥١٢)

أدى تحرش بولونيا فى بداية (١٤٩٨) ببغدان (مولدافيا) التابعة للدولة العثمانية إلى نشوب حرب مع هذه الدولة . كلف قائد الصباقة المعروف ، أمير لواء سلستره مالقوج أوغلو بالى بك (باشا فى المستقبل) بإدارة الحرب . سار بالى بك إلى بولونيا بحملتين كبيرتين فى ربيع وخريف سنة (١٤٩٨) . اشترك فى هاتين الحملتين (٤٠,٠٠٠) من الصباقة .

انهزم ملك بولونيا ، فى حرب Bukovina الميدانية وفر تاركا حمولة (٢٠,٠٠٠) عربية من مهمات جيشه .

دخل بالى بك أهم المدن البولونية مثل Lwow , Jaroslaw , Radom , Lublin وارشو، وحرقها . وصعد إلى الشمال حتى خط عرض (٥٣) . ووقف على مسافة (٢٢٠) كم عن بحر البلطيق .

كررت هذه الحملة في الخريف بعد (٣) أشهر . خربت المنطقة التي ينبع منها نهرى دنيستر وسان .

أعلنت كل من المجر والبندقية الحرب على تركيا خشية اندحار بولونيا - ليتوانيا في حملة جديدة ، وذلك على أثر الحركات الشديدة التي جرت لحمل بولونيا على الابتعاد كلية عن التدخل في شئون بغداد ، وبالتالي في شئون البحر الأسود .

اجتاز إسكندر باشا (الذى غزا دالماسيا قبل ١٤٩٩) أنهار ، Tagliamento Isonzo (بالتركية : آقسو) و Piave ودخل سهل البندقية . ترك مدينة البندقية وراءه واجتاز نهر Brenta حرق مدينتي Vicenza و Padova . وعاد من نهر Adige قرب Verona . وبهذه الصورة تقدم نحو الغرب حتى خط طول (١١) . كان قوام هذه الحملة الشهيرة (٢٠,٠٠٠) من جنود الصاعقة . أحرقت الحملة ١٣٠ مدينة وقصبة ، ولم تتمكن البندقية من صيانة وطنها الأصلي لانشغال القوات البندقية الكبرى في الحروب في مورا . دخلت قوات الصاعقة في فترة جمود لمدة ربع قرن ، بعد سنة (١٥٠٠) .

لا توجد غارات كبيرة خلال هذه الفترة ، فقد انشغلت تركيا بالشرق وهى بشكل عام في حالة صلح مع أوروبا ، وسوف تبدأ الغارات مجددا على أوروبا على نطاق واسع في عهد السلطان سليمان القانوني .

بذلك دخلت العثمانية البحر مجددا مع (٣) دول كبرى هى : البندقية والمجر وبولونيا ، والدول الصغيرة ، التي تساندها البابوية ، كرووس وأمثالها . كانت حالة الحرب مستمرة أساساً مع أسبانيا بسبب قضية الأندلس ؛ ولم تكن هناك مشكلة في الشرق بسبب اطمئنانها من ناحية الممالك وأقويونلو وإيران . دخلت ألمانيا كذلك الحرب ضد تركيا . تضعضعت ألمانيا بسبب انفصال الاتحاد السويسرى في ١٤٩٩ عن الإمبراطورية الألمانية وتشكيلها دولة مستقلة تماما .

قام بايزيد الثانى بحملتى الهمايونية (١٤٩٩ ، ١٥٠٠) على البندقية واليونان وجنوب مورا . أصبحت رودس عاجزة - لمدة من الزمن - عن مساعدة البندقية بسبب إبادة أسطول رودس مع أميرالاته وسفينته الأميرالية على يد كمال رئيس .

سار البادشاه من استانبول في (٣١ آيار ١٤٩٩) ، وأرسل قسماً من الأسطول الهمايوني إلى قبرص فاضطرت البندقية إلى أن ترسل قوات كبيرة إلى قبرص ، خوفاً من عملية إنزال تركية .

أسر والى كورفو Andrea Lorenado وقتل لسوء معاملته للأسرى الأتراك .

جاء البادشاه إلى Lepanto (بالتركية : إينه بختي) وهي قلعة بندقية مهمة تقع على الساحل الشمالي من خليج كورينثوس .

وخلال هذه الأيام ، كان الأسطول البندقى المكون من (٢٠٠) قطعة بقيادة الأميرال أنطونيو كرىمالدى على مسافة من مياه جزيرة ساينزا Sapienza الصغيرة في الناحية الغربية من مياه رأس (Galto (Messenya الواقع في رأس مورا الجنوى - الغربى .

التقى الأسطول الهمايوني بقيادة كمال رئيس ، بالأسطول البندقى في هذا الموقع . كان قائد جناح اليمين الأميرال Barak (براق) رئيس الذى سبق أن أرسله البادشاه إلى فرنسا في مهمة دبلوماسية . دخل العدو على العمق في الجناح الأيمن للأسطول التركى ، وحاول إنزال راية الرئيس براق . كانت جميع السفن قد اقتربت من بعضها .

فجر براق رئيس خزان البارود في سفينته وحرق نفسه مع قسم كبير من الأسطول البندقى واستشهد ، ومات معه فى سفينته ربان السفينة قره حسن رئيس (٥٠٠) من جنود البحرية وكثيرون من الجدافة (الأسرى المسيحيين) . كان بين الذين ماتوا نتيجة الانفجار ، الأميرالان البنديقيان Loredano وArmenio .

ولهذا لم يقترب كمال رئيس ، وأخذ يقصف قطعات الأسطول البندقى الأخرى ، وكان كمال رئيس قد وضع فى السفن التركية — ولأول مرة فى تاريخ البحرية العالمية — مدافع ذات مدى بعيد ، بحيث تتمكن من إصابة سفن العدو من مسافة معينة ، بينما تسقط طلقات العدو خارج مجال مرمى السفن التركية ولا تصيبها .

أدار الأسطول البندقى دفته نحو الشمال وهو فى حالة يرثى لها .

تقابلت فى هذه الحرب (٤٠٠) سفينة ، وعشرات الألوف من رجال البحرية

وجها لوجه ، وهى أول حرب بحرية مفتوحة كبرى ، انتصر فيها الأتراك (١٤٩٩/٧/٢٨) . سُمى الأتراك جزيرة Sapienza ، جزيرة براق رئيس .

سقطت Lepanto (١٤٩٩/٨/٣٠) بعد (٣٣) يوما من انتصار Sapienza البحرى . أما البنادقة فقد احتلوا جزيرة كفالونيا التى كانت لدى الأتراك منذ (٢٠) سنة (١٤٧٩ - ١٤٩٩) ، حاولوا أخذ Preveze ، لكنهم شتوا .

سار بايزيد الثانى من أدرنة بعد أن قضى الشتاء فيها ، يوم (٧ نيسان ١٥٠٠) وجاء مع الأسطول إلى قلعة Modon البندقية فى جنوب مورا ، وخلال الفترة من (١٠ - ١٦) آب (١٥٠٠) ، استسلمت القواعد البحرية والقلاع البندقية الموجودة فى جنوب مورا بالتسلسل Navarin , Fenar , Milona , Modon , Koron . وهكذا تم تصفية البندقية ، من مورا واليونان . وفى هذه الحرب ذاتها كذلك ، تم فتح Draç آخر قاعدة للبنادقة فى ألبانيا (١٥٠٢/٨/١٣) .

أرادت فرنسا فى هذه الأيام أن تساند البندقية ، فجاء الأسطول الفرنسى الذى يحتوى على (١٠,٠٠٠) جندى مشاة أمام ميناء ميدبلى فى أواسط أيلول (١٥٠١) ، وحاول لمدة ستة أشهر إسقاط القلعة ، ولكنه لم ينجح فى ذلك ، وعلى أثر انتشار خبر قدوم الأسطول التركى إلى المنطقة ، أراد الأدميرال Revenstein ، اللجوء إلى جزيرة Cergio (بالتركية : جوها) الواقعة جنوب مورا . غرق كل الأسطول الفرنسى هنا على أثر هبوب عاصفة وتمكن عدة أشخاص فقط من النجاة (هامر ، ٤ ، ٧٠) .

طلبت البندقية الصلح . لم يتمكن Andrea Gritti - الذى انتخب بعدها دوج رئيس جمهور - حين حضر إلى استانبول لإجراء مفاوضات الصلح ، من الحصول على نتيجة . وأرسل Zacharia Freschi بصلاحيات أوسع ، وأبرمت فى (١٤ ك ١٥٠٢/١) معاهدة استانبول المكونة من (٣١) مادة . أعطيت كفالونيا فقط للبنادقة . عقدت ، بعدها تركيا صلحا مع كل من المجر (١٥٠٣/٨/٢٠) ، فرنسا ، إنكلترا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وبولونيا ، وناپولى ، وزودس .

بدأت فى أوروبا فترة صلح دامت قرابة (٢٠) سنة . كانت الدولة العثمانية مضطرة للاتفات نحو الشرق ، حيث كانت تجرى أمورا مهمة فيه .

وفي الوقت الذي ساد الاعتقاد فيه أن مسألة قره مان قد أغلقت وطويت في سجل التاريخ ، جاء قره مان أوغلو مصطفى بك ، الذي كان يسكن في تبريزه منذ سنين إلى الأناضول . وهو حفيد أول قره مان بك نوره صوفي في البطن (٨) وحفيد محمد بك الثاني في البطن (٣) ، واجتلت لارنده (قره مان) مع التركان الذين جمعهم حوله . وعندما ثار عليه الأمير شهنشاه ابن البادشاه الساكن في قونية (أمه قره مانية) ، فر إلى طرسوس ولجأ إلى المماليك . أمر السلطان المملوكي الذي لا يود نزاعاً مع العثمانية بسبب القرمانيين بقتله .

(١٣) ظهور الشاه إسماعيل

كان مؤسس الطريقة الصفوية الشيخ صفى الدين متصوفاً سنياً خالصاً ، حصلت تكيته التي أسسها في مدينة أردبيل في جنوب آذربيجان ، على شهرة واسعة من (١٣٠١) حتى وفاته في (١٣٣٤) ، وقد وصلت مكانة وشهرة هذه التكية إلى حد أن تيمور زارها وتبرع لها . اعتنق حفيد حفيده ، شيخ الطريقة الخامس (١٤٤٧ - ١٤٦٠) جنيد ، المذهب الشيعي وأدهش الجميع ، وقد كان المذهب الذي اختاره من بين مذاهب الشيعة هو مذهب الشيعة الإثني عشرية التي لا تخلو من الإفراط . ويرتّب على هذا بطبيعة الحال أن يرفض سلطة الخليفة ويعترف بالشيخ الصفوي إماماً .

خرج الشيخ جنيد الشاب ، في السنة التالية (١٤٤٨) لجلوسه على بساط المشيخة ، من أردبيل وجاء إلى الأناضول .

جمع حوله بالدعاية عشرات الألوف من التركان الجهلة . تزوج (١٤٥٨) بأخت السلطان أوزون حسن ، خديجة بغي السنية - الحنفية الخالصة . كان أوزون حسن سنياً صميماً ، ولكنه لعدم وجود نزعة التعصب تجاه الأديان والمذاهب الأخرى لدى الأتراك ، أراد أن يرتبط بهذا الشيخ ليتمكن من جمع الشيعة حوله لمواجهة تركان قره قويونلو عدوه الشيعي الذي يريد التخلص منه ، ولم يخطر بباله قط أن هذه المعاهدة سوف تشكل عليه خطراً في يوم من الأيام .

قتل الشيخ جنيد . تسلم المشيخة (١٤٦٠/٣/٣) بدلا منه ابنه الطفل المولود من خديجة بغير . سأنده كذلك لآاله أوزون حسن . لم يكثر بمذهبه الشيعى أبدا . قام حيدر الذى ولد فى نيسان ١٤٦٠ فى سراى اقويونلو المملوكة لآاله فى مدينة عامد (ديار بكر) ، بإدارة تكية أردبيل بالوكالة ولم يكثر التردد عليها . قتل وعمره (٢٨) سنة (١٤٨٨/٧/٩) . كان قد تزوج فى (١٤٧٧) عند بلوغه سن (١٧) بآبنة آاله أوزون حسن ، حليلة علم - شاه بغير . ولد من هذه الزيجة الشاه إسماعيل فهو بذلك حفيد لأوزون حسن كذلك .

أعلنت فى (١٤٩٤) مشيخة إسماعيل وعمره ٧ سنوات بعد مقتل أخيه الكبير . بدأ تعقب أترك اقويونلو للصفيين ، بسبب تجمع تركان الأناضول حول شيوخ الصفوية .

كانت حليلة بغير التى لم تترك المذهب السننى أبدا ، تقوم بحراسة ابنها إسماعيل الطفل . وبعد نزاع مرير ، طرد الشيخ إسماعيل وعمره (١٥) سنة ، أترك اقويونلو من تبريز (١٥٠٢) وأعلن نفسه شاها .

أمر بقتل والدته التى ثبتت وأصرت على المذهب السننى ، وحول إيران السننية بالدم والنار ، إلى إيران شيعية . حظر اعتناق المذهب السننى ، وقتل من قبض عليه من الرجال السننين ، وأرسل النساء والبنات إلى دور البغى .

هزم خاقان تركستان (أترك الشرق) شايباك خان بن جنكيز ، فى حرب ميدانية وقتله وكسى جمجمته بالذهب الخالص ، وشرب فيها الشراب .

تفوق على الممالك عسكريا واقتصاديا ، وأصبح حاكما للدولة المقتدرة الثانية فى العالم بعد العثمانية . كانت إمبراطوريته تشمل إيران ، شرق الأفغان ، المناطق الوسطى والشرقية من قفقاسيا الجنوبية ، داغستان ، الأناضول الشرقية ، العراق والأحساء فى البلاد العربية .

كانت الدولة الصفوية ، دولة تركية كذلك ؛ فالجيش بكامله يتكون من الأترك . وجميع ولاه الإيالات ، أمراء تركان ذهبوا من الأناضول . الشاه إسماعيل ، هو أحد أكبر الشعراء الأترك .

الشاه في نظر رعاياه ، وخاصة جيشه شيء قريب إلى الله ، وهناك عدد غير قليل من التركان الجهلة الذين يعتقدون بأنه هو الله بذاته .

وهكذا قسم الشاه إسماعيل العالم الإسلامي السنّي والتركي إلى فريقين . كان قد دخل بين تركيا و تركستان وألقى بمستقبل التاريخ التركي إلى متاهات مظلمة . كان دخوله إيران واستيطانية فيها باقदार وقوة ، أقوى بكثير من مجيء الفاطميين - في حينه - من المغرب واستيطانهم في مصر . وبينما استؤصل المذهب الشيعي من مصر بضربة واحدة من صلاح الدين الأيوبي ، ماتزال إيران حاليا شيعية سواء كانت لغتها الأم تركية أم فارسية . حقق الشاه إسماعيل هذه النتيجة باستيلائه على إيران (التي يشكل أكثريتها السنّيون) من حوزة أترّاك آقويونلو السنّيين .

كان هدف الشاه إسماعيل ، هو تركية العثمانية . إذ إنه كان تركيا . لم يكن الشاه إسماعيل من نسل أوغزخان ، لكنه ترقى في جو تركاني التقاليد . كان يدرك أن انتصاره النهائي سيحرزه بالقضاء على العثمانية . كان قد جلب كامل جيشه من الأناضول ، وكان لايزال آلاف التركان يردون سنويا من الأناضول وينضمون إلى جيشه .

كان التركان ، وخاصة أمراءهم في الأناضول ، قد فقدوا كافة امتيازاتهم تحت وطأة الإدارة المركزية المركزة ، وأصبحوا مواطنين عاديين ، وكانت امتيازات الإمارة بالنسبة لهم أهم من مسألة المذهب .

لم يترددوا في الذهاب إلى إيران واعتناق المذهب الشيعي ، بينما كانوا سنّيين في الأناضول ؛ حيث إن وإلى الإيالة هناك ، يكون قائدا وتستمر امتيازاته كلها . أما في الأناضول فكانوا تحت إمرة الموظف الصغير الذي ترسله العثمانية من إستانبول . ولا يمكنهم جمع الضرائب وحشد الجنود أو ممارسة السلطة .

أرسل الشاه إسماعيل عملاء وعيونه - الذين يسمى واحداهم « خليفة » - إلى الأناضول لإدخال « التركان » الذين لم يسكنوا المدينة ، ويصبحوا « أترّاكا » ، إلى المذهب الشيعي .

من ناحية أخرى ، كان يسعى إلى إضعاف وكسر شوكة الدولة العثمانية في الأناضول عن طريق الفوضى والإرهاب .

وعلى الرغم من أن مصر كانت حائزة على الخليفة ، والمدن الإسلامية المقدسة والأمانات الإسلامية المقدسة والمؤسسات الإسلامية الكبرى كالجامع الأزهر ، فإنها كانت بالنسبة للشاه مسألة ثانوية ، ذلك أنه كان يدرك أنه عندما تتضعض العثمانية فسوف تضمحل الممالك . والعكس ليس صحيحاً ، وكان يعلم أن الدولة المملوكية في حالة انحطاط وفي فترة تدنٍ ، أو هي على أقل تقدير ، فقدت حيويتها ، أما العثمانية ، فإنها تعيش فترة حيويتها ، مستهدفة إقامة الدولة العالمية .

أرسل الشاه ، سفراء إلى البندقية ليخبرها بأنه عازم على القضاء على العثمانية ، وأنه على الدول الأوروبية إن كانت تريد الحصول على بعض المكاسب أن تتحرك من روملي . كان يعلم أن البندقية ، هي مركز الدبلوماسية الأوروبية .

لم يسع البندقية أن تقبل طلب حفيد حليف البندقية السابق أوزون حسن ، فقد كانت قد خرجت من حرب كبيرة مع العثمانية ، جلبت لها الهزيمة والانهايار الاقتصادي ، وهكذا لم يتيسر للشاه ، في الوقت الحاضر ، أن يجد له حليفاً جاداً .

قدم الطلب ذاته إلى القاهرة ، ولكن مصر كانت تدرك أنه لو اضمحلت العثمانية فسوف يتسلط الشاه لإسماعيل عليها ، فأعرضت عن هذا الشيعة العاصي الذي تنفر منه .

طلب الشاه إسماعيل في (١٥٠٧) ، إحدى بنات دلقادر أوغلو عبد الدولة بوزقورد بك ، للزواج بها . رفض دلقادر أوغلو تزويج ابنته من شيعي . اتخذ الشاه هذا الرفض ذريعة ودخل أراضي دلقادر . خرب مرعش وألبستان وأحرق جميع قبور سلالة دلقادر الموجودة في تلك المدن ، وتمكن من القبض على أحد أبناء وحفيدي علاء الدولة وقتلهم . أرسل إلى بايزيد الثاني رسالة يعتذر فيها لاضطراره إلى المرور من الأراضي العثمانية .

كان دلقادر أوغلو علاء الدولة بك ، والد زوجة بايزيد الثاني ووالد أم الأمير ياوز سليم عائشة خاتون . لم تبد القاهرة واستانبول أي رد فعل لإزاء ما فعله الشاه ؛ وبناء على ذلك زاد اعتبار الشاه في الأناضول وفي العالم الإسلامي بصورة كبيرة . (١٥٠٨) .

جاء جيش عثماني مكون من (١١٥٠٠٠) جندي إلى قيصرى . انتظر فيها طيلة سنة (١٥٠٨) تردد الشاه في دخول حرب ميدانية ، وأرسل إلى البادشاه رسالة يستلها بقوله : « أئى المبجل والمعظم » وأنسحب إلى عامد (دياربكر) .

جاء رد الفعل من الأمير (الشهزاده) سليم ، والأمير سليم هو حفيد (من ناحية الأم) دلقادر أوغلو علاء الدولة بك الذى فر من بلاده عندما ثار عليه الشاه . كان سليم-رابع أبناء بايزيد الثانى الثمانية-واليا على لواء طرابزون ، وكانت أمه دلقادر أوغلو عائشة خاتون ، قد توفيت في طرابزون قبل هجوم الشاه على بلاد دلقادر بقليل (١٥٠٥) ، ودفنت في الجامع الذى شيده في هذه المدينة .

استدعى الشهزاده سليم ، آقويونلو (أصحاب الخرفان البيض) سلطان مراد آخر إمبراطور لأتراك آقويونلو في إيران الذى طرده شاه إسماعيل من عرشه إلى طرابزون ومنحه وأولاده بيوتا ووظائف .

كان السلطان مراد متزوجا بعمة الشهزاده سليم ، وكانت أخت السلطان مراد ، تاجلى بغيرم متزوجة بالشاه إسماعيل ، وكما سنرى سوف تؤسر تاجلى بغيرم في واقعة جالديران من قبل السلطان سليم .

سار السلطان سليم على كرجستان بـ (٣) حملات ، أشهرها حملة Kütayis في (١٥٠٨) .

فتح في هذه الحملات من الكرج الـ (١٥) قصبة الموجودة حاليا في الجمهورية التركية ضمن الإيالات: قارص ، أرضروم ، آرتفين ، وأضافها إلى الأراضى العثمانية بصورة نهائية (بوسوف ، هاناك ، أردخان ، جلدز ، كوله ، إيسير ، طورطم ، نارمان ، أولطو ، اولر ، شنقايا ، شاوشات ، آردانوج ، يوسف إيلى ، مركز آرتفين) . وفتح عدا ذلك آهيسكا وأهيلكلك اللتين بقيتا في كرجستان حاليا .

أسلم جميع الكرج القاطنين في هذه المناطق بصورة كاملة .

واحتل كذلك المدن من مخلفات إمبراطورية آقويونلو وهى: بايورت، آرزنجان ، كاوه ، إيسير ، كموشخانه ، جميشكرك (طونجلى) وماجاورها وأضافها إلى لوائه .

أرسل الشاه ، الذى يدعى أنه وريث كل مملكات آقويونلو ، أخاه إبراهيم ميرزا لاسترجاع هذه الأراضى . استصحب الشهزادة سليم ابنه الوحيد الشهزاده سليمان البالغ عمره (١٢) سنة وسار بسرعة إلى أخى الشاه . عثر على الجيش الصفوى قرب آرزنجان ودمره ، وأسر إبراهيم ميرزا .

أدت انتصارات الشهزاده سليم على الشاه ، الذى يسعى الخاقان جهده لعدم خلق مشكلة معه ، إلى إكساب سليم اعتبارا كبيرا ، ولحنت فيه قصائد شعبية مثل : « سر سلطاني سر ، اليوم يومك » .

إن إدراك سليم للخطر الشيعى بهذا الشكل ، وإثباته فعليا قدرته على اتخاذ التدابير وحيازته على لواء فى مكان بعيد كطرايزون ، فتح طريق العرش أمام ابن البادشاه الصغير السن .

بناء على شكاية الشاه ، أملى الديوان الهمايوني على البادشاه رسالة لابنه . أطلق الشهزاده سليم سراح أخى الشاه ، ذلك بالإضافة إلى إخلاء آرزنجان ، وبايبورت ، وكماه وإيسبر وإعادتها للصفويين ، لكنه أعلن أن هذا العمل يعنى انعدام الشرف وأن آرزنجان لم يمض وقت طويل على فتحها على يد يلدرم بايزيد .

استاء الجيش من تسليم أراض للصفويين ، لم يلق تصرف الديوان الهمايوني ارتياحاً سواء لدى الجيش أو شعب أناضول ، أو الشهزاده سليم .

بعد أن نفذ أوامر الديوان وهو غاضب ، ترك سليم لواءه ، دون طلب موافقة ، وانتقل فجأة إلى قرم فى خريف (١٥١٠) ، وأبلغ إستانبول بذريعة تهكمية مفادها اشتياقه لابنه الوحيد الشهزاده سليمان ، الذى كان أميراً على لواء كفة فى قرم منذ (١٥٠٩/٨/٦) ، والحقيقة أنه ذهب إلى قرم للحصول على مساندة والد زوجته خان قرم منكلى كيراي ، حيث كان لإخوته الكبار قد بدعوا التحرك لورثة العرش .

١٤ - مسألة الشهزادات (الأمراء) (١٥٠٩ - ١٥١٢) .

خلف بايزيد الثانى (٨) أبناء و (١٩) ابنة . أبناؤه حسب تسلسل أعمارهم هم : أولو شهزاده (١٤٨١ - ١٤٨٣) داماد عبد الله (١٤٦٥ - ١٤٨٣) ،

أولو شهزاده (أى ولى العهد) (١٤٨٣ - ١٥١٢) سلطان أحمد (١٤٦٦ - ١٥١٣) ، شهزاده سلطان قورقود (١٤٦٧ - ١٥١٣) ، ياوز سلطان سليم (١٤٧٠ - ١٥٢٠) ، شهزاده شهنشاه (١٤٧٤ - ١٥١١) ، شهزاده محمود (١٤٧٥ - ١٥٠٧) ، شهزاده محمد (١٤٧٦ - ١٥٠٤) ، شهزاده علم شاه (١٤٧٧ - ١٥٠٢) .

وبوفاة أمير لواء (والى) صاروخان الشهزاده محمود فى أواخر (١٥٠٧) فى مانيسا ، بقى للبادشاه (٤) أبناء أحياء : أحمد ، قورقود ، سليم وشهنشاه . كانت والدة آخرهم قره مان أوغلو حسن (بضم حرف الحاء) شاه خاتون . ولذا أعطى الشهنشاه عرش قره مان، أى أصبح واليا (فريق أول ، بكلربك) على قونية ، وقد حكم هذه الأيالات ذات البلايا بدراية تامة - بصحبة والدته - مدة ٢٦ سنة ، (٧) شهر وتوفى فى قونية فى (١٥١١/٧/٢) وعمره (٣٧) سنة ، ودفن فى بورصه . وبناء على ذلك ترك الشهزاده الأخير الذى يمكن أن يرث العرش المسرح فى صيف (١٥١١) ، وبقى المجال للإخوة أحمد ، قورقود وسليم .

كان السلطان أحمد أولو شهزاده ، أى ولى العهد ، منذ سنوات طويلة منذ وفاة أخيه الكبير أولو شهزاده عبدالله فى (١٩٨٣/١١/٦) . وكان واليا (سنجق بك ، لواء) على آماسيا (وبضمنها طوقات) منذ (١٤٨١/٥/٣) . كان السلطان قورقود خان الذى يصغره سنة واحدة رجلا داهية ، له ابتتان ، ومات له ابنان من الأمراء وهما طفلان . أى أنه بلا وريث . وكان ذلك مما يضعف حق ادعائه العرش . تولى قورقود خان لواء صاروخان (مانيسا) مدة (١٩) سنة (١٤٨٣/١٢/٣٠ - ١٥٠٢) ، ومكن لنفسه فى لواء صيغلا (أزمير) خلال هذه المدة . وفى (١٥٠٢) كلف بإدارة ألوية تكه وحמיד (أنطالية وإسبارطه) ودفع إلى مناطق أبعد ، مما أدى إلى حالة عدم ارتياح واضحة لدى الشهزاده ، وقد كان ذلك مكيدة دبرها أخوه الكبير الشهزاده أحمد .

كان السلطان قورقود حاميا كبيرا للبحارة الأتراك ، البحرية وصاعقة البحر، الذين يطلق عليهم اسم «قرصان» ، وكان محبوبا من البحرية التركية . لكن البحرية لم يكن لها نفوذ يعتد به فى النظام العثمانى، فى أى وقت من الأوقات ، إذا ماتكلم الجيش .

ترعرع وازدهر أميرات البحرية التركية العظام فى القرن (١٦) بحماية السلطان قورقود لهم . ومن بين هؤلاء أروج رئيس ، وأخوه بربروس ، وطرغد باشا .

له مؤلفات بالعربية والتركية فى علوم الفقه ، والكلام ، والأخلاق ، والتصوف . كان الشهزاده عالما وفى ذات الوقت شاعرا ، وخطاطا ، وموسيقارا (فى موسيقى الساز التركية) وملحنا قديرا .

إن الحركات العسكرية المهمة التى حققها أخوه السلطان سليم ضد الصفويين دون حصوله على إذن من إستانبول ، وطبيعة الشهزاده قورقود ، لفتت فى إستانبول أنظار البادشاه ، الديوان (الحكومة) والجيش ، وأصبح واضحا أن جلوس أولو شهزاده أحمد على عرش أبيه لن يقابل بارتياح عند حلول موعد الجلوس .

تحرك قورقود بـ (٨) سفن و (١٣٧) شخصا من معيته من أنطاليا معرباً عن عزمه على الذهاب إلى الحج مقلدا عمه السلطان « جم » لإلقاء الخوف فى قلب أبيه . وفى ٢٩ أيار ، استقبله السلطان قانصوه فى القاهرة باحتفال عظيم جدا . ثم عاد .

لم يستجب طلبه فى منحه ولاية مانيسا القرية من استانبول والتى ولى فيها سابقا . وأعطيت له إدارة أنطاليا وإسبارطة .

أما السلطان سليم ، فكان يقضى وقته فى قرم . كتب أولو شهزاده أحمد رسالة إلى خان قرم منكلى كيراي ، أبلغه فيها بأنه سوف يشكوه إلى أبيه ويطلب عزله ، وطلب إليه أن يترك مساعدته لصهره سليم . لم يلتفت منكلى كيراي لذلك . أصدر الديوان أمره إلى الأمير بالعودة إلى لوائه فى طرايزون ، ولكن السلطان سليم ، إضافة إلى انه لم ينفذ أمر العودة إلى طرايزون ، ترك قرم وانتقل إلى روملى وطلب منحه لواء فى روملى ، ولم تكن تعطى ألوية إلى الأمراء فى روملى نهائيا فى ذلك الوقت .

رغم ذلك ، أعطى للشهزاده سليم فى (١٥١١) ، إدارة (٥) ألوية دفعة واحدة (سمندرة ، وفيدين ، وآلاجه حصار ، ونىغبولو ، وأيزفورنك) . وطد الشهزاده أقدامه بشكل متين فى ضفاف الطونة الجنوبية .

كانت الأناضول في هذه الأيام مسرحا للدم والنار ، وقد فتح ذلك طريق العرش أمام الشهزاده سليم ، باعتباره الشخص الوحيد الذى يمكنه دفع المصيبة الصفوية .

حدث عصيان شاهقولو في هذه الأيام ، وشاهقولو هذا تركباني من تكة (أنطاليا) ، أصبح لمدة من الزمن ضابطا سباهيا (خيالا) في الجيش العثماني ، ثم هرب إلى إيران بناء على دعوة من الشاه . حيث جرى تعليمه هناك وأصبح خليفة (وكيل مخبرات) في أعلى المراتب .

جمع شاهقولو حوله جماعة من المهاجرين بعد دخوله خلصة إلى الأناضول . سار الوزير الأعظم على باشا إلى المتمردين . أباد شاهقولو وأعوانه في الحرب الميدانية كوكجاي بين قيصرى وسيواس ، لكنه استشهد (تموز ١٥١١) . ولقد كان موت على باشا الذى بقى في السلطة مدة (٧) سنوات وكان مؤيدا للشهزاده أحمد ، عاملا آخر لصالح الشهزاده سليم .

جاء الشهزاده سليم من فيدين إلى أدرنة في نفس اليوم الذى سقط فيه الوزير شهيدا (تموز ١٥١١) ، وتقدم حتى جورلو . ولما خرج أبوه أمامه ، تشتت وحدات الشهزاده ، وتمكن من الهرب بفضل حصانه العداء المسمى « قره بولوت » أى السحاب الأسود (أوغراش ده ره سى ، ١٥١١/٨/٣) . ولم يتمكن من العودة إلى روملى .

ركب البحر وذهب إلى كفة في قرم جوار ابنه سليمان .

تقدم أولو شهزاده محمد ، الذى ظن أن الفرصة قد واثته ، إلى مدخل استانبول وجاء حتى مالتبه (١٥١١/٨/٢١) ، لكن الجيش لم يرغب في دخول ولى العهد إلى استانبول ، فقام بمظاهرات .

أمر الديوان ولى العهد بالعودة إلى لوائه .

جاء السلطان أحمد إلى قونية بدلا من ذهابه إلى آماسيا ، وطرد ابن أخيه محمد شاه (ابن الشهزاده شهنشاه) الذى كان واليا (سنجق بك) على لواء قونية ، وأعلن سلطنته فيها ، وهكذا أصبح في وضع المدعى ، وفقد صفة ولى العهد الشرعى .

ظن الشهزاده قورقود أنه نال السلطنة عندما أصبح أخوه في وضع العاصي . وكان يأتي بعده حسب تسلسل العمر ، فجاء فجأة من مانيسا إلى إستانبول . واجتمع بأبيه ، وبالجيش وبالعلماء . أظهر الكل له المودة والاحترام ، لكنهم أبلغوه بأن الحل الوحيد هو جلوس الشهزاده سليم .

جاء قرار تخلي بايزيد الثاني عن العرش نهائيا كمراد الثاني . وقد كان يرغب التخلي لصالح ولي العهد الشرعي ابنه الأكبر أحمد . لكن كون سليم ، الشهزاده الوحيد الذى تعلق عليه الآمال في دفع البلية الصفوية ، وتمكن سليم من تقديم نفسه للجيش على هذا الأساس ، بالإضافة إلى طبع السلطان أحمد المنافى للسياسة.. كل ذلك جعل البادشاه يدرك أنه لن يتمكن من التخلي عن العرش إلى شخص آخر ، غير ابنه سليم ، وقد صاحب ذلك كله أن انتهز الشاه فرصة ترك السلطان أحمد أماسيا وإقامته في قونية بدون إذن ، فأرسل خليفته المسمى نور على إلى منطقة أماسيا - طوقات . حيث ولد اضطرابات كبيرة ، سببت زيادة سقوط اعتبار السلطان أحمد .

أقام الجيش في إستانبول مظاهرة كبيرة تؤيد السلطان سليم شاه بصراحة (١٥١٢/٣/٦) .

أدرك السلطان بايزيد أن الدماء ستهدر في حالة إصراره على ابنه الكبير .

دعى السلطان سليم بصورة رسمية من سمندرة التى يقيم فيها . جاء الشهزاده إلى إستانبول في (١٩) نيسان .

كان السلطان قورقود الذى يكبره سليم بـ (٣) سنوات ، فى إستانبول . استقبل أخاه بنفسه وهناك ، وبذلك يكون قد أظهر قبوله سلطنة أخيه .

كان عمر بايزيد في ذلك التاريخ (٦١/٥) سنة ، والسلطان أحمد (٤٦) سنة ، السلطان قورقود (٤٥) سنة ، والسلطان سليم (٤٢) سنة .

أعلن السلطان بايزيد في (٢٤) نيسان وكان مريضا تخليه عن العرش لابنه سليم .

كان السلطان سليم راغبا في إقامة والده في السراى القديم في بايزيد ، لكن السلطان بايزيد رغب في الإقامة فى سراى Dimetroka .

تحرك السلطان بايزيد إلى Dimetoka بعد مكوثه (١١) يوما في السراى القديم ، ولم يستطع ركوب الحصان لمرضه ، فنقلوه على المحفة .
شيعه ابنه السلطان سليم حتى الأسوار ، وودعه مقبلاً يده .

كان موكبُه يسير بطيئاً بسبب مرضه ، وكان يستريح في كل موقف عدة أيام .
لم يتمكن من الوصول إلى قرب ديمتوكا ، وتوفي بعد (٣٢) يوما من مغادرته
إستانبول في قرية آبالر في قصبة حوصة (حفصة) (١٥١٢/٥/٢٦) .

نقل جثثانه إلى استانبول ودفن في قبره الكائن قرب الجامع الذى شيده .

دامت سلطنة بايزيد الثانى (٣٠ سنة ، و ١١ شهر ، و ٢٢ يوما ، وبعبارة أخرى ٣١
وشهرين و ٢٨ يوما) كان قبلها قد عمل وليا للعهد لمدة طويلة جدا (٣٠ سنة ،
٢ شهر ، ٢٨ يوما) . كان طفلا قد أكمل الأشهر الأربعة من عمره ، عندما اعتلى
أبوه فاتح العرش للمرة (٣) (على اعتبار الرواية القائلة : إن ولادته (ك
١/١٤٥٠) ، وتقول الرواية الأخرى : إن ولادته حدثت في (ك ٢/١٤٤٨) .
تطلق عليه صفات ولى ، وصوفى ، وغازى .

كان شاعرا ، وملحنا ، وعالما ، وخطاطا ، ومذهبا ، وصانع أقواس ، وهو أعلم
بنى عثمان بعد أبيه فاتح . أخذ العلم عن علماء وجنرالات على درجة عالية من العلم
والقدرة .

كان يجيد الأبجدية الأويغرية ، وتعلم جيدا اللغات الشرقية مع آدابها . وإضافة
لذلك أخذ الرياضيات والفلسفة ، والعلوم الدينية عن أعلام تلك العلوم في عصره .
ولمزاياه هذه ، كان لوفاته وقع أليم ليس في تركيا فحسب ، بل في العالم الإسلامى
أجمع . وعند سماع القاهرة بخبر وفاته ، أقيمت صلاة الجماعة للميت الغائب ، وكان
على رأسها السلطان قانصوه .

توطدت واستقرت بشكل كامل فتوحات أبيه الكبرى . حافظ على سياسة والده
العسكرية والبحرية ، وعزز الجيش والبحرية وجعلها ضعف ماكانت عليه في
السابق . زود بعض سرايا الانكشارية بالبنادق وأسس أول مشاة من حملة البنادق .
كانت له مكانة عالية في جميع الأقطار الإسلامية ، في آسيا وفى أفريقيا وكانت له
مكانة كبيرة في إيطاليا .

ساند كثيرين من الحكام والفنانين الإيطاليين ماديا بالنقود ، وعندما توسط في إطلاق سراح دوق Mantova الذى أسره البنادقة نفذ مجلس الأعيان البندقى رغبة البادشاه فى جلسة واحدة (هامر ، ٤ ، ١٠٤) .

كان الشاعر الإيراني الكبير ، "جامع" المقيم فى هرات ، وشيخ النقشبندية الكبير المقيم فى بخارى يتسلم كل منهما سنويا من السلطان بايزيد مبلغ (٥٠٠) آقجه ، ويمكن قياس عطاياه الأخرى على ذلك .

كان يقرأ بدقة كل مؤلف جديد يهدى إليه ، ويعطى للمؤلف مكافأة تتفق وقيمة الكتاب كأجر عن التأليف ، ويستدعى المؤلفين ذوى الكتب القيمة ويقابلهم ، ولا يشجع المؤلفين الذين كتبوا مؤلفاتهم تملقا ومداهنة . كان رحيما ووفيا ومنصفا .

كتب الدبلوماسى الشهير Andrea Gritti الذى أصبح بعدها دوج ، أى رئيس جمهور البندقية ، على أيام بايزيد الثانى باليوز (سفير) البندقية فى استانبول ، يصف البادشاه فى رسالته السرية التى أرسلها إلى مجلس الأعيان . يقول (١٥٠٣) ،
Origine des Turcs , Cantacasin ، ص ٥٩ - ٦٢) :

« قامته أطول من المتوسطة ... لا يتعاطى الشراب أبدا ؛ كان يشرب فى شبابه ثم تاب بضغط من أبيه ، يأكل قليلا ، يسر جدا لركوب الخيل ... أحب شئ إلى الصيد ورياضات الفروسية . يعظم الشعائر الدينية ويتصدق كثيرا ، يهتم بالفلسفة وعلوم الفلك ... وعدا الوقت الذى يقضيه فى الاطلاع ، فإنه يخصص وقتا طويلا للاهتمام بأمور إصلاح جيشه وتنسيقه وتنميته ... زاد عدد الانكشارية ، جهز جيشه بالأسلحة الحديثة والناارية ، أجرى إصلاحا جذريا خاصة بالنسبة للمدفعين ونقله المدافع . يتابع هذه الأعمال بدقة . خيالاته وأسطوله ، هما اللذان حققا الأحداث الخارقة التى شهدناها ، فقد نظمها بشكل تستطيع به التجمع والاحتشاد بسرعة » .

لم يشهد عهده تلك الفتوحات الكبيرة جدا ، التى شوهدت على عهد أبيه وعلى عهد ابنه . تمكن خلال (٣٠) سنة من التوسع بمقدار (١٦٠,٠٠٠) كم^٢ .

كانت مساحة الإمبراطورية عند وفاته نحو (٢,٢٧٣,٠٠٠) كم^٢ والدول التابعة المستقلة ذاتيا ضمن هذه المساحة وهى : إمارة قرم ، إمارة قسيم الواقعة بالقرب من

موسكو ، إمارات أفلاق ، بغداد ، والرومان ، جمهورية دبروفنك الصغيرة ، إمارة دلقادر .

أطول من بقى فى السلطة من وزرائه الأعظمين (رؤساء الوزارة) ، هم داماد قوجا (بالتركية : بغداد عن سواحل البحر الأسود بشكل تام وفتح القلاع .. ولو أنها تبدو وكأنها عمليات صغيرة ، إلا أنها انتصارات إستراتيجية مهمة .

أطول من بقى فى السلطة من وزرائه الأعظم (رؤساء الوزارة) ، هم داماد قوجا داوود باشا (١٤٨٢ - ١٤٩٧) ، خادم عتيق على باشا (١٥٠١ - ١٥٠٣ + ١٥٠٦ - ١٥١١) ، داماد هرسك - زاده أحمد باشا (١٤٩٧ - ١٤٩٨ + ١٥٠٣ - ١٥٠٦ + ١٥١١) . منح الوزارة العظمى (رئاسة الوزارة) (١٤٩٨ - ١٤٩٩) إلى إبراهيم باشا ، كذلك ابن جاندارلى - زاده خليل باشا الذى أعده فاتح .

توفيت أمه كلبهار خاتون وهى ألبانية الأصل فى (١٤٩٣) خلال سلطنته وعمرها (٥٨) سنة .

(١٥) السلطان ياوزسليم وإخوته الكبار (١٥١٢ - ١٥١٣) .

كان السلطان سليم — الذى سمي « ياوز » ، أى (شديد) لقسوة طبعه منذ أن كان أميراً ، « سليم شاه » — مضطراً للتأمين الأمن والوحدة فى الداخل لحل قضية إيران ، لذا كان يجب عليه قبل كل شيء ، تنحية أخيه الكبير ، الذى لا يزال يدعى حق ولاية العرش .

دعا ابنه من كفة فى قزم إلى استانبول ، عند اعتلائه العرش . ترك أولو شهزاده سليمان ، نائباً للسلطنة فى استانبول عندما انشغل بقضية إخوته فى الأناضول ، وكذلك خلال فترة حملة إيران الطويلة . كان سليمان ، الابن الوحيد للسلطان ، فى الـ (١٧) من عمره عند جلوس أبيه .

خرج مع (٧٠,٠٠٠) جندي إلى بورصة ، ومنها جاء إلى أنقرة . ترك السلطان أحمد قونية وذهب إلى أماسيا ، ولم يتمكن من البقاء فيها وهرب ، فى اتجاه ملاطية .

أرسل ابنه إلى تبريز لطلب المعونة من الشاه إسماعيل الذى يتحين الفرصة لهدم تركيا ، والذى تسبب ، حتى ذلك ، الحين ، فى مقتل آلاف العثمانيين بمؤامراته فى الأناضول .

من الواضح — بطبيعة الحال — أن مجال النزاع كان واسعا ، ويؤكد ذلك ضخامة العدد الذى استصحبه ياوز من الجنود ، فلم يكن قليلا عدد الذين يعتبرون السلطان أحمد بادشاه شرعيا لكونه الابن الأكبر ، ومن بين هؤلاء الوزير الأعظم لياوز ، قوجا مصطفى باشا ، وقد أعدم عندما ضبطت مراسلاته السرية مع السلطان أحمد .

استوزر داماد هرسك — زاده أحمد باشا للمرة (٤) وأصبح وزيرا أعظم . فى نفس الوقت لم يكن عدد الذين يخشون قسوة ياوز قليلين .

كان الوضع خطيرا إلى الدرجة التى قضى فيها ياوز شتاء (١٥١٢ - ١٣) فى بورصة دون أن يعود إلى إستانبول .

جرؤ السلطان أحمد على المجئ إلى بني شهر التابعة لبورصة . شتت ياوز قوات أخيه الكبير بسهولة ، فى الحرب الميدانية التى جرت فى (١٥١٣/٤/٢٤) .

تُحنق السلطان أحمد بالقوس والوتر بعد أسره ، ودفن فى بورصة وكان عمره (٤٧) سنة .

كان لياوز أخ آخر على قيد الحياة ، وكان أحب إخوته إليه ، وهو السلطان قورقود الذى يكبره بـ (٣) سنوات . كان ياوز قد ولى أخاه السلطان قورقود الذى اجتمع به فى إستانبول على (٣) ألوية مدى الحياة (تكة = أنطالية ، حميد = اسبارطة وميدلى) . وقد طلب قورقود إضافة ألوية صاروخان (مانيسا) ، صيغلة (أزميز) ، آيدن ، منتشه (مغله) أى منطقة إيجيه بكاملها ، ولم يجب طلبه .

كان قورقود قد غادر إستانبول ، وأقسم على عدم ادعائه حق السلطنة فى أى وقت من الأوقات ، وذهب إلى أنطالية .

أراد ياوز تجربة أخيه وطلب إلى الوزراء أن يحرروا رسائل بأسمائهم تشوقه إلى السلطنة . تورط قورقود وأرسل أجوبة إيجابية على تلك الرسائل المزيفة . اعتقل إثر

ذلك وأعدم في (١٥١٣/٣/١٧) ، وقد جرى هذا الإعدام قبل إعدام السلطان أحمد ب (٣٨) يوما .

أعدم ياوز كذلك أبناء إخوته ، ولم يستبق أى أمير عدا ابنه سليمان وعدة أمراء لجئوا إلى مصر وإيران ؛ ذلك أنه كان يعتقد أن أبناء إخوته سوف يدعون الحق في العرش في غيابه عند خروجه لحملة إيران .

(١٦) حملة إيران الهمايونية (١٥١٤/٣/٢٠ - ١٥١٥/٧/١١) .
انتصار جالدران (١٥١٤/٨/٢٣) .

أعلنت الحملة في (٢٠) آذار، وسار الجيش من أسكدار في ٢٣ نيسان . وصل قونية في (١) حزيران واستراح مدة (٣) أيام . زار السلطان سليم ، المولى كأكثرية السلالة ، مرقد مولانا .

ترك الخاقان في سيواسى التى جاء إليها قوة مكونة من (٤٠,٠٠٠) جندى ، وواصل السير مع (١٠٠,٠٠٠) شخص :

وصل آرنجان في (٢٤) تموز وأرضروم في (٥) آب .

أحرق التركمانى الأناضولى اسطه جالو محمد خان ، أكبر قواد الشاه ، كافة المحاصيل ، كما أحرق بقدر الإمكان ، المساكن الموجودة على الطريق الذى سيسلكه الجيش العثمانى اعتبارا من آرنجان إلى تبريز .

تقدم الجيش الهمايونى (الإمبراطورى) بصعوبة . كان يسير أياما عديدة وليست لديه أية أخبار عن العدو . كانت المهمات الثقيلة الأساسية قد أرسلت من إستانبول بواسطة الأسطول إلى طرابزون ، ثم تحركت من هناك إلى آرنجان وتم إيصاها إلى الجيش . جاء الجيش إلى قصبة بايزيد (دوغو بايزيد) ودخل منها إلى آذربيجان ، ونزل نحو الجنوب - الغربى بمحاذاة نهر زنكمار ، ووصل صحراء جالدران قرب ماكو . كان جبل آغرى على بعد (٥٠) كم نحو الشمال - الغربى ، يتطلع إلى الجيشين العثمانى والصفوى .

إن جالدران هذه التي بقيت حاليا لدى إيران هي موقع في شرق تبريز ، وهي ليست - كما تذكرها بعض الكتب - جالدران مركز ناحية قضاء مراديه لولاية وان .
إن جالدران الأخيرة هذه ، أخذت اسمها كذكرى عن جالدران التاريخية .

كان الجيش الصفوي في جالدران منذ مدة ، دخل الجيش العثماني إلى صحراء جالدران يوم (٢٢) آب .

قرر المجلس العسكري (ديوان حرب) العثماني الذي اجتمع ليلة (٢٢ - ٢٣) آب ، القيام بالهجوم فجر يوم (٢٣) آب . كان يوم (٢٣) آب يوما من الأيام التاريخية التي ستقرر مصير تركية . لم تكن الدولة قد تهددت حتى ذلك اليوم بخاطر خارجي كبير على هذه الدرجة ، عدا تيمور . كان الشاه تركيا كتيemor ، لكن تيمور كان سنيا - حنفيا ، أما الشاه ، فإنه بالإضافة إلى أسرة للأقطار ، كان يريد أسر النفوس والضمائر ، وكان يستعمل لتحقيق ذلك الإرهاب والدم والنار والسيف . كان من الممكن أن يسفر انهزام الجيش العثماني عن فرض الصفويين التشيع على أناضول الوسطى وإلحاقها بإيران . حيث إن مدينة عرش الصفويين ، كانت مدينة تبريز ، ولم تكن بعيدة جدا كمدينة عرش تيمور في سمرقند في تركستان .

في الحروب الميدانية العثمانية ، يكون البادشاه دائما في القلب، ويوجد على طرفيه في الجناحين فيلقان ، تلتحق به، إضافة لذلك ، وحدات الطليعة والاحتياط القوية جدا .

أما في الجيش الإيراني ، فإن الشاه كان في الجناح الأيمن ، وكان على قيادة الجناح الأيسر وإلى دياربكر الفريق الأول اسطه جالو محمد خان تركمن ، ولم يكن هناك فيلق مركزي مستقل .

كان الطرفان متعادلان عددا (١٠٠ . ٠٠٠ محارب لكل منهما) ، وكانوا قد أحضروا وحداتهم الممتازة جدا .

كان الخيالة التركان ، يشكلون معظم الجيش الإيراني ، وكانوا قد فرزوا حسب ألويتهم وأبالاتهم ، وعلى رأس كل واحد منها أمراء تركان .

كان في الجناح الأيمن العثماني الفريق الأول سنان باشا، الذي كان واليا على الأناضول ثم صار بعدها وزير أعظم ، ورئيس أركان الجيش وإلى قرة مان الفريق

الأول زينل باشا ، وسباهيون الأناضول التمارلى ، وفى الجناح الأيسر الى روملى الفريق الأول (بكربك) حسن باشا وسباهيون روملى التمارلى . وفى المركز ، البادشاه ، والوزير الأعظم داماد هرسك - زاده أحمد باشا، وكانت فرقة مشاة الإنكشارية الثقيلة موجودة مع فرقة المدفعية ، وكانت فرقة صاعقة روملى فى مقدمة المركز .

كانت أسلحة الجيش العثمانى حديثة ، وتجهيزاته أكمل ، لكن الوحدات كانت مرهقة فقد قطعت طريقا مضنيا ، وقضى أكثرية الجند الليلة دون نوم بسبب التوتر الذى ولدته أخبار الحرب التى ستجرى فى صبيحة اليوم التالى .

كان تركان الشاه ، شيعة متعصبين وفرسانا شجعان ومهرة ، لاهدف لهم سوى التضحية بأرواحهم فى سبيل شاههم ، ولم يكن للشاه مدفعية ولا مشاة من حملة البنادق .

أما لدى العثمانية ، فإن الإنكشارية الذين يبلغ عددهم (١٠,٠٠٠) - عدا بعض سراياهم - وكذلك وحدات كثيرة من المشاة الخفيفة (العزب ، مجهزة بالبنادق ، ولم يكن المدفع قد أصبح بعد ، لافى أوربا ولا فى آسيا ، سلاحا قطعيا ومؤثرا فى الحروب الميدانية ، وإنما كان يعتبر سلاح قلاع وحصار . وإن كان فاتح قد أثبت عكس ذلك عدة سنوات فى أوطلوق . بلى ان الدولة الوحيدة التى اعتبرت المدفع ، السلاح الذى لا يمكن الاستغناء عنه فى الحروب الميدانية ، هى العثمانية .

بدأ جنود صاعقة روملى بالهجوم استشهد كل من ابنى ماقوج أوغلو بيوك بالى باشا فاتح وارشو ، الذى اشتهر بحملاته على بولونيا ، ولواءى الصاعقة أمبرى لواء المغاوير الأخوين على بك وتوز على بك، الواحد تلو الآخر، لا يفصل بينهما غير دقائق . وقد دهش الشيعة التركان ، الذين لا يعترفون بوجود محاربين أقدر منهم ، عند مشاهدتهم الهجوم الخفيف الذى شنه جنود صاعقة روملى .

أمر البادشاه بفتح الجناحين على شكل هلال ، وأخذت فرقة المدفعية موضعها ، وأخذت كتائب التركان الشجاعة ، تتساقط بسرعة بنار المدفعية العثمانية . وبينما كان ياوز يتطلع إلى صحراء جالدران المليئة بعشرات الألوف من جنود الصفويين أغلق فيالقه فى الجناحين الأيمن والأيسر ، وساق فرقة الاحتياطية إلى الأمام ، وأمر بالهجوم

على مركز الجناح الأيمن الصفوى الذى يضم الشاه . جرحت يد الشاه ورجله ، وأخذ يستعد للهرب . خاب ذكر الرجل الذى أفنى « درزنا » (١٢) من الدول خلال (١٥) عاما . دخل بين صفوف الأتراك تركانى شبيه بالشاه مرتديا لباسه قاتلا باللهجة التركانية ، « شاه منم » (أنا الشاه) ، وتمكن الشاه من الفرار أثناء انشغال السباهيين الأتراك الذين ظنوا أنهم أسروا الشاه .

ضحى (١٤) فريق أول تركانى فى ساحة القتال وعدد غير معلوم من الضباط برتبة لواء بأنفسهم فى سبيل الشاه . استشهد من العثمانيين فريق أول واحد و (٩) ضباط برتبة لواء (سنجق بك) . على رأس كبار الصفويين الذين قتلوا : الصدر الأعظم الصفوى الباقى بك ، ووالى ديار بكر الفريق الأول وأحسن قواد الشاه اسطه جالى محمد خان توركمين ، والقضعىسكر (قاضى العسكر) الصفوى سيد حيدر ، ووالى (فريق أول) بغداد وأخو زوجة الشاه خلفاء بك توركمين ، ووالى (فريق أول) خراسان لالابك توركمين ، ووالى عراق العجمى (همدان) تكة لى (أنطاليه لى) (كان بك .

انتقل سراق الشاه ، وعرشه ، وخزنته التى تضم أكبر الماسات العالمية وزوجته تاجلى خانم لحوزة العثمانية . بقي السلطان ياوز سليم يومين فى ساحة الحرب ، ودخل تبريز بعد مسيرة (١١) يوما (١٥١٤/٩/٦) .

قرر الشاه عدم إمكان الدفاع عن مدينة العرش تبريز بعد مروره عليها ، وهرب إلى المناطق الداخلية من إيران . كان عدد سكان تبريز فى ذلك التاريخ يتجاوز المليون نسمة ولم يكن فى أوربا - بما فيها استانبول - أى مدينة بهذا الحجم . كانت تبريز مدينة تركية تماما . تليت الخطبة بالشعائر السنية ، وباسم السلطان سليم (١٥١٤/٩/٨) . أمر ياوز بإرسال نحو ألف فنان وعالم وشاعر من تبريز إلى استانبول ، وألحقهم جميعا فى وظائف فى السراى الهمايونى ، ومكث البادشاه فى تبريز (٩) أيام .

يعتبر أهم شخص أرسله البادشاه إلى استانبول ، هو آخر خاقان لخراسان (هرات) لبنى تيمور السلطان بدیع الزمان ميرزا ، وهو الابن الأكبر للسلطان حسين بايقره وخلفه . الذى لجأ إلى سراى تبريز عندما طرده من هرات جنكيز

أوغلو محمد شايياك خان ، ولقى احتراماً من الشاه ، وقد أبدى له ياوز احتراماً أكثر وخصص له راتباً كبيراً جداً ، وقد أجلس بديع الزمان على عرش أقامه بجانبه ، وتوفي الخاقان التركستاني والشاعر باللغة التركية في استانبول وعمره ٤٦ سنة (١٥١٥/٨/١٢) .

احتل محمد شايياك خان الذي ينحدر من سلالة جنكيز خان وجوجي أولوسو ، سمرقند كذلك بعد هرات وأخرج بني تيمور من تركستان إلى الأفغان والهند . تدهورت مدينة هرات ، أكبر مدينة في العالم (تقريباً ٣ ملايين) بعد هذا الاستيلاء بسرعة ، لكن الشاه إسماعيل انتصر على شايياك خان في الحرب الميدانية طاهر آباد ، قرب مرو وقتله (١٥١٠/١٢/٢) .

توجه الشاه بعد ذلك ، نحو الغرب ، نحو الأناضول ، إلى العثمانية . وقد كانت الأناضول الشرقية والجنوبية - الشرقية أساساً في حوزته .

أصيب الشاه بعد جالدران ، بفقدان الأمل والكآبة ، كجده أوزون حسن تماماً . لم تظهر في تركية مسألة صفوية لمدة (٢٠) سنة ، ولكن لم يتم القضاء على الصفويين ، ولا أمكن تخليص إيران من التشيع . إذ إنها كانت دولة شابة في فترة تأسيسها .

كان هدف ياوز أخذ إيران والدخول إلى تركستان ، ولكنه لم يتمكن في حملته هذه من تحقيق ذلك الهدف . ظهرت علامات عدم الارتياح لدى الجيش . ولم يرغب في الحملة على إيران ، وتقرر إرجاء فتح إيران إلى حملة جديدة .

كان مراد خان آخر سلاطين اقويونلو ، قد اشترك في جالدران في صفوف العثمانية . أسفرت معركة جالدران عن انتقال الأناضول الشرقية والجنوبية إلى العثمانية عدا القسم الموجود لدى المماليك .

أخذ أمراء الأكراد السنيون الشافعيون ، الذين ظلوا تحت ضغط الشيعة ، في الانضمام إلى الدولة العثمانية الواحد تلو الآخر .

ألحقت إمارة دلقادر - التي كانت تحت حماية العثمانية منذ (١١٧) سنة - بالحكم المباشر (منطقة ماراش) .

منح ياوز لبنى دلقادر رتبا ووظائف كبيرة ، لكونه من سلالة دلقادر من جهة الأم . عين دلقادر أوغلو على باشا ، كأول وال (بكربك) على إيالة دلقادر التي تأسست حديثا ، وهو خال ياوز من الدرجة الثانية (ابن عم أمه) (١٥١٥/٦/١٢) .

استولى والى (فريق أول) آرزنجان بيقل محمد باشا (سابقا أمير آقويونلى) على مدينة عامد البلدة الكبيرة من الصفويين (١٥١٥/٩/١٩) . قاومت غامد بشدة . كان والى دياربكر اسطه جالو قره خان تركمن ، أنحا لمحمد اسطه جالو بك الذى مات فى جالدران . صان شرف الشاه حتى المات .

كسر بيقل محمد باشا مقاومة الصفويين ، وأباد الجيش الصفوى فى الحرب الميدانية التى جرت فى قوجحصار (١٥١٦/٥/٤) على بعد (١٥) كم من جنوب غربى ماردین . وأصبح أول وال على إيالة دياربكر التى تشكلت حديثا .

لجأ سليمان توركمين خان أخو قره خان إلى ماردین . فتحت ماردین على يد بيقل محمد باشا بعد أن قاومت حتى (٧ نيسان ١٥١٧) . انتقلت ييره جك الميناء النهري المهم الواقع على ساحل الفرات الشرقى خلال تلك الأيام ، وملكية حصن كيفاء (Hasankeyf) الأيوبية إلى العثمانية . ترك ياوز الملك على عرشه إجلالا لذكرى صلاح الدين الأيوبي . ثم ألحق حصن كيفاء بالحكم المباشر على عهد القانونى عند وفاة الملك .

هبط بيقل محمد باشا إلى رقة فى سوريا واحتلها كذلك . وهكذا أصبحت الأراضى العثمانية على حدود الدولة المملوكية .

(١٧) بداية حملة مصر الممايوية (١٥١٦/٦/٥)

مكث السلطان سليم فى استانبول بعد عودته من جالدران ، مدة (١٠) أشهر ، (٢٥) يوما . وفى (٥) حزيران (١٥١٦) ، عبر إلى إسكدار . تعتبر هذه هى الحملة الأولى والأخيرة لحاكم عثمانى على المماليك ، فعلى الرغم من أن يلدرم بايزيد كان قد احتل بنفسه (ملاطية) من المماليك فإن حملته لاتعتبر حملة مملوكية ،

عين الوزير (٣) بىرى محمد باشا نائبا للسلطنة فى إستانبول . أما الشهزاده سليمان ، فإنه أرسل إلى أدرنه محافظا للعرش والإشراف على روملى . من المعلوم أن الممالك كانوا يتحاشون الحرب مع العثمانية ، ويعملون جهدهم لتفادياها ، لكنهم كانوا عازمين على الدفاع عن قطرم بكل قوتهم .

غادر السلطان « قانصوه » القاهرة فى (١٨ آيار ١٥١٦) وجاء إلى سوريا لغرض التفتيش ، وكان يصاحبه الخليفة التوكل (٣) وقضاة القضاة للمذاهب السنية الأربعة .

كانت الإمبراطورية المملوكية المصرية — السورية ، الثالثة فى الأهمية فى العالم بعد تركية وإيران .

حمى الممالك سابقا سورية من المغول والإيلخانيين وتيمور بنجاح ، احتلت سورية ، لكنها استعيدت . أما مصر ، فقد كانت تعتبر قطرا مصانا من الناحية الجغرافية .

وفى (٢٣) تموز ، جاء ياوز مع الجيش الهمايونى إلى ألبستان (وتقع بين ماراش وملاطية) ، وكانت لدى الممالك . التأم فى هذا الموقع مع جيش سنان باشا البالغ (٤٠,٠٠٠) جندى . وفى هذه النقطة سوف تتحدد وجهة الجيش ، إما تجاه إيران وإما تجاه مصر . وقد كانت رغبة ياوز فى حملة ثانية على إيران ومحوها من الخارطة أمرا معلوما ، وكان الشعب فى القاهرة ، يبارك الفتوحات التى حققها بييقلى محمد باشا على الصفويين ، حتى شهر تموز (١٥١٦) .

لكن السلطان سليم ، اجتاز فى ٢٧ تموز الحدود العثمانية — المصرية وجاء فى اليوم التالى أمام ملاطية . وهكذا اتضح هدف الحملة .

فى (٣٠) تموز اجتمع المجلس العسكرى فى الضفة الجنوبية من نهر Tohma على مقربة من شمال ملاطية . وفى (٣) آب ، حضر بييقلى محمد باشا من ديار بكر مع حفيده . وفى (١٨) آب احتل العثمانيون بسنى من أملاك الممالك . وفى اليوم ذاته ، جاء يونس بك والى عينتاب (Gaziantep) أعلى ولاية الممالك فى الأناضول ، وسلم مفاتيح المدينة إلى البادشاه . أما رمضان أوغلو فى جقورأوفا التابع للممالك ، فكان قد فعل ذلك منذ (٢٧ تموز ١٥١٦) . والحقيقة أن رمضان أوغلو

عحمود بك ، كان قد أعلن طاعته فى نهاية (١٥١٤) وجاء فى (١٥١٥) إلى إستانبول ودخل فى خدمة العثمانية . وهو الآن يلحق الإمارة بالعثمانية . أعطى البادشاه إدارة أذنة إلى بنى رمضان ، وسوف يظل لواء أذنه لدى بنى رمضان حتى (١٦٠٨) ، وسوف يصبح أمراء هذه السلالة ولاية على الإيالات الممتازة جدا .

وبينا تجرى الأمور على هذا الشكل الذى يصعب على العقل تصوره ، راجع السلطان قانصوه ، الشاه إسماعيل وطلب إليه الحملة على العثمانية ، وإلا فإن العثمانية سوف تتجه إلى إيران بعد أن تفرغ من مصر . لكن الشاه الذى يبدو أنه قد اتعظ بصورة جيدة من الدرس الذى تلقاه ، رفض اتفاق مصر .

(١٨) واقعة مرج دابق (١٥١٦ / ٨ / ٢٤)

كانت قد مضت على جالدران ستان بالضبط . وفى هذه المرة ، تقابل الجيشان العثمانى والمصرى فى مرج دابق (بالعربية : مرج الدابق) . وهى قرية جدا من حلب .

كان مع الجيش العثمانى (٣٠٠) مدفع ، وكان عدد جيش المماليك (٨٠,٠٠٠) جندى ، لم يتمكن المماليك من الاستفادة من قلة عدد العثمانيين (٦٠٠٠٠) بفضل هذه المدافع الـ (٣٠٠) .

كان نائب السلطنة للشام شبأى فى الجناح المملوكى الأيمن ، ونائب السلطنة لحلب خيرباى فى الجناح الأيسر . والسلطان قانصوه وعمره (٦٦) سنة ، مع الخليفة فى القلب .

كان قانصوه شاعرا فى اللغات التركية العربية والفارسية ومؤلفاً فى العربية ، كان حاكما قديرا وعسكريا قديما ومجرباً .

كان السلطان ياوز سليم فى سن الـ (٤٦) .

كان الجيش المملوكى يتكون من الشراكسة والتركمان ، عدا عدة كتائب من البدو ، كانوا محاربين شجعان معتدين بأنفسهم ، فقد كانوا ورثة الجيش الذى نال انتصارات كبيرة على الصليبيين والمغول المشركين .

لكن السلطان سليم أنهى الحرب نحو العصر في أقل من (٨) ساعات . مات السلطان قانصوه وشباى (Sibey) في الحرب . أسر الخليفة . انتقلت الخزينة المملوكية والسرادق السلطاني إلى حوزة الأتراك . فر خيرباى ، لكنه أسر بعد مدة .

دخل السلطان سليم حلب بعد (٤) أيام (١٥١٦/٨/٢٨) . كانت إحدى أكبر بلدان العالم ، ومركزا كبيرا للتجارة . أسست إيالة حلب وولى قره جه باشا على حلب . عومل الشعب وكأنه من الرعية العثمانية منذ القدم ودخل الجيش وكأنما يدخل مدينة عثمانية . كان ذلك من معالم سياسة السلطان سليم الإسلامية وسياسته في الاتحاد الإسلامي .

(١٩) انتقال الخلافة الإسلامية من العباسيين إلى بنى عثمان (١٥١٦/٨/٢٩) .

كان مقام الخلافة الإسلامية ، لدى السلالة العباسية منذ سنة ٧٥٠ أى منذ ٧٦٦ سنة . كان العباسيون حتى (١٢٥٨) في بغداد . وعلى أثر استيلاء المغول - المشركين في هذا التاريخ - على بغداد انتقلوا إلى القاهرة وأصبحوا خلفاء تحت حماية السلطان المملوكى . وعندما كانوا في القاهرة ، لم يكونوا أصحاب دولة أو حكم .

كان المماليك ، يحازتهم للخليفة ، والمدن المقدسة (مكة ، والمدينة ، والقدس) ينظرون إلى أنفسهم على أنهم الدولة العليا في العالم الإسلامى . كانت القدس المدينة المقدسة الأولى بالنسبة للأديان المسيحية والموسوية أيضا . كان (٣) من البطارقة الـ (٤) الأرثوذكسيين في البلاد المملوكية (إسكندرية ، قدس ، أنطاكية) . انتقلت الآن كافة هذه المميزات المعنوية العليا ، إلى العثمانية .

كانت الفكرة في حملة ياوز على مصر ، أنها تمثل أهم مرحلة من مراحل أفكاره الأساسية في تكوين الاتحاد الإسلامى : اتحاد إسلام) ، ذلك أنه كان يرى أن ممالك مصر لم يقدروا ولن يقدروا على تحقيق هذا الهدف ، وكان السلطان سليم مقتنعا بأن العثمانية ، سوف توفق إلى تحقيق ذلك الهدف .

وعند عودة البادشاه من مصر ، استصحب معه إلى استانبول كلا من الخليفة

المتوكل على الله (٣) ، أبناء عمومته أبا بكر وأحمد وقاضى القضاة الشافعى فى مصر ، وشخصيات رفيعة أخرى بينها ابن السلطان قانصوه محمد بك وعائلته (ابن إياس ، ٣ ، ١٩ = ٢٠) . لم يعط السلطان سليمان القانونى إذنا بعودة الخليفة إلى القاهرة ، إلا فى (١٥٢١) (ابن إياس ، وقائع ٩٢٦) . وبذلك يكون المتوكل قد عاش فى استانبول مدة (٣) سنين . عاش بعد عودته إلى القاهرة مدة (٢٢) سنة ، ومات فيها فى (١٥٤٣) . كان المتوكل (٣) قد تسلم الخلافة فى (١٥٠٩) عن أبيه المستمسك الذى عزل من مقامه وبقي فى الخلافة (٧) سنوات واستمرت مصر معترفة بالمتوكل (٣) كخليفة بعد وقوعه فى يد العثمانية ، لكنها عينت أبوه المستمسك وكيلًا لابنه . سقط المستمسك من الوكالة عندما استولى ياوز على مصر فى السنة التالية . لم يستصحبه البادشاه إلى استانبول لكبر سنه .

كان المتوكل (٣) ، الخليفة الـ (٧٣) ، من سلسلة الخلفاء والخليفة الـ (٥٤) من الخلفاء العباسيين والخليفة (١٧) من الخلفاء العباسيين فى القاهرة . والمتوكل الذى جرده طفرل بك السلجوق من صلاحياته الدنيوية (وقد قلد الممالك السلاجقة فى هذا الشأن) والذى جعله رئيسًا روحيا ورمزا للاتحاد الإسلامى ، كان حفيدا للقائم فى البطن (١٥) ، ولهارون الرشيد فى (٢٣) ، وللخليفة العباسى (٢) ومؤسس مدينة بغداد المنصور فى (٢١) ، وللعباس عم الرسول ﷺ فى (٢٩) ولعبد المطلب جد الرسول ﷺ فى البطن (٣٠) . خلف عدة أبناء ، ولكن السلالة العباسية ، انقطعت بعد ذلك .

وتقول إحدى الروايات : إن المتوكل (٣) تنازل عن الخلافة إلى بنى عثمان فى مراسم جرت فى أياصوفيا بعد عودته مع ياوز إلى استانبول .

من الممكن أن تكون قد حدثت مثل هذه المراسم، ولكنه ينبغي أن تلاحظ أن السلطان سليم قد أصبح خليفة بالفعل عندما كان فى حلب قبل هذه الحادثة .

ومن الروايات التاريخية الأخرى ، أن المتوكل (٣) قلد السلطان سليم السيف والبسه الخلعة فى جامع أبواب سلطان (بالعربية : أبواب الأنصارى) بعد مراسم أياصوفيا ، وقد اشترك فى هذه المراسم علماء الأزهر الذين جلبوا إلى استانبول وعلماء العثمانية ، وأن الخلافة انتقلت إلى بنى عثمان بقرار هذا المجلس .

ولكن المؤكد كذلك أن السلطان سليم قد اعتبر نفسه خليفة في أول صلاة جمعة في حلب ، فعندما وصف الخطيب الذى تلا الخطبة باسم السلطان سليم في أول صلاة جمعة (١٥١٦/٨/٢٩) في الجامع الكبير في حلب ، ياوز بوصف « حاكم الحرمين الشريفين » تدخل البادشاه وبدل كلمة « حاكم » إلى « خادم » . والمعلوم أن الخلفاء الذين انحدروا من بنى عثمان ، لقبوا بصورة رسمية حتى ١٩٢٤ بلقب « خادم الحرمين الشريفين » .

خر السلطان سليم الذى لم يتمكن من السيطرة على دموع عينيه ، على الأرض ساجدا سجدة الشكر ، ووضع رأسه على أرض المسجد المرمى بعد رفعه للسجادة من الموضع الذى يجلس فيه ، فرحا لنيله خلافة الرسول ﷺ الشرعية .

لقد أثار هذا التدين والتواضع الجماعة وكهربيها .

خلع ياوز بعد ذلك خلعته التى لاتقدر بثمن وألبسها الخطيب . ثم أمر بنقل الأمانات المقدسة الموجودة في القاهرة ومكة إلى سارى طوبقابو في اسنانبول، وشيد جناح خرقه، شريف (البردة الشريفة) لحفظها ، واكتملت صفة خلافة السلطان سليم بانتقال القدس ، والمدينة المنورة ومكة المكرمة إلى الإدارة العثمانية .

(٢٠) من حلب إلى القاهرة (١٥١٦/٩/١٩ - ١٥١٧/١/٢٢) .

جاء السلطان سليم ، من حلب إلى حماه (١٩ أيلول) ، وإلى حمص (٢١ أيلول) ، وإلى الشام (٢٧ أيلول) . لم يلق مقاومة . بقى في مدينة عرش الأمويين شهرين و (١٨) يوما حتى (١٥ ك ١) . أمر بإصلاح الجامع الأموى وقبرى صلاح الدين الأيوبي والشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى . وطلب تشييد جامع باسمه (دفن أكثرية بنى عثمان الذين توفوا في المنفى في نصف القرن الذى يلى ١٩٢٤ في حديقة جامع السلطان سليم في الشام) .

تقدم الوزير الأعظم سنان باشا مع (٧٠٠٠) جندى كوحدة طليعية . التقى بـ (١٠,٠٠٠) جندى مملوكى لجانبرد (وبلغة تركية تركيا : جان ويردى) غزالى في خان يونس على حدود سيناء — فلسطين ، هزمهم في (١٥١٦/١٢/٢١) ، وتمكن

(١٠٠٠) جندى مملوكى فقط من الفرار إلى مصر . أسر البقية .

غادر السلطان سليم الشام فى (١٥ ك ١) ووصل القدس الشريف فى (٣٠ ك ١) . صلى فى المسجد الأقصى — الذى أنير ترحيبا بقدمه بـ (١٢٠٠٠) قنديل — ركعتى صلاة الحاجة (فتحنامه ديار عرب B 33 v) .

تحرك فى اليوم التالى ووصل غزة فى (٢ ك ١٥١٧/٢) . واحتفل فيها بالعيد الأضحى وبعد مكوثه (٣) أيام ، ذهب فى (٦ ك ٢) نحو الشرق إلى خليل الرحمن وزار قبر إبراهيم (ع . س) ، وفى (٩ ك ٢) جاء إلى صحراء التيه (سيناء) وبدأ فى اجتياز الصحراء .

تمكن السلطان سليم مع جيش كبير خلال (١٣) يوما (٩ - ٢٢ ك ٢) من تحقيق محاولة اجتياز صحراء التيه ، وهى الصحراء التى لم تحاول أية شخصية عالمية فى التاريخ تجربة اجتيازها جبرا (حتى تيمور خشى من ذلك) والمشهور عنه أنه اجتاز المسافة بين قطية وقنطرة ، والتى تبلغ (٥٠) كم فى يوم واحد . لكن مسيرة الجند تراجعت فى بعض الأيام إلى (١٨) كم . كان معدل السير (٣٠) كم فى اليوم . كان سنان باشا يتقدم الجيش مع (٦٠٠٠) خيال . كان الأسطول الهمايونى فى شرق البحر الأبيض . وأخيرا تم اجتياز برزخ السويس ودخول مصر . توجه السلطان سليم نحو الجنوب — الغربى واقترب من القاهرة وكان قد تسلم فى (٢١ ك ٢) من سنان باشا تقريراً مفصلاً عن النظام العسكرى للمماليك .

(٢١) واقعة الريدانية (٢٢ / ك ٢ / ١٥١٧)

استعد السلطان طومان باى الذى انتخب مكان السلطان قانصوه وأبدى جهودا جبارة فى تجهيز جيشه بشكل تام ، وقام بتحسين القاهرة بصورة ممتازة . كان شخصا جسورا . كانت الخطة المملوكية مبنية على أساس هزيمة ياوز وإجباره على التراجع إلى الصحراء ومطاردته فيها وإبادته ، ثم يكون استرداد سورية بعد ذلك من الأمور البسيطة .

كان عدد الجيش المملوكى فى ذلك العهد ٤٢٦.٠٠٠ شخصا ، وبالطبع فانه ليس بالامكان جمع كامل هذه القوه فى حرب ميدانية واحده . كانت القوة الضاربة الاساسية ١٣٣.٠٠٠ خيال من الاتراك او الشراكسة المستتركين . وكان لديه ٩٣.٠٠٠ بدوى من المتطوعين الذين كانوا لا يستخدمون فى الحروب الميدانية . كانوا يقومون بالواجب الذى تقوم به الصاعقة العثمانية ، لكنهم لم يكونوا منظمين فى تشكيلات منتظمة كالصاعقة التركية ، كما أنهم لم يكونوا خاضعين لتنظيم مركزى . ومن المعلوم أن البدو يحبون القتال ، ولكنهم أحرار المزاج ، ولا تروقهم الحرب النظامية ، ومن ناحية أخرى ، كان للمالك جيش مكون من ١٨٠.٠٠٠ تركمان وجيش احتياطى يبلغ عدده ٢٠.٠٠٠ من الأفراد أكثره خيالة ، وكانت هذه القوات تجمع من الأناضول وشمال سورية وتستدعى عند الحاجة ، ولما كان هذان القطران تحت سيطرة العثمانية حاليا ، فقد كان من المتعذر الاستفادة من تلك القوات (خليل الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، منشورات P.Ravaisse باريس ١٨٩٤ ، ص ١٠٤) .

نزل السلطان سليم حتى خط عرض ٣٠ . ولم يسبق لأى بادشاه عثماني أن نزل إلى تلك الدرجة (نزل القانونى ومراد فقط إلى بغداد فى خط عرض ٣٣) . كانت الظروف مواتية لصالح الممالك ، فقد كانوا فى قطرم ، وهم بذلك سوف يدافعون عن أراضيهم التى حكموها بلياقة والتى أقاموا فيها منذ مئات السنين . ولم يكن العثمانيون أكثر دراية من الممالك بالظروف الطبوغرافية والاثنوغرافية البشرية والاجتماعية لهذه البلاد ، كما أن الخيال المملوكى لم يكن أقل شجاعة من السباهى التركى ، وكان طومان باى عسكريا شابا نشطا ومقتدرا .

كان للممالك ٢٠٠ مدفع حصلوا عليها من العثمانية والبنادقة . لكنها كانت مدافع قلاع ليست سيارة ، ولا يمكن مقارنتها بالمدافع العثمانية .

استعمل ياوز فى حملته هذه للمرة الأولى المدافع ذات السبطانات الأخدودية التى يمكن مشاهدة نماذجها حاليا فى المتحف العسكرى فى استانبول ، أما فى أوربا فقد استخدمت هذه المدافع ذات السبطانات الأخدودية لأول مرة فى الجيش البروسى فى ١٨٦٨ .

استعمل السلطان سليم لأول مرة كذلك في الريدانية ، المدافع المسبوكة حديثا والمجربة التي تطلق من ٥ إلى ١٠ طلقات بين الواحدة والأخرى فترة زمنية قصيرة جدا .

بالإضافة إلى ماتقدم يجب أن نضع في الاعتبار أن نظام الجيش العثماني ليس له مثل في أية دولة أخرى في ذلك العصر . إن الدهاء العسكري للسلطان ياوز سليم خان الذي كان عمره ٤٧ سنة ، لا مثيل له .

كان الممالك ينتظرون العثمانيين من ناحية عادلية ، فقد كان هذا هو الطريق الملائم والمفتوح . ولا يمكن دخول القاهرة قبل اجتياز الاستحكامات المملوكية الموجودة فيها . كانت فوهات ٢٠٠ مدفع موجهة نحو المستولى في العادلية ، وكان تقرير الاستطلاع لسنان باشا قد أعلم السلطان سليم بتحكيكات عادلية ، وأن مدافع الممالك مثبتة ولا تتحرك ، وبناء على ذلك وبعد أن أمر البادشاه عدة كتائب بالتظاهر بالهجوم ، نزل بالقوات الكبيرة إلى الجنوب واستدار حول جبل المقطم وأصبح خلف القوات المملوكية . ويعتبر بهذه المناورة التكتيكية قد انتصر في المعركة ، وكسب الحرب في ذات الوقت .

عندما شاهد طومان باي ، الذي كان قلقا من أن ينتهي إلى نفس عاقبة عمه في مرج دابق والذي رسم خطته على أساس إهلاك السباهيين العثمانيين أمام المواقع الاستحكامية وإفنائهم ؛ .. عندما شاهد العثمانية خلفه ، أدرك حلول العاقبة التي كان يخشاها ، واضطر إلى الخروج إلى الصحراء المفتوحة ومجابهة العثمانيين ، ولم تتمكن المدافع المملوكية الموجهة إلى جهة عكسية من عمل شيء ، لعدم إمكان تحريكها من أماكنها .

أخذ طومان باي فرق خيالة قورتابي وآلانباي الثقيلة المصفحة وحمل بنفسه على قلب العثمانية . كان يروم قتل البادشاه وحل القضية من أساسها . حيث إنه كان قد تحرى وعرف أن خطة العثمانية تتمثل في إرهاق العدو عدة ساعات ثم تشرع في القضاء عليه ، فأراد ألا يتيح ذلك للعثمانية . لكن البطولة لم تجد نفعا تجاه المدافع العثمانية .

انسحب طومان باي بعد أن تكبد خسائر جسيمة . أما جانبردي غزالي ، فقد حمل على جناح العثمانية الأيمن ، فأصيب الوزير الأعظم سنان باشا الذي كان يقود هذا

الجناح ، وبذلك يكون غزالى قد انتقم لنفسه من سنان باشا الذى هزمه فى حرب غزة (خان يونس) الميدانية .

مات رمضان أوغلو محمود بك ومبارك كيراي أحد الأمراء القرميين . كما كان بين القتل كذلك أهم رجال المملوكية .

تكبد المماليك ٢٥٠٠٠ قتيل وما يقرب من هذا الرقم من الأسرى ، وترك السلطان طومان باى ساحة الحرب ، وانتقل سرادقه وخزنته لحوزة العثمانية . كان الوقت مساءً . تفقد السلطان سليم فى اليوم التالى ساحة رداية (شمالى شرقى القاهرة) . وعين بدلا من سنان الدين يوسف باشا ، الوزير ٢ يونس باشا ، وزيرا أعظم .

(٢٢) فتح القاهرة (٢٤ / ك ١٥١٧)

دخل العثمانيون القاهرة فى ٢٤ ك ٢ .

كانت القاهرة من أكبر وأغنى مدن العالم . انتقلت الخزينة المملوكية وقسم من الامانات المقدسة لحوزة العثمانية وأرسلت إلى استانبول . مثل فى اليوم التالى محمد بك ابن السلطان قانصوه الذى مات فى مرج دابق بين يدى السلطان سليم الذى أرسله معززا مكرما إلى استانبول ، وقد كان محمد بك قد سعى إلى أن يكون سلطانا مكان أبيه ، لكن أمراء المماليك كانوا قد انتخبوا ابن العم طومان باى ، ولذلك فقد كان محمد بك غاضبا على طومان باى وعلى الأمراء .

حمل طومان باى الثانى على القاهرة فى ٢٨ ك ٢ قبل طلوع الفجر . كان الجيش والسلطان سليم خارج القاهرة ، وكان قد ترك فى المدينة وحدة عثمانية صغيرة . ذبح طومان باى كامل أفراد هذه الوحدة . وحاول الدفاع عن القاهرة بمساعدة الشعب ، وكان معه ١٠٠٠٠ جندى ، جرت مصادمات دموية فى الشوارع والأزقة ، وكان الشراكسة يدافعون عن بيوتهم طابقا فطابقا ، وغرفة فغرفة . هدرت الدماء دون جدوى ، إذ لم يكن بالإمكان دحر العثمانية بهذه الطريقة .

اضطر طومان باى الثانى إلى ترك القاهرة بعد ٤٨ يوما ، ودخل السلطان سليم المدينة بمراسم هائلة فى ١٥ شباط وأمر بسك نقود عثمانية ذهبية باسمه فى معمل نقود المدينة .

أزعج طومان باى العثمانيين كثيرا بحرب العصابات والضربات المباغة عندما كان السلطان سليم فى القاهرة . وأخيرا دل العرب الذين يكرهون الشراكسة على مكانه ، فأفسر .

وضع ياوز عرشا بجانبه وأجلس عليه الحاكم المملوكى . خاطب طومان باى الحاكم العثمانى بكلام خالٍ من اللياقة ، قائلا له : إنه لم ينتصر على المماليك بشجاعته ، وإنما انتصر بمدافعه وبنادقه ، فأجابه السلطان سليم متسائلا ، لماذا لم يتزود وهو على رأس دولة كبيرة بهذه الأسلحة ؟ وتلا عليه الآية الكريمة التى تأمر بمقابلة العدو بمثل أسلحته ، وأفحمه .

كان الشراكسة الذين التحقوا بخدمة العثمانيين يخشون نقمة طومان باى ، فأخبروا السلطان سليم بأنه لايزال يسعى وراء سلطنة مصر ، وشرحوا له ذلك بإسهاب ، وأقنعوه بوجوب إعدام طومان باى .

سلم طومان باى إلى دلقادر أوغلو على باشا وأعدم على باب زويلة ، وكان المماليك قد أعدموا والد على باشا دلقادر أوغلو شهسوار بك قبل ٤٥ سنة على هذه الباب لصداقته للعثمانية (آب ١٤٧٢) .

وفى ١٦ نيسان ، أقيم لطومان باى احتفال تشييع جنان لامثيل له ، بحيث لو مات وهو على العرش لما أقيم له مثل هذا الاحتفال . ورغم أن السلاطين الأتراك يحملون فى بعض الأحيان توابيت آبائهم ولا يدخلون تحت أى تابوت آخر ، فقد اكتفى السلطان سليم تابوت طومان باى الثانى . وحضر مراسم تشييع الجنان الرسمى كافة رجال العثمانية والمملوكية . وزع البادشاه على الفقراء - تطييبا لروح السلطان المرحوم - النقود الذهبية لمدة ٣ أيام .

(٢٣) أسباب هزيمة المماليك

كيف أنهارت بصورة كاملة وبضربة واحدة ، الدولة العظمى رقم ٣ فى العالم بعد تركية وإيران ؟

تبأ ابن خلدون ، أحد ألمع العلماء الذين أنجبتهم البشرية ، بالوضع الذى ستأخذه

تركية في المستقبل وتكهن منذ ١٢٠ سنة ، على عهد يلدرم بايزيد بأن « لاخطر على مصر إلا من بنى عثمان » (ابن حجر ، أنباء الغمر ، ١ ، وقائع ٧٩٧) .

كان الفرق بين مدفعية العثمانية والمملوكية في حرب رداية ، فرقا يزيد على نصف عصر . منذ ١٤١٠ ، كان السلطان المملوكي قد طلب من سليمان الأول مدفعيين وبحرين أتركا ، وأجيب إلى طلبه ، إذ كانت تركية تفوق مصر حتى في ذلك التاريخ .

وقد كانت عملية إرسال المهمات الاستراتيجية ، والمدفعيين ، والبحارة والفنيين إلى مصر في عهد بايزيد الثاني ، قد اكتسبت أهمية كبيرة . وعلى سبيل المثال ، أرسل إلى مصر في ك ٢ / ١٥١١ ، ٤٠٠ مدفع وكميات هائلة من البارود والنحاس . والجنرالات الأتراك الدهاء المقتدرين مثل عروج رئيس ، وسليمان رئيس ، وكال رئيس . إما أنهم التحقوا بخدمة مصر ، أو قاموا بنقل المهمات الاستراتيجية والموظفين الفنيين إلى مصر ، وأصبحت البحرية المصرية تقريبا تحت إدارة الاميرالات وضباط البحرية العثمانية ، بحيث كان يتوجب على السلطان سليم القضاء على الجيش البري فقط للدولة التي وضع اليد على أسطولها .

وفي الوقت الذي كان يستقبل فيه السلطان قانصوه في القاهرة كال رئيس ، وآيدن رئيس ، وحامد رئيس ، وحسن رئيس بأبهة لا تجرى إلا للحكام ، كان صغير أبناء البادشاه العثماني شهزاده سليم في طرابزون مشغولا بتخطيط فتح مصر . وبناء على ذلك ، أصبحت مصر في النصف الثاني من القرن ١٥ ، مفتقرة إلى العثمانية من ناحية المهمات الاستراتيجية والضباط البحريين . ولأجل حصولها على ذلك ، أظهرت عناية خاصة للتعايش بوثام مع العثمانية التي تقدرها أصلا ، مع فاتح وبايزيد الثاني ، وكانت ترسل من إنطاليا إلى الإسكندرية في كل سنة سفنا مليئة بالأخشاب والحديد والنحاس ، والكبريت ، والزفت ، والأسلحة النارية وأمثالها من المواد المشغولة .

وعندما نشبت حرب عثمانية مملوكية موضعية على عهد بايزيد الثاني دامت ٦ سنوات ، وبالرغم من أن هذه الحرب قد انتهت بتفوق الممالك فإن الجيش والأسطول المملوكي حرما من المساعدات العثمانية . وقد بذل السلطان قايتباي الذكي جدا ، ما بوسعه - من اتصالات واجتماعات بصهر بايزيد الثاني أحمد باشا سلطان تونس يحيى - لإنهاء هذه الحرب .

ولقد جنت النزعة الخيالية وعدم الاعتراف بالواقع على الممالك ، فقد كانوا مغرورين بمجازتهم للمدن المقدسة ، والخليفة ، الأمانات المقدسة ، والأزهر مركز العلوم الإسلامية ، ولم يتنازلوا عن فكرة أن فرسان الترك والشركس ، أشجع الجنود ولا يمكن قهرهم ، كانوا يظنون أنهم يعيشون على عهد السلطان بيبرس . يحتمل أن جيوشهم لم تكن أقل من ذلك العهد ، لكنه على الناحية الأخرى كان الجيش العثماني قد اجتاز ذلك العهد منذ زمن بعيد ودخل القرون الحديثة .

عاشت مصر في راحة واسترخاء دون أن تتعرض لخطر استيلاء ، مدة قرن كامل منذ أن تجاوزت الخطر التيمورى . أما العثمانية فكانت في حرب دائمة في كل لحظة ، ولم تكن تحارب دولة واحدة ، بل كانت تحارب دائما خمس دول أو عشر وأحيانا عشرين أو ثلاثين دولة . وفي وضع كهذا ، كانت وجهها لوجه أمام ضرورة قهر أعداء العثمانية . ولم تبال بالتضحية بكل شئ في سبيل إقامة جيش قوى وأسلحة متفوقة ، ومن ثم فقد فرضت كل هذه الظروف على العثمانية القتال المستمر وعدم الراحة أو الاسترخاء .

وبينما كانت القوة المادية والأدبية للعثمانية في تعاظم كانت مصادرها الاقتصادية غير متناهية . ماليتها قوية . أصبح القდوم من كافة أنحاء العالم الإسلامى والحصول على وظيفة لدى العثمانية ، من الأمور المشرفة بالنسبة للمسلمين ذوى الخبرة .

لقد درس السلطان طومان باى بصورة جيدة أسباب الهزيمة التى منى بها عمه فى مرج دابق ، وأدرك نوعية السلاح والتكتيك الذى تفوقت به العثمانية ، وأراد تعليم جيشه تكتيك الحرب الميدانية العثمانية ، لكن الوقت كان متأخرا ، فقد كان ياوز يسير إلى مصر فى هذه الأثناء . كان الوقت قد فات منذ زمان بعيد .

وبالإضافة إلى الاسترخاء الناشئ عن عدم وجود أى خطر خارجى يهدد الممالك بعد تيمور ، كانت الدولة المملوكية تعيش دور الانحطاط والعثمانية تعيش دور الفتوحات . كانت الخطوط المميزة للدورتين في حياة كافة الدول ظاهرة في كلا الطرفين . يضاف إلى ذلك التفوق النوعى لحكام العثمانية ، فحكام الممالك في هذه الفترة لا يمكن مقارنة إمكاناتهم الشخصية بالحكام العثمانيين في الفترة ذاتها . وعنصر آخر ، يتمثل في طريقة تولى العرش فالحاكم العثماني يصل إلى العرش بالوراثة وفي ذلك مافيه من التمكين على خلاف السلطان المملوكى الذى كان يصل إلى العرش في هذه

الأونة من خلال موافقة أمراء المماليك ، وفي ذلك مافيه من الصراع الذى يؤثر على الحاكم وإطلاقته وصلاحياته .

وأخيرا ، كان المماليك صنفا يستشعر الامتياز ، وكانوا لايزيدون على عدة من مئات الألوف من الأشخاص ، ولم يكونوا ملتحمين بالشعب ، وكان السلاطين يتكلمون التركية ، وأكثرهم لايفهم العربية . فمثلا ، كان قلاوون - وهو من السلاطين المتأخرين - يفهم العربية بصعوبة ، وكان للمماليك امتيازات كبيرة كقوة إقطاعية ، وقد استمرت هذه الامتيازات فى العهد العثمانى إلى أن قضى عليها محمد على باشا . أما الدولة العثمانية فقد كانت كيانا سياسيا مندمجا فى الشعب وغير معزول عنه .

شئ آخر ، هو أن الاقتصاد المملوكى كان قد تدهور ، ولم يعد كما كان فى العصور السابقة ، بحيث أصبح لايمكن مقارنته مع مصادر العثمانية الاقتصادية والمالية .. تلك هى الخطوط الرئيسية للهزيمة المملوكية .

(٢٤) الحاق الحجاز وتسليم الأمانات المقدسة (٦ تموز ١٥١٧)

رسا الأسطول الهمايوى المكون من ٣٠١ قطعة فى ميناء الإسكندرية فى ١٩ آيار ١٥١٧ . خرج السلطان سليم من القاهرة فى ٢٨ آيار لتفتيش الأسطول . قضى معظم أيام سياحته التى بلغت ١٥ يوما ، لحين قدومه إلى القاهرة فى ١٢ حزيران ، فى الإسكندرية . زار المدن فى الدلتا . رافقه ٥٠٠ إنكشارى . مكث الأسطول فى الإسكندرية مدة ٥٧ يوما ، وفى ١٥ تموز ، استصحب معه ١٨٠٠ من أعيان ووجوه المصريين وغادر متوجها إلى استانبول . أرسلت جمهورية البندقية سفيرا إلى السلطان سليم الموجود فى القاهرة ، أعلمه بأن ال ٨٠٠٠ ليرة ذهب التى تسدد سنويا لمصر عن قبرص سوف تسدد بعد الآن إلى العثمانية .

أرسل أمير مكة الشريف بركات الثانى (١٤٩٧ - ١٥٢٥) ابنه الكبير محمد أبى نعى إلى السلطان سليم فى القاهرة (وفاته ١٥٨٣) . سلم أبو نعى مفاتيح مكة ، المدينة ، الكعبة والروضة المطهرة والأمانات المقدسة الأخرى الموجودة لدى الأشراف إلى السلطان سليم ، وعرض عليه دخول الحجاز تحت حماية العثمانية (١٥١٧/٧/٦)

(فتحنامه ديار عرب ، 66 a-b . ٧) . إن أهم ما في الأمانات المقدسة ، الراهية الشريفة والبردة (خرقه سعاد) . خطي يد على (ر.ع) وعثمان (ر.ع) ومصحفان . أرسلت جميعها إلى إستانبول وحفظت في جناح « خرقه شريف » الذي شيد خصيصا لها في سراي طوبقايو ، وماتزال موجودة فيه .

تشكلت هيئة برئاسة القضاة (شيخ الإسلام في المستقبل) كمال باشا - زاده أحمد شمس الدين أفندي ، ومشاورة خير بك ونظمت إيالة مصر بالصورة الملائمة للنظام العثماني . وتقرر أن تحتل مصر الدرجة الأولى في قائمة تشريفات الإيالات في الإمبراطورية (كانت روملي تحتل المرتبة الأولى حتى ذلك التاريخ) . لم تتغير مرتبة الأولوية لمصر واستمرت حتى تاريخ الانفصال النهائي لمصر عن الإمبراطورية في نهاية سنة ١٩١٤ . أصبح الوزير الأعظم يونس باشا (١٠/٤/١٥١٧ - ٢٩/٨/١٥١٧) أول وال (بكربك ، فريق أول) على مصر ، وعلى أثر إعدامه جرى بدلا منه بخير بك باشا أحد رجال الماليك القدامى .

كانت خريطة العالم السياسية قد تغيرت من أساسها ، عند إقامة ياوز في القاهرة ، وهذا التغير سوف يظل مستقرا قرونا طويلة .

تغلغل النفوذ العثماني في السودان ، وليبيا والجزائر .

عرض سفراء اليمن الذين جاءوا إلى القاهرة ولأهم وتابعيتهم إلى السلطان سليم ، وقد كانت في زيدة منذ مدة حامية عسكرية عثمانية . عين جركس حسن ، أول وال على اليمن .

فتح كوجوك سنان باشا خلال هذه الأيام مصنع ، ميناء إريتيرة (The Bloss History of Suakin ١٨٧) .

كان الأسطول المملوكي يشرف على البحر الأحمر ومتحفزا تجاه البرتغاليين الذين بدعوا في التسلط عليه .

كان كمال رئيس قد جاء إلى مصر ونظم الأسطول المملوكي على عهد السلطان قانصوه وبإذن من بايزيد الثاني ، وقد عين سلمان رئيس لقيادة هذا الأسطول وحسين رئيس مساعدا له ، وبوفاة كمال رئيس (١٥١١) ، جاء ابن أخيه محيي الدين بيري رئيس وأصبح رئيس ملاحى (قبودان) سلمان رئيس .

احتل سلمان رئيس عدن في ١٥١٦ وأراد غلق باب المندب ، ولما لم يوفق في ذلك عاد ودخل ميناء جدة . وخلال وجوده فيها في شباط ١٥١٧ ، علم بانتصار السلطان سليم في رداية . سأل السلطان سليم عما يأمر به . أمر البادشاه بأن يبقى في جدة مع ٥ سفن ، وأن يرسل الـ ٣٠ قطعة من سفن الحرب إلى القاهرة القاعدة البحرية الكبرى للمماليك . أمر السلطان سليم بتوسيع معمل السفن في القاهرة وإنشاء سفن جديدة فيها . عين سلمان رئيس أميرالا على البحر الهندي .

وبقدر ما أحدث فتح مصر وهزيمة المماليك - التي تعتبر من الدول التي لا يمكن أن تقهر - تأثيرا في العالم الإسلامي ، أحدث في أوروبا كذلك تأثيرات كبيرة جدا . إن رداية ، تعتبر الخطوة نحو الدولة العالمية الكبرى . سيطرت الدولة العثمانية على شمال وشرق أفريقيا بشكل واسع جدا ، وانفتحت نحو المحيط الهندي . أخاف هذا الانتصار أوروبا ، كما مهد للسلطان سليم السبيل إلى تحقيق أعمال كبيرة في الشرق . وقد أراد النزول إلى السودان والحيشة ، لكن الرغبة كانت شديدة لدى الجيش في العودة إلى أوطانهم . مكث البادشاه والجيش الهمايونى في مصر ٨ أشهر (إلا يومين) .

غادر السلطان سليم القاهرة (١٥١٧/٩/١٠) وجاء إلى الشام (٧ ت ١) . جاء الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) الجديد بيرى محمد باشا من استانبول إلى الشام (١٥١٨/١/٢٥) وقابل البادشاه . جاء سفراء الشاه إسماعيل في ١٥ شباط وطلبوا الاتفاق على معاهدة صلح نهائى . أعاد ياوز السفراء ، فقد كان عازما على فتح إيران وتركستان . مكث في الشام مدة ٤ أشهر ، و١٦ يوما ونظم تشكيلات الأقطار السورية ايضا (قضى الـ ١٥ يوما الأولى في مقر الجيش خارج الشام . تحرك من الشام (١٥١٨/٢/٢٢) ، وجاء إلى حلب (١٥١٨/٣/٥) وبقي فيها مدة شهرين ويومين . جاء إلى عنتاب (Gaziantep) (١٥١٨/٥/١٧) . وأرسل بعد يومين بيرى باشا إلى العراق .

عاد السلطان سليم إلى استانبول (١٥١٨/٧/٢٥) من حملة مصر (أطول حملة في التاريخ العثمانى) بعد سنتين وشهرين . عاد وهو فاتح للأقطار التي يعيش فيها اليوم ١٢٠ مليون نسمة ، وحائز على الخلافة الإسلامية . كان « خادما » للبلدان المقدسة . كانت استانبول قد حرمت من سلطانها مدة سنتين . وقد علم أن شعب

استانبول أعد مراسم كبيرة للاستقبال ، فخجل من الخروج أمام حشد كهذا يصفق له . انتظر حتى حلول الليل ، واجتاز بالقرب خلصة إلى سارى طوبقابو ، ولم يعلم الشعب أن سلطانهم فى السراى إلا فى اليوم التالى .

وعلى بساطة هذا الحادث ، فانه يشير إلى العلاقة بين تواضع السلطان وعظمة الدولة ، وقد كانت هذه العلاقة بين عظمة الدولة وتواضع السلطان ملحوظة فى الدولة العثمانية ، ويتضح ذلك جليا عند مقارنة حرص السلاطين على المظاهر والتظاهر فى فترة انحطاط الدولة العثمانية .

مكث ياوز ١٠ أيام فى استانبول وتحرك إلى أدرنة خلال ٩ أيام (١٥١٨/٨/١٣) . واجتمع بابنه الشهزاده سليمان محافظ العرش فى روملى المقيم فيها ، وأرسله إلى لوائه مانيسا . جدد معاهدات الصلح مع البندقية والمجر . وأخذ يستعد لحملة إيران الثانية .

عاد كذلك الوزير الأعظم بيرى محمد باشا من حملة العراق وجاء إلى أدرنة (١٥١٨/١٢/٢٠) .

فتحت هذه الحملة ألوية الموصل ، كركوك وأربيل من الصفويين . وهكذا اقتربت الحدود العثمانية إلى ١٠٠ كم من شمال غرب بغداد . وانتقلت بادية الشام بكاملها إلى الحكم العثمانى .

(٢٥) وفاة السلطان ياوز سليم (١٥٢٠/٩/٢٢) وشخصيته

غادر الخاقان أدرنة فى ١٨ تموز ١٥٢٠ متوجها إلى استانبول . كان يعتزم التوجه من استانبول إلى أسكدار ويخرج منها فى حملة ، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى استانبول وتوفى مساء ٢٢ أيلول ١٥٢٠ نحو وقت المغرب فى طريق أدرنة فى السرادق الهمايونى فى قرية صرت Sirt بسبب التأخر والخطأ فى مداواة القرحة التى كانت فى ظهره والتى تسمى (شيربنجه) . لم يكن قد أكمل ال ٥١ من عمره . دامت سلطنته ٨ سنوات و٤ أشهر و٢٨ يوما وخلافته ٤ سنوات و٢٣ يوما . تربيته ال ٧٤ بين خلفاء المسلمين . لم يعلن خبر وفاته لمدة ٩ أيام لحين قدوم ابنه من مانيسا .

نقل جثمانه إلى استانبول ودفن في قبره الكائن بالقرب من جامع السلطان سليم الذي شيده ابنه باسمه وهو كجده فاتح ، يرقد في هذا القبر وحده .

له ديوان باللغة الفارسية أشعاره التركية قليلة ، وهو أحد أفضل الذين استعملوا الفارسية من الشعراء العثمانيين . له أشعار باللغة العربية كذلك . درس الرياضيات ، والفلسفة ، والآداب ، واللغات الشرقية والعلوم الإسلامية وتعمق فيها ، وكان عالماً في بعض بحوثها . ولى على طرابزون وعمره ١٧ سنة ولمدة ٢٤ سنة (١٤٨٧ - ١٥١١) . اشتهر فيها بمحملاته على إيران وكرجستان . وطأت له هذه الشهرة الجلوس على العرش رغم إخوته الكبار . توفي أحد أبنائه (أورخان) وعمره ١٠ سنين ، ومات ابنه الآخران (موسى وقورقود) وهما طفلان . وعند اعتلائه العرش كان له ابن واحد هو شهباده سليمان . وإلى اليمن أويس باشا (وفاته ١٥٤٦) ابنه من جارية ، بناته خديجة ، حفصة ، فاطمة وشاه سلطان .

نقل جثمانه إلى استانبول بهرى محمد باشا على رأس الجيش الهمايوني . استقبل السلطان سليمان الجثمان عند أسوار استانبول ودخل تحت التابوت . جرى به على الأكتاف إلى جامع فاتح حيث أقيمت صلاة الميت .

قبل وفاته كانت ١٥٠ سفينة في حالة إنشاء في مصنع السفن في استانبول ، ويحتمل أن هذه السفن كانت تعد لحملة لفتح رودس .

عاش أطول من جده فاتح سنة واحدة ، لكن جلوسه على العرش لم يكن بقدر مدة جده فاتح .

قام خلال ٨ سنوات بأعمال لا يستوعبها العقل ، وجعل من الامبراطورية العثمانية دولة عالمية حقيقية كبرى (١٥١٧) ، وحافظت الدولة العثمانية على فتوحاته مدة ٤ قرون . ترك دولة مخيفة لأعدائها تمتد بين فاس وحضرموت ، سودان وروسيا . كان هدفه أن يحقق في إيران ماحققه صلاح الدين الأيوبي في مصر من حيث القضاء على الحكم الشيعي - الذي لم يكن قد أكمل بعد سنته الـ ٢٠ ، والسعي لإقامة الاتحاد الإسلامي ، والوصول إلى طوران ، تركستان والهند . دخلت السياسة الخارجية العثمانية بعده في غير المجرى الذي رسمه لها ، ولم يتحقق هذا المشروع .

كان متوسط القامة أقرب إلى الطول ، قاصب الحاجبين ، شديد النظرات ، غير

ملتج ، طويل الشارين ، عصيبا ، جسورا ، صيادا ماهرا ، فارسا ماهرا فى استعمال الأسلحة .

ترك التقاليد ولم يلتج حتى وفاته (كان قد منع إطالة اللحمة بالنسبة للأمرء أبناء السلاطين أو أبناء أنائهم) كان مولويا ومؤمنا بفلسفة وحدة الوجود . أبدى احتراما كبيرا لمحيى الدين بن العرى ومولانا جلال الدين الرومى . يظهر من قراءته بواسطة النظارات أنه كان مصابا بمرض طول النظر (Hypermetropia) (كان تيمور كذلك يستعمل النظارات وقد شاهد الأوروبيون أول نظارة عندما استعملها تيمور) . كان يجتمع بالعلماء والفنانين ويتباحث معهم ، لم يكن يسمح أبدا بدخول المشروب إلى هذه المجالس ، كما كان يفعل بعض خلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين . يمتاز لباسه بالبساطة التامة عدا المراسم الكبرى . سخر من ابنه سليمان الذى يحب الزركشة فى اللبس . له ولع شديد بالخيل ويملك أرقى أنواع الخيول فى العالم . يسير أمور الدولة ضمن منهج وخطة مدروسة ، يستشير ثم يتوصل إلى قرار ، ويعاقب الذين لا يمثلون لهذا القرار بالإعدام أحيانا . كان مطلعا بشكل فائق على السياسة العالمية ، وكان لا يستغنى ولا يترك أبدا قطع خريطة العالم التى رسمها يرى رئيس (إحدى هذه القطع هى خريطة أمريكا المحفوظة حاليا فى سارى طوبقاهو) . كان يعنى ببقاء الخزينة مليقة فى جميع الأوقات . مصاريفه الشخصية لا تذكر . دهاؤه العسكرى لا مثيل له ، ولا يفوقه فى هذا المجال غير الفاتح فقط . رجل دولة رائد ، ويأتى تربيته كسياسى وخبير فى السياسة الخارجية .. بعد فاتح وابنه سليمان القانونى ، ويمكن القول بأنه أعلم سلاطين بنى عثمان بعد جده الفاتح وأبيه بايزيد .

اعتلى العرش وهو يرث إمبراطورية تمتد على أراض مساحتها ٣٧٣.٠٠٠ كم^٢ ، منها ٥٩٦.٠٠٠ كم^٢ فى آسيا (الأناضول) ، والبقية فى قارة أوربا (١٧٧٧.٠٠٠ كم^٢) . أما الإمبراطورية التى تركها لابنه عند وفاته (١٥٢٠) فقد كانت تمتد على أراض مساحتها ٦٥٥٧.٠٠٠ كم^٢ ، ١٧٠٢.٠٠٠ كم^٢ فى أوربا ، ١٩٠٥.٠٠٠ كم^٢ فى آسيا ، ٢٩٥٠.٠٠٠ كم^٢ فى أفريقيا . ويعنى هذا إن مقدار الاتساع يبلغ ضعفين ونصفا خلال ٨ سنوات .

كانت قد تأسست فى أفريقيا ، لإيالة مصر العظيمة التى تمتد إلى ليبيا ، والسودان وبلاد الحبش ، وإيالة جزائر التى سيأتى ذكرها فيما بعد . وكان الاتحاد الأناضولى

قد تحقق تقريبا ، وألحقت ولايات أدنة ، غازى عنتب ، هاتاي ، أورفة ، ديار بكر ،
ماردين ، سعرت ، موش ، بينغول ، بتلس ، طونجلى ، أرزنجان وكموشخانه . وقد
أخذ قسما من ولايات حكارى وأرضروم وسوف يجرى القانونى بعد عدة سنوات
التعديلات الأخيرة ، ويضع النقاط على الحروف ، وسيلحق بالدولة مناطق ولايات
أرضروم ، وأرتفين ، وآن ، وآغرى التى لم تلحق ، ويحصل على الحدود الحالية .
كانت حدود الدولة فى تلك الأيام تمتد بين أفريقيا الوسطى ، وأوربا الوسطى وجنوب
موسكو ، وبالخاصة إمارتى دلقادر ورمضان ، أصبحتا آخر إمارتين تذكرنا بعهد الإمارات
التركية فى الأناضول ، فى ذمة الماضى .

« أصبحت تركية على عهد ياوز سليم ، دولة عالمية .. دولة عالمية كبرى حقيقية ،
ومع أنه ترك الحرية لأوربا فإن فتوحاته التى لاتعد ولا تحصى فى آسيا وأفريقيا ،
جعلت من الدولة دولة عالمية كبرى . كان البحر الأبيض على وشك أن يصبح بحيرة
تركية ، وصل إلى المحيط الهندى (L'Empire du Levant, Rene GRousset ١٤٢ - ٦٤)
(٤) .

(٢٦) منشأ الأخوة بربروس (١٥٠٠ - ١٥١٣)

والد الأخوة بربروس ، هو أبو يوسف نور الله يعقوب آغا . وقد كان هو وأبوه
عبد الله آغا تمارلى سباهى (أى ضباط فروسية) . جاءوا من قاراسى (بالكسير)
وأخذوا تمار (أراض تعطى من قبل الدولة لإصلاحها) فى شبه جزيرة غاليبولى ،
إيجة آباد (مايدوس) ، ثم فى فاردار ينيجه سى (تراقيا الغربية) . وعلى أثر اشتراك
يعقوب آغا ، فى فتح فاتح لجزيرة ميدللى فى ١٤٦٢ ، أعطيت لهم فيها أراض أوسع .
استوطن فى ميدللى وتزوج بإحدى بناتها ، وأنجب ٥ أبناء ، ٤ منهم اشتهروا فى
التاريخ ، وأسماءهم حسب التسلسل إسحق ، أروج ، خضر ، إلياس ، وفرق العمر
بينهم قليل جدا . إن لقب « بربروس » الذى أطلق على هؤلاء الإخوة وخاصة على
أشهرهم أروج وخضر ، هو لقب يعتقد أنهم لقبوا به لكونهم حمر اللحية .

كان وضع المغرب ، (العالم العربى الغربى بخطوطه الرئيسية) فى النصف الأول
من القرن ١٦ قبيل تدخل الإخوة بربروس فى أفريقيا كما يلى :

كانت إمبراطورية فاس في هذه المنطقة دولة كبيرة ، وكانت تشمل أقصى غرب المنطقة بين البحر الأبيض والأطلسي . (بالعربية : المغرب الأقصى) .

كان الوطاسيون (فرع المرينيين البرابرة المستعربين) يتنافسون على فاس مع شرفاء السعدية .

كانت فاس التي تمتد في الجنوب بشكل واسع نحو أفريقيا قد فقدت مجدها الذي كانت عليه على عهد المرابطين ، والموحدين ، والمرينيين الأوائل ، وانشغلت بالفوضى الداخلية ونزاع السلالات .

وبالإضافة إلى أنها لم تثبت وجودها في الدفاع النهائي عن الأندلس ، فإنه لم يكن بإمكانها التصدي لتسلط الأسيبان على شمال إفريقيا وسواحل الأطلسي لفاس . لكن الدولة الأكثر اقتدارا والأقوى مكانة ، كانت المغرب ، وكان الاستيلاء عليها من الخارج صعبا .

كانت السلالة المسماة عبد الواد أو زياني ، تحكم غرب الجزائر ومدينة عرشها تلمسان . وكان هؤلاء قد فقدوا قوتهم منذ زمن بعيد ، وكانوا عاجزين عن الدفاع حيال الهجوم الأسيباني .

وفي تونس ، كان الحفصيون .

تأسست السلطنة الحفصية في ١٢٢٨ ، وبمضي الوقت تدهورت وضعفت ، وكانت تحافظ على بقائها بالتعايش مع الأسيبان . وبحكم موقع تونس جنوب صقلية ، فإن أسيبانيا التي تسيطر على صقلية ونابولي ، كانت تشكل خطرا على تونس .

كان وضع الجزائر الوسطى والشرقية ضعيفا تماما . وكذلك قبيلية في الجنوب . كان شيوخ البرابرة المستعربون في نزاع قتال ، وكل واحد منهم يسعى لإفناء الآخر ، وليس من بينهم من يحمل صفة الحاكم . وبذلك يمكن القول بأن قطاع ساحل الجزائر كان مفتوحا وميسرا لاستيلاء الأسيبان .

كانت كافة هذه الأقطار سنية - مالكية ، ولم يكن هناك حنفيون لعدم مجيء الأتراك ، وفي ذلك التاريخ ، كان معظم السكان ينطقون باللغة البربرية ، وهي لغة جامية ، وكانت العربية تكاد تكون خاصة بالمدن .

غادر الكاردينال Ximenés مع ٣٣ سفينة حربية و ٥١ سفينة نقل تحمل ٢٤٠٠٠ جندي أسباني ، ميناء قرطاجنة في جنوب أسبانيا واحتل ميناء أوران (بالعربية : وهران) في الجزائر الغربية (١٥٠٩/٥/١٦) ، ذبح ٤٠٠٠ مسلم وساق البقية كعبيد إلى أسبانيا . أصبحت وهران أهم قاعدة للأسبان في شمال أفريقيا . بينما لم يبق للمسلمين في أسبانيا أية قاعدة في ذلك التاريخ .

وفي ١٥٠٨ ، احتلت أسبانيا Penon de Velez ثم جاء Don Pedro Navarro مع ١٥ سفينة حربية و ١٤٠٠٠ جندي إلى بجاية (بالفرنسية : Bougie) ، واحتل هذا الميناء كذلك ، وهكذا أصبحت سلطنة تونس محاطة من الغرب والشرق ، بالقواعد الأسبانية .

انتقلت مدن جزائرية كثيرة لحوزة أسبانيا أو اعترفت بسيطرة الأسبان عليها مثل تنسى مستغانم ، شرشل ، دلس .

احتل دون بيدرو المنطقة الحجرية التي تبعد مسافة ٣٠٠ متر عن ميناء الجزائر ، وشيد فيها قلعة Penon d'Argel ، وكان بإمكانه قصف مدينة الجزائر ومينائها والسفن التي تدخل إلى الميناء بنار المدفعية كما يحلو له .

كان المدفعيون الأسبان يتسلون بتوجيه مدافعهم أثناء أذان المؤذن في مدينة الجزائر ويصوبونها نحو المؤذنين في المنارة ويدمرونها .

تعهد العرب بعدم إدخال أية سفينة لا يقبل الأسبان دخولها إلى أى من الموانئ الجزائرية .

وهكذا تأسست مستعمرة الجزائر الأسبانية ، ووضع حجر أساس متين لجعل شمال أفريقيا ، أمريكا اللاتينية ، وكان الوضع يوحى بأنه لا توجد قوة تحول دون أن يلقى شمال أفريقيا نفس عاقبة الأندلس والقارة الأمريكية .

أقام دون بيدرو في مدينة وهران بلقب ماركيز Gomares كوال عام على مستعمرات شمال أفريقيا . أما البرتغال فقد شيدت قلعتي Mazagan و Āzemûr على سواحل فاس في الأطلسي .

كان الأخوة بربروس ، خلال السنوات التي كانت تعاني فيها أفريقيا من هذا

الوضع ، يعملون كملاك سفن يربحون من تشغيل سفنهم .

كانوا في البداية يعملون في الجزر في بحر إيجه ، ثم أخذوا يعملون بين موانئ سلطنة مصر الواقعة شرق البحر الأبيض وتركيا . وفي إحدى هذه الأسفار ، أثناء ذهابهم من ميديلي إلى طرابلس الشام ، اعترضت طريقهم سفن فرسان رودس ، واستشهد صغيرهم إلياس رئيس وعمره حوالي ٣٠ ، ووقع كبيرهم أوروج رئيس في الأسر .

كان الأخوة بربروس أصحاب سفن أغنياء ، وقد وصلت شهرتهم إلى تركيا وكانوا معروفين في مصر ورودس .

جاء أخوه خضر رئيس إلى بودرم ، وعندما علم بأسر أخيه وسوقه إلى رودس لحمل الأحجار ، وعد باقتداء أخيه بفدية كبيرة ، لكن الفرسان كانوا لا يريدون إطلاق سراح أوروج لعلمهم بخبرته وتفوقه في البحر .

وفي هذه الأيام كان السلطان قورقود أخو السلطان سليم الكبير واليا في أنطاليا . اتفق مع الفرسان على أن يسلموا سنويا إلى الشهبادة ١٠٠ أسير مسلم ويتسلمون هم عوضا عن ذلك أسرى مسيحيين أو دراهم . كان الفرسان يعتزمون عدم ادخال أوروج ضمن قوافل الـ ١٠٠ التي تم الاتفاق عليها ، لكن أوروج ، كان في تلك السنة في سفينة الفرسان التي تنقل الأسرى المسلمين إلى أنطاليا كجدا ف (وقد حدث ذلك نتيجة لغفلتهم) ، وعندما شاهد سواحل أنطاليا ، خرج من سلسله ، وتمكن من القفز إلى البحر والخروج إلى البر .

استمر أوروج الذي نال حريته في العمل في سفنه في البحر الأبيض . ويحتمل أن سنة خلاصه من الأسر هي ١٥٠٦ .

يقال إن السلطان قانصوه استدعاه عندما كان في ميناء الإسكندرية ، وذهب إلى القاهرة ومثل بين يدي السلطان الذي كلفه بقيادة الأسطول المصري الرفيع ، فوافق . وقاد أوروج أيضا الأسطول المملوكي الذي أعاد الشهبادة قورقود من الإسكندرية إلى أنطالية . كلفه السلطان قانصوه أمرا لية البحار الهندية . وافق في البداية ثم اعتذر بعد مدة حيث كان لا يرغب في الذهاب إلى المياه الهندية وإنما كانت رغبته في البحر الأبيض .

ترى لو كان قد وافق على أميرية الهند ، ماذا كان سيصبح مستقبل المغرب ؟

جاء أوروج رئيس إلى مانيسا واجتمع بالسلطان قورقود وتسلم منه سفينتين حريتين كهدية . ذهب إلى ميناء أزمير وتسلم سفيتي الشهزاده . كان قورقود يفكر في تأسيس أسطول قراصنة (الصاعقة البحريين) . وعندما مثل أورج بين يدي السلطان قورقود ليشكره ، تساءل الشهزاده عن سبب عدم ذهابه إلى غرب البحر الأبيض وأخبره بأن المسيحيين هناك يستولون على المسلمين ، وأوصاه بالذهاب ومشاهدة الوضع شخصيا ، وأن يسير في أثر كمال رئيس . قبل يد السلطان قورقود ونال دعاءه .

ذهب بسفينتيه الحريتين إلى مياه إيطاليا الجنوبية ، وضرب السفن الأسبانية والبندقية ، وعاد إلى خليج أزمير .

كان يريد تقبيل يد السلطان قورقود ، ويشكره ويقدم هدية له ، وقبل دخوله ميناء أزمير ، سمع بنجر جلوس السلطان سليم واعتقاله أتباع أخيه السلطان قورقود . ويمكننا أن نقول دون كثير مبالغة أن معظم البحارة الأتراك هم من أتباع قورقود وأنهم يدينون له بالولاء . نزل أوروج في أنطاليا دون أن يمر بأزمير . كان يريد أن يعرف ما إذا كان لقورقود أى أمر يقضيه . وهناك علم مع الأسف باعتقال وإعدام الأمير . كان مقتنعا بأن حياته هو كذلك في خطر .

ترك أوروج المياه التركية ، ودخل ميناء الإسكندرية مع ٤ قطع من سفنه (١٥١٣) . أرسل بحري رئيس إلى القاهرة إلى السلطان قانصوه مع ٤ عبيد و٤ جوارى وهدايا ثمينة . ومع أن السلطان صرح ليحيى رئيس بأن أوروج بك كان في خدمته في السابق وأنه ترك خدمته ولامه على ذلك ، فإنه قبل هداياه وقال إنه بإمكانه أن يعتبر نفسه من رعايا السلطنة المملوكية وبإمكانه أن يطلب الأسلحة والمعدات التي لا يستطيع توفيرها . (يبين هذا شدة حاجة الممالك للبحارة) . غادر أوروج الإسكندرية في صيف سنة ١٥١٣ وجاء إلى جزيرة جربة الواقعة بين تونس وليبيا . وبمجيئه هذا ، تغير سير تاريخ شمال أفريقيا بصورة جذرية .

(٢٧) أوروڭ بك في المغرب (صيف ١٥١٣ - ١٥١٨/١٠/١٠)

سأحاول فيما يلي أن أقدم الخطوط الرئيسية لحياة أوروڭ بك الملحمية خلال السنوات الخمس التي قضاها في المغرب . إن مساحة جزيرة جربة التي رسا فيها أوروڭ (والتي ستذكر بعد الآن مئات المرات في تاريخ البحرية التركية) ، ٥٤٠ كم^٢ . فيها أماكن تقترب من تونس بمسافة ٢ كم^٢ .

يسكن الجزيرة البرابرة الذين استعرب أكثرهم من ناحية اللغة ، وعدا السنين - المالكين ، توجد جماعة الخارجية - العبادية كذلك ، ويتبع شيوخ البرابرة الموجودون في الجزيرة السلطان الحفصى في تونس .

كان كمال رئيس قد ذهب من قبل إلى جربة مرات عديدة . وكان كمال رئيس قد توفي قبل أن تطأ أقدام أوروڭ رئيس الجزيرة بستين ونصف فقط . كان كمال رئيس والبحارة الذين ذهبوا إلى جربة هم السبب في مجيء أوروڭ إلى جربة . وطد أوروڭ قدمه في الجزيرة ، واشترى قسما من الساحل من الشيوخ ، وأسس قاعدة وتأسيسات مهمة .. وبدأ منها بحملاته ، وبعد مدة جاء أخوه خضر رئيس من ميدللى إلى جربة خوفا من ياوز ، وجلب معه سفنا ومعدات كثيرة . كان أوروڭ بك ، لا يريد قطع علاقته بمصر ، ولم يكن مطمئنا إلى ما إذا كان قد اعتبر في تركيا عاصيا أم لا ، والحقيقة أن عائلته الموجودة في ميدللى ، لم تتعرض لأى ضغط ، لكنه لم يكن من الميسور معرفة نوايا سليم ، خاصة أنه لم يكن من عادته أن يصرح مسبقا بما سيفعله . أرسل أوروڭ إلى السلطان قانصوه باستمرار هدايا من الغنائم التي حصل عليها من المسيحيين . كان يتنازع المهمات البحرية من مصر . وقد صرح السلطان قانصوه في شأنه قائلا : « إن كان هناك شخص لا ينكر النعمة ويعرف الخير في العالم ، فهو ابنى أوروڭ قبطان » . إن عبارة كهذه في ذلك العهد ، كانت يستعملها السلاطين الكبار في حق تابعيهم الحكام الصغار فقط .

لقد كان يجب على الأخوة بربروس الذين يعيشون في الأراضى التونسية ، أن يؤسسوا علاقات حسنة مع السلطان التونسي .

كان أبو عبد الله محمد الخامس (١٤٩٤ - ١٥٢٨) ، على عرش تونس في هذه

الأيام . هو خلف وابن أخ يحيى الثالث (١٤٨٨ - ١٤٩٤) الذى توسط لعقد الصلح العثماني - المملوكي .

جاء الإخوة بربروس إلى تونس في ١٥١٣ ومثلوا بين يدي السلطان وقدموا له هدايا ثمينة .

وافق السلطان على إعطائهم قلعة حلق الواد (بالفرنسية : La Goulette) . وهي مجاورة لتونس ، وكانت ميناء متحكما في خليج تونس ، وكان على الإخوة بربروس أن يقدموا إلى السلطان مقابل ذلك خمس الغنائم .

وفي هذه الأيام ، كان لأوروج ١٢ سفينة حربية ، وكان معه أخواه ، ونوتية أترك قديرون ، وكان لديه ١٠٠٠ جندي بحري (لوند) فقط .

كان أوروج في حاجة شديدة إلى جلب جنود بحريين من الأناضول . فقد كان لديه أعوان كثيرون من العرب والبرابرة ، لكنهم ليسوا بحارة . ولتحقيق مشاريعه كان بحاجة شديدة إلى جنود البحرية .

كانت حلق الواد على وشك أن تشهد أحداثاً كبيرة . قضى أوروج شتاء ١٥١٣ - ١٥١٤ فيها . ثم ذهب إلى المياه الخارجية لساردونيا ، استولى بعدها على سفن كثيرة جدا . التقى بين كورسيكا وألبا بسفيتين galerruvayalli للبابا . كانت هاتان السفيتان العملاقان تعتبران من الطرادات الكبيرة في ذلك العهد ، وكانت قطعان أوروج الصغيرة بمثابة الزوارق إذا ما قورنت بهاتين السفيتين كانت كل سفينة من هاتين السفيتين تسير بواسطة ٥٠ زوجاً أى ١٠٠ مجدف وفي كل مجدف أكثر من درزن من الجدافة ، وهما مبتعدتان عن الساحل ، استولى أوروج على الأولى ، ثم على الثانية . ذاع صيته في كامل أوربا باسم « بربروس » .

كان مقتنعا بوجوب تأسيس دولة في شمال أفريقيا ، لإمكان صد المسيحيين .

أراد أولاً تحقيق ذلك في تونس . لكن الحفصيين كانوا سلالة متمكنة ، ومن المحتمل أن تؤدي إزالة عائلة كهذه إلى فقدان محبة شعب شمال أفريقيا .

أما في الجزائر فلم يكن فيها سلالة ولا حاكم .. وكانت معرضة أكثر من غيرها للتسلط المسيحي ، وقد انتقلت أماكن كثيرة منها لحوزة الأسبان . ورغم أن الشيوخ

والقواد في الجزائر كانوا يعترفون ظاهرا بتبعيةهم للملك أسبانيا أو والي عام أوران وللسلطان في الغرب وللسلطان العبدى (نسبة إلى عبد الواد) في الشرق ، لكنهم في الحقيقة كانوا مستقلين .

قرر أوروج بك البدء من بجاية (بالفرنسية : Bougie) ، التى كانت مرفأ أسبانيا على بعد نحو من ٢٠٠ كم غربى مدينة الجزائر . وقد كان بإمكانه التمرکز فيها ، والتوصل إلى مدينة الجزائر وإنهاء التسلط الأسبانى عليها .

دخل بجاية بـ ٤ سفن . أغرق إحدى السفن الأسبانية الـ ٩ التى حاولت منعه . ظفر باثنتين منها وأجبر الـ ٦ الباقية على الفرار . أنزل أوروج بك الجنود والمدافع إلى البر وبدأ بحصار القلعة . وفى اليوم ٨ من الحصار (ك ١٥١٤/١) ، أصابت إحدى طلقات المدفعية ذراعه اليسرى إصابة بالغة . رفع الحصار ، وبترت ذراع الرئيس .

أخذت أساطيل الأخوة بربروس في الاتساع على مر الزمن . وبدأت بضرب السفن المسيحية على نطاق واسع . وعلى سبيل المثال : تمكن خضر رئيس في بداية سنة ١٥١٥ في حملته خلال الشتاء من الاستيلاء على ٢٠ سفينة و ٣٨٠٠ أسير . كثيرون من ربانة السفن الشهيرين جاعوا من الأناضول والتحقوا بالأخوة بربروس ، من هؤلاء ابن أخ كمال رئيس راسم الخرائط البحرية الشهير بيرى رئيس ، آيدن رئيس ، قورقود أوغلو مصلح الدين رئيس ، صالح رئيس (باشا) ، ابنى خضر الاتنين بيوك حسن رئيس (باشا) ، كوجوك حسن رئيس (باشا) ويحى رئيس . وكافة هذه الأسماء تدخل ضمن أشهر أميرالات القرن ١٦ .

كانت الحاجة الشديدة إلى جنود البحر مازال مستمرة . تحسنت صحة أوروج بك في صيف عام ١٥١٥ وبدأ بالخروج في الحملات . رسا في جزيرة Minorka ، رفع الراية وقام بعرض في خليج جنوة وبحر Liguria . أخذوا بترتيب أسفار كثيرة وبدعوا بنقل عشرات الألوف من الأندلسيين من أسبانيا إلى شمال أفريقيا ، حيث كان عملا خطيرا يجرى والأسبان يطاردونهم .

لم يعد أوروج رئيس يخشى السلطان سليم ، فقد كان قد أدرك سياسته الإسلامية وأيدها . كان هو كذلك يقوم بنفس المهمة في المغرب . بعث بمحمى الدين بيرى

رئيس إلى استانبول مع ٦ قطع من السفن . قابل ياوز بيرى (آذار ١٥١٦) ، وأهداه سيفين مرصعين قائلا : « يتقلد أحدها لالا (مرى السلاطين) أوروغ والآخر يتقلده لالا خير الدين خضر ويفزوان الأعداء » . ملأ سفينتين حربيتين بالمهمات الإستراتيجية وسلمها إلى بيرى رئيس . تنفس أوروغ بك الصعداء ، وعادت علاقته بالوطن الأم . كان ياوز يأمل الشئ الكثير من الأخوة بربروس فى سياسة المغرب .

وفى هذه الأثناء احتل الأخوة بربروس Cicelli ثم ساروا منها على بجاية ، وفى هذه المرة احتلوها (١٥١٦/٨/٤) . أقيمت الدعوات فى كافة مساجد المغرب لتوفيق الأخوة بربروس فى جهادهم . أصبح أسطول أوروغ بك ، أسطولا حقيقيا يتكون من ٢٨ قطعة حربية مجهزة بصورة ممتازة جدا ، ولم يكن فى ذلك الحين لدى كثير من الدول الأوربية قوة بحرية تعادىها . استرد الأسبان بجاية فى الحال . إن أوروغ ، الذى كان لا يبالى بأية ظروف غير مواتية ، دخل ميناء الجزائر بأسطول كبير و ٨٠٠ جندى بحرى و ٥٠٠٠ من العرب المتطوعين الذين انضموا إليه ، واحتل المدينة (ك ١٥١٧/٢) . أمر بتلاوة اسمه فى الخطبة بعد اسم السلطان ياوز سليم . وهكذا أعلن حكمه بصورة رسمية .

عاد قورقود أوغلو مصلح الدين الذى أرسله إلى استانبول مع سفينتين حربيتين عثمانية مليئتتين بالمواد الاستراتيجية والجنود البحرين ، وأحضر معه لأوروغ بك - الذى سُمى فى المغرب « سلطانا » بصورة رسمية - الأمر بالادشا هى (الفرمان) المهم الذى أصدره السلطان سليم والذى يخول أوروغ جمع جنود البحر (لوند) من الأناضول وابتياح ما يحتاج إليه من المهمات العسكرية .

بدأ أوروغ بك بحل الخلافات الداخلية للجزائر ، وتحصين الجزائر بالشكل الذى لا يمكن الأسبان من الاستيلاء عليها (سوف يستمر أخوه خضر خير الدين على ذلك) .

صرح العقيد مهند الحج عند نيل الجزائر استقلالها فى ١٩٦٢ بهذا البيان : « نحن مدينون بكل مالدينا وحتى بكياننا كشعب واحد للأتراك . كنا قراصنة عند مجيء العثمانيين ، مكونين من مئات القبائل . عين العثمانيون لأدارتنا أحد الباشوات . جمعوا

القبائل المتفرقة وجعلوها كتلة واحدة وجعلوا منها قوماً بقي تحت الإدارة التركية المركزية مدة ٣٠٠ سنة وتعلموا قيمة الاتحاد . لقد أصبحنا قوماً بمساعدة الأتراك ، (صحيفة حریت ، ١٩٦٢/٨/٣) .

احتل أوروج بك تنيس Trnes وسيطر على ١٠ مدن ومنطقة واسعة . اعلنت أسبانيا الحرب على أوروج بك الذى أعلن نفسه سلطانا (١٥١٧/٩/١) . جاء Don Diego de Vera مع ٤٠ سفينة حربية ، ١٤٠ سفينة نقل و ١٥٠٠٠ جندي مشاة أمام قلعة الجزائر . بدأ بقصف القلعة التى حصنها أوروج . كان آلاف من المحليين يساندون الأسبان .

بدأ أوروج بالهجوم على هؤلاء مؤكدا لهم قوته ، وعلى الرغم من أن الأسبان ركزوا العلم على أبراج قلعة الجزائر ، فى ٣٠ أيلول ، فإن أوروج قام بهجوم شديد اضطر Don Diego إلى رفع الحصار ، وطارده الأتراك وقتلوا ١٥٠٠ أسباني ، وهكذا يكون ذلك البحار المتواضع قد تغلب على أكبر دولة أوربية برية وبحرية .

أحتل أوروج مليانة ومدينة . وعاقب الشيوخ الذين تعاونوا مع الأسبان . أجرى فى البلاد تعداد النفوس وتحصيل الضرائب ، وأخذ فى تطبيق النظام العثماني .

كان أوروج الذى سيطر على سواحل الجزائر الوسطى والشرقية ، يريد لإخراج الأسبان من القطاع الغربى . كان الساحل لدى الأسبان (وهران) ، أما القطاع الداخلى الذى يقع على حدود فاس ، فإنه كان لدى سلالة عبد الوادى (تلمسان) .

كانت تلمسان معرضة لتهديد جدى من قبل الأسبان الموجودين فى وهران حيث لم يكن لدى بنى عبد الواد ، الجيش الذى يمكنهم من صد الجنود الأسبان المجهزين بالمدافع والبنادق .

عقد ملك تلمسان محمد الخامس معاهدة مع الأسبان ضد الأتراك . كان مقتنعا بأنه تخلص بذلك من استيلاء أسباني ، وفى الوقت ذاته تمكن من إيجاد من يدافع عنه ضد الأتراك .

كان فى تلمسان عدد كبير من الأندلسيين . استاء هؤلاء كثيرا من المعاهدة التى عقدت مع الأسبان الذين سفكوا دماء المسلمين ، ولكون المعاهدة ضد المسلمين

الأثراك وهم القوة الوحيدة التي تساعدهم .
ترك أوروج أخاه خضزاً في الجزائر وسار إلى تلمسان .

كانت تلمسان بتعدادها البالغ ١٢٥ ٠٠٠ نسمة إحدى أكبر المدن الأفريقية ،
كانت مزينة ببذائع الفن المعماري الذي لا مثيل له (كان تعداد لندن في هذا التاريخ
٨٥ ألفاً ، وباريس أكبر مدينة مسيحية ٣٨٠ ألف نسمة) . تبلغ المسافة بين
تلمسان وتونس (مسافة مستقيمة) نحو ١٠٠٠ كم . كان الإخوة بربروس ، قد
تمكنوا خلال ٤ سنوات من تكوين أكبر قوة على مساحة كبيرة كهذه وأثبتوا
وجودهم فيها . كان محمد الخامس يسدد إلى الوالي الأسباني سنويا في وهران
١٠ ٠٠٠ ليرة ذهب ، و ١٠ ٠٠٠ رأس غنم ، و ١٠٠٠ رأس من المواشي ، و ١٠
أطنان حنطة و ١٤ حصانا عربييا و ١٤ عبدا أسود البشرة . أفنى علماء تلمسان
بوجوب قتل السلطان ، ذهب وفد من أعيان البلد إلى الجزائر ودعوا أوروج .

فتح أوروج قلعة القلاع أو قلعة بني رشيد (حاليا عويد فضة) وهي على مسافة
١٨٠ كم شمال شرق تلمسان . ترك فيها ٣٠٠ جندي مع أخيه الكبير إسحق رئيس .
شنت جيش محمد الخامس الذي يتكون من ٦٠٠٠ خيال و ٣٠٠٠ مشاة بكل
سهولة خارج تلمسان ودخل المدينة كصديق . استقبله الشعب بمظاهرات التأييد .
أعدم محمد الخامس بناء على فتوى علماء تلمسان (ت ١٥١٧/١) . اعتلى العرش
مكانه أخوه أبو حمّو الثالث . بدا الأمر وكأن أوروج رئيس حاكم الجزائر كلها ،
عدا وهران .

دخل أوروج بك فاس واحتل وجدة أكبر مدينة في فاس الشرقية (تبعد ٦٠
كم جنوب غربى فاس) . عقد مع سلطان فاس معاهدة ضد الأسبان ، لكن سلطان
فاس هاله جدا رقى الأثراك وكان يستعد للاتفاق مع الأسبان على إبعاد الأثراك من
هذه الديار ، ومن هنا فقد اتجه تفكيره إلى أن يتخلص من الأثراك أولا ثم بعد ذلك
يفكر فيما يجب عمله !

ولضرورات جغرافية - سياسية ، انتشر أوروج بك على مساحة واسعة جدا .
اعتبرا من جزيرة جربة في حدود ليبيا ، إلى وجدة في فاس الشرقية ... وقد كان
مثل هذا الوضع عرضة للانهار ، إن لم يتمكن من جلب جنود من تركيا .

كان يظن أن الجميع سوف يؤيدونه لمجهوداته في نقل الأندلسيين من أسبانيا وجهاده ضد المستعمرين الآسبان، في شمال أفريقيا ولتطبيقه للنظام العثماني في الإدارة ، لكن هذا النظام العثماني كان قد ولد رد فعل حتى في الأناضول ؛ فقد ترك الأناضول مئات الآلاف من التركمان الذين لا يريدون التنازل عن امتيازاتهم الإقطاعية ، ووصل بهم الأمر إلى حد تغيير مذاهبهم والذهاب إلى إيران . لقد كان توقع أوروغ أن تتقبل المغرب الإقطاعية هذا النظام فوراً أو أن تتقبله في وقت قصير - مخالفا للواقع .

علم أوروغ بك ، خلال الأيام التي دخل فيها السلطان ياوز سليم إلى القاهرة ، أن ضغوطا كبيرة ستقع عليه . لم تكن أسبانيا المغرورة تفكر أبدا في ترك أفريقيا الشمالية . زود الإخوة بربروس أخاهم الكبير إسحق رئيس بالإمدادات لأنه كان هو الأقرب إلى وهران . اجتمع تحت إمرة إسحق رئيس في قلعة القلاع ٩٠٠ جندي بحري تركي و ٢٠٠٠ خيال عري .

سار دون مارتين دي آرغوت إلى إسحق رئيس من وهران ، واتحد مع الأسبان آلاف من خيالة بنى عبد الواد . تقع قلعة القلاع على طريق مستغانم - معسكره ، وتبعد عن وهران ٨٠ كم فقط . كان الأسبان لا يرغبون في بقاء قلعة شديدة الحصانة كهذه ، وكانت مستغانم ومعسكره بيد الأسبان ، وكان يوشك أن يحتلها الأتراك .

قاوم إسحق رئيس حتى النهاية . لم تصل المعونة التي كان ينتظرها من أخيه خضر رئيس في الجزائر . استشهد إسحق رئيس وأكثريه المتطوعين العرب وتسعة أعشار الجنود البحريين . كان الأسبان قد اكتسبوا قوة كبيرة حيث أرسلت أسبانيا إلى وهران حديثا ١٠ ٠٠٠ جندي . أما قلعة القلاع فقد حاصرها ٢٠٠٠ أسباني و ١٠٠٠٠ عري . نفذ عتاد وطعام الأتراك . وعندما دخل دون مارتين القلعة ، أدهشه أن يجد حفنة من الجنود البحريين الذين لم يذوقوا الطعام منذ أيام وكذلك الجرحى - ملتفين حول إسحق رئيس الذي امتلأ جسمه بالجراح . لقد رفض هؤلاء جميعا التسليم وصمموا على الحرب حتى استشهدوا جميعا (١٥١٨/١/٣١) .

(٢٨) استشهاد أوروغ رئيس (١٥١٨/١٠/١٠) وشخصيته

وفي هذه الأيام ذاتها سار الجيش الأسباني الأصلي إلى أوروغ بك في تلمسان . كان مكونا من ١١٥٠٠ أسباني و ٣٥ ٠٠٠ عري ، وكان المشاة الأسبان مجهزين

بالبنادق ولديهم وحدات مدفعية كذلك .

أما أوروج بك فقد تمكن من جلب عدد قليل جدا من المدافع إلى تلمسان ، وكان يعتمد على شعب الجزائر الغربية ، وسليطان فاس . كانت قلعة القلاع قد قاومت ثلاثة أسابيع وأربعة أيام .. فكم من الوقت ستقاوم تلمسان ياترى ؟ .

دافع أوروج بك عن تلمسان تجاه قاتل أخيه دون مارتن مدة ٦ أشهر . كان يأمل أن يمل الأسبان وينسحبوا ، لكنهم كانوا جنودا عُنْدَاء .

انتظر المعونة من سلطان فاس ، لم تصل المعونة . حتى أخيه خضر بك في الجزائر لم يتمكن من عمل مايؤدي إلى عدم ضياع مدينة الجزائر ولم يتمكن من المجيء إلى تلمسان التي تبعد مسافة كبيرة . لم يكن التلمسانيون قد شاهدوا حربا تركية وأسبانية تستمر إلى النهاية . ضاقوا بهذا الوضع . أغاروا في صبيحة يوم عيد الأضحى بعد صلاة العيد على جنود البحر الأتراك وقتلوا عددا كبيرا منهم . تمكن أوروج بك من السيطرة على الوضع بصعوبة . ولكنه أدرك أنه لن يتمكن من الاحتفاظ بالقلعة بهذا الوضع ، ولم ير من وسيلة غير الخروج وخرق الحصار .

كان الأسبان يتسلمون الإمدادات بصورة مستمرة وكان ماركيز غومارس قد حضر بنفسه من وهران لإدارة وقيادة الحصار . نفذ طعام أوروج وعتاده . قام بطلعة آنية وقتل ٧٠٠ أسباني وأسر ١٠٠ منهم . كانت هذه هي حملته الأخيرة . بقي لديه ٤٠ جنديا بحريا (لوند) فقط . وفي إحدى الليالي قبل طلوع الفجر وأثناء نوم الأسبان ، اجتازوا على حين غرة خط الحصار وخرجوا . تعقب الأسبان أثر أوروج بك بعد مضي ساعتين وكان على رأسهم Don Garcia de Tinco .

قام أفراد قبيلة بني عامر بتعقب أثر ٤٠ تركيا سيئى الحظ لنههم . أخرج الجنود كل مايملكونه ورموه عدا الأسلحة . تأخر البدو خلفهم لاعتسامها . لكن الأسبان لم يغفلوا لحظة واحدة عن التعقب . وصلوا إلى نهر Rio Salado . عبر نصف اللوندات النهر ، مع أوروج وقبل عبور نحو ٢٠ منهم لحق بهم الأسبان . تمكن ٤٥ فقط من خيالة Alferez Garcia de Timeo من المجيء . وبناء عليه ، لو كان قد قدر لأوروج أن يستمر في طريقه لتمكن من النجاة وتمكن خلال فترة قصيرة من تعويض خسائره ، لكنه عاد إلى النهر إلى الورا . وعند عودته كان من الطبيعي أن يجد أن

أكثريّة الجنود الذين لم يتمكنوا من العبور قد استشهدوا . كانوا جوعا عطاشي ، متعبين ، ويعانون من حرارة الشمس . شاهد كذلك استشهد آخر جندي له . رفض التسليم .

أُغمد الدون غارسيا سيفه في قلب البحار الكبير . وفصل رأسه عن جسده وأرسله إلى أسبانيا للتشهير . بقي جسده في الجزائر في منطقة قرية جدا من فاس فوق الأراضي المحرقة .

لم تذهب هذه التضحية هباء ، فقد كان من ثمارها تصميم العثمانية على طرد الأسبان من المغرب .

إن خلعة أوروج بك (الذي نجى مستقبل الدين الإسلامي في أفريقيا من الزوال وأسس الاتحاد الإسلامي) المطرزة بالذهب ، موجودة لدى كاتدرائية مدينة Cordoba (بالعربية : قرطبة) . وقد عرضت سنوات عديدة على الشعب لكسر معنوياته .

كان عمر أوروج بك عند استشهاده ٤٨ سنة (١٥١٨/١٠/١٠) . لم يتزوج ولم يخلف أولادا . قامته أقرب إلى الطول ، أسمر البشرة من تأثير الشمس ، أحمر اللحية ، أشقر الشعر ميال إلى الحمرة ، عيناه كستنائيتان تميلان إلى الصفرة ناريتا النظرات ، عريض الكتفين جدا ، قوى البنية جدا ، كريم إلى درجة كبيرة ، سخي ، رحيم ، خلوق ، كثير الجد وشديد في عمله ، إداري ممتاز ، محبوب ومطاع بصورة مطلقة من جنوده البحريين ، شجاع ، جرىء ، ذكي ، ليس له نظير في حل المشاكل الكبرى ، ماهر في استعمال الأسلحة ، بحار ذو دهاء عظيم . « داهية عظيم وفتاح عظيم ، إن استيطانه شمال أفريقيا التي لا تحتوى على تركي واحد ، توفيق لا يصدق . قلد المارشال الفرنسي Bugeaud في القرن ١٩ ، تكتيك أوروج وفتح قطر الجزائر » . (Histoire Générale , Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٨٠٣ ، ٨٠٥ - ٦ ، ٨٠٨) .

(٢٩) تأسيس إيالة الجزائر (١٥١٩/٥/١٥)

تبعّت الجزائر ، فرنسا بصورة رسمية في ٣١ ك ١٥١٠/٢ .

ذهب سالم التومي الذي يقوم بإدارة المدينة ، إلى أسبانيا بنفسه ومثل بين يدي

الملك فرديناند . كان شعب مدينة الجزائر الذى مل من تسلط الأسبان قد أرسل وفدا إلى أوروج بك الموجود فى Cicelli ودعاه . جاء أوروج إلى الجزائر وأمر بقتل الشيخ سالم حيث كان قد علم أن الشيخ سالم قد رتب له عملية اغتيال داخل الجامع أثناء صلاة الجمعة . لم يبق أثرا للقلعة الأسبانية المشيدة على البحر والتي كان الأسبان يصوبون منها على المنائر ويهدمونها للتسلية . قام أخوه خضر خير الدين بك شخصيا ووحده بنقل ٧٠ ٠٠٠ أندلسى إلى المغرب بأسطوله فى ٧ سفرات بحرية غير مبال بالأخطار الكبيرة . وفى إحدى هذه السفرات نقل بواسطة ٣٦ قطعة من السفن ١٠ ٠٠٠ عربى مسكين من سواحل Oliva الواقعة على مسافة ٦٠ كم جنوبى شرق بلنسية . واستمر آيدن رئيس وسان رئيس على هذا العمل متعرضين للأخطار . تمكن من تخليص آلاف من الأندلسيين من الموت حرقا (Hammer ، ٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٢) .

وفى إحدى هذه السفرات اعترض طريقه أسطول أسبانى ، فدفع الخطر باستيلائه على ١٥ سفينة حربية وإغراق ٣ منها . ساندت استانبول سياسة تخليص الأندلسيين ، قدر استطاعتها .

جاء حاجى حسين رئيس إلى الإسكندرية مع ٤ سفن فى ١٥١٧ . ذهب إلى القاهرة وقدم الهدايا التى أرسلها أوروج بك . منح ياوز كلا من أوروج بك وخير الدين خضر بك رتبة لواء بحرى بصورة رسمية وبهذا كان قد ضم الجزائر إلى الحدود التركية . تليت الخطبة فى الجزائر وتلمسان باسم السلطان سليم . لم يضع الإخوة بربروس أسماءهم على النقود التى سكوها ووضعوا اسم السلطان سليم ، كان وضعهم بالنسبة للمغاربة « سلطان » وبالنسبة للأوروبيين « rey d'Argel, roi d'Alger » (ملك الجزائر) . أرسل ياوز إلى الجزائر ٢٠٠٠ جندى عثمانى وكمية كبيرة من المدافع والبنادق . وانتخب من بين عدد كبير من المتطوعين من أناضول الغربية الذين يرغبون فى الذهاب إلى الجزائر كجنود بحريين ، ٤٠٠٠ شاب عزب أرسلهم للتدريب ولتعلم استعمال المدافع والبنادق وألبسهم البزة العسكرية ، وأرسلهم إلى الجزائر ، لكن أوروج بك كان قد استشهد عند وصول هذا المدد . مات السلطان سليم كذلك بعد فترة وجيزة . لكن ابنه السلطان سليمان استمر على نفس السياسة تجاه المغرب .

وَلَد دخول العثمانية إلى المغرب القلق لدى أوروبا الغربية وعلى رأسها أسبانيا والبرتغال . كما أن السيطرة التركية على غربي البحر الأبيض أضرت بالمصالح القتلونية والفرنسية . وافق السلطان سليم على لقاء الحاجي حسين رئيس في استانبول (١٥١٩/٥/١٥) حيث استمع منه إلى تفصيلات استشهاد أوروغ بك ، تأثر السلطان سليم لذلك ، وأدرك بدهائه المتميز وجوب العناية بالمسألة الجزائرية بصورة أكثر عمقا وتركيزا . منح خضر خير الدين بك رتبة فريق أول بحرى (بكلربك بحرى) ورفع درجة الجزائر من نظام اللواء العثماني إلى نظام الإيالة العثمانية . وولى بربروس خير الدين باشا على الإيالة ، ومنح ابنه حسن بك البالغ عمره ٢٠ سنة رتبة لواء بحرى (سنجق بك) .

دخل بربروس خير الدين باشا ميناء بلنسية ، وقصف المدينة وأفنى الأسطول الأسباني الراسي في الميناء (أيار ١٥١٩) (حضر الأسبان إقامة العرب في بلنسية في ١٥٢٦ ، أخرجوا كافة العرب وهدموا كافة المساجد من قواعدها ، - Lavissee Rambaud ، ٤ ، ٣٥١ ، ٣٦٩) . أرسلت أسبانيا التي أرادت الانتقام إلى الجزائر نائب الملك في صقليا وأكبر قائد أسباني في عصره Don Ugo de Moncada . استصحب مونكادا ، الذي جاء من باليرمو إلى وهران ، ماركيز غوماس وذهب إلى ميناء الجزائر مع ١٧٠ سفينة حرب ونقل و ٢٥ ٠٠٠ جندي .

كان لخير الدين باشا في الجزائر ٣٠٠٠ جندي تركي و ٢٠ ٠٠٠ جندي عري . كان قد استدعى الوحدة التركية الموجودة في تلمسان ، لكنها لم تكن قد تمكنت بعد من القdom .

كان ابن خير الدين باشا حسن بك في تلمسان مع ٧٠٠ جندي تركي و ٢٠٠٠ عري . أبلغه مونكادا بأنه لا يرغب في سفك الدماء ، وأنه يسمح لخير باشا بخروج جنوده وحاجاته التي يمكن نقلها معه وذهابه . أجابه الباشا بنار المدفعية ، وبعد قتال طويل ، حمل خير الدين باشا مع ٥٠٠ من جنوده البحريين على سفن المهمات التي رست واقتربت إلى البر . وأثناء انشغال الأسبان الذين ظنوا أن ذلك هو الهجوم الرئيسي ، خرج الباشا من القلعة وصار يخلف العدو . ترك نائب الملك مونكادا مدافعه ومهماته وأركب جنوده القلائل الذين تمكنوا من النجاة من سيوف الترك في أسطوله ورمى بنفسه في ميناء Ibiza في جزر بالير .

بذلك يكون خير الدين باشا الذى حصل على رتبة فريق أول قبل ٣ أشهر و ٩ أيام ، قد انتصر على أسبانيا المقتدرة . وقد كان لانتصار الجزائر (١٥١٩/٨/٢٣) آثار كبيرة . أرسل قره حسن باشا إلى بلنسية بعد شهرين . اقتتل الأتراك الذين أنزلوا جنودا فى البر مع الأسبان وجلبوا معهم عددا غير قليل من المهاجرين العرب . وفى ربيع عام ١٥٢٠ ، هزم الباشا أسطولا مكونا من ١٥ قطعة أرسلته أسبانيا بواسطة ١٨ سفينة ، واستولى على ٥ قطع منها . احتل تنيس من الأسبان ، وخلال ذلك دخل الأسطول الحرى الأسبانى (أرمادا) المكون من ١١٠ قطع من السفن بقيادة الأدميرال فرناندو ميناء الجزائر . دمر بربروس ، الذى تمكن من جمع أسطوله ، الأسطول الأسبانى ، واشتهر ذلك فى التاريخ العثمانى بانتصار الجزائر الثانى . أسر ٣٦ من رؤساء ملاحى السفن (قبطان) و ٣٦٠٠ جندى أسبانى ، قتل أكثرهم . انتقلت سفينة الأدميرالية لحوزة الأتراك ، وأسر الأدميرال .

ثارت خلال هذه الأيام قبائل كثيرة وقسم من شعب الجزائر على الأتراك . قال خير الدين باشا : إنه لم يأت إلى هذه الأراضى لسفك دماء المسلمين ، وإنما جاء للجهاد ، « ليكن وبال المسلمين على رقابكم ، لئرى كيف تصونون البلاد تجاه الكفرة ؟ » قال ذلك وسلم مفاتيح المدينة لأشراف المدينة ، وترك مدينة ، الجزائر (ك ١٥٢٠/١) . كان للسلطان الحفصى فى تونس دخل كبير ، فى ذلك . اهتم خير الدين بالسلطان وأخذ يراقبه . وخلال هذه الأيام وصل خبر وفاة السلطان سليم وجلس السلطان سليمان ، تغير الاسم فى الخطب وفى النقود .

(٣٠) ولاية بربروس خير الدين باشا على الجزائر (١٥١٩/٥/١٥) -
: (١٥٣٣/١٢/٢٧)

المرحلة الأولى

بترك خير الدين باشا مدينة الجزائر فى ك ١٥٢٠/١ ، كان الأتراك بعد منازعات دامت ٦ سنوات كأنهم عادوا إلى وضعهم السابق الذى كانوا عليه فى ١٥١٤ .

كان بربروس خير الدين باشا يقيم فى هذه الآونة فى Cicelli ، وكان يملك أسطولا مهما وجيشا له مكانته .

لم ينس الشعب العثمانية التي أذاقت الأسبان الأمرين . كان بربروس يتجول في البحر الأبيض مع ٤٠ قطعة من سفنه .

احتل خلال إحدى جولاته جزيرة جربة من سلطان تونس الذي كان يحقد عليه ، وطرده سفراء سلطان تونس كذك ورفض هداياهم ، وأعلن أنه لن يتكلم مع الذين تعاونوا مع الكفار الذين سفكوا دماء المسلمين في الأندلس والمغرب . لم يكن يمر يوم واحد دون أن تأتي من الجزائر الوفود والهدايا والدعوات . لم يوافق على الدعوات . كان الشعب الجزائري متضررا من اختلال الأمن في المدينة ، ومن الحرمان من النعم التي كانت تدرها الغنائم التركية ، ومن ركود التجارة ، بالإضافة إلى استعلاء الأسبان عليهم .

بعد أربع سنوات ونصف دخل خير الدين باشا شرسل ومنها إلى مدينة الجزائر وسط الهتاف والتصفيق . لم تطلق طلقة واحدة . احتل تيس Tenes . دخل قسنطينة . طوّع القبيلة . وسيطر على الجزائر مجددا عدا وهران . كانت حامية أسبانية قد تمركزت مجددا في Penon . أصبحت مدينة الجزائر هادئة منذ عودة بربروس إليها في ١٥٢٥ . قام خير الدين باشا بإنزال على القلعة بعد أن قصف المنطقة الحجرية مدة ٢٠ يوما . استسلم دون مارتين و ٧٠٠ جندي أسباني ، وبعد أن أخذ خير الدين باشا Penon (١٥٢٩/٥/٢٧) ، إضافة إلى ردمه المسافة الواقعة بين المنطقة الحجرية والميناء وذلك بتشغيل ٣٠٠٠٠ أسير مسيحي أغلق الميناء بمجدار عظيم كاسر للأمواج مايزال يحمل اسمه . ولم يعد ممكنا بعد الآن دخول السفن إلى الميناء قبل إسكات المدافع التركية . وعندما لم تشاهد السفن الأسبانية إلا ٩ ، التي جلبت العتاد والمهمات إلى القلعة ، المنطقة الحجرية ، ظنت في البداية أنها أخطأت الطريق ، استولت عليها جميعها ١٥ سفينة تركية أمام أعين شعب مدينة الجزائر .

بعث خير الدين باشا الذي علم في صيف عام ١٥٢٩ ، بمجيء ملك أسبانيا وإمبراطور ألمانيا - Charles Quint إلى جنوة ، صالح رئيس وآيدن رئيس مع ١٤ سفينة إلى بحر ليغوريا . قصف هذا الأسطول بلنسية بعد قصفه مارسيليا ونيس ، وملا سفينة بآلاف الأندلسيين وتوجه نحو طريق الجزائر . قطع عليه الطريق الأسطول الأسباني الذي يقوده الأميرال Portondo ، وقد كان الأميراطور - الملك قد أمر

الأميرال بوقف هذا الأسطول التركى مهما كلفه الأمر وقتل كافة الأندلسيين الموجودين فيه لإزهاق المسلمين الموجودين فى أسبانيا .

أدرك آيدن رئيس بن أحمد (الذى عمل فى السابق كأمرال فى خدمة المماليك) والذى سماه المسيحيون Caccia Diavolo (ضارب الشيطان) ، وسماه الأتراك للمزاح « ضارب الكفار » ، عدم إمكان القتال بسفن مليئة بالبشر ، عاد إلى الساحل مرة أخرى وأنزل الأندلسيين الذين كانوا يتباكون ويمارضون نزولهم ، فى الأراضى الأسبانية ثم جابه الأسطول الأسبانى . بدأ الأتراك بالهجوم واستولوا على ٧ سفن أسبانية ، وتشتت الأسطول الأسبانى الذى لم يستطع مقاومة المدافع التركية بعيدة المدى ودمر ومات Portondo .

اقرب آيدن رئيس من الساحل وعاد عمال سفنه بالأندلسيين الذين تركهم والذين يشكل أكثرهم النساء ، والأطفال ، والشيوخ والمرضى . والذين كانوا كلهم يكون بصوت عال ويدعون بإخلاص للسلطان سليمان ، سلطان بنى عثمان . لقد أبكت هذه الدعوات حتى الملاحين الأتراك المشهورين بشدة صلاتهم ، حيث كان عقاب الأندلسى إذا قبض عليه بعد محاولته الفرار شيه وهو حى فى نار خفيفة (Les Hauser Debats de L'Age Moderne ، ٤٠١) .

أبلغ خير الدين باشا ، السلطان سليمان بهذا الانتصار الذى جرى فى مياه Formentera المفتوحة فى أسبانيا بعريضة مفصلة .

أبحر خير الدين باشا بأسطول مكون من ٢٨ قطعة على مستغانم أهم بلدة فى حوزة الأسبان بعد وهران وقرية منها وفتحها (١٥٢٨) . ومنها سار برا إلى قلعة القلاع التى استشهد فيها أخوه الكبير ، ثم تلمسان ، وفتحهما . قاومت تلمسان ٢٠ يوما . سك خير الدين باشا فى تلمسان نقودا باسم السلطان سليمان .

جاء الأميرال Andrea Doria بأسطول أسبانى - جنوى معزز بـ ٢٠ سفينة حرب فرنسية إلى شرشل (تموز ١٥٣٠) . سار إليه خير الدين باشا بـ ٤٢ سفينة حربية وهزمه . انسحب Doria الذى خسر ١٥٠٠ قتيل و ٦٤٠ أسيرا . تعقب الباشا خصمه ، لكنه لم يوفق فى القبض عليه . دخل ميناء مارسيليا . وقصف طولون . دخل ميناء جنوة وأدار فوهات مدافعه نحو المدينة ، وخلص الأمرايين طرغد

رئيس وصالح رئيس اللذان أسرا قبل ثلاث سنوات وقيدا بالسلاسل . لم يتمكن من القبض على دوريا الذي خرج من جبل طارق إلى المحيط الأطلسي .

عند عودته إلى الجزائر ، وجد أمامه التعليمات السلطانية (فرمان) التي تأمره بعدم الإضرار بأي شكل من الأشكال بالسفن والموانئ الفرنسية ، وعلى أثر الأخبار الأتية الواردة من الأندلسيين ، أرسل أسطولا مكونا من ٣٦ قطعة إلى أسبانيا . تسلم من السلطان سليمان القانوني في هذه المرة الأمر السلطاني الذي ينص على تعيينه للقيادة العامة للقوة البحرية العثمانية (قبودان دريا ، مشير البحر) وناظرا للحرية ، ويأمر بقلومه إلى استانبول . ترك ابنه نائبا عنه واستصحب جميع أميرالاته وتوجه إلى استانبول .



البحث الرابع

«الدولة العالمية»

للسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦)

الدولة العثمانية للسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦)

(١) الحملة الحمانيونية ١ : بلغراد (١٥٢١)

كان السلطان سليم قد عين خير باى باشا والى إيالة على مصر والمناطق المجاورة ، وجانيرد غزالى باشا على أقطار سورية ، عدا حلب أى المنطقة الشمالية - لبنان ، وفلسطين برتبة بكلكر بك (والى) الشام .

كانا كلاهما من رجال الممالك الذين ارتقوا إلى رتبة نائب السلطنة . كتب جانيرد الموجود فى الشام ، عند وفاة السلطان سليم ، إلى خير باى الموجود فى القاهرة بأن البادشاه قد مات وأن إعادة إحياء الدولة المملوكية سهل .

أرسل خير باى إلى جانيرد رسالة توصية بأخذ حلب التى ولها بكلكر بك عثمانى ، وأرسل الرسالة نفسها التى أرسلها له جانيرد إلى استانبول .

وقعت هذه الحادثة فى غضون شتاء ١٥٢٠ - ٢١ .

انهزم جانيرد الذى حاول محاصرة حلب أمام دلقادر أوغلو على بك (باشا) (١٥٢١/٢/٦) وقطع رأسه ، وعين مكانه والى الأناضول لياس باشا الذى صار بعد ذلك وزيرا أعظم .

لم يمض على وفاة والد السلطان سليمان ٨ أشهر حتى خرج بحملته الأولى ، كان الهدف بلغراد ، مفتاح أوروبا الوسطى وأقوى قلعة للمجر فى الحدود التركية التى حاصرها العثمانيون ٣ مرات من قبل ، وقد جرح السلطان محمد الفاتح فى الحصار الثانى ، ومات هنيادى جانوس الذى كان يدافع عن القلعة ، لكن القلعة لم تسقط . كانت القلعة على مسافة ٢٠ كم من الحدود العثمانية .

خرج السلطان سليمان مع ٣٠٠٠ رجل يحمل البارود والرصاص و ٣٠.٠٠٠ رجل يحمل بالمهمات وسفينة محملة بـ ٤٠٠ حصان على نهر الطونة ، و ٥٠ سفينة حربية ، و ١٠.٠٠٠ عجلة محملة بالطحين والشعير ، وفيله مدرعة ، ومدافع .. احتل قلعتى بوغوردلن وزملين ، ثم اجتاز فى ٢٦ تموز سافا ، وجاء إلى بلغراد وفتح المدينة فى ٨ آب والقلعة فى ٢٩ آب . وهكذا حقق النتيجة التى تعذر تحقيقها فى محاصرات ١٤٤١ ، ١٤٥٦ ، ١٤٩٢ . بقى ١٩ يوما فى المدينة ، ترك فيها ٢٠٠ مدفع و ٣.٠٠٠ جندى وعاد من حملته التى دامت ٥ أشهر ، ويومين إلى استانبول فى ١٩ ت ١ ..

(٢) الحملة الهمايونية ٢ : رودس (١٥٢٢ - ٢٣)

كانت رودس بلوى كبرى بالنسبة للمسلمين . كانت طريقة Saint - Jean العسكرية التى تسيطر على رودس والجزر الإثنى عشر وبودروم ، قد تأسست خلال الحملات الصليبية فى عكا للجهاد ضد المسلمين . كانت هذه الطريقة لاتزال تقوم بمهمتها بواسطة أسطولها ، تضرب السفن التى تسير فى شرق البحر الأبيض بين الأناضول ومصر وسورية .

أمر السلطان فاتح بمحاصرتها ٣ مرات ولم يتمكن من أخذها . أعلن السلطان سليمان أن تحقيق ذلك مهمة سلطانية . غادر الأسطول الهمايونى استانبول فى ٤ حزيران (١٥٢٢) ، وفى ١٦ حزيران غادر الجيش الهمايونى مع البادشاه وشيخ الإسلام زنبيللى على أفندى وابن أخيه الوزير الأعظم يبرى محمد باشا ..

جاء الخاقان إلى جزيرة مرمريس ومنها انتقل إلى رودس (٢٨ تموز) بواسطة السفينة الحربية التى يقودها محمد رئيس المسماة يشيل ملك (الملك الأخضر) (احتفظ الأتراك بهذه السفينة فى مصنع سفن رودس لمدة قرون ، وعرضوها على الناس) ويحتمل أن رودس كانت محصنة أكثر من بلغراد ، ويحتمل أنها كانت تعتبر أكثر تحصينا من أية قلعة أخرى فى العالم . كان القانونى قد درس المحاصرة الفاشلة السابقة بصورة جيدة واستفاد منها . طوق الجزيرة بالسفن . فتح الجزر الإثنى عشر الواحدة تلو الأخرى واحتل بودروم (Halikarnassos) آخر أرض مسيحية فى الأناضول .

قاوم الفرسان حتى النهاية . ضحى الأتراك بنحو ٢٠.٠٠٠ شهيد ، وفي النهاية استسلم (١٥٢٢/١٢/٢٠) الفرسان الذين أدركوا أن القلعة إن سقطت جبرا - وكان سقوطها رهن أيام - فسيتم إفناؤهم .

كان والى مصر خير باى قد أرسل بواسطة صهره قايتباى بك فى ٩ آب ٢٤ سفينة محملة بالأرزاق والمهمات ، وقد توفى خير باى بعد مدة وجيزة من ذلك وأصبح الوزير ٢ مصطفى باشا الوالى ٣ للدولة العثمانية على مصر . عجز الفرسان بسبب إمكان الرمى داخل القلعة بواسطة مدافع الهاون والقذائف التركية . كان الجاسوس الموجود داخل القلعة ، يخبر بالأماكن الحساسة فى القلعة بواسطة الضوء . لم يقبض على الجاسوس إلا بعد عدة أسابيع حيث مزقه الفرسان (١٤ أيلول) . لقيت الجاسوسات التركيات ال ٣ الموجودات فى القلعة نفس العاقبة أثناء إضرامهن النار ، ورغم تقطيع أعضاء هؤلاء إربا إربا ، لم يحن بأسماء الجواسيس الآخرين الموجودين فى القلعة . تظاهر أعضاء شبكة الجاسوسية التى أرسلتها العثمانية إلى رودس قبل سنوات بالمشيحية . ويقال إن الفارس الأسباني Don Andrea d'Amara ، حامل رتبة Grand Croix (الصليب الأكبر) ، جاسوس عثماني كذلك (Atlas Hallert ، ١٩٩٠) .

أخذ الفرسان أسلحتهم ، عدا المدافع ، وحاجياتهم التى يمكن نقلها وركبوا سفنهم . وافق السلطان سليمان على زيارة الأستاذ الأعظم de l'isle (الذى كان فرنسيا) (٢٦ ك ١) ، حيث مثل بين يدى السلطان مرة أخرى بعد ٦ أيام وشكره على السماح للفرسان بالخروج بسماحة إنسانية لاتصدق .

خلال هذه الأيام ، كان البابا أندريانوس الثانى يجرى مراسم أعياد الميلاد فى كنيسة سان بيترو فى روما ، فخرجت حجارة سقطت من حافة سقف الكنيسة نحو قدميه ، فتشامم البابا . وقال : « سقطت رودس » . كان ذلك اليوم ، هو اليوم الذى قبل فيه القانونى زيارة الأستاذ الأعظم .

دخل البادشاه المدينة يوم ٢٩ ك ١ . أهم الجزر التى فتحت مع رودس هى استانكوى (باليونانية : Kos) . وجزيرة سومبكى (باليونانية : Simi) وهى جزيرة مهمة كذلك . مساحة رودس ١٤١٢ كم^٢ وبإضافة الجزر الإثنى عشر

تكون المساحة ٢٦٨٢ كم^٢ . كان تعداد سكان هذه الجزر يعادل سكانها حاليا أو أكثر بقليل ، وهى تقع فى منطقة استراتيجية مهمه فى البحر الأبيض .

وهكذا اقتلعت وأزيلت من شرق البحر الأبيض دولة لاتينية (كاثوليكية) من بقايا الحملات الصليبية التى يرجع تاريخها إلى ٢١٣ سنة ، وهى آخر دولة صليبية قضى عليها المسلمون . وفى ١٥٣٠ ، أعطى الإمبراطور - الملك شارل كوينت Charles - Quint إلى الفرسان جزيرة مالطة ، وفى هذه المرة ، قاموا من هذه الجزيرة بإيذاء المسلمين الموجودين فى أواسط البحر الأبيض .

اجتاز البادشاه البحر إلى مرمريس .. فى ٣ ك ٢ (١٥٢٣) مغادرا الجزيرة . وهذه الحملة هى إحدى الحملات الهمايونية عبر البحار النادرة كحملة فاتح على ميديللى وإكريبوز ، حيث إن النظام العثمانى لايسمح بخروج البادشاه عبر البحار .

تم تسريح نحو ٦٠٠٠ أسير مسلم فى رودس ، وأعفى الشعب الرومى من الضرائب لمدة ٣ سنوات وأسكنت الجزيرة بالأتراك القادمين من الأناضول ، وأصبحت لواء بحريا . كان كل الولاة الذين عينوا فيها برتبة لواء بحرى .

مات البابا Adrianus الذى علم بسقوط رودس (Lavissey Rambaud ، ٤ ، ٢٨) .

ولّد سقوط قلعتين من أقوى القلاع المسيحية التى تشكل مفاتيح استراتيجية والتى حاصر العثمانيون كلا منهما ثلاث مرات ، كبلغراد ورودس خلال سنتين متتاليتين الإعجاب والخوف الشديد فى أوروبا تجاه السلطان سليمان . استمرت هذه الحملة الهمايونية ٧ أشهر ، ١٢ يوما .

عاد البادشاه إلى استانبول يوم ٢٩ ك ١٥٢٣/٢ . من حملته هذه التى تعد إحدى الحملات الهمايونية الشتائية النادرة . قاومت قلعة رودس ٤ أشهر و ٢٢ يوما .

أجال السلطان سليمان ، الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) بيرى محمد باشا ، والذي بقى فى الوزارة منذ عهد أبيه ، إلى التقاعد وعين بدلا منه مقبول إبراهيم باشا (١٥٢٣/٦/٢٧) [الذى كان تربه] وعمره ٢٨ سنة . مات بيرى باشا فى ١٥٣٢/١١/١٣ . اما عمه شيخ الإسلام زنبيللى على جمالى أفندى فإنه توفى فى

١٥٢٦ وبقى في مقامه حتى وفاته ، كانت مدة مشيخته ٢٣ سنة . ومدة صدارة
يرى محمد باشا هي ٥ سنوات ، ٩ أشهر ، ١٤ يوما .

ترك الوزير الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا استانبول لمدة ١١ شهراً ، ٥ أيام
(١٥٢٤/٩/٣٠ - ١٥٢٥/٩/٥) وذهب لتفتيش مصر . أجرى إصلاحات مهمة
في هذه الإمالة ، ونظمها على النمط العثماني . قلل الضرائب . اجتمع بأصحاب
الشكايات من الشعب واستمع إليهم ، عمر جامع عمرو بن العاص فاتح مصر .

لم يتمكن الشاه إسماعيل من التخلص من الكآبة النفسية التي ولدتها هزيمة جالدران
ومات في هذه الأيام (١٥٢٤/٥/٢٢) . كان عمره ٣٧ سنة . احتل مكانه ابنه
طحمسب الأول الذي كان عمره ١٠ سنوات ، وانتقلت إدارة الدولة في الحقيقة
إلى الأمراء التركمان .

مات خان قرم منكلي كيراي خان في سنة ١٥١٤ بعد أن ظل على العرش مدة
٤٤ سنة . شنت كبير أبنائه وخلفه محمد كيراي خان ، الجيوش الروسية في
١٥٢١ ، ودخل مدينة موسكو وأحرقها . ومنها جاء إلى قزان وأجلس أحد إخوته
صاحب كيراي على عرش قزان (جلس صاحب كيراي بعدها ١٩ سنة على عرش
قرم) . فتح صاحب كيراي هذا في ١٥٢٤ Nijni Novogrod (حالياً : غوركى)
وهي من أهم المدن الروسية . عاد إلى قرم تاركا ابن أخيه صفاء كيراي بدلا منه
في قزان . حكم صفاء كيراي قزان مدة ٢٣ سنة كممثل للعثمانيين ، وفي ١٥٣٦ ،
احتل للمرة الثانية Nijni Novogrod . أما محمد كيراي خان ، فإنه احتل إمارة
استرخان في ١٥٢٢ .

بهذه الفتوحات أصبحت الحدود العثمانية تمتد إلى شمال غربى بحر الخزر ، دلتا
القولغا ، إلى كاما ، إلى موسكو وإلى غوركى . جاء خاه قازان صاحب كيراي في
١٥٢٤ إلى استانبول ومثل بين يدى السلطان سليمان . فتح إسلام كيراي في
١٥٢٧ ، مدينة Ryazan في جنوب شرقى موسكو . وصل حكم ونفوذ العثمانية في
أوربا الشرقية إلى حده الأقصى حيث ظهرت بعدها في أوربا قضايا كبيرة جدا .

الحملة الهمايونية ٣ : حملة أنكرس ٢ (المجر) أو موهاج (١٥٢٦)

يعزى اتجاه السياسة الخارجية العثمانية نحو غرب البحر الأبيض وأسبانيا ، إلى تسلط أسبانيا - التى حققت وحدتها - على المغرب وغرب العالم الإسلامى ، أما سبب اتجاه السياسة الخارجية العثمانية نحو أوروبا الوسطى اعتبارا من جلوس السلطان سليمان ، فهو ظهور عهد شارل - كوينت Charles - Quint .

اشتهر الحاكم الذى يحمل لقب كارلوس Carlos الأول كملك أسبانيا و كارل Karl الخامس كإمبراطور ألمانيا ، بلقب « شارل - كوينت Charles - Quint » ، ومع أنه من عائلة هابسبورغ أى انه ألمانى ، الا أنه لم يكن يحسن التكلم بالألمانية . نشأ فى هولندا ثم فى أسبانيا . حاز أجداده وأبواه أقطاراً كثيرة بالتزواج .

لم ينجب فرناندو (وفاته ١٥١٦) ملك آراغون ونابولى وصقلية الكاثوليكي - الذى حقق الوحدة الأسبانية بزواجه فى ١٤٦٩ وجلوسه فى ١٤٧٩ ، بملكة كاستيليا (أى أسبانيا الأصلية) إيزابيلا (وفاتها ١٥٠٤) سوى طفلة واحدة هى جوانا Juana . وحيث يجوز جلوس النساء على العرش فى كاستيليا ولم يكن هذا جائزا فى آراغون ، فإن جوانا لم تتمكن من الجلوس على عرش أسبانيا المتحدة عند وفاة أبيها فرناندو فى ١٥١٦ ، وأصبح ابنها ملكا على أسبانيا بلقب كارلوس Carlos الأول . وبذلك يكون هذا الشاب قد وحد على رأسه تيجان ٤ ملكيات كاستيليا ، آراغون ، صقلية ونابولى . وعند وفاة والد كارلوس (أى شارل - كوينت) ، إمبراطور ألمانيا ماكسيميليان الأول ، انتخب إمبراطورا على ألمانيا كذلك . أما أخوات شارل - كوينت ، فقد تزوجن بملوك البرتغال-فرنسا - الدانمارك - النرويج - السويد ، المجر - بوهيميا وأصبحن ملكات تلك الأقطار .

كان شارل - كوينت الذى لا يقيم كثيرا فى ألمانيا وقيم فى أسبانيا وهولندا ، يدير ألمانيا بواسطة أخيه الأرشيدوق فرديناند فون هابسبورغ . كانت عاصمة ألمانيا ، فيينا . كان فرديناند يقيم فى فيينا كأرشيدوق (دوق كبير) للنمسا وتبعه نحو ٥٠٠ دولة ألمانية . كانت أخته ماريّا قد تزوجت بملك (١٥١٦ - ١٥٢٦) المجر وبوهيميا (جيكونسولفاكيا) Lajos (وتقرأ لا يوش) الثانى وتقيم فى بودابست .

وكان فرديناند متزوجا من أخت لايوش الثانى ، وهى أخته الوحيدة Anna (١٥٠٣ - ١٥٤٧) ولا أخ له ، ولم يكن للايوش الثانى ولد . أى أن الأرشيذوق فرديناند - الذى كان وكيلًا للإمبراطور فى ألمانيا نيابة عن أخيه الكبير شارل - كوينت - وملك المجر لايوش أحدهما صهر وكذلك عديل للآخر .

استلقت هذا الوضع اهتمام العثمانية الشديد ، فانتخاب ملك أسبانيا امبراطوراً على ألمانيا ، وكونه الأخ الكبير للملكة المجر (باختصار ، حكمه أو سلطته على أوروبا الوسطى) صنع ماردا عجيبيًا كان يهدد الدولة العالمية العثمانية ، إذ إنه عدا أن وضع الدولة العثمانية مع أسبانيا بسبب المغرب ومسألة الأندلس واضح ، فإن وضعها المتقابل مع كل من جارتها الشماليين المجر وألمانيا معلوم كذلك .

صمم السلطان سليمان على تشتيت هذه الدولة وتقسيمها إلى دول كما كانت فى السابق . ويلاحظ أنه فى ذلك الوقت كانت أسبانيا هى الدولة المسيحية الوحيدة التى تمتلك أقدر جيش وأسطول ، كما كانت قد أصبحت ذات مستعمرات كبيرة فى أمريكا .

وكان يجب ضرب مارد شارل - كوينت فى جبهتين : فى أوروبا الوسطى والبحر الأبيض .

قرر السلطان سليمان أن يترك الأمر فى البحر الأبيض إلى بربروس خير الدين باشا ، أما مسألة أوروبا الوسطى فقد قرر أن يتبناها بنفسه .

سنرى فيما بعد أن شارل - كوينت سوف يتفق مع إيران الصفوية وسوف يحاول ضرب تركيا من الشرق .

بقى ملك فرنسا فرانسوا Francois وملك إنكلترا هنرى ٨ Henry مستقلين بين الحكام الأوروبيين ، وكان شارل - كوينت قد أدخل البقية بشكل أو بآخر فى قبضته .

عزم فرانسوا ١ على منازلة الإمبراطور شارل - كوينت مهما كلفه الأمر ، لكنه هزم فى الحرب الميدانية وأسر وسبق إلى مدريد وسجن فى أحد القصور .

أرسلت أمه Louise Savoie ، الكونت Jean Frangipani إلى السلطان سليمان

القانونى ورجته تخلص ابنها من السجن . وعندما اطلع السلطان (١٥٢٥/١٢/٦) على كتاب نائبة ملكية فرنسا ووالدة ملك فرنسا ، أصبحت بيده حجة مهمة تجاه شارل - كوينت كما أصبح معه حليف طبيعى فى الغرب ، وأصبح بإمكانه التحرك باسم ملك فرنسا بصورة شرعية و رسمية ، حيث إن فرنسا قد طلبت منه ذلك بصورة رسمية .

كان شارل - كوينت بالنسبة ، للأوروبيين ، إمبراطورا على روما الغربية ، أما السلطان سليمان ، فإنه إمبراطور روما الشرقية ، وكان السلطان سليمان يرى أنه هو إمبراطور روما الموحدة وإن شارل - كوينت غاصب . وبالنسبة للدبلوماسية العثمانية ، كان شارل - كوينت هو « كارلوس ملك أسبانيا » فقط ، ولا نجد أبداً صفة الإمبراطور لشارل - كوينت فى أى وثيقة عثمانية . أما بالنسبة لفرنسا ، فقد كان لجوؤها لإمبراطور أوروبا الشرعى ، السلطان سليمان ، أمراً مشروعا بالنسبة للقانون الدولى فى ذلك العهد ؛ إذ كان فى ذلك العصر مرجعان اثنان بالنسبة للملوك المسيحيين الذين يصيهم الحيف : الإمبراطور والبابا ، وكانت قوة البابا العسكرية محدودة ، إذ لم يكن يسيطر إلا على إيطاليا الوسطى فقط .

كان شارل - كوينت قد سجن فرانسوا فى قصر Alcazar (بالعربية : القصر) من مخلفات العرب فى مدريد (بالعربية : مجريط) ، وأجبره هناك على توقيع معاهدة مدريد (١٥٢٦/١/١٤) ذات الشروط الصعبة وأخل سبيله .

ذهب فرانسوا الذى وقع هذه المعاهدة السيئة للحصول على حريته إلى باريس ناجيا بنفسه ، ولم يكن ينوى أبدا تنفيذ شروط هذه المعاهدة ، وأخذ فى تطوير العلاقات التى بدأت والدته بتأسيسها مع السلطان سليمان ، وأخذ يرجو ويطلب من استانبول طلبات لانهاية لها ؛ فقد كانت قوته العسكرية غير كافية لمجابهة الإمبراطور - الملك .

اضطر شارل - كوينت ، خلال سلطته الطويلة ، إلى مواجهة أربعة أعداء ألداء له : أحدهم سليمان القانونى ، الثانى بربروس خير الدين باشا ، الثالث فرانسوا ١ ، ورابعهم مارتن لوثر .

لقد كان ظهور لوثر فى هذه السنوات بالضبط ، نعمة بالنسبة للعثمانية . تمزقت

الوحدة الكاثوليكية . عمل شارل - كوينت الكاثوليكي المتعصب ، مابوسعه للقضاء على هذا الرافضى المتعنت ، لكن مذهب لوثر انتشر بسرعة فائقة ، وأصبحت أقطار كثيرة تدين بالبروتستانتية ، وانفصلت عن نفوذ البابا . عمل القانونى مابوسعه لمساندة لوثر وتقويته .

وهكذا تمهد السبيل إلى حملة القانونى الهمايونية ٣ (١٥٢٦) وهى أشهر حملة بين حملاته ال ١٣ . لقد كانت حملة بلغراد التى جرت قبل ٥ سنوات على الجمر أيضا (بالعثمانية : إنكرس Engürüs) ، ولكنها كانت محلية ، ولم تكن تستهدف سوى فتح القلعة مفتاح أوروبا الوسطى ، بينما كانت حملة الجمر فى هذه المرة حربا شاملة ، تستهدف القضاء على الملكية الكبرى التى دخلت تحت جناح ألمانيا وشارل - كوينت . لم تكن العثمانية ترغب فى ملك يرثه عند وفاته فى بودابست شاب عديم التجربة ، لاورث له ، صهر وفى نفس الوقت عديل لشارل - كوينت . لم يكن بوسعها أن تسكت على تهديد كبير كهذا فى شمال أوطانها .

لم تكن ملكية الجمر ، آنذاك ، الجمر الحالية الصغيرة . كانت الجمر الكبرى التى تمتد حتى البحر الأدرياتيكي ، والحقيقة أنها تكونت من اتحاد ملكيتى الجمر وبوهيميا (جيوكوسلوفاكيا) . وهى تشمل عدا جيوكوسلوفاكيا الحالية ، كافة الأقطار الشمالية ليوغسلافيا (سلوفينيا ، خرواتيا ، إكلافونيا ، أى ماين سافا - درافا ، فويفودينا) ، ترانسلفانيا (بالتركية : أردل) التى ظلت حاليا فى رومانيا وبانات ، وتشمل منطقة الكاربات التى ظلت حاليا فى أوكرانيا . ومع أن الجمرين هم العنصر المسيطر ، إلا أنه كان للملكية كثير من الرعايا السلاف (الجيك ، السلوفاك ، السلوفين ، الخروات) ، وحتى الألمان والرومان والصرب . كانت دولة كاثوليكية تعتمد على جيش قوى . كانت ملكية راسخة يرجع تاريخها إلى ٦٣٧ سنة . كان نفوذ العثمانية كبيرا على دوقية خرواتيا منذ سنوات طويلة .

سار السلطان سليمان من استانبول (١٥٢٦/٤/٢٣) . وصل بلغراد (١٥٢٦/٧/٩) . كان الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا مشتركا فى الحملة . تم الاستيلاء على قلعة بترفارادين ، ذات الأهمية بعد أن قاومت ١٣ يوما (١٥٢٦/٧/٢٧) . تمكن الجيش الهمايونى من العبور من فروع أوطان براحة وانتظام بفضل الجسور الكبيرة التى تم تشييدها وفى ٢٣ آب ، هدم السلطان سليمان

بنار المدفعية جسر درافا الذى اكتمل فى ١٩ آب ، وكان هذا يعنى أنه لعودة إلى الورا . وانه كان يتحتم فتح المجر . دخل الجيش الهمايونى (الإمبراطورى) إلى سهل المجر الكبير (بالمجرية : Alföld) من الجنوب ، وجاء إلى صحراء موهاج التى تقع على مسافة ١٨٥ كم شمال غربى بلغراد ، و ١٧٠ كم جنوب بودابست . وبذلك يكون الجيش الهمايونى قد قطع من استانبول مسافة ١٥٠٠ كم خلال ١٢٨ يوما .

كان قوام الجيش الهمايونى ١٠٠ ٠٠٠ جندى و ٣٠٠ مدفع (Hammer و ٥ ، ٧٦) أما الجيش المجرى فقد كان يبلغ عدده نحو ٢٠٠ ٠٠٠ ، ويتكون من أقوام مختلفة . ومن بين هذا العدد ٣٨٠٠٠ من الوحدات المساعدة التى جاءت من ألمانيا .

كان يقود الجيش ابن عمه البادشاه غازى بالى بك ، ويقود المؤخرة ابن عمه البادشاه كذلك غازى خسرو بك ، وكانت فرق الصاعقة تقوم بصيانة طريق الجيش . جعلت الامطار المستمرة منذ شهور من السهل ، مستنقعات متناثرة ، وكان الرذاذ مائزال يتساقط . وقد كانت بالفعل ناحية من السهل (بالتركية : قره صو) مستنقعا كبيرا .

دخل البادشاه بعد صلاة الصبح بين صفوف الجيش وألقى خطبة بليغة ثم دخل بين صفوف فيلق الصاعقة وألقى خطابا على الجنود هناك أيضا قال فيه إن : « روح الرسول ﷺ تنظر إليكم » . ويقول جلال - زاده : إن السباهيين لم يستطيعوا السيطرة على دموعهم . كان البادشاه مرتديا درعه .

هجم المجريون الذين سثموا الانتظار فى وقت العصر . أمر البادشاه فرق روملى بالأنشطار إلى قسمين ، وجر العدو إلى الداخل بعد مقاومة قليلة . كان ٣٥ فارسا مجريا قد أقسموا على قتل البادشاه ؛ ٣ منهم الفارس Marczali ورفيقاه ، استطاعوا الاقتراب من البادشاه ، وقتل الآخرون . أصيب القانونى برمية سهم ، لكن السهم لم ينفذ من الدرع ، وقتل الفرسان الثلاثة بسيفه . يعتبر هذا الحادث من الملاحم الوطنية فى التاريخ المجرى . تم تدمير الخيالة المجرية المدرعة التى تعرضت لقصف ٣٠٠ مدفع دفعة واحدة . قام بالى وخسرو بمناورات مستمرة تستهدف سوق العدو نحو المستنقعات . استمرت الحرب ساعة ونصف فقط . وفى نهاية هذه المدة ، أصبح الجيش المجرى الذى عاش ٦٣٧ سنة فى ذمة التاريخ .

ظل القسم الأكبر من جيش المجر في ساحة الحرب وغرق أكثرهم في المستنقعات في موهاج ، إن هذه المعركة لم تكن حروب الإبادة التمهيدية والكلاسيكية في التاريخ .

غرق الملك لايوش الثاني ، و ٧ أساقفة ، وجميع القواد الكبار في المستنقع ، وأسرت البقية وهم ٢٥٠٠٠ جندي .

انتهت الحرب خلال رمشة عين ، حتى إن العدو لم يتمكن من إدراك ماحق به . كانت خسائر الأتراك ١٥٠ شهيدا ، وبضعة آلاف من الجرحى وقد تحركوا بدقة كبيرة بحيث لم يقع واحد منهم في المستنقع . « لم يشهد التاريخ حربا كموهاج ، حسمت نتيجتها على هذه الصورة في مصادمة واحدة ، ومحت مستقبل شعب كبير لعصور طويلة » (Lavisce - Rambaud ، ٤ ، ٦٢٢) .

قام الجيش الهمايوني باستعراض في صحراء موهاج في ٣١ آب وحيا الخاقان . هنا الخاقان وقبل يده جميع القواد ابتداء من الوزير الأعظم فردا فردا . وبعد صلاة الفجر في يوم ٣ أيلول ، أخذ الجيش في الصعود نحو الشمال بمحاذاة ساحل ألطونة الغربى . وصلوا إلى بودابست (بالألمانية : Ofen ، بالجرية : Budapest ، بالعثمانية : بودين) خلال ٨ أيام . دخل السلطان سليمان مدينة عرش المجر (١٥٢٦/٩/١١) . كان قد أحتفل بعيد الفطر في (١١ تموز) في بلغراد . استقبل السلطان سليمان تهاى عيد الأضحى في سراى الملك (١٧ أيلول) . مكث ١٣ يوما في المدينة .

كانت علاقة فوفودا (أمير) أردل (ترانسلفانيا) Szapolya (Zapolya) متوترة مع الملك ، لذا لم يشترك في موهاج . جاء مع جنوده الـ ٣٠.٠٠٠ إلى البادشاه وعرض طاعته . كان سبب خلافه مع الملك لايوش التوفى ، ازدياد نفوذ الألمان في المجر . نصب السلطان سليمان ، Zapolya ملكا على المجر وأميرا على أردل تابعا لتركيا ومنحه عرش بودابست . ألحق إسكلافونيا مباشرة . أما جيكونسولفاكيا ، فقد ألحقها الأرشيديوق فرديناند المدعى لوراثة لايوش ٢ ، وأصبح ملكا على بوهيميا .

استغرقت الحملة الهمايونية ٣ سنة ، و ٦ أشهر و ٢٠ يوما . عاد السلطان سليمان إلى استانبول كـ « فاتح المجر » (١٥٢٦/١١/١٣) ، تبدل الميزان تماما في أوروبا

الوسطى ، وصلت الحدود التركية إلى النمسا وجيكوسلوفاكيا . ودخلت العثمانية بين دول أوروبا الوسطى .

(٤) الحملة الهمايونية ٤ : حملة فيينا (١٥٢٩)

بعد أن مكث السلطان سليمان في استانبول نحو سنتين ونصف غادر استانبول (١٥٢٩/٥/١٠) في الحملة الهمايونية ٤ . كان يرافقه إبراهيم باشا أيضا . كان يحمل مهمات الجيش ٢٢٠٠٠ جمل وعشرات الألوف من البغال . قبل السلطان زيارة الملك زابوليا الذي جاء مع ٦٠٠٠ خيال في سرادقه الهمايوني في صحراء موهاج يوم ١٨ آب ، وسمح له بتقبيل يده . جلس على الكرسيين الذهبيين الموضوعين أمام عرشه الذهبي ، إبراهيم باشا وزابوليا . وكما هو معلوم فإن تيجان ملوك المجر المكونة من تاجين متداخلين أحدهما داخل الآخر تسمى كورونا Corona ، ومن لا يملك هذا التاج تعتبر ملكيته مشكوكا فيها . سرق جواسيس الملك فرديناند الكورونا ، وكانوا على وشك أن يهربوا به إلى فيينا . وفي ٢٠ آب قطع بالي بك طريق الجواسيس في طريق فيينا وتمكن من ضبط الكورونا وأرسله في ٤ أيلول إلى السلطان سليمان الذي أرسله إلى زابوليا .

كان زابوليا قد فشل في الدفاع عن بودابست (بالعثمانية : بودين) أمام الألمان وخرجت من حوزته إلى الألمان . كان غرض الحملة استرجاع بودين وإخراج الألمان من المجر . جاء السلطان سليمان في ٣ أيلول ١٥٢٩ أمام المدينة التي يحتلها الألمان منذ ٢٠ آب ١٥٢٧ . سلم الألمان القلعة والمدينة إلى الأتراك بعد ٥ أيام . غادر الخاقان بودين في ١٢ أيلول . جاء زابوليا في ١٤ أيلول ولبس التاج في سراي الملك . وضع سكبانباشي الإنكشارية التاج على رأس ملك المجر . وفي هذه المرة ترك حسن بك في بودين كقائد للقلعة . حيث اتضح أن زابوليا بجنوده غير قادر على حماية القلعة في مواجهة الألمان .

كان السلطان سليمان يبحث عن جيش الملك فرديناند ، ولكن الألمان كانوا حريصين على أن يتجنبوا عاقبة كعاقبة كموهاج .

عثر غازى محمد بك أخو بالى بك على أحد الجيوش الألمانية قرب قصبة Bruck على مسافة ١٥ كم جنوب شرق فيينا وهزمه . أسر القائد العام Von Zedlitz و ٦ من جنralاته . وفى ٢٧ أيلول ، جاء الجيش الهمايونى والحقاقان أمام قلعة فيينا (بالعثمانية : بيج) ، وكانت عرش الامبراطورية الوحيدة للعالم المسيحى .

تم إخلاء المدينة ، كان الألمان قد تركوا المدينة على دفعات فى قوافل ، كل منها ٥٠٠٠ شخص . أسرت الصاعقة بعض هذه القوافل . ترك الملك فرديناند مدينة العرش وانسحب إلى لينز . تولى الدفاع عن فيينا الكونت Nicolas Von Salm وعمره ٧١ سنة مع معاونه الفيلد مارشال Wilhelm Von Rogendorf . بقى فى المدينة ٢٠.٠٠٠ من المشاة ، و ٢٠٠٠ خيال والمدفعية ووحدات أخرى . أبلغ فرديناند أخاه الكبير شارل - كوينت بأن السلطان سليمان ينتوى الوصول إلى نهر الراين . اتخذ الحقاقان Kaiser Ebers dorf الواقعة على مسافة ٢ كم من القلعة ، مقرا له . أحرق الألمان ٢٨ سفينة حربية فى ألطونة لثلا يستولى عليها الأتراك . كان بالقلعة عتاد ومهمات تكفى لعدة شهور .

لم يكن غرض حملة السلطان سليمان احتلال فيينا ، بل كان غرضها العثور على الجيش الألمانى السيار وإبادته . جاء إلى فيينا لتعجيز العدو . ولم يكن ذلك ضمن خطته . حيث إنه كان قد ترك مدافع الحصار الثقيلة فى بودين . حوصرت المدينة مدة ١٩ يوما فقط (٢٧ أيلول - ١٦ ت ١٥٢٩) . لم تكن هذه المدة كافية فى ذلك العهد لإسقاط قلاع بهذا الحجم عنوة ، فعلى سبيل المثال كان السلطان سليمان قد أسقط قبل عدة سنوات قلعة بلغراد خلال ٣٤ يوما ورودس خلال ١٤٤ يوما . لم يتمكن السلطان من العثور على الجيش الألمانى السيار ، ولم يشأ شارل - كوينت أن يرتكب عملا خاليا من الحيلة كهذا . رفع الحصار عند هطول الثلج .

دامت الحملة الهمايونية ٤ مدة ٧ أشهر ، و ٧ أيام . عاد الحقاقان إلى استانبول يوم ١٥٢٩/١٢/١٦ . كانت خسائر العثمانية فى هذه المرة ١٤٠٠٠ بين شهيد وجريح .

جرت طوال مدة استمرار الحملة الهمايونية ٤ ، فى صيف وخريف ١٥٢٩ ، أكبر عملية غزو فى التاريخ العثمانى . أصبحت المنطقة من النمسا ، بافيرا ، مورافيا ،

بوهيميا ، سلوفاكيا ، سيليزيا ، سلوفينيا وحتى الحدود السويسرية ، مجالا للغزو .
اجتاح ابن عمه القانوني يحمي باشا - زاده غازى محمد بك (شقيق بالى بك) فعليا
كلا من بافيرا ، بوهيميا ، مورافيا واحتل فعلاً Regensburg مركز بافيرا و Brunn
مركز مورافيا .

واجتاح مالفوج أوغلو قاسم بك ، الإيالات التمساوية ودخل فريق من المغاوير
Vaduz مركز إمارة Liechtenstein وأحرق قصر الأمير وأسر ابنه ، ثم دخل
سويسرا ، ووصل إلى نهر الراين . إلى خط طول ٩ نحو الغرب .

تقع Vaduz على مسافة ٥٠٠ كم (مسافة مستقيمة) جنوب غربى فيينا
(Lavis - Rambaud ، ٤ ، ٧٢٧ ، هامر ، ٥ ، ١٣٢ ، ٤٨١) .

احتل الأتراك فى (١٥٢٩/١١/١٥) Graz المدينة الكبيرة الثانية فى التمسا ،
وكذلك Maribor فى سلوفينيا ، وكان الغزو لايزال مستمرا فى ك ١٥٢٩/١ ،
حيث كانت الغاية تأمين انسحاب الجيش الهمايونى ، وتأمين عدم تدخل الألمان مرة
أخرى فى أمور المجر .

انكسرت شوكة شارل - كوينت وانهارت خطة التحكم فى أوربا . جاء السفراء
الألمان إلى استانبول فى ت ١ / ١٥٣٠ ، وطلبوا إقرار صفة الإمبراطور لشارل -
كوينت ومنح المجر لانيه فرديناند بنفس الشروط التى منحت بها إلى زابوليا (أيا
كانت) ، أو بشروط أكثر ملاءمة للعثمانية . رفض إبراهيم باشا بصورة قطعية . وعلى
أثر ذلك ، ولكى يحصل شارل - كوينت على الصلح الذى ينشده بالقوة ، تحرك
فى شتاء ٣٠ - ١٥٣١ .

وفى الأيام التى كان يحاصر فيها قاسم باشا Sigetvar الموجودة فى حوزة الألمان
بدأ فرديناند كذلك بمحاصرة بودين . دام الحصار نحو شهرين .

كان حامى القلعة كوجوك قاسم باشا ، وكان بالقلعة ٣٠٠٠ جندى تركى
و ١٠٠٠٠ مجرى . لكن المصاعب بدأت تلوح فى بودين . لحق داماد غازى يحمي
باشا - زاده سلطان - زاده غازى محمد بك (باشا) ، مع أفراد صاعقته . طارد
جيش الفيلدمارشال Von Roggendorf - الذى رفع الحصار بصورة مستعجلة -
إلى أعماق التمسا وأسر ١٥٠٠٠ . لكن السلطان سليمان قرر القيام بحملة جديدة

على ألمانيا في الربيع ، سواء للرد على حصار بودين أو بأمل ضرب جيش شارل - كوينت في حرب ميدانية .

(٥) الحملة الهمايونية ٥ : الحملة الألمانية ٢ (١٥٣٢)

سار السلطان سليمان الثاني من استانبول ، مع إبراهيم باشا في ٢٥ نيسان ١٥٣٢ ، مستصحبا معه ٢٠٠ ٠٠٠ جندي و ٤٠٠ مدفع . فتح قلاع Siklos (بالتركية : شيكلوش) (٢١ تموز) ، Kanije (بالجرية : Nagy Kanizsa ، بالألمانية : Gross - Kanisa) (٣٠ تموز) و ١٥ قلعة أخرى من الدرجة الثانية ، هي قلاع المجر الجنوبية - الغربية التي كانت بحوزة الألمان . شيد جسرا على نهر Raba (بالألمانية : Raab) واجتازه . جاء أمام قلعة Güns (بالجرية : Köszeg ، بالتركية : كونش) وهي قلعة مهمة على بعد ٢ كم من حدود النمسا و ٩ كم جنوب فيينا وفتحها في ٢٨ آب ، ولذلك يطلق على هذه الحملة في التاريخ العثماني اسم « حملة كنز » ، « حملة نمجه (أوستريا) » .

ورغم أنه حرر في ٣٠ آب رسالة شديدة اللهجة إلى الملك فرديناند تساءل فيها عن محل وجوده وأخيه الكبير ، لكنه لم يصادف الجيش الألماني السيار ، وأيقن جيدا أن شارل - كوينت سوف لا يرضى بحرب ميدانية وأنه سيسيطر على المجر بطريقة اضرب وأهرب . وفي ١١ أيلول دخل السلطان سليمان Graz المدينة الكبيرة الثانية في النمسا . سقطت كثير من القلاع النمساوية ، واحتل المدن والنمسا بكاملها .

عاد الخاقان إلى استانبول (١٥٣٢/١١/٢١) من حملته التي دامت ٦ أشهر ٢٦ ويوماً .

بعد المفاوضات الطويلة مع الدبلوماسيين الألمان ، أبرمت معاهدة استانبول (١٥٣٣/٦/٢٢) . وافق الديوان الهمايوني (حكومة الإمبراطورية العثمانية) الذي قرر الحملة على إيران ، على الصلح مع ألمانيا . تم تثبيت الحدود التركية - الألمانية على أساس الحدود النمساوية - المجرية الحالية تقريبا .

نصت المعاهدة على أن تبقى قلعة Győr (بالتركية : يانق قلعة بالألمانية :

(Raab) المهمة - التي تعتبر مفتاح فيينا - لدى العثمانية . تبعد هذه المدينة مسافة ٩٥ كم غربي بودابست و ٨٠ كم جنوب شرق فيينا ، و ٦٠ كم جنوب شرق براتسلافا ، و ١٢ كم عن ألتونة ، على الضفة الغربية من نهر Raba (بالألمانية : Raab) .

تضمنت المعاهدة أيضا اعتراف الديوان بفرديناند ملكا على بوهيميا وأرشيدوقا على النمسا ، وتعتبر أسبانيا خارج معاهدة الصلح .

وبموجب المعاهدة أيضا يعتبر فرديناند في التشرifications معادلا للوزير الأعظم (رئيس الوزراء) ويخاطب أحدهم الآخر بكلمة « أخى » يعتبر الطرف الألماني Zapolya التابع للسلطان ، ملكا على الجر ومعادلا له ويعترف بالبادشاه « أباً » له .

الحملة الهمايونية ٧ : حملة إيطاليا (كورفو و بوليا) (١٥٣٧)

خرج سليمان الثاني بحملة ليران ١ ، بعد هذه الحملة كما سنرى فيما بعد .

أعلنت الحرب على البندقية وسار البادشاه من استانبول بالأسطول الهمايوني في ١٧/٥/١٥٣٧ ، وكان مشير البحر بربروس خير الدين باشا قد سار بالأسطول الهمايوني من استانبول قبل ٦ أيام ، وكان إياس محمد باشا ، الوزير الأعظم منذ ١٥/٣/١٥٣٦ ، يرافق البادشاه . أما الوزير ٣ (وزير أعظم في المستقبل) داماد لطفي باشا ، فقد كان في الأسطول مع بربروس ويقود جنود المشاة الموجودين في الأسطول .

وهكذا انهار الصلح الذي كان مستمرا مع البندقية منذ معاهدة ١٤/١٢/١٥٠٢ . أى منذ ٣٥ سنة .

ومن أسباب الحملة قيام البندقية بتقديم المساعدات المستمرة خفية لألمانيا - أسبانيا ، ورفضها دعوة الديوان لاتفاق تركية - فرنسا .

كان بصحبة البادشاه من أبنائه الأمير (شهزاده) محمد والأمير سليم (الثاني) ، وكان عمراهما ١٦ و ١٣ سنة . أما أولو شهزاده (ولي العهد) مصطفى الذي كان عمره ٢٢ سنة ، فقد كان في مانيسا يقوم بإدارة لواءه صاروخان وآبدن . وبالنسبة

للمعاهدة ، كان ملك فرنسا François ، قد احتل من ألمانيا كوتية Savoie ، لكنه لم يجسر على الدخول إلى شمال إيطاليا وأخل بهذا البند من المعاهدة .

جاء السلطان سليمان إلى ميناء آفلونيا في ألبانيا ، الواقع على بوغاز أوترانتو والساحل المقابل له قلعة - ميناء اوترانتو وإيالة بوليا Pulya الإيطالية ، عن طريق استانبول - أدرنة - فيلييه - اسكب - الباسان . وكانت إيالة بوليا وجميع جنوب إيطاليا في حوزة اسبانيا ، أما جزيرة كورفو العائدة للبنادقة فإنها تقع جنوب آفلونيا .

كان الأسطول الهمايوني المكون من ٢٨٠ قطعة والجيش الهمايوني قد دخلا إلى خليج آفلونيا في ١١ تموز قبل البادشاه بيومين . اجتاز الأسطول بوغاز أوترانتو البالغ طوله ٩٢ كم وأنزل جنودا في إيطاليا وفتح أوترانتو (١٥٣٧/٧/٢٣) . كان قد مضى ٥٦ سنة على إخلاء الأتراك أوترانتو في ١٤٨١ .

أعلنت برنديزي خضوعها . لكن لطفى باشا أخلى إيطاليا بعد ٢١ يوما وعاد إلى آفلونيا (١٣ آب) ، وبدأ حصار كورفو (٢٥ آب - ٦ أيلول) التي تقترب من الساحل التركي إلى حد ٥ كم . احتل كامل الجزيرة ، وكانت القلعة مازالت تقاوم ، تم إنزال ٥٠٠٠ جندي وأكثر من ٣٠ مدفعا إلى الجزيرة . لكن البادشاه أمر برفع الحصار في اليوم الـ ١٢ من الحصار . عارض لطفى وبربروس في رفع الحصار وأفادا بأن القلعة سوف تسقط بعد ١٢ يوما آخرين ، لم يستمع البادشاه لهما ؛ فقد كان متأثرا بمنظر استشهاد أربعة من الجنود الأتراك دفعة واحدة بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة .

أخلت الجزيرة في ١٤ أيلول ، وأصدر القانوني أمر العودة . عاد إلى استانبول (١٥٣٧/١١/٢٢) بعد ٦ أشهر و٦ أيام عن طريق منسطر - سلانيك - سرز - قاوالا ، ديمتوكا - أدرنة . مكث ٢٤ يوما في أدرنة أثناء عودته .

قلب ببربروس في طريق عودته جزر كيكلاذ وكريت رأسا على عقب . طلبت البندقية الصلح . رجت فرنسا الديوان في قبول هذا الصلح . وصل خبر انتصار Vertizo (١٥٣٧/١٢/٢) بعد ٢٠ يوما من وصول القانوني إلى استانبول . كان السلطان - زاده (سليل العائلة المالكة) غازي محمد بك ، قد أباد جيش الجنرال كاتزيانر Katzianer - المكون من ٤٥٠٠٠ جندي و٤٩ مدفعا - الذي اقترب إلى Vertizo قرب Osiyek في شرق خرواتيا .

(٧) الحملة الهمايونية ٨ : حملة بغداد (مولدافيا) (١٥٣٨)

خرج البادشاه في السنة التالية بحملة بغداد (١٥٣٨/٧/٨) . وتصادف في هذه الأيام خروج بربروس خير الدين باشا بحملة البحر الأبيض التي أثمرت انتصار Preveze ، أما والى مصر (وزير أعظم في المستقبل) سليمان باشا ، فقد كان في حملة الهند . اشترك في هذه الحملة كل من الشهزاده محمد والشهزاده سليم (الثانى) ، الوزير الأعظم أياص محمد باشا والوزير الثانى داماد لطفى باشا . وكان فاتح وبايزيد الثانى قد قاما سابقا بحملات على بغداد (مولدافيا) .

كانت بغداد (مولدافيا) إمارة رومانية مستقلة ذاتيا تابعة لتركية . لم يكن لديها ساحل على البحر الأسود وكان قسمها الساحلى تابعا لإدارة العثمانية المباشرة . كان دخول الفويغودا (لقب أمراء الجمر) بترو ٥ ، بتحريض سرى من ألمانيا ، أراضى ملكية بولونيا المتصالحة مع تركية ، وشكوى السفير البولونى ، أحد أسباب هذه الحملة . أعدم السلطان سليمان جنديين تركيين لحرقهما دارا تخص مسيحياً فى ٢٩ آب عندما كان الجيش فى قيزيل كول قوناغى فى شمال دوبروجه وايساكجى . ثم تسجيل هذا الحادث فى الكتب المدرسية الأوربية كقصّة كلاسيكية ، كان الجيش فى أراضى العدو ، لكن الحرب كانت قائمة . ولم يكن الإعدام هو عقوبة هذا الفعل فى أوقات الصلح .

تم اجتياز نهر Prut من الجسر الذى شيده المعمار سنان فى ٣١ آب . جاء الجيش إلى باشا أكبر مدن بغداد ، ومنها إلى سوجوفا (بالرومانية : Suceava) عاصمة الإمارة التى تبعد عنها ١١٠ كم (١٥٣٨/٩/١٥) . كان قد تم اجتياز نهر Seret كذلك . مكث القانونى فى سوجوفا مدة ٧ أيام . أعلن البويار (أشرف الرومان) الرومانيون خضوعهم للبادشاه ، وأعلنوا تمرد الأمير الهارب وعدم اعترافهم به . كانت بشرى كبيرة تنتظر السلطان سليمان فى قصر يانبولو عند عودته (١٥٣٨/١٠/١٥) : لقى أمامه حسن بك بن بربروس خير الدين باشا ، الذى قص عليه تفصيلات انتصار Preveze الذى تحقق قبل ١٧ يوما . عاد البادشاه إلى استانبول فى ١٥٣٨/١١/٢٧ من أقصر حملاته التى استمرت ٤ أشهر و٢٠ يوما .

نتيجة لهذه الحملة ، ضمت الأراضي الواقعة بين نهري دنيستر الذي يطلق عليه الأتراك اسم « بوجاق » وبروت ، إلى الإدارة العثمانية المباشرة وفصلت عن بغداد . ومنذ ذلك الحين تقرر تخصيص حامية مكونة من ١٠٠٠ سباهي و ٥٠٠ إنكشاري في سوجوفا بدعوى حراسة الفوفودا . ألحقت بالعثمانية كامل البلاد المنحصرة بين بروت ودنيستر (بالتركية : تورلا) والتي تسمى بيسارابيا ، وقلصت حدود بغداد بصورة كبيرة . وفي هذه الحملة ، شاهدت الأراضي الرومانية ، لأول مرة في تاريخها ، الفيلة حاملة الكوس (الطبل الضخم) (كاتب جلبي ، فذلكة ، ٤٠٤/١) .

كذلك أخذت من إمارة أفلاق ، المناطق المحيطة بمدينة إربايل وضمت إلى الإدارة العثمانية المباشرة (١٥٤٣) . تمت السيطرة بشكل كامل على المناطق الحساسة لنهر الطونة . أصبحت دوبروجة منذ ذلك العهد وكأنها بلادا تركية . وارتفع عدد سكان باباداغ إلى ١٠٠ ٠٠٠ نسمة . جاء خان قرم وخان قازان السابق صاحب كيراي مع جيشه في هذه الحملة ، وانضم إلى الجيش الهمايوني .

أبرمت مع البندقية معاهدة استانبول (١٥٤٠/١٠/٢٠) . وهكذا تم على نطاق واسع الحيلولة دون انحياز البندقيه إلى شارل - كوينت . ترك آخر رصيفين بحريين بندقيين في مورا (Malvoisia = Monemvasia بالتركية : منكشة = بنفشة ، و Navplion = Nauplia = لتركيا : آنابولو) إلى تركيا ، وانتقلت بعض الجزر في جنوب إيجه ، قلعتين في دالماجيا (Uрана و Nadin) إلى تركيا . وسددت البندقية بالإضافة إلى ذلك ٣٠٠ ٠٠٠ ليرة ذهب كغرامات حرب .

(٨) الحملة الهمايونية ٩ ؛ حملة بودين (١٥٤١)

غادر القانوني استانبول في حملته الـ ٩ بتاريخ ١٥٤١/٦/٢٠ .

سبق أن ذكرنا أنه قد تم إعلان اعتبار الملك زابوليا في ١٥٢٩ « ابنا معنويا » للسلطان سليمان (Makkai ، ١٢٤) ، كما وافق القانوني في ١٥٣٣ على اعتبار الملك فرديناند كذلك ابنا معنويا له .

لم يكن فرديناند قد ترك بعد أطماعه في المجر ، وكان كبير الأمل في ذلك لأن الملك زابوليا ، زوج أخت ملك بولونيا ، لم يكن له ابن ، لكن زابوليا تزوج بأمر القانوني بابنة ملك بولونيا Sigismund الأول ، وأنجب ابنا ، لكنه توفي بعد ١٥ يوما من ولادة الطفل (١٥٤٠/٨/٢٢) وعمره ٥٣ سنة بعد أن ظل ملكا على المجر مدة ١٥ سنة .

إن ترك طفل لا يتجاوز عمره ١٥ يوما على عرش المجر - ترانسلفانيا ، كان يعنى تحريكا لأطماع فرديناند ، وبخاصة أن الأم البولونية ، شابة وليست ذات نفوذ ، وتشغل موقع نيابة السلطنة وهى ليست ذات كفاءة للمنصب .

كان هذا هو الوضع الذى استدعى قيام الخاقان بحملة جديدة . كان يرافقه أبنائه شهزاده سليم (الثانى) وعمره ١٧ سنة وشهزاده بايزيد وعمره ١٥ سنة ، قضعسكر (قاضى العسكر) روملى (شيخ الإسلام فى المستقبل) أبو السعود أفندى ، سليمان باشا الذى صار صدرا أعظم بدلا من داماد لطفى باشا .

أرسل فرديناند الذى أراد السبق والمبادرة ، جيشا ألمانيا كبيرا بقيادة Von Roggendorf وحاول فتح بودين . فاجأ غازى محمد بك (باشا) الجيش الألمانى (ليلة ٢١ - ٢٢ آب ١٥٤١) فى Istabur خارج بودين . هرب الألمان بعد أن تكبدوا خسائر فادحة جدا . نصب السلطان سليمان سرادقه خارج بودين بعد الانتصار بـ ٤ أيام فى ٢٦ آب . وفى ٢٠ آب استقبل الملك المسمى Janos الثانى = يانوش ، وعمره سنة واحدة بمراسم خاصة ، احتضن الأمراء (شهزادات) الطفل ولطفوه بمحبة . أعلن السلطان سليمان ، أنه منح يانوش الثانى إمارة أردل (ترانسلفانيا) وأنه يسمح له بأن يحمل لقب « ملك » إلى نهاية حياته .

أما المجر ، فقد أعلن أنها أصبحت إمالة باسم « إمارة بودين » (١٥٤١/٨/٢٩) . سوف تصبح الإمالة الثانية بعد مصر ، وقبل روملى .. فى التشرiftات العثمانية . ومن الصدف الغريبة ، أن ذلك اليوم صادف الذكرى السنوية الـ ١٥ لانتصار موهاج . عين رمضان أوغلو أزون حسن واليا على الإمالة بمرتبة وزير ، وهذا الأمير التركمانى كان قبل عدة سنوات أول وال للدولة على إمالة بغداد (العراق) . وهو حفيد محمد بك الذى توفى فى معركة رداية وابن رمضان أوغلو

كباد باشا . وعين لولاية بودين بعد سليمان باشا ، ابنا عمته يحيى باشا - زاده غازى بالى باشا ، وبعد وفاته ، أخوه غازى محمد باشا .

خصص لقلعة بودين ٦٠٠٠ جندى وفى مراكز الالوية حاميات لانتقل أعدادها عن ١٠٠٠ جندى . أما أردل (٨٤٠٠٠ كم^٢) فقد أصبحت إمارة مجرية مستقلة ذاتيا .

دخل القانونى بودين بمراسم عسكرية واستمع إلى الخطبة التى تلاها أبو السعود أفندى فى جامع فتحية (١٥٤١/٩/٢) . أخلت الملكة السراى الملكى ، وقام الأتراك بصيافته والعناية به ، واعتبر قصرا للبادشاه ، ولم يخصص لإقامة الأمراء ، حيث أقاموا فى سراى آخر .

ظل شريط من الأراضى فى شمال شرق انجر بحوزة الملك فرديناند . ووفقاً لمعاهدة استانبول كان فرديناند بالنسبة لهذه الأراضى تابعا للبادشاه ويدفع سنويا ضريبة قدرها ٤٠ ٠٠٠ ليرة ذهبية .

دامت هذه الحملة ٥ أشهر ، ٧ أيام . عاد السلطان سليمان الذى أقام فى بودين ٢٦ يوما إلى استانبول فى ١٥٤١/١١/٢٧ .

قام فرديناند بمحاولة أخرى لأخذ بودين . جاء منتخب براندنبورغ Joachim الثانى Von Hohrnzollern أمام بودين (١٥٤٢/١١/١٧) ، بجيش صليبي مكون من ١٠٠ ٠٠٠ جندى ، منهم ٤٠ ٠٠٠ من المشاة و ٨٠٠٠ خيال من الألمان والبقية أسبان ، وقوات البابوية الخ .

بدأ يواكيم Joachim الثانى الذى يجلس على عرش برلين (وعمره ٣٧ سنة) ، بقصف قلعة بودين بواسطة ٤٠ مدفعاً .

جاء القانونى من استانبول إلى أدرنة لمراقبة الوضع عن كثب . هزم الألمان فى كل من الهجومين العاملين . أعطى المنتخب فى ليلة ٢٣ - ٢٤ ت ٢ (١٤٥٢) أمر الانسحاب بصورة سرية ، لكنه شاهد فى صبيحة يوم ٢٤ ت ٢ ، جيوش السلطان - زاده غازى بالى باشا مع ٨٠٠٠ من جنوده تطارده . قتل وأسر الباشا أكثر من نصف الجيش بعد أن تمكن من اللحاق به .

(٩) الحملة الهمايونية ١٠ : انتصار استركون (١٥٤٣)

سار القانونى من أدرنة التى قضى فيها شتاء كاملا (١٥٤٣/٤/٢٣) .

اخذت ٣٧١ قطعة من أسطول الطونة الرفيع (الأسطول النهري الذى يتكون من قطع بحرية رفيعة وطويلة) فى حمل الأرزاق والمهمات من دلتا الطونة فى البحر الاسود ، والمسير على طول نهر الطونة . وفى الوقت الذى خرج فيه السلطان سليمان فى حملة ألمانيا ، كان بربروس كذلك يسير فى حملة فرنسية غرب البحر الأبيض ، تجاه أسبانيا . كان قد فتح جبهة ثانية . استعادت بح (٤ تموز) التى كانت فى حوزة الألمان منذ ٣ سنوات واستعادت كذلك شيكلوش (٥ تموز) .

وفى ٢٩ تموز جاء البادشاه أمام استركون (بالجرية Esztergon وبالألمانية : Gran) ، التى كانت قلعة مهمة جدا على مسافة ٣٠ كم شمال غربى بودين ، على الساحل الجنوبى من الطونة (الساحل المواجه له ، سلوفاكيا) . قصف القلعة بواسطة ٣١٥ مدفعا ، واستعادت بعد ١٢ يوما (١٥٤٣/٨/١٠) . استشهد عقيد مشاة وعقيد بحرية واحد . مات بالى باشا فى تلك الأثناء وعين مكانه أخوه محمد باشا واليا على بودين .

كانت هناك قلعة مهمة أخرى يحتلها الألمان منذ ٣ سنوات وهى استولنى - بلغراد (بالجرية : Székesfehérvár بالألمانية : Stuhlweissenburg) تقع على مسافة ٥٠ كم من جنوب غربى يورش . تم استعادتها فى ٤ أيلول ١٥٤٣ بعد أن قاومت ١٥ يوما .

كانت استركون مركزا دينيا للمجر ، يقيم فيه رئيس أساقفة المجر الكاثوليك . كان الأتراك يحترمون . أما استولنى - بلغراد ، فكانت هى المدينة التى يدفن فيها ملوك المجر ، وكان الملوك الذين يتوجون فى هذه الكاتدرائية يدفنون فيها عند وفاتهم . كانت القاعدة أنه يتم تحويل الكنائس الكبيرة فى المدن التى لاتستسلم من تلقاء نفسها وتفتح بالقوة إلى جوامع . لكن السلطان سليمان الثانى ، مراعاة لشعور المجرين ، لم يأمر بتحويل هذه الكاتدرائية إلى جامع وأمر بتحويل كنيسة أصغر منها ، وأعاد الكاتدرائية لإدارة الرهبان الكاثوليك ، وتحتوى الكاتدرائية على صلبان من الذهب موضوعة على نعوش الملوك ، وفى أصابعهم محابس من الماس ، وعلى رءوسهم تيجان مرصعة . لم يمس الأتراك أبدا هذه الخزانة .

ارتبطت استركون واستولنى - بلغراد ببودين كمرکزى لواعين مهمين .
وأصبحت استركون من أهم قواعد جنود الصاعقة . حيث إنها كانت على الحدود
الألمانية تماما . عين والى بودين أحمد بك شقيق غازى محمد باشا ، واليا على لواء
استولنى - بلغراد وهو ابن عمه البادشاه .

دامت الحملة الهمايونية ٦ أشهر و٢٣ يوما . عاد الحاكم العالمى السلطان سليمان
إلى استانبول فى ١٦ ت ١٥٤٣/٢ .

أحيل الوزير الأعظم سليمان باشا - المشهور بمحلمته على الهند - إلى التقاعد ،
وحل محله فى هذا المقام زوج ابنة القانونى الوحيدة .. داماد رسم باشا . فتح والى
بودين غازى محمد باشا ، بالاشتراك مع والى بوسنة أولاما باشا ، قلاعاً كثيرة من
الألمان بعد عودة البادشاه . طلبت ألمانيا الصلح .

أبرمت فى البداية مع ألمانيا فى ١٠ ت ١٥٤٥/٢ ، هدنة لمدة ١/٥ سنة . طالت
مفاوضات الصلح بسبب دلال العثمانية . لكن فيينا التى تفقد فى كل سنة عدة قلاع
فى حروب الحدود والتى عجزت عن صد هجمات الصاعقة ، مالت إلى الصلح ،
وكان الديوان الهمايونى الذى يريد التوجه نحو الشرق ، نحو إيران ، يؤيد الصلح
كذلك . تم التوقيع على معاهدة استانبول فى ١٩ حزيران ١٥٤٧ وصادق عليها
شارل - كوينت فى ١ آب وصادق عليها السلطان سليمان فى ٨ ت ١ .

جرت مراسم التوقيع فى سراى رسم باشا فى استانبول . وقع رسم باشا نيابة
عن تركية . مات فى هذه الأثناء بربروس ، وكانت السياسة الأسبانية للقانونى قد
دخلت مرحلة التوقف لعدة سنوات . ولم تعد فرنسا تراعى شروط المعاهدة ، وتقوم
بالانفاق مع شارل - كوينت كلما وجدت ظروفا مواتية لها .

كان القانونى يستعد لحملة ثانية على إيران .

تتلخص أهم شروط معاهدة استانبول التى تعتبر انتصارا كبيرا للدبلوماسية
التركية فى القانون الدولى فيما يلى :

- الاعتراف بالفتوحات التركية .

- يعتبر فرديناند حاكماً تابعاً للبادشاه فيما يتعلق بالأراضي العائدة للتاج المجرى السابق والموجودة في حوزته .

- يدفع ضريبة سنوية تبلغ ٥٣.٠٠٠ ليرة ذهبية .

- كملك بوهيميا وأرشيدوق النمسا ، لا يكون فرديناند تابعاً للبادشاه .

- يسمح لرعايا الإمبراطوريتين التركية والألمانية بزيارة قطرى أحدهما الآخر بصورة متقابلة ، وبحرية ، وكذلك المتاجرة في كلا القطرين شرط سداد الرسوم الجمركية .

- يعاد الشخص من رعايا العثمانية الهارب إلى ألمانيا ، في الحال إذا طلبت العثمانية ذلك - سواء كان مسيحياً أو مسلماً .

- لا يعاد اللاجئين إلى تركيا من الرعايا الألمان إن كانوا مسلمين ، أما إذا كانوا مسيحيين فإن الدولة العثمانية سوف تعيدهم إذا أسفرت نتيجة التحقيق عن أنهم مجرمون عاديون ، ولا تعيد المجرمين السياسيين .

- يعتبر الملك فرديناند في التشریفات العثمانية معادلاً للوزير الأعظم ، ويتم تنظيم جميع المكاتبات على هذا الأساس . ويعتبر الخاقان التركي أباً له ، وبطيعة كالابن .

- لا تخل هذه الشروط بتابعة فرديناند لأخيه الكبير ومتبوعه أمبراطور ألمانيا وملك أسبانيا شارل - كوينت .

- يقر شارل - كوينت بشروط هذه المعاهدة سواء كإمبراطور المانيا ، أو كملك أسبانيا .

- لا يستعمل الإمبراطور - الملك صفة الإمبراطور أبداً في مكاتباته مع الجهات الدبلوماسية التركية ولا يطلب استعمالها ، ويعتبر كملك لأسبانيا فقط ، ويوافق على استعمال عبارة « كارلوس ملك ولاية أسبانيا » .

- لا تستعمل صفة الإمبراطور في أوروبا في المكاتبات الدبلوماسية مع تركيا ، إلا بالنسبة « لبادشاه العالم » السلطان سليمان .

- تتعهد دول كل من : فرنسا ، البندقية والبابوية برعاية شروط هذه المعاهدة .

تمثل هذه المعاهدة القمة التي توصلت إليها شوكة تركيا طوال فترة التاريخ
(Hammer ، ٥ ، ٣٩٥ - ٦) .

لقد جعلت هذه المعاهدة أوروبا جميعها توافق بصورة رسمية على رجحان الوضع
القانوني لتركيا وعدم مساواتها مع أية دولة أخرى .

وهكذا يكون نزاع القانوني - شارل - كوينت ، قد انتصر فيه القانوني بشكل
حاسم ، بعد حروب استمرت ٣٠ سنة .

(١٠) العلاقات التركية - الألمانية من معاهدة استانبول (١٥٤٧/١٠/٨) إلى
تنازل شارل - كوينت عن العرش (١٥٥٦/١/١٦) .

اعترت العلاقات التركية - الألمانية فترة توقف في غضون الأربع سنوات التي
تلت معاهدة استانبول . قام القانوني خلالها ، بحملته ال ٢ على إيران .

جرت حملة والى (بكنلربك ، فريق أول ، أمير الأمراء) روملى صوقوللو محمد
باشا على أردل في ١٥٥١ ، بسبب تدخل الملك فرديناند في قضايا أردل بصورة
سرية وقت أن كان البادشاه في إيران .

غادر صوقوللو في ١٠ تموز ١٥٥١ ، مركز إمالة روملى صوفيا وجاء إلى بلغراد .
وفي ٧ أيلول اجتاز ألطونة نحو الشمال بجيشه البالغ ٨٠ ٠٠٠ جندي و ١٥٠٠ مدفعا ،
واحتل كافة القلاع الموجودة بحوزة الألمان في بانات وأردل والتي أهمها Libva
(Lipva بالرومانية : Lipova) ، Arad ، جاناد (بالجرية : Csanad) . أما
تامشوار (بالرومانية : Timisoara بالجرية : Temesvar) فقد حوصرت مدة ١٥
يوما ورفع عنها الحصار في ١٦ ت ٢ . كان قد تجمع فيها جيش ألماني مكون من
١٠٠ ٠٠٠ شخص . ومع أن الجنرال Toth حاصر Segedin بجيشه البالغ
١٠٠ ٠٠٠ جندي ، فإن الفريق الأول على باشا الذي جاء من بودين
(١٥٥٢/٢/٢٤) افنى الجيش الألماني عن بكرة أبيه .

وعندما لم يتمكن صوقوللو من إسقاط تامشوار ، أرسل في السنة التالية الوزير
٢ داماد قره أحمد باشا (وزير أعظم في المستقبل) كقائد عام . احتل القلعة من

الألمان بعد حصار دام ٢٨ يوما (١٥٥٢/٧/٢٦) . أما والى بودين على باشا ، فقد أباد الجيش الألماني الذى بادره بالهجوم فى حرب Fülele الميدانية (١٥٥٢/٨/١١) وأسر القائد العام ومساعدته . وبعد تطهير قره أحمد باشا ، اردل من الالمان ، واحتلال Szolnok فى ٤ أيلول سار بجيشه على قلعة أكرى (بالمجرية : Eger بالألمانية : Erlau) المهمة جدا التى بحوزة الألمان والواقعة فى شمال شرق المجر . والى تبعد مسافة ٩٠ كم شمال شرق بودين . كان والى بودين على باشا ، ووالى إيالة روملى صوقوللو محمد باشا ووالى بوسنه أولاما باشا بجمية أحمد باشا . لم ينته الحصار إلى نتيجة ومن ثم فقد تم رفعه فى ١٩ ت ١ بعد أن استمر ٣٩ يوما . كانت المدفعية التركية قد قذفت القلعة خلال هذه المدة بـ ١٢ ٠٠٠ طلقة (Hammer ، ٦ ، ٥٠) . سيفتح أحمد الثالث أكرى بعد ٤٤ سنة من هذا التاريخ .

ودخلت العلاقات الألمانية - التركية مرة أخرى فى فترة توقف . وخلال تلك الفترة حاصر والى بودين على باشا Sigetvar مدة ٣٢ يوما (٢١ آيار - ٣١ تموز ١٥٥٦) لكنه لم يتمكن من إسقاطها ، وسوف يحتلها القانونى بعد ١٠ سنوات . كانت خسائر تركيا فى هذا الحصار ضابطا واحدا برتبة لواء و ٣ عقدا خيالة واستشهد ٧٠٠ ضابط وجندى ، وجرح ضابطان برتبة لواء .

كان المارد العجيب المسمى شارل - كوينت ، قد انهزم تجاه العثمانية فى أوروبا الوسطى ، وفى شمال أفريقيا والبحر الأبيض ، كما سنرى فيما بعد . وقد شهد خلال سنى حكمه ، انقسام أوروبا من الناحية الدينية إلى فريقين عدوين كاثوليك وبروتستانت . وفشل فى منازلة القانونى وبربروس ولوتر .

حاولت أسبانيا تعويض خسائرها فى أوروبا ، باتخاذها مستعمرات فى القارة الأمريكية . وبدأت تعتمد عليها اقتصاديا .

إن استعمار أسبانيا للعالم الجديد يشكل صحائف مشينة فى التاريخ كأعمالهم فى الأندلس ، فعلى سبيل المثال ، كان تعداد جزيرة هائيى فى السنة التى اكتشف فيها البيض القارة عام ١٤٩٢ ، نحو ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة . وبعد ٢٢ سنة ، فى ١٥١٤ ، بقى فيها من السكان المحليين ١٣ ٠٠٠ ، أفنى المستعمرون الأسبان بقيتهم . إن الأسبان الذين اصطادوا الزنوج من ضفاف خليج غينة فى أفريقيا ، اعتبارا من

١٥٠١ ، ساقوهم أولا إلى جزر الانتيل ، ومن ثم إلى القارة الأمريكية واستعبدوهم كعمال أراضي ومناجم ، كانوا عاملا في تكوين كتلة كبيرة من الزوج الموجودين حاليا في القارة الأمريكية ، ولقد لجأ الأسبان إلى ذلك لأن تشغيل سكان أمريكا المحليين الذين يتكونون من مئات الأعراق ، والذين يطلق عليهم اسم الهنود الحمر ، كعبيد في الأراضي والمناجم ، كان من الأمور الصعبة جدا . أفنى الأسبان السكان المحليين بالقتل الجماعي في كل مكان يتواجدون فيه ، أحرقوهم بالنار ، اصطادوهم كالحيوانات ، وأجبروا الباقين منهم على اعتناق المذهب الكاثوليكي وعلى تكلم اللغة الأسبانية . درست آثار حضارات inka الكبرى ، Aztek و Maya ، وبدائعها المعمارية ومدنها . نهب كل ما كان موجودا . احتلت بهذا الشكل في ١٥١٩ - ٢٢ دولة Aztek في المكسيك وفي ١٥٣٢ - ٣٥ دولة Inka في بيرو . احتلت فنزويلا في ١٥٢٠ - ٤٠ ، وشبه جزيرة Yukafan في ١٥٢٧ - ٤٧ ، كولومبيا في ١٥٣٨ ، شيلي في ١٥٤٠ . واعتبارا من ١٥٥٠ ، أصبحت الأرجنتين وباراغواي مستعمرة أسبانية . استوطن هذه الأراضي على مر الزمن ملايين الأسبان . وأصبحت هذه المستعمرات - وبخاصة مناجم الفضة في بيرو - المصدر الرئيسي لتمويل القوات البرية والبحرية الأسبانية في القرن ١٦ .

انتشرت على مر الزمن البروتستانتية التي بدأت بـ « احتجاج » مارتن لوثر على بيع صكوك الغفران (موافقات البابا على دخول الجنة) .

قامت حرب كاثوليكية - بروتستانتية لايتصور العقل فظاعتها ، حاول فيها كل طرف من الطرفين إفناء الآخر .

لم يتمكن المذهب الجديد من النفاذ أبدا إلى أسبانيا أو البرتغال أو إيطاليا . أثر قليلا على فرنسا والأقطار الألمانية كالمسا ، لم ينفذ كذلك إلى بافيرا ، ولم ينتشر في الأقطار الأرثوذكسية ، وأوروبا الشرقية والبلقان . حقق نفاذا في الأقطار الكاثوليكية على الأخص .

على أثر قبول كثير من الدول الألمانية ، المذهب الجديد اضطر شارل - كوينت إلى الاعتراف بصورة رسمية بالمذهب البروتستانتى الذى ينفر منه ، وذلك للحفاظ على صفة إمبراطور ألمانيا ولمنع انقسام الإمبراطورية . ولكن سلالة هابسبورغ حاملة

تاج الإمبراطورية ، وسلالة Capet أكبر سلالة مسيحية في فرنسا ، بقيتا على المذهب الكاثوليكي .

بدأ الحكام البروتستانت وعلية القوم في أوروبا في طلب المعونة المستمرة من الديوان الهمايوني . كان البروتستانت يطلبون معونة بادشاه العالم لمواجهة « الكاثوليك الوثنيين والإمبراطور الذي يؤيدهم » . ذهب محرم جاووش إلى أوروبا كممثل شخصي للقانوني وحمل معه كتاب السلطان الذي يؤيد فيه مساندة البروتستانت . ووصل حتى هولندا ونقل الخطاب السلطاني إلى الأمراء معتنقي المذهب البروتستانتي (صورة الخط السلطاني : منشآت السلاطين ، ٢ ، ٤٥٠) .

ساند الديوان الهمايوني كافة الحكام البروتستانت وجميع معارضي الإمبراطور والبابا . كان الخط الهمايوني المؤرخ ١٠/٥/١٥٥٢ ، يقدم الضمانات لحاكم سكسونيا موريس الأول (١٥٤١ - ١٥٥٣) ، ولدوق بروسيا آلبيرت (١٥٢٥ - ١٥٦٨) ولحكام البروتستانت الألمان الأقل رتبة ، في مواجهة من الإمبراطور ، كما كان يتضمن التعليمات حول السياسة التي يجب عليهم اتباعها .

اضطر شارل - كويمنت إلى إصدار المنشور Augustburg المؤرخ (١٠/٣/١٥٥٥) والذي يظهر فيه الليونة ، والموافقة على الحريات المذهبية للحكام البروتستانت ، ثم تنازل عن العرش (١٦/١/١٥٥٦) ، وانسحب بعدها إلى سراي الحمراء في غرناطة Granada ولم يخرج منه . وكان قد عقد الصلح مع فرنسا بمعاهدة Vaucelles تاركا فكرة ابتلاع فرنسا التي تصدى له فيها الأتراك على نطاق واسع ، وترك الإمبراطورية الألمانية وكافة الأقطار التابعة لها إلى أخيه الوحيد فرديناند ، وترك ملكية أسبانيا وكافة الأقطار التابعة لها والمستعمرات الأمريكية لابنه الكبير فيليب الثاني (بالفرنسية : Philippe) . وبذلك أصبح فيليب الثاني وارثا لأقوى وأقدر دولة مسيحية .

تحققت كل هذه النتائج بسبب سياسة القانوني التي اتبعها على مدى ٣٥ سنة ، تمزق المارد ، بل وفقد العالم الكاثوليكي اتحاده « وفي الحقيقة ، يمكننا أن نقول إن كافة الحكام المسيحيين البروتستانت مدينون بسلامتهم لسليمان المعظم » (Hammer ، ١٥ ، ٣٢٦) . لم تتحقق هذه النتيجة بواسطة سياسة أوروبا

الوسطى وحروبها التي أجملناها فيما سبق أو بواسطة المغرب والاسطول ، التي سنجملها فيما يلي .

(١١) نظارة البحرية وقيادة القوات البحرية (قبودان دربالك) لبربروس خير الدين باشا (١٥٣٤/٤/٦ - ١٥٤٦/٧/٤)

غادر والى الجزائر بربروس خير الدين باشا فى يوم من أيام الشتاء ، الجزائر مستصحبا ٤٤ قطعة من أسطوله و ١٨ من أميرالاته ، وجاء إلى استانبول (١٥٣٣/١٢/٢٧) بناء على الأمر السلطانى (الفرمان) للسلطان سليمان القانونى الذى يستدعيه إلى استانبول .

وصل استانبول - بعد أن قام بهجوم بحرى كبير على أسبانيا - عن طريق خليج جنوة ، بحر ليفوريا ومضيق مسينا ، واستولى على كافة السفن الأسبانية التى كانت راسية فى ميناء مسينا (صقلية) وعددها ١٨ سفينة ، (Hammer ، ٥ ، ٢٤٣) . اتجه إلى Andrea Doria الذى علم بوجوده قرب Preveze ، لكن الأميرال الجنوى ، انسحب ولم يستجب للقتال .

كانت البحرية الهمايونية راسية فى ميناء Navarin جنوب غربى مورا تحت قيادة مشير البحر كاتكش أحمد باشا . دخل بربروس الميناء ، تبادل الأسطولان التحية بطلقات المدفعية . انضم الأسطول الهمايونى إلى بربروس وحضر معه إلى استانبول . كان عرضا كبيرا .

خرج شعب استانبول برمته وتجمع بامتداد السواحل . هذه هى المرة الأولى التى يحضر فيها خير الدين باشا إلى استانبول التى تسمى باى تحت جهان (مدينة عرش العالم) . وفى اليوم التالى سمح السلطان لبربروس و ١٨ من أميرالاته بتقبيل يده فردا فردا بمراسم الديوان ، أى باحتفالات إمبراطورية (لم يكن فى ذلك العهد فى التشريفات العثمانية ، تقبيل الأرض ، الأقدام ، الرداء ، الأغطية) لم يحضر هذه الاحتفالات الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا ، لوجوده فى حلب استعدادا لحملة إيران .

وبعد أن اجتمع بالبادشاه وتباحث معه مدة طويلة بشئون أسبانيا ، والبحر الأبيض ، والمغرب والأسطول ، تحرك إلى حلب للاجتماع بالوزير الأعظم . وصل حلب راكبا الحصان خلال ١٠ أيام . بقى فيها يومين . وعاد خلال ١٠ أيام راكبا الحصان كذلك ، وهذا أمر يلفت النظر بالنسبة لشخص فى الـ ٦٣ من عمره . وفى الطريق مكث يوما فى بورصة ويوما فى قونية . وبذلك استطاع أن يجد وقتا لتقيل كسوة قبر مولانا فى قونية .

اقترح على إبراهيم باشا ضرورة إرسال أسطول إلى أمريكا التى تسمى « العالم الجديد » والحصول على مستعمرة فيها ، لكن الباشا أفاد بأن لديهم أعمالا مهمة وكثيرة فى البحر الأبيض ، حيث إنه يجب كف يد الأسبان عن المغرب بصورة مطلقة وإلا فسوف تفعل أسبانيا فى المغرب ما فعلته مع الشعب فى الأندلس وفى العالم الجديد ، وسوف تسعى إلى كشككة شمال أفريقيا بكامله من الأطلسى إلى مصر .

عاد بربروس إلى استانبول (١٥٣٤/١/٢٢) وبتعيينه قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية (١٥٣٤/٤/٦) أصبح عضوا فى الديوان الهمايوى وكلف فى الوقت ذاته بإدارة ولاية الجزائر . غادر استانبول بحملة تونس قبل مضى ٤ أشهر على تعيينه . وخلال هذه المدة القصيرة وضع فى معمل استانبول لإنشاء السفن، هيكل ٦١ سفينة .

ساند السلطان سليمان سياسته البحرية بكل مافى الكلمة من معنى . تلخص هذه السياسة فى تعزيز الأسطول الهمايوى بحيث يكون أقوى من مجموع بقية كافة الأساطيل . ومع احتمال تعذر ذلك من حيث عدد السفن ، فقد تعهد بربروس بإمكان تحقيق ذلك من حيث تأمين تفوق مرمى المدافع وتربية وتدريب الأفراد . وتقرر استبدال السفن والمدافع وتجديدها خلال بضع سنوات وبيع القديم منها إلى الداخل والخارج وتجهيز السفن بصورة متفوقة . أصبح بربروس ، أقرب مستشارى القانونى خلال توليه القيادة البحرية ، ولم يتمكن الوزير الأعظم والوزراء من الاعتراض على ذلك . وقد أبدى خير الدين فطنة سياسية كبيرة وتمكن من الحفاظ على قربه من البادشاه بعدم المساس بمشاعر أحد منهم . ومع أنه كان هناك من يحسده على إكسابه الدولة قطرا كالجزائر ، إلا أن هؤلاء تحاشوا إظهار مثل هذه المشاعر .

وهكذا اهتم السلطان سليمان خان الثانى القانونى بالأسطول بقدر اهتمامه بالجيش حتى إنه أعطى للسياسة البحرية أولوية فى بعض السنوات لم تشاهد من قبله ولا من بعده . لم يكن للقانونى مثل فى تركيا كافة ولا فى تاريخ الأتراك بأسره . لم تكن سياسته سهلة التطبيق ، لكنه طبقها بنجاح وجنى ثمارها . كان للجيش التركى ماضى عريق يرجع إلى مئات من السنين ، بينما كان الأسطول قد ظهر مع مجيء الأتراك إلى الأناضول قبل أربعة قرون ونصف وعاش تحت ظل الجيش دائما . حقق السلطان سليمان سياسته البحرية فى دعم الأسطول دون أى اعتراض أو شكوى من أى فئة من فئات الجيش . ولم ينجح الأميرالات وجنود البحرية من بعض حوادث الغيرة والحسد ، بل وحتى المؤامرات فى استانبول ، لكن ذلك لم يجد فرصة للتوسع ، وأخمدته السلطان سليمان بدراية . لم يكن وزراء الديوان الهمايونى والذين أكثرهم من الجنرالات ، يستسيغون كثيرا السياسة البحرية ، وكانوا حانقين بوجه خاص على تبجح الأميرالات الذين نشأوا فى الجزائر وجاءوا إلى استانبول . ورغم كل ذلك استمرت سياسة القانونى .

(١٢) فتح تونس (١٥٣٤/٨/٢٢) وفقدانها (١٥٣٥/٧/٢١)

سار ناظر البحرية قائد القوات البحرية والى الجزائر بربروس خير الدين باشا - خضر رئيس سابقا - بأسطوله الهمايونى البالغ ١٠٤ قطع محملة بـ ٨٠٠٠ من المشاة البحريين مغادرا استانبول (١٥٣٤/٨/١) . دخل مضيق مسينا Messina . احتل مدينة Reggio الواقعة على الضفة الإيطالية من المضيق واستولى على ٢٤ سفينة أسبانية . قام بإنزال الجنود فى موانئ جنوب غربى إيطاليا وميناء ساردونيا . دخل ميناء بنزرت (بالفرنسية : Bizerte) فى ١٥ آب .

كانت المناطق الشرقية والجنوبية لقطر تونس فى خوزة العثمانية أساساً . احتل خير الدين باشا مدينة تونس بلا مقاومة فى (٢٢ آب) ، واستقبل الشعب العثمانيين بكل ترحاب لنفورهم من سلطانهم مولاى حسن الذى كان شبيها بالسفك كاليغولا .

كان السلطان الحفصى مولاى أبو عبد الله حسن الذى اعتلى العرش فى ١٥٢٦

كسلطان ٢٢ للسلالة ، بعد أن قتل ٤٤ أخا له ، قد باع الجوارى الموجودات في السراى ، وأسس حرسا من ٤٠٠ شاب .

تمكن أحد إخوته المسمى مولاي رشيد من التخلص منه والفرار إلى استانبول ، كان السلطان الحفصى مكروها من شعب تونس برمه بسبب أخلاقه هذه وبسبب دعوته للأسبان ضد العثمانيين في كل فرصة ، كان قد انسحب إلى الجنوب إلى الصحراء واستنجد بالأسبان عند دخول الأتراك إلى مدينة العرش .

لم تكن أسبانيا تعير أهمية كبيرة لمناطق تونس الأخرى الموجودة بحوزة العثمانية ، لكن الوضع كان مختلفا بالنسبة لمدينة تونس لأنها كانت تواجه صقلية .

لما علم خير الدين باشا أن السلطان الذى ينفر منه في القيروان ، سار إليه . والمشهور عنه أنه ركب الأشرعة على عجالات المدافع وسيرها في الصحراء .

بانتقال كامل قطر تونس ومدينة تونس ، التى تبعد عن صقلية ١٥٠ كم وعن ساردونيا ١٨٥ كم ، إلى العثمانية ، بنى المسألة شارل - كوينت بنفسه بدعوى الدفاع عن السلطان الشرعى تجاه العثمانية المستولية .

أصبح خير الدين باشا وكيلا لوالى (فريق أول) لإيالة تونس لحين صدور تعيين من استانبول .

كان السلطان سليمان خلال هذه الحوادث ، في حملة لإيران وفي تبريز . سار شارل - كوينت من ميناء برشلونة Barcelona (١٥٣٥/٢٩) بأسطول مكون من ٥٠٠ سفينة حرب ونقل حاملة ٣٠.٠٠٠ من المشاة ، والخيالة ، ومدفعية البر .

وفي ١٥ حزيران ، أنزل جنودا في ميناء حلق الواد في تونس . كان اللواء سنان رئيس يحمى قلعة حلق الواد ، وكان ببروس في مدينة تونس مع ١٢.٠٠٠ جندى . تعرضت حلق الواد للقصف بواسطة ١٢٠ مدفعا من جهة البر ، وبمقاتل المدافع البحرية من أسطول أندريا دوريا من ناحية البحر . أجرى سنان رئيس ٣ طلعات وكبد العدو ٦٠٠٠ قتيل . كان الأسطول الهمايوى ومعه ببروس في استانبول . قتل كبار الأسبان كدوق Sarno وماركيز Mondeia ، لكن مولاي حسن جاء لإمداد شارل - كوينت بحمولة ٨٠٠٠ جمل من الأرزاق و١٦٠٠٠ خيال . أطلق

جنود خير الدين باشا البالغ عددهم نحو ٦٠٠٠ متطوع بربرى ، بسبب وعود مولاي حسن وخوفا من الأسبان ، سراح مايقرب من ١٠ ٠٠٠ أسير مسيحي في مدينة تونس . اشترك هؤلاء الأسرى مع البرابرة في القتال ضد جنود البحرية الأتراك . سقطت حلق الواد في ١٥ تموز .

جاء سنان باشا مع حفنة من جنوده البحرين إلى مدينة تونس وانضم إلى خير الدين باشا . كان مع الباشا ٩٧٠٠ جندي تركي ، إلا أنه كان من غير الممكن مقاومة قوات العدو البالغة ٣٠ ٠٠٠ جندي و ٥٠٠ سفينة ومئات المدافع . لم يتمكن من المقاومة أكثر من ٦ أيام بعد سقوط حلق الواد ، وانسحب من مدينة تونس .

وفي ٢٩ حزيران ، جاء مولاي حسن إلى الإمبراطور وخر على قدميه . فقد خير الدين باشا في أول هجوم ٢٥٠٠ شهيد ، كان حر الصيف والعطش يؤديان إلى تكبده أضرارا تماثل أضرار العدو . قام الباشا بهجومه الأخير بواسطة ٧٢٠٠ من جنده . وعندما أراد العودة إلى المدينة ، كان المسيحيون الأسرى ، الذين سيطروا على المدينة ، قد أغلقوا الأبواب دون الأتراك . خرق بربروس خط العدو بهجوم مذهش . أدى هذا الهجوم إلى استشهاد عدة آلاف أخرى من جنود البحر . نجح خير الدين باشا مع عدد من أميرالاته المسنين كأيدن رئيس وسنان رئيس وعدة آلاف من جنود بحريته ، وألقوا بأنفسهم في بلدة العناب (رأس بون) . كان الإمبراطور موقنا من أسر خير الدين باشا . ولذلك فقد اغتاض كثيرا وعاقب قواده .

دخل الصليبيون مدينة تونس في ٢١ تموز . كانت بلدة كبيرة .. جهنم الظلم الذي ارتكب في الحملات الصليبية إذا ما قورن بالظلم الذي ارتكب فيها ؛ لقد ذبح ٣٠ ٠٠٠ عرني ، واستحيى ١٠ ٠٠٠ امرأة شابة وطفل كمعيد ، وتم تخليص وتسريح ٣٠ ٠٠٠ أسير مسيحي ، ونهبت السرايات ، وأحرقت عشرات الألوف من الكتب المخطوطة ، وأتلفت البدائع الفنية النادرة ، وهدمت الجوامع ، والمدارس والقبور المشيدة (Hammer ، ٥ ، ٢٥٢ - ٢٥٣) .

دخل شارل - كوينت المدينة التي باتت وكأنها مذبح . « تصادف أن الأيام التي دخل فيها شارل - كوينت تونس ، هي أيام دخول السلطان سليمان بلدني ألد أعدائه الصفويين الغنيتين والكبيرتين جدا بغداد وتبريز ، لم يحدث أي نهب أو أي ظلم » (Von Hammer ، ٥ ، ٢٥٦ - ٧) .

أصبح مولاي حسن تابعا لأسبانيا بمعاهدة ١٥٣٥ . كان عليه أن يسدد ١٢٠٠٠ ليرة ذهبية ، كضريبة سنوية ، ويقي ١٠٠٠ جندي أسباني و ١٠ سفن حربية في تونس بصورة دائمة .

وهكذا سيبدأ في مدينة تونس وشمال تونس الحكم الأسباني الذي سوف يستمر ٣٩ سنة وشهرا ، و ٢٣ يوما بعد الحكم العثماني الأول الذي دام ١١ شهراً . وفي ١٥٤٢ ، فققت عينا مولاي حسن على يد ابنه مولاي أحمد (١٥٤٢ - ١٥٦٩) وأرسل إلى قهروان ، ومات فيها ١٥٥٠ .

جاء خير الدين باشا إلى الجزائر . غادر ميناء الجزائر في (١٥٣٥/٨/١٥) بأسطول مكون من ٣٢ قطعة بعد ٣٢ يوما من مغادرته تونس . قلب جزر بالير رأسا على عقب واستولى على ميناء ماهون في مينوركا ، أسر ٥٥٠٠ شخص . خرج من جبل طارق وجاء إلى خليج قادش وضرب ميناء Faro الكائن في جنوب البرتغال . واحتل بنزرت ميناء مدينة تونس ، أثناء عودته إلى استانبول ووضع فيها حامية . ترك ابنه الكبير حسن بك الأول وكيلا عنه في الجزائر وعاد إلى استانبول .

(١٣) انتصار بروزة Preveze (٢٨ أيلول ١٥٣٨)

غادر بربروس استانبول مع الأسطول في ١١ آيار ١٥٣٧ . سار القانوني من استانبول بالجيش بعد ٦ أيام إلى البنادقة في حملة على أوترانتو وكورفو كما أسلفنا من قبل . تعتبر هذه الحملات من الحملات الهمايونية النادرة في التاريخ العثماني التي يشترك فيها الأسطول .

كان الأسطول مكونا من ٢٨٠ قطعة ، عليها ٣٠ ٠٠٠ جديف ، وعشرات الألوف من جنود البحرية و ٤٠٠٠ انكشاري و ٦٠٠ مدفعي برى وعده آلاف من الفرسان السباهيين (تمارلي) . سلم بربروس بعد انسحابه من إيطاليا ، القسم الأكبر من الأسطول إلى الوزير ٣ داماد لطفى باشا الموجود في ميناء مودن Modon في مورا للإبحار به إلى استانبول . وجاء هو مع ٧٠ سفينة إلى جزر كيكلا (أيلول ١٥٣٧) في جنوب إيجيه التي يحكمها البنادقة . كان شعب هذه الجزر روماً ، وكانت

هذه الجزر دوقية إيطالية تابعة للبندقية . تحول في كافة الجزر الواحدة تلو الأخرى وأجير الدوق (Giovanni Crispo) على إعلان تبعيته لتركية وتسديده مبلغ ٥٠٠٠ ليرة ذهب ، كضريبة سنوية .

غادر خير الدين باشا استانبول بعد أن قضى فيها الشتاء والربيع في ٧ حزيران ١٥٣٨ . سوف يغادر السلطان سليمان مدينة عرشه بعد ٤١ يوما في حملة بغداد ٨ . وسوف يغادر إلى مصر - وزير أعظم في المستقبل - سليمان باشا السويس بعد ٦ أيام من مغادرة بربروس استانبول بأسطول آخر في حملة إلى الهند .

عاد بربروس إلى جزر كيكلاد مرة أخرى وضرب الجزر التي شاهد فيها جنود البنادقة . انضم إلى أسطول صالح رئيس (باشا) المكون من ٢٠ قطعة . جاء في مموز إلى كريت وخرب هذه الجزيرة التي يحكمها البنادقة من أولها إلى آخرها . وفتح جزر كربة (Karpatos) الواقعة بين جزيرتي رودس وكريت وجزر كاشوت . علم الديوان الهمايوني بتشكيل أسطول صليبي جهنمي بقيادة أندريا دوريا . أرسل طرغد رئيس (باشا) مع ٢٠ سفينة إلى بحر اليونان (أيونيا) للاستطلاع . كان دوريا قد انسحب إلى كورفو ، دخل بربروس بروزة وأصلح القلعة .

كان الأسطول الصليبي مكونا من أكثر من ٦٠٠ سفينة حرب ونقل منها ٣٠٨ سفينة حربية من أنواع (galerruvayyal , Karaka ، قادرغة ، كالليون) وتحمل ٦٠٠٠٠ جندي . يجدف فيها عشرات الألوف من الجدافة . وكان بينها نحو ٢٠ سفينة عملاقة ذات ٣ طوابق تحمل أكثر من ٢٠٠٠ جندي .

كان الأسطول الهمايوني يحتوي على ١٢٢ سفينة حرب و ٢٢٠٠٠ جندي .

دعا بربروس أميرالاته إلى سفينته الأميرالية ، وتباحث معهم طويلا . تردد بعضهم إزاء تفوق العدو . كان رأيهم انتظار دخول العدو إلى شرم Preveze حيث يتم تدميره بمدافع القلعة وبمساندة جنود البر . قال خير الدين باشا ، إن الحرب البحرية تكون في البحار المفتوحة ولاتكون في الساحل ، ولايمكن القيام بالناورة (الحركة والاستدارة) في الساحل ، وإن المدافع بعيدة المدى ستفقد تفوقها عند زيادة اقتراب العدو ، وإنه في حالة إصابة إحدى السفن فإن السفن حاملة جنود البر ، خاصة

الذين لم يألفوا البحر سيمون بأنفسهم في البحر دون نظام ناشدين البر ، وتاركين السفينة بدون طاقم .

خرج من شرم بروزه وحماية مدافع القلعة ؛ وفي ٢٧ أيلول من خليج Arta وابتعد عن الساحل مسافة ٩ كم . وبعد إجراء المناورات والاستدارات اللازمة ، التقى الأسطولان في بحر أيونيا (اليونان) في مياه انجير ليماني (بالإيطالية : Porto Fogo ، باليونانية : Vasiliko في الجنوب — الغربي من جزيرة Aya Mavri المواجه لخليج Arta (Preveze) .

وفي صبيحة يوم السبت الموافق ٢٨ أيلول ، شاهد الأسطولان أحدهما الآخر بوضوح . كان مشير البحر قائد القوات البحرية في المركز . أهم مساعديه ابنه الرئيسان حسن الكبير (بيوك حسن) وحسن الصغير (كوجوك حسن) (كلاهما باشا في المستقبل) . وفي الجناح الأيمن صالح رئيس (باشا) ، وفي الجناح الأيسر سيدى على رئيس العالم الشهير في الجغرافية والرياضيات ، وفي الاحتياط طرغد رئيس (باشا) ويرافقه الرؤساء مراد ، وصادق ، وكوزلجه محمد . كان كل من الرؤساء سنان ، وشعبان وجعفر قواد أساطيل خفيفه في الجناحين .

كان الأمiral الأسباني الكبير الجنوى الأصل Andrea Doria على رأس الأرمادة (الأسطول) الصليبي . وكان الأمiral — الكبير Vincenti Capelli يقود الاسطول البندقى ، و Marco Grimani يقود الأسطول الباهوى . لم يكن الأسطول أسطولا وطنيا متجانسا ، ولذلك لم ينفذ الكثير من أوامر دوريا . أدى دهاء بربروس ، وقدرة السفن التركية على المناورة وبعد مدى مدافعها ، وعدم مقدرة السفن الصليبية على الاستدارة السريعة إلى هزيمة المسيحيين . ظهرت نتيجة المعركة خلال ٥ ساعات تقريبا . أعطى دوريا أمر إطفاء الضوء وتراجع . كانت خسائر الأسطول الصليبي كبيرة ، أما الأتراك فقد فقدوا عدة سفن .

اجتمع بربروس — زاده حسين بك بعد الانتصار بـ ١٧ يوما بإيدشاه العالم السلطان سليمان أثناء عودته من حملة بغدادان الهمايونية ٨ في قصر يانبولو على نهر

طونجه Tunca وقبل يده ، وبعد تلاوته رسالة أبيه بشأن خبر الانتصار كتبليغ رسمي أمام الديوان الذى اجتمع ، عرض تفصيلات الانتصار شفويا . ولإظهار الحمد لله ، استمع البادشاه لتلاوة كتاب الانتصار وقوفا على قدميه دون أن يجلس .

أمر باعتبار بروزة جهادا أكبر وإقامة الاحتفالات فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وفى ٢٣ ت ١ ، جاء بربروس بنفسه إلى أدرنة ، وسرد خلال عدة أيام على البادشاه تفصيلات بروزة وسياسة البحر الأبيض الذى أصبح منذ الآن بحيرة تركية .

عاد حسن بك إلى الجزائر . قصف السواحل الأسبانية . نقل الأندلسيين ونقل إليهم الأسلحة . احتل قلعة جبل طارق مرتين وخربها . أرسل شارل - كوينت رجاله بصورة سرية إلى بربروس عارضين عليه أنه سيجعله حاكما مستقلا على كافة المغرب وشمال أفريقيا فى حالة قطعه علاقته بتركيا . ثم قدم نفس العرض بالنسبة للجزائر فقط ، إلى حسن بك الذى ينوب عن أبيه فى الجزائر . سرد بربروس ذلك على الديوان وبين احتمال قيام الإمبراطور بحملة كبيرة وبائية ، وقد تحقق ذلك فعلا فى ١٥٤١ . اعتقل بأمر البادشاه اليهودى الدكتور Romeo التركى الجنسية فى الجزائر الذى قدم هذه العروض وسبق إلى استانبول ، حيث أجرى التحقيق معه وسجن .

(١٤) انتصار الجزائر (٢٤ / ت ١ / ١٥٤١)

مضت على بروزة ٣ أعوام . قرر شارل - كوينت فتح الجزائر بنفسه كما جاء وفتح مدينة تونس بنفسه . سيكون هو بنفسه على رأس جيشه ، وكأنه يريد أن يلعب لعبة السلطان سليمان . وخلال الأيام التى تصادف عودة القانونى من حملته الممايونية ٩ ، يوم ٢٠ ت ١ / ١٥٤١ أخذ فى إنزال قواته الصليبية من أسطوله الخفيف فى حلق مرج حراش قرب ميناء الجزائر .

إن الارمادة (الأسطول) الصليبية التى يقودها أندريا دوريا تتكون من ٥١٦ قطعة بحرية ، منها ٢٧٤ سفينة حربية و ٦٥ سفينة عملاقة تبهر النظر من نوع Galerruvayyal . كان الأسطول يضم عدا الجدافة ، ١٢ ٣٣٠ جنديا بحريا

٩٠٠ ٢٣ جندى برى ، وبذلك يكون المجموع ٢٣٠ ٣٦ محارباً (أخذت هذه الأرقام عن مصادر مسيحية ، وعند كتاب جلبي ٥٠ ٠٠٠ محارب) استصحب كبار أشرف الأسبان ، القتلون ، الإيطاليين والألمان زوجاتهم الدوقات الماركيزات والكونتيسات وحضروا لمشاهدة انتصار إمبراطورهم الملك .

كان بيوك حسن رئيس (بك) الابن الأكبر لخير الدين باشا ، يقيم في الجزائر كنائب للوالى (البكلربك ، الفريق الأول) برتبة لواء بحرى ، وكان بمدينة الجزائر ٦٠٠ جندى بحرى (لوند) تركى و ٢٠٠٠ متطوع عربى فارس ومدفعى ، ولم يكن فى ذلك التاريخ قد تأسست فى الجزائر حامية الانكشارية (أى صنف المشاة) . كان أسطول الجزائر فى البحر الأبيض . ولم يكن بإمكان القوات العثمانية الموجودة فى المدن الأخرى أن تخترق جيشا مسيحيا على هذه الدرجة من القوة وتأتى للمساعدة (Hammer ، ٥ ، ٣٤٦) . هجم فى الطليعة فى الصف الأمامى الفرسان الأسبان ملك صقلية الأمير Eernando Gonzaga و ١٤٠ فارسا مالطيا و ٤٠٠ مقاتل (مبارز) مالطى بقيادة الأمير Camillo Colonna . وكان كل من فاتح المكسيك وواليا العام ماركيز Hernan do Cortez Vallée d'Oaxaca (الذى كان عمره حينذاك ٥٧ سنة) وابنيه الاثنين دوق آلبا ، والجنرال فون Frundsberg (الذى يقود القوات الألمانية ، والجنرال البابوى Anguillara فى الصف الخلفى (- Lavisse Rambau ، ٤ ، ٨١٠ - ١) .

ورغم أن هذه القوات تمكنت من احتلال مرتفع قديمة الصابون ، انهزمت وتراجعت أمام الدفاع الشديد يوم ٢٣ ت ١ . وقبل أن يتمكن العدو من لم شعثه ، قام حسن بك ليلة ٢٣ - ٢٤ ت ١ بهجوم مفاجئ . قتل ٣٠٠٠ من جنود الأعداء . ونظراً لشيوع خبر اقتراب قدوم أسطول الجزائر ، أو الأسطول الهمايونى ، فقد تردد الإمبراطور وأمر الجيش بركوب السفن ، ولو أنه ثبت لأمكنه أخذ الجزائر . لم يتمكن الإمبراطور من التعرف على مبلغ قلة عدد جنود حسن بك ، وكان شعب الجزائر يضغط على حسن بك للتفاوض مع الإمبراطور كى يترك المدينة عن طريق الصلح دون قتال . حيث لم يكن قد غاب بعد عن الأذهان ماعمله شارل - كوينت بشعب مدينة تونس التى دخلها عنوة .

كان الصليبيون قد انتشروا على نطاق واسع . أمر الإمبراطور بتجمعهم فى رأس

Matifou (بالعربية : قنطرة المغرون) . صدر أمر انسحاب كافة الجنود إلى سفنهم . كان العدو ينسحب . كان من الممكن أن يسر حسن بك بانسحابهم وذهابهم ، لكنه لم يكتف بذلك . كان عازما على إعطاء الصليبيين الدرس اللازم حتى لا يفكروا بعدها فى التسلط على الجزائر . علم بقرب هبوب عاصفة شديدة فأراد الاستفادة من ذلك . وفى الحقيقة كانت أكثر من نصف سفن الأسطول قد رست وقعدت فى رمال الساحل . هاجمت القوات العثمانية السفن . كان الجيش المسيحي جائعا وعطشانا لسوء تنظيم مراكز التموين ، وكان ناعسا ومرهقا وفى حالة يرثى لها من أثر العاصفة . ذبح الأتراك جياذ العدو التى نجت من الفرق والتى بقيت من مجموع جياذها الأصيل ، وكان عددها ٤٠٠٠ . كان بارودهم قد ابتل ، فلم تعد أسلحتهم صالحة للإطلاق . لم يتمكنوا من إعادة نقل مهماتهم الثقيلة إلى السفن . غرق وأسر وقتل بسيف المسلمين ٢٠ ٠٠٠ من جنود الصليبيين . امتلأ الساحل على مدى كيلومترات ببحث العدو وأنقاض السفن اعتبارا من شرسل إلى دنيس . حصل المسلمون على غنائم كبيرة ، ووقع فى أسرهم كبار القواد ، والأمراء والأميرالات وزبدة المجتمع الأورنى من سيدات الأسبان ، والإيطاليين والألمان ، وغرقت سفينة فاتح المكسيك الدموى عديم الشرف ، طريد السجون السابق Cortez ، المليئة بالبضاعة المسروقة من الأزتك Aztek لكنه تمكن من النجاة بنفسه (Hammer ، ٥ ، ٣٤٨) .

مات غرقا أكثرية الجدافة المسلمين الأسرى فى الأسطول الصليبي . تمكن حسن بك بصعوبة من تخليص ١٨٠٠ منهم من الموت . اغتتم الأتراك (ليلة ٣١ ت ١) ١٣٠ سفينة للعدو ، كانت سفينة الأميرالية لأندريا دوريا وسفينة أبن أخيه Gianetto Doria بين السفن الغارقة (Hammer ، ٥ ، ٣٤٧) .

أركب دوريا ، شارل - كوينت على ظهر إحدى السفن بصعوبة . بكى الإمبراطور ، ولشدة تأثره ألقى بتاجه الذى يلبسه على رأسه فى البحر (Alexandre de la Borde ، ص ٨٥) . وذبح جواده الذى لايقدر بثمن وأكله . لم يتمكن حسن بك من أسر الإمبراطور لعدم كفاية قوته ، ولم يتمكن من خرق جدار الحماية الذى أحاطه به فرسان مالطة الذين دافعوا عنه بتضحية كبيرة .

أبحر القسم المتبقى من الأسطول فى ٢ ت ٢ . تمكن الصليبيون من البقاء فى

الأراضي الجزائرية مدة ١٣ يوما فقط . اطلع السلطان سليمان في استانبول على جميع تفصيلات النصر عند عودته من حملته ٩ في ٢٧ ت ٢ . حضر بربروس إلى الجزائر بعد الحادث بشهر واحد . ولو كان قد تمكن من الحضور قبل هذا الوقت لأمكنه أسر الإمبراطور . لقد كان اقتراب بربروس ، هو أحد أسباب اضطراب وهزيمة الصليبيين .

كان الصليبيون قد اختاروا الوقت المناسب وقاموا بهجوم مفاجيء في الوقت الذي لم يكن فيه الأسطول موجودا في الجزائر . لكن عزم بربروس - زاده حسن بك ، كان فائقا . ولم تتمكن أية قوة بعد ذلك من التفكير في أخذ الجزائر حتى عام ١٨٣٠ . لواء بحرى عثمانى ، يتغلب على الإمبراطور شارل - كوينت الذى يحكم نصف العالم المسيحى . جددت هزيمة الجزائر عزم فرنسا على الصراع مع الإمبراطور . سار خير الدين باشا للحملة على فرنسا من أجل هذا الصراع ، كما سنرى فيما بعد .

(١٥) حملة فرنسا (١٥٤٣ - ١٥٤٤)

كانت ملكية فرنسا ، بتعدادها البالغ ١٥ مليونا ، أكبر المجتمعات الأوربية كثافة في النفوس . كان فرانسوا François الأول عازما على عدم الدخول تحت نفوذ شارل - كوينت . تمكن من ذلك بمساندة العثمانية . وفي ١٨ شباط ١٥٣٦ ، وقع الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا على معاهدة الامتيازات (بالفرنسية : Capitulations) التى تحصل فرنسا بموجبها على بعض الامتيازات (هى معاهدة مساعدة ، لتنمية فرنسا عسكريا واقتصاديا والحيلولة دون وقوعها لقمة سائغة لألمانيا - أسبانيا) ، وهكذا منح الديوان الهمايوى فرنسا بعض الامتيازات التجارية التى من شأنها تقويتها ببعض الميزات التى لم يعترف بها لغيرها من الدول . كانت البندقية قد حصلت من قبل على بعض التعهدات السلطانية التى تعترف لها ببعض التسهيلات التجارية . لكن الامتيازات التى منحت لفرنسا كانت شاملة ، وأعقب ذلك تقديم مساعدة مالية كبيرة لفرنسا في ١٨/٢/١٥٣٦ .

غادر بربروس خير الدين باشا استانبول مع الأسطول الهمايوى في ٢٨ آيار ١٥٤٣ .

وهكذا تحقق طلب فرانسوا الأول بشأن إرسال جيش وأسطول إلى فرنسا ، وقد كان يصبر على ذلك منذ سنوات عديدة مع طلباته الأخرى ، كالطلبات المالية والتجارية وفتح جبهات متعددة .

كان السلطان سليمان قد سار من استانبول بحملة استركون ١٠ قبل ٣٥ يوما . كان الأسطول الهمايوني مكونا من ١٥٤ قطعة ويحمل عدا الجدافة ٤٤٠ ٢٩ جنديا .

جاء الأسطول إلى مضيق Messina في ٢٠ حزيران . استسلمت مدينتا مسينا (صقلية) وريجيو Reggio (إيطاليا) الواقعتان على ضفتي المضيق دون مقاومة . دمر بربروس الاستحكامات العسكرية لهاتين المدينتين وجعلها كأن لم تكن . لم يمس الشعب واستمر في طريقه .

قاوم القائد الأسباني Don Diego Gaetano في قلعة Gaeta الواقعة بين نابولي وروما : احتل الأتراك القلعة بعد أن قدموا ٣ شهداء فقط ، ولم يمسوا أحدا بسوء . كانت ابنة الدون دياغو التي يبلغ عمرها ١٨ سنة ، حسناء ، وقد اشتهرت بجماها في كافة أنحاء أوروبا ، عقد بربروس عقدة النكاح عليها وأرسلها إلى استانبول .

احتل الأسطول بعد ذلك ميناء أوستيا Ostia الواقع على مصب نهر Tevere (بالتركية : تير) والذي يبعد ١٥ كم عن روما .

كان بربروس يروم الدخول إلى روما وإجراء عرض فيها . لكن السفير الفرنسي الموجود في الأسطول ، خر على قدمي القائد البحري ورجاه ألا يفعل ، إذ إن ذلك لا يساعد فرنسا وإنما يحمل البابا على الحكم بالحرمان على مليكه .

انتقل من بحر Tiren من مضيق Bonifacio إلى غربي البحر الأبيض ، ودخل الأسطول الهمايوني في ١١ تموز ميناء طولون قاعدة الأميرالية الفرنسية في البحر الأبيض في ذلك العهد ، كما هو حاليا . رفعت السفن الفرنسية الأعلام التركية وأطلقت مدافعها تحية له .

دخل الأسطول الفرنسي المكون من ٤٤ قطعة تحت إمرة قائد القوات البحرية . وفي ٢٠ تموز جاء إلى مرسيليا . استقبل الأدميرال الفرنسي الكبير دوق Enghien

الامير فرانسوا دى بوروبون ، بربروس باسم الملك ورحب به . وفي ٢١ تموز نزل بربروس إلى البر باحتفال لايقام عادة إلا للحكام . حيث إنه كان لايزال يعتبر في أوروبا ملكا على الجزائر .

مكث بربروس ١٦ يوما في مرسيليا وعاد إلى طولون . ذهب إلى Antibes ومنها إلى نيس . كانت نيس تابعة إلى شارل - كوينت . استسلمت قلعة نيس في ٢٠ آب . استشهد أمام نيس ١٠٠ من جنود البحر . لم يمس الأتراك الشعب بأى أذى . سلم بربروس مفاتيح مدينة نيس إلى الفرنسيين ، وعند انسحاب الأتراك ودخول الجيش الفرنسى المدينة ، قام الجيش الفرنسى للأسف بعملية سلب فظيعة .

عاد الأسطول الهمايوني إلى طولون Toulon لقضاء الشتاء . تركت المدينة لإدارة الأتراك طيلة مدة بقاء الأسطول التركى فيها بموجب معاهدة ١٦/٩/١٥٤٣ . انسحب كافة الموظفين الفرنسيين . رفع العلم التركى فى المدينة . رفع الأذان المحمدى فى الأوقات الخمسة . جمع الأتراك ضرائب تلك السنة . وظلوا فى طولون مدة ٨ أشهر . وخلال هذه الفترة ، قصف الرئيسان صالح وبربروس - زاده كوجوك حسن ، سواحل أسبانيا وإيطاليا . غادر الأسطول الهمايوني طولون فى نيسان ١٥٤٤ . عاد بربروس من حملة فرنسا التى استغرقت سنة و٣ أشهر إلى إستانبول ولم يخرج بعدها إلى البحر .

ألقت هذه الحملة اليأس فى قلب شارل - كوينت وأجبرته على عقد مصالحة Crespy مع فرنسا ، لقد كان كل أسطول يرسو سنويا فى فرنسا يمثل كابوسا لشارل - كوينت .

وهكذا انتهى دور المساعدة العثمانية لفرنسا الذى بدأ بمراجعة الديوان الهمايوني فرانسوا الأول فى ١٥٢٥ بالكتاب السلطانى الشهير للقانونى الذى ورد فيه « أنت يا فرانسيسكو Francesko ملك ولاية فرنسه ... » .

مات فرانسوا بعد قليل ، وخلفه ابنه هنرى الثانى . وتشكل المساعدات التى قدمت له المرحلة الثانية .

توفى بربروس خير الدين باشا كذلك فى استانبول يوم ٤ تموز ١٥٤٦ وعمره ٧٤ سنة أو أكبر بقليل . وترك ٣٠ سفينة حرب كبيرة من نوع كالير (galley) ،

التي أنشأها وأثنىها وجعلها بدراهم الخاصة ، للدولة كما ترك عبيده الـ ٨٠٠ الذين تربوا بصورة ممتازة - للسلطان ، وترك ٢٠٠ عبد له للصدر الأعظم داماد رستم باشا ، و ١٠ ٠٠٠ ليرة ذهبية إلى ابن أخيه (إسحق رئيس) بربروس - زاده مصطفى بك ، و ٣٠ ٠٠٠ ليرة ذهبية إلى أوقاف الجامع والقبر والأعمال الخيرية الأخرى التي شيدها في بشكتاش ، وكافة أمواله وأملاكه الموجودة في الجزائر إلى ولده وخلفه كوال على الجزائر بيوك حسن باشا ، وبقية ثروته ومن بينها ١٠٠٠ عبد وجارية وسراية في استانبول لولده الوحيد بربروس - زاده كوجوك حسن باشا (وهو صهر طرغد باشا) . ولم يدون شيئا بالنسبة لما تركه لابنته زوجة طرغد باشا ، حيث إن هذه السيدة كانت غنية جدا بفضل زوجها . وإضافة إلى ذلك ، منح لمئات من رجاله نقودا وأملاكاً تؤمن عيشهم مدى الحياة . أوصى ابنه حسن باشا بعدم مطالبة رستم باشا بالدين الذي قدمه له قبل مدة والبالغ ٢١٠ ٠٠٠ ليرة ذهبية ، وكذا بعدم قبول المبلغ في حالة إذا ما أراد رستم باشا دفعه .

حيا الأسطول الهمايوني أثناء مغادرته إستانبول في كل حملة يقوم بها على مدى عصور ، قبره الكائن على ساحل البحر في بشكتاش بإطلاق نيران كافة مدافعه . ويقام حالياً أمام قبره سنويا احتفالات بحرية .

يعتبر من أبرز الشخصيات التي تعد على الأصابع في التاريخ التركي . إن طول عمره ، ومعيشته في عصر علت فيه شوكة الأتراك إلى القمة خلال تاريخهم كله وسمى « العصر التركي » كالقرن ١٦ ، وكونه أخا لداية كأوروج رئيس ، واقتفائه أثره ، ووجود حام له ذو دراية تامة كالسلطان سليمان ... كل ذلك كان عاملاً في إطلاق مواهبه وتفجيرها .

(١٦) إيالة الجزائر البحرية بعد بربروس خير الدين باشا (١٥٤٢ - ١٥٦٨)

تولى إدارة شئون إيالة الجزائر البحرية خلال فترة قيادة بربروس خير الدين باشا للقتوات والتي استمرت ١٢ - ١٣ سنة ، ابنه حسن بك (بيوك حسن ، حسن أغا رئيس ، بك ، باشا الأول) .

منحه الديوان على أثر انتصار الجزائر ، رتبة بكربك (فريق أول بحرى) أى رتبة آيه . وعند وفاة بربروس ، أصبح واليا على لمالة الجزائر بالأصالة .

وفى ١٥ ت ١٥٤٥/٢ ، أعفى الديوان الهمايوى حسن باشا الأول من وظيفته هذه وأرسل بدلا عنه من إستانبول لهذه الوظيفة ، ابن بربروس الأصغر منه سنا حسن باشا الثانى . انشغل حسن باشا الأول بالأملاك والأوقاف الكبيرة التى تركها له أبوه فى الجزائر وتوفى فى ١٥٤٩ وعمره ٥٨ سنة . استمرت ولاية حسن الثانى الأولى مدة ٥ سنوات و ١٠ أشهر و ٧ أيام حتى ١٥٥١/٩/٢٢ .

حاول الكونت Alkoder الموجود فى وهران احتلال تلمسان مرتين ، لم يتمكن من الحفاظ عليها . وفى هذه المرة أراد سلطان فاس أخذ تلمسان واحتلها بالفعل .

جاء حسن باشا إلى مستغانم وانتصر على جيش مولاي عبد القادر البالغ ٢٠ . ٠٠٠ شخص ببيشه المكون من ٦٠٠٠ جندى تركى و ٨٠٠٠ عربى بدوى فى الموقع المسمى Rio Salado .

انسحب الفاسيون من تلمسان ، وكان أحد ملوك سلالة عبد الواد حاكما عليها بصورة رسمية . أنهى صالح باشا هذه السلالة فى ١٥٥٥ وضم تلمسان إلى الجزائر كلواء . وانتهت سلطنة بنى عبد الواد التى استمرت ٣١٩ سنة .

انتهى بذلك نظام الحماية العثمانية الذى استمر ٣٨ سنة وذلك بإلحاقها بالعثمانية بصورة قطعية . كانت هذه خطوة مهمة فى توحيد الجزائر . جاء حسن باشا إلى قبيلية وجهاز القبائل البربرية عسكريا . وعلى أثر تلكه ومماطلته فى تنفيذ الأمر الذى تسلمه من الديوان حول مساندة فرنسا لعدم ارتياحه للفرنسيين ، استدعى إلى استانبول . عين بدلا منه صالح باشا واليا (١٥٥١/٩/٢٢ - حزيران ١٥٥٦) .

قازداغلى صالح باشا ، من مواليد جناققلعة كان عمره ٦٣ سنة عندما أصبح بكربك (فريق أول بحرى) ، وهو أميرال له شهرة واسعة فى جميع أنحاء أوروبا والعالم الإسلامى . كان من معية أوروچ رئيس وأول من وطئت أقدامهم شمال أفريقيا معه ، ثم أصبح خير أميرال لخير الدين باشا . حقق مع زميله طرغد رئيس (باشا) حملات بحرية موفقة جدا . نقل المهاجرين الأندلسيين مرات عديدة ، أسر كذلك مع طرغد

وبقى ٣ سنوات كجنداف في سفينة جنوية حتى خلعهما بربروس . اشتهر بذلكه المفرط ، وكان دوريا يخشاه بعد بربروس وطرغند . وعندما ولى على الجزائر ، ربط الجزائر الجنوبية بالدولة بواسطة ٤٠٠٠ جندي تركي ، ٨٠٠٠ جندي عرني تحت قيادة الأمير عبد العزيز . اجتاز جبال أطلس التل وأطلس الصحراء ونزل حتى رغله . ثم نزل إلى أقصى الجنوب وتجهل في الصحراء الكبرى . وأخضع براهرة الطوارق ، وتعد هذه الحملة من الحملات الهامة من الناحية الجغرافية (Gyver ، Lavissee - Rambaud ; Encyclopédie de L'Islam, Supplément ، ٤ ، ٨١٤) . لم يكلل بالنجاح قيامه بإرسال سنان رئيس المسن مع رمضان رئيس (باشا) الشاب إلى قابلية ورغبته في إعدادها كلواء ، فقد عارض القابليون وأفادوا بأنهم سيدفعون الضرائب ويرسلون من يرغب من المتطوعين إلى الجيش ، لكنهم لا يرغبون في أن يرأسهم موظف عثماني فهم قادرون على إدارة أنفسهم بأنفسهم .

وفي غضون تلك الأيام ، كان أشرف السعديين في فاس قد أسسوا سلالة جديدة وانشغلوا بإخماد بقايا مقاومة السلالة المرينية - الوطاسية القديمة . خرج صالح باشا من مدينة الجزائر في ت ١/١٥٥٣ . رسي بـ ٢٢ سفينة حربية في ريف ، أي سواحل ، فاس على البحر الأبيض . كانت آثار التمرد والاعتراض التي بدت عند سقوط الوطاسيين في ١٥٥٠ قد ظهرت بشكل واسع ، في شمال فاس ومدينة فاس ، تجاه السعديين القادمين من الجنوب من مراكش . كان السلطان السعدي محمد الثاني ، ينتظر صالح باشا مع ٨٠٠٠ جندي و ٢٠ مدفعا وكتيبة الحرس الخاص التي يشكلها الأتراك . لكنه ترك هذه الكتيبة في فاس بعد أن تأكد من عدم إمكان استعمالها ضد العثمانية .

اجتاز صالح باشا ، في الأيام الأولى من شهر ك ١ (١٥٥٣) ، الحدود العثمانية - الفاسية من تلمسان ، وتمكن بفضل تفوق مدفعيته من تشتيت الجيش الفاسي قرب تازة على مسافة ٦٠ كم شرق مدينة فاس . لم محمد الثاني فلول جيشه في ٥ ك ٢/١٥٥٤ وهجم على الباشا مرة أخرى في الساحل الجنوبي من سبع . هزم مرة أخرى . وانتصر صالح باشا في المعركة التي جرت في اليوم التالي أمام أسوار فاس ودخل فاس نحو الظهر .

مكث صالح باشا في فاس مدة ٤ أشهر حتى بداية شهر آيار . عامل الشعب بلين . أرسل زوجة محمد الثاني وحرمة إلى مراكش مكرمين معززين . دخل ريف وأخذ من الأسبان Velez و Penon (التي لازالت لدى أسبانيا) استمر حكم العثمانية في مدينة فاس وشمال فاس لمدة ٨ أشهر و١٦ يوما . استعاد محمد الثاني فاس بعد انسحاب الأتراك في ٢١ أيلول ١٥٥٤ .

سار صالح باشا بعد ذلك على بجاية (بالفرنسية : Bougie) شرق مدينة الجزائر . استسلمت قلعتها التي تحتوى على ٦٠٠ أسباني بعد قصفها ب ١٤ مدفعا لمدة ١٢ يوما (١٥٥٤/٩/١٦) ، وترك في بجاية على رئيس مع ٦٠٠ من جنود البحرية ، وأعلم الديوان الهمايوني في استانبول بأنه لايمكن تأمين وحدة الجزائر مالم يتم إخراج الأسبان من وهران وطلب الموافقة والمدد لتنفيذ ذلك . أرسلت استانبول ٤٠ سفينة حربية و ٦٠٠٠ انكشارى .

سار صالح باشا إلى وهران من البحر بأسطول مكون من ٧٠ سفينة حربية ، وسار هو من البر بجيش مكون من ٤٠ ٠٠٠ شخص أكثره من العرب ، مات في الطريق وعمره آنذاك ٦٨ سنة .

أرسل الديوان ببروس - زاده حسن بك للمرة الثانية من استانبول واليا (بكلربك) على الجزائر . وناب عنه لحين قدومه صالح باشا - زاده محمد بك (باشا) .

وأرسل الديوان إلى الجزائر أولوج على رئيس وأمره بإعادة الانكشارية مع ال ٤٠ سفينة إلى استانبول ، وأبلغه بصرف النظر عن فتح وهران .

بقى محمد بك نائبا عن الوالى (الفريق الأول) ، مدة ١٤ شهرا . لم يتمكن حسن باشا من القدوم إلى الجزائر وتسلم الإدارة إلا في آب ١٥٥٧ (تعيينه الرسمى حزيران ١٥٥٦) .

أبلغ الديوان حسن باشا بوجوب صرف النظر حاليا عن مسألة وهران وأبلغه أيضا إن سلطان فاس محمد الثاني قد عقد معاهدة مع ملك أسبانيا فيليب الثاني ضد العثمانية ، وأن هذه المسألة أكثر أهمية إذ من الممكن أن تكون وخيمة العاقبة .

أراد السلطان أن يحتل تلمسان مرة أخرى ، ولم يوفق .

سار حسن باشا إلى فاس بجيشه المكون من ٦٠٠٠ جندي تركي و ١٧٠٠٠ جندي عرّي . من ناحية أخرى كانت كتيبة الحرس الخاص لمحمد الثاني مشكلة من الجنود العثمانيين بقيادة صالح كاهيه الذي كان تركيا ومن رجال صالح باشا . قتل صالح باشا وكتيبته ، محمد الثاني خارج مدينة مراكش (١٥٥٧/١٠/٢٣) ، (وكان عمره ٦٩ سنة) ، وأرسل رأسه إلى إستانبول عن طريق تلمسان والجزائر وشهر به . كان السلطان سليمان قد غضب غضبا شديدا على محمد الثاني . حيث كانت دماء كثير من المسلمين قد سفكت في سبيل المغرب ، ومن ثم فإن الاتفاق مع أسبانيا المتسببة في ذلك يعتبر خيانة (L'Etablissement des , August Cour Dynasries) (des Chérifs au Maroe et Leur Rivalité avec les Tures, P . 130) . عزز تمكن حفنة من الأتراك من قتل حاكم دولة كبيرة كفاس جلس على عرشها تلك المدة الطويلة ، بتهمة خيائته وخروجه على الإسلام نفوذ العثمانية في المغرب تجاه المنافقين . تمكن صالح كاهيه وجنوده بعد خسائر كبيرة من التخلص من مطاردة الفاسيين والذهاب من مراكش إلى تلمسان .

وكالعادة ، بدأ النزاع على العرش في فاس .

دخل بربروس - زاده حسن باشا ، فاس . لم يحقق الطرفان نتيجة في حرب وأدى البند الميدانية (كان جيش فاس يتكون من ٤٥٠٠٠ جندي و ٣٠٠٠٠ خيال و ١٠٠٠٠ مشاة و ٤٠٠٠ حملة بنادق ومدفعية) ، وبينما يستعد حسن باشا لهجوم جديد ، علم باستعداد الكونت Alkodet في وهران للهجوم عليه من الخلف . كان الكونت يضمن الشرعية على حركته بإدعاء تنفيذ شروط المعاهدة المتعقدة مع السلطان المقتول .

خرج من وهران (١٥٥٨/٨/٢٢) ١٢٠٠٠ أسباني وعدد يماثل من الجنود المحليين والمدفعيين وكان يريد تلمسان . استولى الأتراك على ٤ سفن تحمل له المهمات ، فتدهورت الروح المعنوية للأسبانيين . علم الكونت بالاستعدادات الممتازة التي أعدها أمير لواء (سنجق بك) تلمسان أولوج Uluc على رئيس (باشا) ، فغير رأيه ، وبدأ بحصار مستغافم ، ثم رفع الحصار عندما شاهد حسن باشا أمام مستغافم ومعه ٦٠٠٠ تركي و ١٦٠٠٠ عرّي ، واتخذ تشكيل حرب الميدان ، إلا أن الـ ١٢٠٠٠ عرّي الموجودين في الجيش الأسباني ، عندما شاهدوا أمامهم حسن

باشا ابن بربروس الذى لا يقهر ، انسحبوا دون أن يطلقوا رصاصة واحدة .. الأمر الذى أدى إلى تقرير مصير الحرب .

تعد واقعة مستغافم الميدانية (١٥٥٨/٩/٥) إحدى الانتصارات الهامة التى أحرزها الأتراك تجاه الأسبان . مات فى ساحة الحرب ١٢٠٠٠ جندى إسباني والكونت Alkodet العسكرى الكبير المجرب والبطل ، والكبير السن ، وأسر ابنه دون مارتين Don Martin . اشتهرت هذه الحرب بأنه لم يبق منها جندى واحد على قيد الحياة . كان شارل - كونيت فى هذه الأيام قد تخلى عن العرش ، وكان مريضا وطريح فراش الموت فى سراى الحمراء ، لم يبلغ بكارثة مستغافم لئلا تعجل بموته .

وهكذا فشلت خطة إفناء ابن بربروس والتى كانت تستهدف جعله بين نارى الفاسيين والأسبان ، وانتهت بلجوء الأسبان إلى داخل أسوار وهران .

ترك حسن باشا الذى لم يرضخ لطلبات انكشارية الجزائر (المشاة) الذين حسدوا جنود اللوند (البحرية) ، الإيالة وجاء إلى استانبول وطلب من الديوان اعفاء من وظيفة الولاية (ت ٢ / ١٥٦١) . عين أحمد باشا وأرسل إلى الجزائر . جاء إلى الجزائر بالأسطول واعتقل الانكشارية العصاة وساقهم إلى استانبول لمحاكمتهم ، لكنه توفى بأجله فى السنة التالية (ك ١ / ١٥٦٢) . عين الديوان حسن باشا للمرة ٣ على الجزائر وأمره بالتوجه إليها ، ولحين مجيئه ، أصبح يحى رئيس الكبير السن ، وكيلا عن الوالى فى الجزائر لمدة ٣ أشهر .

جاء حسن باشا من استانبول إلى الجزائر ترافقه ١٠ سفن حربية . سار من مدينة الجزائر (١٥٦٣/٢/٥) فى الحال بعد أن أخذ معه ١٦٠٠٠ تركى و ١٢٠٠٠ جندى قاصدا وهران . جاء أمام مياه وهران فى ٣ نيسان . كان قد استبقى أمير لواء تلمسان ريزه لى على إسكندر بك مع عدة آلاف ، فى منطقة بين الجزائر ووهران تحسبا لاحتمال حدوث إنزال من قبل الأسبان . استولى هذا الأميرال على أسطول أسباني محمل بالإمدادات مع سفينة الأميراليه .. كان يتولى الدفاع عن حامية وهران Don Alonzo de Cordoba واخوه ماركيز كورتيس Don Martin ابنا الكونت Alkodet ، وكانا جنرالين قديرين نشأ فى شمال افريقيا .

كانت وهران التى بقيت بحوزة الاسبان منذ ١٧ / ١٥٠٩/٥ ، تبعد ٢٠٠ كم

عن ميناء المريه (Ammeria) في أسبانيا . استمر الحصار مدة ٢٦ يوما اعتبارا من ١١ آيار حتى ٥ حزيران . جرى قتال شديد . تكبد الطرفان خسائر جسيمة . بالنظر إلى توقع مجيء أسطول (أرماده) أسباني ، فقد قام حسن باشا بفك الحصار ، وبالفعل لم تمض ٤٨ ساعة حتى دخل وهران أسطول إسباني مخيف .

أرسل الديوان الذي خشى من عملية إنزال أسبانية على فاس طرغد باشا مع ٦٠ سفينة حربية من طرابلس إلى سواحل ريف (فاس) . اشترك حسن باشا بعد ذلك في حصار مالطه (١٥٦٥) ثم استدعى إلى استانبول في شهر ك ٢ سنة ١٥٦٧ ، وعين مكانه محمد باشا ابن صالح باشا .

تبلغ مجموع ولايات حسن باشا الثلاث ١٥ سنة و ٤ أشهر . استدعى محمد باشا كذلك إلى استانبول (١٥٦٨/٦/٢٧) وعين بدلا منه أولوج علي باشا . توفي حسن باشا في استانبول وعمره ٧٢ سنة ، ودفن بجوار أبيه (١٥٧٢/٣/١٥) .

(١٧) طرغد باشا وليبيا

ولد طرغد ابن أحد الرعاة ، في قرية تابعة للواء منتشة..(موغلة) في سنة ١٤٨٥ . دخل البحرية كجندى بحرى (لوند) عادى في سن مبكرة جدا تقارب سن الطفولة . وفي الوقت الذي لفت فيه انتباه السلطان قورقود ، كان شابا عمره ٢٥ سنة ملاحاً لسفينة . أصبح أولا قائدا لسفينة أوروچ ثم لخضر خير الدين باشا ثم أصبح قائدا لقطعة من الأسطول . قدم خير الدين باشا - عند مجيئه إلى استانبول لتعيينه قائدا للقوات البحرية - طرغد رئيس الذي تعاضمت شهرته ، إلى السلطان كأحد أميرالاته ال ١٩ ؛ كان عمره آنذاك ٤٨ سنة .

منح القانوني ، طرغد رئيس رتبة لواء بحرى وأصبح اسمه في الوثائق العثمانية الرسمية (طرغد جه بك) . اشتهر على الأغلب كرئيس قراصنة . قام بإدارة القراصنة (الصاعقة البحرية) لسنوات طويلة . بلى ببروس خير الدين باشا مباشرة من حيث الشهرة ، وكان قد صاهر ببروس كذلك . نظراً لمزاجه وعدم رعايته قواعد التشريفات ، لم يحصل على رتبة قبودان دريا (مشير ، قائد القوات البحرية) ولم

يمكن من دخول الديوان الهمايوني ، لكنه بقي محافظا على صفته كرئيس حقيقي للبحارة الأتراك . كانت قاعدته جزيرة جربة . تمكن على مر الزمن من الاستيلاء على أربعة أخماس القطر التونسي وحشر السلطان الحفصى فى مدينة تونس وضواحيها . احتل ميناء بنزرت . لكنه أولى اهتماماً خاصاً بتحسين قلعة مهدية فى الجنوب كقاعدة بحرية ، بصورة ممتازة .

كان أوروج رئيس قد فتح من قبل مدينة مهدية (مدينة العرش الفاطمية القديمة) . فشلت كل المحاولات الاسبانية - الحفصية المختلفة حتى ١٥٥٠ فى إخراج طرغد من مهدية . كان طرغد فى ربيع هذه السنة ، أولاً فى خليج بلنسية Valencia ثم فى جزر بالير Balear . كان فى مهديه كل من عيسى رئيس ، وابن أخ طرغد حصار رئيس . شوهد عند ذاك أسطول Andrea Doria المكون من ٤٧ قطعة أمام مهديه (١٥٥٠/٦/٢٨) .

جاء دوريا إلى مهديه بعد أن أخذ مناسطر من الأتراك ومعه جيش بقيادة نائب الملك فى صقلية Don Juan de Vega ، وكان السلطان الحفصى قد انضم كذلك إلى هذا الجيش . أما حامية عيسى رئيس فقد كانت تتكون من ٢٣٠٠ جندى بحرى تركى و ٥٠٠٠ خيال عربى . أطلقت مدافع الأعداء حتى ٢٦ آب ٧٠٠٠ قذيفة . كان يوم ١٠ أيلول اليوم ٤٣ من الحصار . كانت قد انفتحت ثغرات واسعة . دل إبراهيم برات من تجار المهديه المشهورين الصليبيين على أماكن الأسوار التى تركها الأتراك مفتوحة ، لقاء دراهم . دخل العدو إلى القلعة وذبح وقطع المسلمين . أسر عيسى رئيس مع حفنة من بقايا جنوده . كان هو و ٧٠ من جنود بحريته جرحى (سيتخلصون من الأسر بعد مدة عن طريق المبادلة) . أخذ الصليبيون سكان المدينة البالغ عددهم ٧٠٠٠ كعبيد . أدرك الأسبان بعد ذلك عدم إمكان احتفاظهم بمهديه ، فهدموا القلعة من أساسها فى بداية سنة ١٥٥٤ وانسحبوا . تأثر الديوان الهمايوني من سقوط مهديه وأرسل إلى شارل - كوينت رسالة شديدة اللهجة . أجاب الإمبراطور بأن حربه ضد قرصان وليست ضد الأتراك .

وحتى يمكن القبض على طرغد قرر دوريا ضرب جربة . جاء إلى جربة مع ١٥٠ سفينة . أنزل طرغد أسطوله بواسطة مزلق مدهونة إلى الطرف الآخر من الجزيرة ولم يقبض عليه (Hammer ، ٦ ، ١٧٩ - ٨٠) .

استدعى الديوان فى ربيع سنة ١٥٥١ ، طرغد بك مع عقدائه السبع البحرين (قبودان) إلى استانبول وكان من بينهم بربروس — زاده غازى مصطفى بك (ابن شهيد إسحق رئيس) وألوج (قيليج) على رئيس باشا) .

الذى أصبح فيما بعد قائدا للقوات البحرية وواليا على الجزائر . أعطيت لأمر طرغد بك ٩٠ سفينة حرب وعدد مئائل من سفن النقل . جاء طرغد إلى صقلية على رأس الأسطول الهمايوني . أنزل إلى البر ١٥٠٠ من جنود البحرية واحتل ميناء Augusta على مقربة من شمال سيراكوسا Siracusa بعد مقاومة استمرت يومين . انهزمت القوات الصقلية التى جاءت بقيادة Don Hernan do Vega . كانت خسائر الأتراك ١٠٠ شهيد و ١٤ أسيرا . جاء الأسطول الهمايوني إلى مالطة (١٥٥١/٧/١٦) حيث أنزل الجنود فيها وخربها ، وتم الاستيلاء على جزيرة Gozo وأسر كافة سكانها (٧٠٠٠ شخص) ، وأركبوا البواخر ووضعت فى الجزيرة حامية عسكرية .

وهكذا بقيت جزيرة غوزو الملاصقة للمالطة بيد الأتراك فترة طويلة (Histoire de Malte , J.Godechot ، ص ٤٦) . هبت عاصفة شديدة وأغرقت ٨ سفن من الأسطول الإسباني الذى جاء للمساعدة كما غرق ١٥٠٠ إسباني قرب جزيرة لامبيدوسا .

جاء طرغد بك من مالطة إلى طرابلس الغرب . فى ذلك العهد كانت السفينة تستطيع أن تحتاز تلك المسافة فى الأجواء الطبيعية خلال ٣٠ ساعة . كان كامل ليبيا تقريبا بما فى ذلك بنغازى (برقة Sirenaika) تحت سيطرة الأتراك ، إلا أن البلدة الرئيسية للقطر ميناء طرابلس الغرب والمناطق المجاورة لها ، كانت لدى المسيحيين منذ ١٥١٠ وهى الآن لدى فرسان مالطة (من المعلوم أن الفرسان من ألد أعداء المسلمين) كان الأتراك قد أسسوا قاعدة فى تاجوار تبعد مسافة ٢٠ كم عن طرابلس . كان مراد آغا وحفنة من جنوده يحاولون منذ سنين منع الفرسان من النفاذ إلى المناطق الداخلية من البلاد وارتكاب المظالم ، ولم يكن الفرسان قد تمكنوا من إخراج مراد آغا من تاجوار .

أنزل طرغد بك ٤٠ مدفعا و ٦٠٠٠ جندى . واستولى من الفرسان على طرابلس ، (١٥٥١/٨/١٥) وأخرجهم منها . دافع عن القلعة الفرنسى Gaspard de Vallier ومعاونه Desroches . كانت مساعدة العرب المحليين للأتراك كبيرة .

أصبح مراد آغا ، أول وال (فريق أول) على أياالة طرابلس البحرية ، وأصبحت طرابلس ، هى الأياالة البحرية (بالفرنسية : Province maritime) الثانية للدولة العثمانية بعد الجزائر وستكون تونس الأياالة الثالثة . كان مراد باشا قد خدم فى تاجوار وقام بصيانتها بصبر مدة ٣١ سنة منذ ١٥٢٠ . بقى واليا عليها حتى وفاته فى ١٥٥٦ . قاد جيشا إلى فيزان (فزان) ، وأخذ المناطق الجنوبية حتى جبال Tlbesti وضمها إلى الإدارة العثمانية وأخضع الملكيات الزنجية فى الجنوب وأدخلها تحت النفوذ العثمانى . غطى النفوذ التركى المناطق التى تتعدى بكثير بحيرة جاد .

على الرغم أن طرغد بك هو فاتح الأياالة ، لكنه أصبح ثانى وال عليها . وهكذا رقى إلى رتبة بككربك بحرى أى فريق أول بحرى فى ١٥٥٦ وعمره ٧١ سنة . حكم ليبيا مدة ٩ سنوات حتى وفاته . كان يدير خلال قيامه بواجب الولاية أربعة أحماس ليبيا .

قاد طرغد بك الأسطول إلى إستانبول . ذهب إلى مركز لوائه بزوزة Prevezze . أقلع منها بأسطول مكون من ١١٢ قطعة . رسى فى ميناء Pozzuoli ضاحية نابولى الغربية . كان السفير الفرنسى d'Aramont يرافقه فى الأسطول . كلف طرغد بك بمهمة الدفاع عن فرنسا ومساعدتها بسبب إعلان شارل - كوينت الحرب على فرنسا مجددا فى ١٥٥١/٩/٢٨ . كان طرغد بك يكره الفرنسيين بسبب نكثهم المتكرر لمعهودهم . سار دوريا إلى طرغد . تقابل الأسطولان بالقرب من جزيرة Ponza فى مياه خليج Gaeta (١٥٥٢/٨/٥) . انسحب دوريا بعد أن عجز عن حماية ٧ من سفنه انتقلت لحوزة طرغد ، هذا عدا السفن الفارقة . يعد انتصار بونزا هذا ، أحد أهم إنجازات طرغد . احتل جزيرة كبرى المواجهة لنابولى (Sorrento) بعد أن سيطر على بحر Tiren مدة شهرين .

غادر طرغد بعد أن قضى الشتاء فى إستانبول مع ٤٥ قطعة من السفن فى ١٥٥٣/٦/١٥ . كان هنرى الثانى يعترف بالبادشاه كإمبراطور أوروبا الأوحده وسيده المبجل بموجب معاهدة إستانبول فى ١٥٥٣/٢/١ . وكان يضع الأسطول الفرنسى رهنا لتركيا فى مقابل المساعدات البحرية التركية ، (ترك فرنسا أسطولها إلى تركية فى حالة عدم تسديدها مصاريف الحملة البحرية) نص المادة الخاصة بذلك فى المتن الفرنسى من المعاهدة :

engagés en neantissement de la somme précitée, Jusque'a ce que cette dernière somme soit payée a l'Amiral du Grand - Seigneuv منه إلى السلطان سليمان : « لم يبق لدى فرنسا أى أمل فى المساعدة من أى مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم ؛ حيث إن حضرة سلطان العالم قد قدم من قبل مساعداته لمرات عديدة . إن فرنسا ستكون ممتنة إلى الأبد لو سوعدت بمقدار من النقود والبضاعة . ستطبق شهرة الكرم التركى العالم أجمع ، إن مثل هذه المساعدة تعتبر لاشئء بالنسبة إلى سلطان العالم » .

وبعد أن ضم طرغد بك الأسطول الفرنسى الموجود فى (Mora) Modon وارتفع عدد سفنه إلى ١٥٠ قطعة ، أنزل جنودا فى كاتانيا (المدينة الثانية فى صقلية) ، وكذلك أنزل جنودا فى Bastia مركز كورسيكا . واستولى على المدينة والقلعة (١٥٥٣/٨/١٧) . أيد جيش العدو المكون من ٧٠٠٠ شخص . قاوم Bonifacio مدة أسبوع ، ثم فُتحت . انتقلت الجزيرة لحوزة الأتراك . تم تخليص ٧٠٠٠ أسير مسلم كانوا فى الجزيرة . عاد طرغد إلى استانبول بعد أن سلم إدارة كورسيكا بأمر الديوان إلى الفرنسيين .

لم يتمكن الفرنسيون من الحفاظ على كورسيكا أمام أسبانيا . جاء أندريا دوريا فى الأشهر الأخيرة لسنة ١٥٥٣ وأخذ الجزيرة من الفرنسيين . تأخر استرداد الفرنسيين للجزيرة مدة ٢٠٠ سنة . كانت الجزيرة التى ينطق شعبها الإيطالية - ولا زالت كذلك - من أملاك الجمهورية الجنوبية وكانت الجمهورية تحت حماية أسبانيا .

(١٨) قيادة القوة البحرية لبيالة باشا (كانون الثانى ١٥٥٤)

عين بيالة بك خلال هذه الفترة قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية (قبودان دوريا) برتبة لواء بحرى . كان عمره ٣٨ سنة . خرج بالأسطول الهمايوى فى صيف ١٥٥٤ إلى البحر الأبيض . كان عليه بموجب أمر الديوان أن يفتح كورسيكا للمرة الثانية ويسلمها إلى الفرنسيين . كانت فرنسا قد اراقت الكثير من ماء وجهها فى هذا السبيل . أخذ لأسطوله طرغد بك ثم والى الجزائر صالح باشا . والتأم بأسطول

البارون de la Garde الفرنسى . رسى فى ميناء Piombino الإيطالى . أنزل إلى البر فى كورسيكا ٣٠٠٠ جندى . حاصر Calvi . لكنه غضب على الفرنسيين ورفع الحصار . وجلى عن كورسيكا ، ولم يتمكن الفرنسيون من أخذها .

خرج بيالة باشا فى السنة التالية بأمر الديوان لمساعدة فرنسا كذلك (١٥٥٥/٦/٢٦) . التقى بطرغد بك . احتلا Reggio . ذهب طرغد رئيس حتى إسبانيا . عاد بيالة بك الذى لم يعثر على دوريا إلى استانبول .

وفى السنة التالية ، سار بيالة باشا من استانبول فى صيف سنة ١٥٥٦ ب ٤٥ سفينة حربية . ذهب إلى الجزائر ثم عاد . وفى ١٥٥٧ ، سار بحملة بحرية قوامها ٦٠ سفينة حربية . لم يتمكن من العثور على دوريا كذلك ، رفع الراية وقام بعرض فى البحر الأبيض . استقال أندريا دوريا الذى تقدم فى السن ، والذى تأثر كثيرا لتخلي شارل - كوينت عن العرش ، من قيادة القوة البحرية الأسبانية وانسحب إلى قصره الكبير فى جنوه . عين لقيادة القوة البحرية الأسبانية ، ابن أخيه Gian Doria .

وفى صيف سنة ١٥٥٨ ، سار بيالة بك ، مع طرغد باشا بأسطول مكون من ١٥٠ قطعة . احتل كامل جزر بالير . عقدت إسبانيا التى لم تقدر حتى على صيانة جزر بالير معاهدة صلح Chateau - Cambrésis مع فرنسا فى ١٥٥٩ . رقى بيالة بك عند عودته من هذه الحملة إلى رتبة فريق أول بحرى . وفى صيف ١٥٥٩ خرج بيالة باشا مع ٩٨ سفينة حربية وجاء إلى آفلونيا ودخل البحر الأدرياتيكى . رفع الراية وقام بعرض فى تلك البحار .

(١٩) انتصار جربة (١٥٦٠/٥/١٤)

كانت أسبانيا مضطرة لإثبات وجودها ، ومن ثم فقد اختارت طرغد باشا وقاعدته الرئيسية جزيرة جربة هدفا لها . أرسل طرغد باشا فى شباط ١٥٦٠ أمير لواء (والى) صيغلة (أزميز) الذى يرافقه ، اللواء البحرى أولوج على رئيس (قيليج على باشا) إلى الديوان فى استانبول ، وأخبرهم بأن المسيحيين قد جهزوا تحت إمرة أسبانيا أسطولا هائلا ومن المحتمل أن يكون هدفهم جربة .

كان هذا الأسطول ، أعظم أسطول جهزوه منذ بروزه يتكون من ٢٠٠ سفينة حربية ، تحمل ٣٠ ٠٠٠ جندي . كان الأسطول بقيادة Gian Andrea Doria ، وكانت القوات البرية بقيادة نائب الملك في صقلية Don Juande la Cerda (دوق Medinaceli) ، والأسطول البابوي بقيادة الأمير Flamino Orsini ، والأسطول الفلورنسي (توسكانا) بقيادة الأمير Andrea Gonzag . اشتركت في الأسطول سفن ألمانية ، ومالطية ، وجنوية ، وحتى سفن موناكو . غادر الأسطول صقلية (١٥٦٠/٢/١٠) ولم يتمكن لسوء حالة الجو من التجمع ولم يتمكن من الوصول إلى جربة ، إلا في ٢ أيار وأنزل جنوده في الجزيرة حتى ٧ من أيار . كان في جربة ١٠٠٠ جندي بحري ، قاوموا ٥ أيام وانسحبوا إلى طرابلس . أخذ الأسبان الجزيرة وشيدوا فيها قلعة عظيمة . وضعوا فيها ٢٢٠٠ جندي بقيادة Don Alvaro de Sandi .

جهز بيالة باشا الأسطول ، على إثر إرسال أولوج على رئيس مع سفينتين حربييتين إلى استانبول من قبل طرغد باشا . كان الصليبيون يريدون الحملة على طرابلس الغرب واحتلالها . وبينما هم على وشك المغادرة ، آثروا انتظار الأتراك في جربة عند سماعهم خبر حركة الأسطول الهمايوني . كان بيالة باشا قادما مع ١٢٠ سفينة . إن قدومه يمثل هذا العدد من السفن بينا يملك العدو ٢٠٠ سفينة ، يدل على مبلغ اعتماده على سفنه وجنوده . لكنه أضاف في الطريق إلى الأسطول ٦ سفن حربية و ٢٤ سفينة نقل . تم إبلاغ كل من طرغد باشا في طرابلس وحسن باشا في الجزائر بأن يكونا على استعداد . جاء بيالة باشا إلى مالطة خلال ٣٣ يوما ومنها إلى جربة خلال يومين ورسى على بعد ٣ أميال منها .

اتفقت آراء أمراء البحر في المجلس الحربي (العسكري) على تطبيق خطة بربروس التي استعملها في بروزه . كان قائد الجناح الأيسر ، أمير لواء (والي) صيغلا (أزميز) اللواء البحري أولوج على رئيس (قائد القوات البحرية وناظر البحرية قيليچ على باشا في المستقبل) ، ويقود الاحتياط سيدى على رئيس . كان عمر طرغد باشا آنذاك ٧٥ سنة ، وبيالة باشا ٤٥ سنة ، وسيدى على رئيس ٥٣ سنة . كان قادة الأساطيل الخفيفة أمير لواء ميدللى اللواء البحري المسن قورد أوغلو الدين مصطفى رئيس (كان قد أصبح قائدا للأسطول قبل ٣٩ سنة في حملة القانونى على رودس) ، أخيه

أمير لواء رودس اللواء البحرى قورد أوغلو أحمد رئيس ، أمير لواء كاراسى (بالكسرة) اللواء البحرى غضنفر رئيس .

من الملفت للنظر أن أمراء البحر كانوا مسنين وبحارة قدماء ، ولكن يبدو أن الدهاء البحرى التركى فى النصف الثانى من القرن ١٦ - ولو أنه لا يتضح فى تلك الأيام - كان قد بدأ يدخل مرحلة توقف ويحتمل مرحلة ضمور .

جرت حرب جربة البحرية ، بعد بروزة بـ ٢١ سنة ٧ أشهر و ١٦ يوما . جرت فى صباح يوم ١٤ أيار ١٥٦٠ ، على مسافة من جزيرة جربة وهى إحدى أكبر المعارك البحرية فى التاريخ العالمى . انهزم الصليبيون خلال ساعات عديدة . كان تكتيك الحرب التركى سليما خاليا من العيب وخارقا للعادة . قتل أو غرق أو أسر ٢٠ ٠٠٠ جندى من جنود الصليبيين الـ ٣٠ ٠٠٠ عدا الجدافة . أسر كثير من الأشراف وأمراء البحر والجنرالات . قتل الأمير Orsini . غرقت ٧٠ سفينة صليبية . انتقلت لحوزة الأتراك ٢١ سفينة حربية ، ٢٦ سفينة نقل . وأصيب معظم السفن الأخرى . كانت خسائر الأتراك قليلة كما فى بروزة بشكل مدهش ؛ عدد الشهداء أقل من ١٠٠٠ و غرقت بضعة سفن تركية فقط .

كانت معركة جربة ، أكبر معركة بحرية جرت فى البحار المفتوحة انتصر فيها الأتراك بعد بروزة على مدى التاريخ التركى . كان دوريا وعمره ٩٤ سنة فى قصره الكائن فى جنوة ينتظر خبر انتصار ابن أخيه الصغير . وعندما علم بخبر الهزيمة ، بات طريق فراش الموت . مات فى ١١/٢٥/١٥٦٠ . جرت فى أيام ١٦ و ١٧ أيار حركات مطاردة ناجحة جدا . تولاها طرغد باشا الذى جاء من طرابلس بعد إحراز النصر مع ١٢ سفينة حربية .

ومع أن الديوان قرر إعطاء الباشا رتبة وزير (أميرال - كبير) ، لكن السلطان سليمان لم يصادق على هذا القرار قائلا : إنه نال رتبة فريق أول بحرى قبل سنتين وإنه سوف لا تبقى للرتب قيمة إذا ما نالها الضابط بهذه السرعة . لكنه كافأ بيالة باشا شخصيا بتزويجه حفيدته . إن الرتب التى لم يفرط السلطان سليمان فى منحها إلى الباشا بربروس خير الدين ، طرغد ، بيالة ، سوف تمنح بعد مدة قصيرة وبعد جيل واحد إلى العسكريين ورجال الدولة الذين لم يحققوا واحدا على المئة من

الإنجازات التي حققها هؤلاء . هنا السلطان سليمان كلا من بيالة باشا وطرغد باشا بكتاب سلطاني مستقل .

طوق بيالة باشا وطرغد باشا قلعة جربة بـ ١٤٠٠٠ جندي من البر وبالسفن من البحر . كان قد تجمع في القلعة الصليبيون الذين لجأوا مؤخراً و ٨٠٠٠ من الجنود المسيحيين ، كانوا قد تلقوا أمراً من فيليب بعدم ترك القلعة قبل أن يموت آخر جندي . دام الحصار ٦٣ يوماً واستسلمت القلعة في ١٥٦٠/٧/٣٠ . أطلق الأتراك خلال هذه المدة ١٢٠٠٠ طلقة مدفع وأكثر من ٤٠ ٠٠٠ سهم . لقد كانت هذه المعركة إحدى معارك التاريخ الدموية ، وكانت في هذه الفترة قد انقلبت الحرب من حرب قلاع إلى حرب آبار المياه الإرتوازية ، فالطرف الذي يحوز الآبار يكون هو الطرف المنتصر . تمكن أولوج على رئيس من حيازة بحر واحدة فقط بعد قتال دموي شديد ، وظلت البقية لدى الأسبان . كان الأتراك لا يجدون الماء بدرجة كافية ، أما المسيحيون فلم يكن لديهم أى مصدر للمياه عدا الآبار . شوهد أسبان جنوا يلجأون من شدة العطش إلى الأتراك . استشهد وجرح بجراحات بليغة ٧ قواد سفن (قبطان) برتبة عقيد بحرى دفعة واحدة ، أمام بحر واحدة . اقتربت الخنادق من بعضها إلى درجة أن الأتراك والأسبان كان يكلم بعضهم بعضاً من أماكنهم ، أبدى الدون آلفارو شجاعة بحيث اقترب من سرادق طرغد باشا . نفذ توصية مليكه ؛ فلم يبق عند سقوط القلعة ، شخص واحد حتى من جنود الأسبان الذين كان عددهم ٨٨٠٠ . عندما أسر دون آلفارو لوحده ، كان قد اقترب إلى مسافة بضعة أمتار من سرادق طرغد باشا .

كان دون آلفارو قد اشتهر بمعاملته السيئة للجنداءة المسلمين ، ولذلك فقد حاول الذين كانوا أسرى وجدافاة تمزيقه . جعل دورمش رئيس ربان سفينة الأميرالية (القيادة العامة) لبيالة باشا من جسمه سدا لجسم الأميرال ونجاة من الموت . سيق دون آلفارو مع عدد كبير من أمراء البحر والجنرالوات الذين أسروا إلى إستانبول .

قدم الأتراك في محاصرة قلعة جربة نحو ١٠٠٠ شهيد أكثرهم من الضباط . جرح كل من ابن اخت طرغد إلياس رئيس ومساعدته محمد رئيس بجراحات بليغة . جاء بيالة باشا وطرغد باشا إلى طرابلس بعد تحصين القلعة ، مكثا فيها ٣ أيام وغادرا سوياً في ١٠ آب . احتفل الأسطول بعيد الأضحى في بروزة Preveze . دخل

الأسطول الهمايوني استانبول في ٢٧ أيلول (١٥٦٠) . كان الشعب قد تكس على السواحل ، أما الخاقان فكان مع الوزراء والسفراء الأجانب في قصر المراسم .
حتى الأسطول الخاقان ، بإطلاقه نيران مدافعه .

اعتبر الاشتراك في حرب جربة ، شرفا كبيرا بين جنود البحرية كما كان الحال في حرب بروزة Preveze . والجنود الذين اشتركوا في كليهما ، اعتبروا أبطالاً ذوى امتياز كبير .

قام بيالة باشا في ذكرى الحملات للسنوات ١٥٦١ ، ١٥٦٢ ، ١٥٦٣ بعرض في البحر الأبيض ورفع الراية . وفي ١٥٦٤ ، جاء إلى الريف (سواحل فاس في البحر الأبيض) . كانت أسبانيا قد شيدت خلال ١٥٦٠ - ٦٥ بعد توضحيات كبيرة ٥٠ سفينة حربية وجهزتها . كانت بذلك قد عوضت خسائرها في جربة . فتح بيالة باشا عدة قلاع قرب نابولي وسلمها إلى الفرنسيين لكنهم لم يتمكنوا من الحفاظ عليها (Von Hammer ، ٦ ، ٤٩٣) .

تعاضم نفوذ العثمانية في هذه الأيام في ريف وشمال فاس . كان بعض الزعماء الفاسيين ، وأمراء أسر الشريف ، وحتى بعض السلاطين قد اعترفوا بنفوذ الخليفة وبدأوا بالتعاون مع العثمانية . لكن بعضهم كان لا يزال يعقد مع أسبانيا اتفاقيات معقدة لاتتفق والعقل السليم ، بأمل التغلب على صراعات الأسر والعثمانية . لم يكونوا قد أدركوا بعد أن الإمبراطورية العثمانية ، دولة إسلامية . كانوا يخشون من مجيء العثمانية والغائها الامتيازات الإقطاعية التي يتمتعون بها .

كان بيالة باشا قد عين قرة مصطفى رئيس في جزيرة Penon do Velez التي تبعد ١٠٠ كم عن أسبانيا (الأندلس) وجعلها مقراً له . كانت تطوان وكذلك صافي في الأطلسي تحت نفوذ الأتراك ، أسسوا في كل منها أساطيل للقراصنة المجاهدين . وبناء على ذلك كان اجتياز مضيق جبل طارق إلى البحر الأبيض أو العكس ، يشكل مشكلة بالنسبة للأسبان . احتل جيبون دوريا Penon de Velez في ١٥٦٤/٨/٣١ بـ ٨٩ سفينة حرب و ٢٠.٠٠٠ جندي . كان مصطفى رئيس في تطوان . لم يتمكن الأسبان من المجيء إلى تطوان التي تقع في الداخل وعلى مسافة ليست بعيدة عن الساحل . لكن Penon de Velez بقيت لدى الأسبان حتى يومنا هذا .

كان ينوب عن طرغد باشا في طرابلس (ليبيا) ، خلال وجوده في الحملات وفي استانبول ، محمد باشا الذى قام بهذا الواجب مدة ٢ سنة ، ٧ أشهر ، وعند وفاة طرغد أصبح تلميذه أولوج على باشا واليا (بكربك) لمدة ٥ أشهر ، ثم جاء والى لواء رودس البحرى يحيى رئيس وحكم الایالة لغاية ١٥٧١/٣/٢٨ بلقب يحيى باشا .

(٢٠) حلة مالطة (١٥٦٥)

أقام فرسان الطريقة العسكرية Saint - Jean الذين تركوا رودس فى الأسبوع الأول من سنة ١٥٢٣ فى جزر مالطة و Gozo التى منحها إياهم شارل — كوينت فى ١٥٣٠/١٠/٢٥ .

كان تعداد سكان مالطة ٩٠ ألفا وغوزو ٧ آلاف . ظلت جزيرة غوزو تحت نفوذ الأتراك مدة طويلة (١٥٣٠ — ٦٥) ورغم أنهم كانوا يقصفون مالطة فى كل سنة تقريبا ، إلا أنهم لم يتمكنوا من زحزحة الفرسان منها . وقد راجع طرغد باشا ، الديوان مرات عديدة لفتح مالطة وإخراج الفرسان الذين سفكوا دماء كثير من المسلمين من الجزيرة .

كان الأستاذ الأعظم (grand - maître) أى رئيس الدولة فى تلك الفترة ، فرنسى من إقليم بروفانس Provence اسمه De la Valette Parisot . ولد فى سنة ١٤٦٤ ، وانتسب إلى فرسان مالطة عام ١٥١٥ وعمره ٥١ سنة . كان موجودا فى فتح القانونى لرودس فى ١٥٢٢ وكذلك عند الانتقال إلى مالطة فى سنة ١٥٣٠ . جدف كأحد الجدافة المسيحيين الأسرى سنوات عديدة فى سفينة عبد الرحمن رئيس ، ثم تخلص من الأسر ، وأوقف حياته لمقاتلة طرغد باشا ، كان يجيد ٥ لغات أوربية ، كما كان يجيد التكلم باللغة التركية ويتكلم أيضا قليلا من العربية .

كانت جزر Lampedusa و Linosa بحوزة الأتراك . ورغم جهود La Valett الذى انتخب أستاذا أعظم فى ١٥٥٧/٨/١٧ فإنه لم يتمكن من إخراج الأتراك من هذه الجزيرة الصغيرة . تنبأ لافاليت منذ سنوات بأن العثمانية لا بد وان تقوم إن عاجلا

أو آجلا بحملة كبيرة جدا على مالطة ، ومن ثم فقد استعد وجهاز الجزيرة بتحصينات تفوق تحصينات رودس وسدود وأنفاق يتاه فيها وجعل منها عش صقر داخل صخور . راجع لافاليت الذى أرقته غارات الأساطيل التركية المتكررة فى كل سنة — إسبانيا قائلا إن قطعة الصخرة هذه لا تستأهل كل هذه التضحية ، وأنه يجب إخلاؤها وتركها على شكل تلال صخرية ليحتلها الأتراك ، وأن يأخذواهم جزيرة كورسيكا الأفضل صيانة فى الشمال . وافق فيليب . لكن جمهورية جنوة استرحمت الملك فعدل عن قراره ، فلم يكن على لافاليت بعد هذا ، سوى الدفاع عن مالطة مهما كلفه الأمر .

يتكون الأسطول الهمايوى الذى سيقوده بيالة باشا من ١٣٠ سفينة كبيرة وسفينة حرب و ١١ كاليون (سفينة حرب شراعية) ، ٣ سفن من نوع قرعة مرسل ، ٥٠ سفينة نقل . كان الذى سيقود القوات البرية التى ستنتزل فى جزيرة مالطة ، الوزير ٥ اسفنديار أوغلو — سلطان زاده مصطفى باشا . حمل الأسطول عدا الجدافة ، ١٣٠٠٠ جندى بحرية ، ١٦٠٠٠ جندى مشاة (٤٥٠٠ انكشارى ، ٣٥٠٠ سباهى روملى ، ٨٠٠٠ سباهى أناضولى) ، ١٧٥ مدفع حصار ، ٢٠٠٠٠ قنطار بارود ، ٤٠٠٠٠ طلقة ، ١٠٠٠٠ معول ، ١٠٠٠٠ مجرف ومهمات أخرى تعادها فى العدد .

كان مصطفى باشا ، وعمره ٧٠ سنة ، هو ابن عمه السلطان سليمان ، لا يفهم الأمور البحرية ، مغرور عنيد ، لكنه كان عسكريا بطلا برتبة مشير (مارشال) . لم ينسجم مع بيالة باشا الذى يقود أسطولا يجده ٧٠٠٠ جداف (فورية = أسرى مسيحيين) ولا مع طرغد باشا الذى عين مستشارا له وأمره الديوان الأيحيى عن توصياته . كان لدى لافاليت ١٠٦٥٠ جنديا يعتبرون من أجود محاربي ذلك العصر فى العالم المسيحى ، كما كان يعتمد من ناحية أخرى ، على الشعب كله الذى يستتر وراء الصخور ويدافع .

وصل الأسطول الهمايوى الذى غادر استانبول بعد أن حيا قبر خير الدين باشا بمدافعه فى ١٥٦٥/٤/١ إلى مالطة فى ١٩ وأنزل فى الجزيرة ٢٠٠٠٠ جندى خلال ٤٨ ساعة . كان صالح باشا — زاده محمد بك (باشا) قد أجرى فى وقت سابق

استطلاعاً من البحر ومن المعروف أن الجزيرة بقيت تحت سيطرة العرب المسلمين خلال ٨٢٤ — ١١٢٧ والشعب يتكلم لغة ممزوجة بالعربية .

أدى تأخر مجيء طرغد في ٢ حزيران بصحبة ٢٣ سفينة حربية و ٢١١٠ من مشاة البحرية (عزب) ، وحالة بيالة النفسية غير الهادئة إلى ارتكاب مصطفى باشا أخطاء تكتيكية . جرى قتال دموى رهيب . أصيب طرغد باشا في الهجوم ٦ بشظية في رأسه ، وجرح بصورة بالغة ، واصطبغت لحيته البيضاء بلون أحمر قانيء . جاء في الحال كل من مصطفى باشا ، وأقرب صديق له محمد باشا ابن المرحوم صالح باشا ، وتلميذه المحبوب أولوج على بك . تلا مصطفى باشا القرآن ، ومات شهيدا بعد عدة ساعات ، كان عمره ٨٠ سنة . تقرر نقله إلى طرابلس التي خلصها أولوج على بك وطرغد من ظلم المسيحيين حيث دفن هناك وشيد له قبر فيها . يطلق على الموقع الذي استشهد فيه الباشا حاليا اسم Pointe Dragut (رأس طرغد) . كانت الطلقات التي أطلقت على قلعة مالطة خلال محاصرتها ومايمائلها من الحاجيات التذكارية ، يلتقطها السياح من الأرض ويأخذونها معهم للذكرى . يكتب الأميرال Stanley Lone-pool : « كان طرغد على مستوى بربروس من حيث إماراة البحر ، ويفوق دوريا » .

ومع أن قلعة Sant'Elmo سقطت في ١٥٦٥/٦/٢٣ إلا أن القلعة الأصلية قاومت . كلفت هذه القلعة الأتراك ٦٠٠٠ مابين شهيد وجريح . رمى لافاليت ١٠٠٠ مسلم من الأسرى أمام الأتراك بعد أن قطعهم إربا إربا . وخلال ذلك ، كان أسطولا صليبيا مكونا من ١٠٠ قطعة قد تجمع في صقلية بهدف إنزال قوة في مالطة ، دون أن يهاجم سفن بيالة باشا البالغة ٢٣٦ سفينة .

شرع في محاصرة القلعة الأصلية في ١ تموز . مضى شهر تموز تحت أشعة الشمس المحرقة وعلى الصخور أو بداخلها ، في قتال دموى رهيب بالنسبة للطرفين .

اعتبار من ٢ آب ، بدأ صالح باشا — زاده محمد بك (باشا) في قتال الأتغام (أنفاق تحت الأرض) ، وفي ٧ آب هجم مصطفى باشا بـ ٢٠٠ ٢٢ جندي دفعة واحدة . استمر هذا الهجوم ٨ ساعات . احتل محمد باشا برج Castilla . واعتقد أن القلعة قد سقطت ، لكن لافاليت ، انقذ الموقف نحو الليل . وفي الأيام ذاتها

وصلت أخبار بأن ٢٠٠ جندي مسيحي تمكنوا من التسلل من صقلية إلى مالطة وأن ذلك سوف يستمر ولا يمكن منع تكرره . أبلغ حسن باشا ابن بربروس خير الدين باشا ، القائد العام بالقيام بهجوم آخر تحت قيادته هو فإن لم يوفق فإن رفع الحصار يكون أوفق ، إذ سوف لا يمكن الاستمرار على القتال ما لم تصل إمدادات من الجزائر واستانبول وما لم يؤخذ بعين الاعتبار قضاء الشتاء في مالطة .

رفع الحصار في ٨ أيلول وتحرك الأسطول الهمايوني من مالطة في ١١ أيلول . شحت المؤن لطول فترة الحصار . قدم الأتراك ٨٠٠٠ جندي بين شهيد وجريح ومريض وأسير ، وأصبح عدد الجند الباقين غير كاف للاستمرار في حصار يؤمل منه النجاح . تحرك حسن باشا متوجها إلى طرابلس مع أسطوله يرافقه جثمان طرغد باشا وكذلك أولوج على باشا الذي عين مكانه واليا . عاد مصطفى باشا بأسطول خفيف إلى استانبول . تجول بيالة باشا مع القوات الأساسية عدة أشهر أخرى في البحر الأبيض وإيجة . تحسبا لاحتمال قيام المسيحيين بحركة نتيجة عدم التوفيق في مالطة . مات كذلك في حصار مالطة أكثر من ٨٥٠٠ جندي مسيحي ، كما قتل ٢٦٠ من فرسان مالطة من جملتهم البالغة ٥٠٠ كلهم من الأشراف وبدرجة « فارس » . جرح بيالة باشا في ساقه في ١٨ آب . رميت الجزيرة بـ ٨٠ ٠٠٠ طلقة مدفع . امتلأت كافة الأطراف بأكوام الرماح . بدأ لافاليت La Valette بالإنشاء مجددا . اشترك ٣٠٠٠ عامل في بناء المدينة المسماة حاليا La Valetta وهي عاصمة الجزيرة بالقرب من المدينة العربية المسماة مدينة .

أبحر بيالة باشا الذي جاء إلى استانبول في الأيام الأخيرة من سنة ١٥٦٥ ، فورا في ١٥٦٦/٣/٢٦ . دخل ميناء ساقز بـ ٧٠ سفينة حربية (١٥٦٦/٤/١٤) . كانت جنوة تدير الميناء تحت حماية العثمانية ، لم تقاوم ، وألحقت الجزيرة كلواء بحري وأنهى الحكم الإيطالي .

دامت قيادة القوة البحرية لبيالة باشا ، مدة ١٤ سنة ، وفي ١٥٦٨ ، أصبح وزير قبة ووزير ٢ .

(٢١) الأتراك والبرتغاليون في البحار الهندية

كان المحيط الهندي والبحار التابعة له حتى القرن ١٦ ، بحرا إسلاميا . كانت السفن الإسلامية وعلى رأسها العربية تسير فيه محملة بالبضائع .

دخلت البرتغال ، القرن ١٦ كدولة بحرية كبرى سيطرت على المحيط الهندي وادعت أنها هي التي تجلب البضاعة الآسيوية وتوزعها من لشبونة على أوروبا ولهذا فقد استحوذت على أرصفة بحرية في جنوب آسيا .

لعدم وجود أية دولة إسلامية تمتلك قوة بحرية كبيرة عدا العثمانية ، فقد تخير المسلمون ؛ كان البرتغاليون ينفذون في جميع أفراد سفن المسلمين التي يقبضون عليها ، القتل بالتعذيب طويل الأمد الذي يستمر عدة أيام ، يقطعون في كل يوم جزءا من أجسامهم ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك منع المسلمين من الخروج إلى البحار الهندية .

كانت أوروبا في حاجة إلى كثير من البضاعة الآسيوية وكان هذا العمل يدر الربح الكبير ؛ حيث كانت البضاعة الواردة من أى قطر آسيوى ، تباع في أوروبا بسعر يصل إلى ٢٠ ضعفا من سعر شرائها ، وقد كانت هذه البضاعة توزعها على أوروبا فيما مضى دولتا المملوكية في مصر والعثمانية ، تبيعانها إلى الجنوئين ، وهم بدورهم ينقلونها إلى الأقطار الأوروبية ، وبعد تسلط البرتغاليين على البحر الهندي ، بقي لدى العثمانيين الطريق البرى فقط الذى كانت تعترضه إيران المخاصمة ، وهكذا أصبح من الصعب جلب البضاعة من الأقطار الآسيوية النائية عن طريق البحر والاستفادة من أرباح المرور (الترانست) . وقد تأثرت التجارة البندقية والجنوية بصورة كبيرة لمصلحة البرتغاليين . وبينما كان البحر الأبيض ، مركزا للتجارة العالمية ، تكونت باكتشاف أمريكا تجارة الأطلسى . وبدأت منذ ذلك الحين تتشكل تجارة المحيط الهندي التي يسيطر عليها الأوروبيون .

دعت سلطنة كجرات في الهند آياز بك من تركية واستخدمته في تأسيس وحدات بحرية ومدفعية لها . اتخذ آياز بك جزيرة ديو Diu في أقصى جنوب كجرات قاعدة له . خسر البرتغاليون أكثر من ٧٠٠٠ أسير عندما أغاروا على رجل البحر العثماني

الذى يلقب بـ « ملك بومباي » (History of Gujarat, Bailey ، بومباي ١٨٩٦ ، ص ٣٢٢) . استشهد من العثمانيين الذين يقودهم حسين بك ، نحو ٤٠٠ ومن الكجراتيين ٦٠٠ . بين هذا الحادث علاقة العثمانية بالمحيط الهندي قبل فتح العثمانية لمصر وهبوطها إلى البحار الهندية . عاد حسين بك من كجرات في ١٥١١ . وعين واليا مملوكا على جدة وقائدا للأسطول . أمر السلطان سليم سلمان رئيس عندما كان في مصر ، بأن يقتل حسين بك هذا ولا تعرف سببا لذلك .

جاء حسين رئيس آخر من تركية ، وأصبح قائدا لقوات السلطان قانصوه البحرية . سار إلى صنعاء بأسطوله في ١٥٠٧ وأعلن الحكم المملوكي في اليمن . أرسل بايزيد الثاني بعد ذلك ، كمال رئيس إلى مصر مع ٣٠٠ مدفع و ١٥٠ عمودا لربط الأشرعة ، ٣٠٠٠ مجرفة وكميات كافية من الأشرعة ، والأخشاب ، والزفت ، والفتوس الخ . وأهدى ٨ سفن حربية إلى المماليك . أمر كمال رئيس الفنيين الذين تركهم في مصر بصنع ٣٠ سفينة حربية في السويس . ولأن هذه القوة سوف تقوم بحماية التجارة الإسلامية في البحر الأحمر وخارجة في مواجهة البرتغاليين ، فإن خدماتها سوف لا تقتصر على المماليك فحسب بل ستعدها إلى خدمة العثمانية والعالم الإسلامي بأسره (Relations et Commeree de l'Afrique ، Mas Latric ، Septentrionale de Moyen - âge ، باريس ١٨٨٦ ، ٥٠٣ - ١٠) . أرسل بايزيد الثاني كذلك ، أحمد أوغلو آيدن رئيس الذى سيشتهر بين أمراء البحر للإخوة بربروس ، ثم حامد رئيس مع كمية كبيرة من المهمات لخدمة المملوكية وإصلاح الأسطول المصرى . وعندما أراد المماليك دفع ثمن المهمات ، رفض قائلا : إن هذه قضية الإسلام المشتركة ضد الكفرة .

عين السلطان سليم عند فتحه مصر في ١٥١٧ ، سلمان رئيس برتبة « قبودان السويس » (وتلفظ قبطان) (قائد السويس) وكان يطلق عليه اسم « قبطان مصر ، قبطان الهند » كذلك (سيقوم بمهمته في الدولة المملوكية ، وسوف يكون أميرالا - كبيرا عثمانيا مسئولاً عن البحر الأحمر وجميع البحار المتصلة بهذا البحر) ، كانت رتبة وظيفته هذه لواء بحرى ، وكان مستقلا عن قائد القوات البحرية (قبودان دوريا) ؛ فقد كان تابعا إلى والى مصر بالنسبة للأمور المالية ورأسا إلى الديوان بالنسبة للأمور العسكرية .

وسع كل من السلطان سليم والوزير الأعظم مقبول إبراهيم باشا مصنع السفن المصرى بشكل كبير عند قدومه لإصلاح مصر ، وأمر كلاهما بإنشاء سفن حربية جديدة وجهازها وعززا أسطول سلمان رئيس . ويجب ألا ننسى عدم إمكان إمرار السفن من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر بسبب عدم وجود قناة . وقد كانت هذه هى مشكلة العثمانية . أراد السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ — ٧٤) فتح القناة كما فى الجهود السابقة . لكن هذا المشروع أهمل بعد ذلك .

سار سلمان رئيس فى ١٥٢٣ بحملة ، كان البرتغاليون قد احتلوا جزر كاماران المواجهة لليمن . أخرج البرتغاليين من هذه الجزر ومن البحر الأحمر . اشترك فى هذه الحملة ٤٠٠٠ جندى مشاة عثمانى بقيادة خير الدين حمزة بك .

أسس سلمان رئيس قاعدة بحرية فى جزر كاماران ، وعين لحمايتها خوجة صفر رئيس . وفى ١٥٢٧ ، أسس سلمان رئيس الحكم العثمانى فى القسم الأكبر من اليمن . حصل خلاف بينه وبين خير الدين بك ، ومات فى المباراة التى جرت بينهما ، أحد أقدر أمراء البحر فى العثمانية ، سلمان رئيس الأكبر سنا . دعا مصطفى بك ابن أخ سلمان رئيس ، خير الدين بك إلى المباراة وقتله فيها .

أراد سلمان رئيس أخذ عدن بـ ١٩ سفينة عليها ٢٤١ مدفعا ، لم يوفق (بجوى ، ١ ، ٨٤ ؛ تحفة الكبار ، ٢٤ — ٥) .

عين الديوان بعد وفاة سلمان رئيس ، مصطفى بك ابن أخيه بهرام بك ، واليا على لواء اليمن (سنجق بك ، لواء) ، لكن جنود المشاة العثمانيين الموجودين فى اليمن ، اعترضوا على مصطفى بك وجنوده البحريين لقتله قائداهم خير الدين بك .

استدعى الديوان بهرام بك إلى استانبول وأمر ابنه مصطفى بك بالعودة إلى القاعدة البحرية فى قره مان .

جاء مصطفى بك إلى عدن لكنه لم يتمكن من أخذها (شباط ١٥٣٠) . عين سيدى على رئيس واليا على اليمن وأصبح أحمد بك ابن سلمان رئيس معاوناً له (أى أنه عين لهذا المقام شخصين بحريين) . يظهر بوضوح أن الديوان لم يكن يشغله فتح اليمن وإنما كان يشغله تسلط الأساطيل البرتغالية على البحر الأحمر .

جاء بهرام بك — زاده مصطفى بك ، مع مساعده خوجة صفر رئيس إلى ميناء الشحر (شيخ ، شحرات) . وأعطى أمير الشحر ١٠٠ من جنود البحر ومدافع وحذره من قبول البرتغاليين بأمر خليفة روى زمين (خليفة سطح الأرض) ، وغادر المدينة في ١٥٣٠/١٢/٢ . كان قد ترك خوجة صفر رئيس لدى بدر أمير شحر . جاء البرتغاليون فوراً إلى شحر لكن صفر رئيس ردهم ، ثم غادر صفر رئيس في ١٥٣١/٣/٤ للحاق بمصطفى بك . اجتمع سلطان كجرات بهادر شاه ، في جامبانير بالأميرالين التركيين . وخلال تلك الأيام ، كان على رأس أسطول كجرات الذى يقوده العثمانيون في جزيرة ديو ، ملك دوغان ابن ملك آيازبك الذى جاء من تركيا . غادر الأميرال البرتغالى Nuno da Cunha قاعدته في Goa في ١٥٣١/١/٦ ، ووصل ديو Diu في ٧ شباط مع ١٩٠ سفينة حربية و ٢١٠ سفينة نقل محملة بـ ٢٦٠٦٠ جندياً ؛ ٢٦٠٠ منهم جندى برتغالى ، والبقية محليون وشرع في قصف ميناء ديو بـ ٤٠ مدفعاً ترمى قذيفة من عيار ١٢ ليرة . دافع عن ريو ملك دوغان بك ، ومصطفى وصفر رئيس . وبعد أن ضعفت المدافع البرية التركية الأسطول البرتغالى ، أبحر الأسطول التركى وابتعد عن الساحل وأغرق ٤٠ سفينة للعدو واستولى على ٢٠ سفينة ، وقتل ١٥٠٠ برتغالى و آلاف الهندوس الذين يخدمونهم . أصبح مصطفى بك والياً على صورات وأميرالاً على خليج كامبى . وبدلاً من أن يتعاونوا مع ملك دوغان أمير البحر العثمانى الذى حصل قبلهما على شهرة فى البحار الهندية وأحرز نفوذاً واسعاً فى الهند ، تعاونوا مع ابن أخ وابن سلمان رئيس اللذين لم يكن لديهما دهاء لأخوة بربروس ، واتفقوا وسعوا ضده وفى النهاية تسببوا فى أن يقتله الشاه ، وهكذا مات معه أمل الحصول على مجال عثمانى فى المحيط الهندى .

بعد سنوات استولى تيمور أوغلو همايون شاه وهو ابن بابر شاه ، وخلفه ، على كجرات . دخل مصطفى بك فى خدمته كقائد للمدفعية . أما شاه كجرات بهادر ، فقد أرسل خزينته بكاملها إلى الخليفة فى استانبول أى إلى السلطان سليمان لئلا تقع بيد همايون ، كما أحرق سفنه الـ ١٠٠ التى سعى أمراء البحر الأتراك فى إعدادها منذ سنوات ، خوفاً من وقوعها بيد غريمه . وبطبيعة الحال سعد البرتغاليون بذلك .

سار الأميرال البرتغالى Nuno da Cunha بـ ٣٠ سفينة وتمركز فى جزيرة ديو

(٢٥ / ١٠ / ١٥٣٥) .. حاول صفر رئيس إخراج العدو من ديو ، لكنه لم يكن يملك سفنا فقد أحرقت كلها ، لم يوفق . لكنه انغمس في جهاد طويل الأمد ، إلى أن وافته المنية في ١٥٤٦ برصاصة من بندقية برتغالية . أصبح ابنه رجب بك واليا مكان أبيه على صورات بلقب أبيه « خداوند خان » ، قتل هو الآخر في ١٥٦٠ . كان خوجة صفر رئيس (رئيس ملاحى سلمان رئيس وولده الشرعى) ، هو الذى أوحى إلى محمود شاه ابن أخ بهادر الذى إحتل مكانه وأصبح شاهها على كجرات ، بطلب المعونة من حضرة خليفة الكرة الأرضية السلطان سليمان .

(٢٢) حملة الهند لسليمان باشا (١٥٣٨)

أمر الديوان ، خادم سليمان باشا (وزير أعظم بعد ذلك) وهو برتبة وزير ومن أكبر إدارىي العثمانية فى القرن ١٦ والى إيالة مصر ، بالحملة على الهند .

كان عمر سليمان باشا فى ذلك التاريخ ٧١ سنة ، لكنه كان رجل دولة ملهى بالحيوية ، شديد الطبع ، إدارى ، ذكى وداهية . سار الباشا من ميناء السويس بأسطول مكون من ٧٦ قطعة (١٥٣٨ / ٦ / ١٣) ، وسوف يتحرك السلطان سليمان من استانبول بعد ٢٥ يوما بحملته الهمايونية ٨ . وكان ببروس قد سار من استانبول بالأسطول الهمايونى قبل ٦ أيام إلى بروزة .

كان على أسطول سليمان باشا ٧٠٠٠ انكشارى و ١٣٠٠٠ جندى بحرى عدا الجدافة . وكان سليمان باشا واليا على مصر منذ ١٢ سنة . اجتاز البحر الأحمر بتأن ودون عجلة وأصلح كل مايمس سلطة الدولة فى البحر الأحمر ولو كان طفيفا . جاء من السويس إلى عدن خلال ٣٤ يوما . احتل عدن فى ٢٧ تموز . شق أمير عدن عامر الثالث (كان من عائلة طاهرى التركية الأصل) على صارى سفينته الأميرالية . اتهمه بتقديم التسهيلات للبرتغاليين وعدم إطاعته الخليفة .

كان سليمان باشا يريد إخراج البرتغاليين من جزيرة Diu . تبعد جزيرة ديو عن شمال جزيرة بومباى بمسافة ٢٥٠ كم . فتح الباشا أولا قلعتى Gokala (بندر = ميناء ترك وباللغة التركية : ترك ليمانى) و Kat . لجأ البرتغاليون إلى ديو بعد أن تكبدوا نحو ١٠٠٠ قتيل .

أنزل الأتراك جنودهم فى الجزيرة الصغيرة فى ٢٧ آب وبدأ الحصار فى ١ أيلول . كان Antonio da Sylveria يحمى القلعة . تكبد العدو خسائر جسيمة وبينما انفتحت ثغرات كبيرة فى القلعة أمر سليمان باشا رفع الحصار بعد ٢٠ يوما (٢٠ أيلول) لاعتبارات سياسية أكثر مما هى عسكرية .

وبالنسبة لكتب التاريخ الهندية المدونة فى ذلك العصر (فرشته ، ٢ ، ٣٧٢) ، فإنها تشير إلى أن سليمان باشا كان يسعى فى الهند وراء الفتوحات أو أنه على الأقل كان يريد أخذ سلطنة كجرات ، وكانت الدولة العثمانية التى يمثلها ، دولة فتوحات . كما تشير إلى أن شلق الباشا أمير عدن ، ألقى الفزع فى قلب محمود شاه ، الذى كان قد تورط فى طلب المساعدة من الخليفة .

أما بالنسبة لكتب التاريخ العثمانية ، فقد كانت لسليمان باشا مهمتان : إنهاء مظالم البرتغاليين التى استهدفت إخراج مسلمى الهند والتى كانت شبيهة بمظالم الأسبان التى ارتكبوها تجاه العرب فى الأندلس والمغرب وكان هذا دينا فى رقبة الدولة العثمانية بحكم كونها دولة الخلافة ، وبحكم كونها أقدر دولة عسكرية ، وكونها الدولة الإسلامية الوحيدة التى تمتلك أسطولا . أما المهمة الثانية لسليمان باشا فهى إعادة فتح طرق تجارة الهند أمام البحارة المسلمين وطرق المرور للعثمانية ولمصر كقطر عثماني ، فقد كانت مصر من أكثر الأقطار التى تضررت من توقف تجارة المرور ، ولا يخفى أن ذلك كان عاملا اقتصاديا هاما منذ عهد المماليك . وقد كان استخدام المماليك للبحارة الأتراك باستمرار ، بغرض دفع هذه الأزمة أو تقليلها .

من ناحية أخرى ، كان من الواضح أنه لايعنى محمود شاه كجراتى — الذى يتعاون مع البرتغاليين — أن يسيطر البرتغاليون على المحيط الهندى أو أن يتسلطوا عليه ، وإنما كان الذى يعنيه فى المقام الأول هو شغونه الداخلية ، ومن هنا فإن افتراض اتفاه مع البرتغاليين لإزاحة العثمانية يعتبر أكيدا ومن المعلوم عنه أنه تظاهر بأنه تمكن من الحصول على رسالة محررة باللغة البرتغالية — وطبعا مزورة — تقول إن إسطولا برتغاليا مكونا من ٣٠٠ قطعة على وشك الوصول إلى ديو ، وعرض هذه الرسالة على الباشا وأقنع الباشا الذى لايعرف القطر بصورة جيدة بما جاء

فيها ، كما وأن الوحدات الكجراتية المساعدة ، كانت تتظاهر بمساعدة الجيش العثماني ، بينما تخلق اضطرابات عديدة . ومن المعروف كذلك أن الشاه أقنع بعض ضباط العثمانية بترك خدمتهم بإعطائهم رواتب توازي رواتب الوزراء الذين يتقاضونها في تركيا .

كان نابور شاه قد فتح الهند قبل ١٢ سنة بواسطة ١٣٥٠٠ جندي تركي وسرية مدفعية عثمانية واحدة ، وقد أدهش ذلك كافة الحكام المسلمين والهندوس الموجودين في الهند . ظن محمود شاه الذي شاهد مدافع سليمان باشا المخيفة وآلاف الخيالة ، أنه بعد أخذه ديو سينقض عليه ويدخل أحمد آباد ، وطبعاً فإن المعلومات التي تمكنا من الإجابة على ما الذي كان سيعمله الباشا لو احتل ديو ، غير متوفرة لدينا .

وقد أدرك الباشا الخيانة ، ولكنه لم يلجأ إلى معاقبة الشاه ، حيث كان الشاه صاحب دولة إسلامية ، كان هجومه على حاكم دولة إسلامية قبل إنهائه قضية البرتغاليين ، مخالفاً للأوامر التي تسلمها من الديوان ، لذلك فقد أعطى الباشا أمر العودة ، لكنه قدم لصفر رئيس الضباط البحري العثماني المستخدم لدى دولة كجرات مهمات ومدافع بأحجام لم تسبق مشاهدتها . والمشهور عن أكبر شاه حفيد نابور شاه وابن همايون شاه (الذي كان يحكم البلاد أثناء حملة الباشا) أنه عندما فتح كجرات بعد سنوات طويلة ، شاهد هذه المدافع المدون عليها اسم السلطان سليمان وأخذها معه .

مكث سليمان باشا في موانئ الشجر ، عدن ومخا بعد أن تجول في سواحل عمان وحضرموت وأخضعها للعثمانية . أرسل المدافع والبنادق إلى مسلمي أريترية والصومال ضد البرتغاليين وحليفهم ملكية الحبشة . وعين والي (برتبة لواء « سنجق بك ») لواء غزة مصطفى بك واليا (برتبة فريق أول « بكلربك ») على أياالة اليمن على أن يكون المركز زبيد (مصطفى بك هو ابن بيقلی محمد باشا الذي فتح جنوب غربي الأناضول وديار بكر من الصفويين) ، وترك له قوات مهمة .

وهكذا تأسست أياالة عثمانية جديدة ، وقد كانت إدارة اليمن حتى ذلك الحين كلواء (سنجق) .

وأعلن الإمام الزيدى الموجود فى الأقسام الداخلية خضوعه .

رسى سليمان باشا فى جده (١٥٣٩/٣/١٣) ، وذهب إلى مكة وحج ، ونظم الحجاز على أساس النظام العثمانى . استبقى الأسطول فى السويس وجاء إلى القاهرة . أمر الديوان بقدمه إلى استانبول وتقديم تقرير تفصيلى بنفسه عن حملة الهند التى استغرقت سنة كاملة .

أراد بعض الوزراء فى الديوان إجراء تحقيق بشأن الحملة ، لكن الديوان قرر فى النهاية بأصوات الأكثرية ، أن الباشا حقق حملة ناجحة ومفيدة (بجوى ، ١٢ ، ٢٢٥) . تقرير الباشا حول حملة الهند موجود فى أرشيف سراى طوبقايو ، رقم E ٩٦٦٣ .

نقل سليمان باشا إلى الديوان كوزير قبة وأصبح بعد فترة قصيرة وزيرا أعظم . تم توسيع شبكة الاستخبارات العثمانية فى الهند بعد حملته ، قد يكون من المفيد أن نقول إن سليمان باشا إدارى ووالٍ قدير جدا ، لكنه ليس على تلك الدرجة فى السياسة الخارجية والعسكرية .

(٢٣) فتوحات السودان والحشة لأزدمير باشا

لم تكن أرباح البرتغال التى حصلت عليها من تجارة الهند ، بأقل من أرباح الأسبان من مناجم الفضة الأمريكية . ورغم ذلك ، لم ينبج الأسبان والبرتغاليون من أزمات اقتصادية لعدم حسن استخدام الأموال وإسرافهم فى حياتهم فى أوطانهم الأصلية . وعلى سبيل المثال ، كان لأكبر حاكم مسيحي كشارل — كوينت ديون باهظه فى الداخل والخارج . وعدا أن شيئا من هذا القبيل ، لم يكن وارداً بالنسبة للدولة العثمانية ، فإنها كانت أصلا قد أسست اقتصادا مكتفيا بذاته ، وكانت تقوم بتجارته الرائجة لغرض غنائها ورفاقتها .

كانت ديون شارل — كوينت فى سنة ١٥٥١ ، تقدر بالسعر الحالى ، بما يزيد على ٣ مليارات دولار (Meizig ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٨٠ — ١) .

لم تتمكن البرتغال — رغم آمالها الواسعة — من تأسيس إمبراطورية مستعمرات

فى القارة الهندية . لكنها تمكنت بواسطة قواعدها البحرية من السيطرة على تجارة المحيط الهندى ، وقد كان نجاحها الاستعمارى أكبر فى أندونيسيا وخاصة فى شرقى أفريقيا ، إذ لم تكن فى هذه المناطق دول منظمة عسكريا لتقف حيالها . وعدا أن العثمانية تمكنت بقدر ماسمحت لها الظروف ، من الدفاع عن شرقى أفريقيا وغربى أندونيسيا تجاه البرتغال ، كما فتحت جبهة كبيرة جدا فى شمال غربى أفريقيا فى فاس ، فإنها حطمت فى النهاية تلك الدولة البحرية الاستعمارية المقتدرة .

كان أوزدمير بك قد اشترك كلواء فى حملة سليمان باشا على الهند . وهو أصلاً من بكات الممالك أى من أتراك مصر ، وكان مستشارا خاصا لسليمان باشا مختصا بالأمور الأفريقية (وخاصة الحبشة وجنوب البلاد العربية) . خدم أوزدمير بك ، الذى انتسب إلى الجيش العثمانى فى ١٥١٧ عندما كان برتبة نقيب (يوزباشى) ، فى أقاليم مصر بصورة مستمرة .

كانت الخدمة الأخيرة التى قدمها سليمان باشا عند ذهابه إلى استانبول وقبيل مغادرته النهائية للقاهرة ، هى إرساله أوزدمير بك بأسطول إلى النيل بغرض الكشف . خرج أوزدمير بك الذى نزل إلى النوبة ، إلى البحر الأحمر فى سواكن ، وبذلك جذب انتباه الديوان الذى أمر بتقديم كافة التسهيلات والدعم لولاة مصر الذين تلوه لتحقيق حملات مشابهة لحملات أوزدمير بك .

تمكن أوزدمير بك على مر الزمن من أخذ كامل أريتره ، القسم الأكبر من الصومال واستقطع قسما من الحبشة الأصلية وربطه بأقاليم مصر . لكن الديوان الذى ارتأى صعوبة إدارة هذه الأقطار النائية ، من القاهرة ، أسس أقاليم الحبشة (حبش) وعين أوزدمير باشا واليا عليها . إن ملكية هرر ، أهم دولة إسلامية فى الحبشة وحاكمها إبراهيم أوغلو أحمد غران (١٥٠٦ — ١٥٤٣) كانت تحت نفوذ العثمانية . كان يهدف الديوان إلى دفع ملكية الحبشة الأرثوذكسية — اليعقوبية أى المسيحية — على مر الزمن — إلى أنجاد الحبشة ، وإبعادها عن البحار بصورة مطلقة ، وقطع علاقتها مع البرتغاليين التى تتعاون معهم .

وتجاه ذلك ، كان البرتغاليون يقدمون إلى David الثانى (١٥٠٨ —

(١٥٤٠) ملك الحبشة مساعدات كبيرة لئلا يتعلمها المسلمون . وهكذا فإن مجالا كأنجاد الحبشة يصعب أن يخطر على البال ، أصبح أحد المراكز الحساسة للنزاع العثماني — البرتغالي الاستراتيجي .

تسلم ملك الحبشة الجديد (Claudius) Glâvdêdos (١٥٤٠ — ١٥٥٩) ، في ١٥٤١ المدافع والبنادق المرسلة من لشبونة وهي أول مرة يمتلك فيها سلاح . انهزم أحمد غران الذي يحتوى جيشه على ٢٠ ضابطاً من الفرسان العثمانيين وعدة ضباط مدفعيين عثمانيين ، واضطر إلى ترك قطعة كبيرة من الأراضي . وعلى أثر ذلك ، أرسل والي اليمن محمد باشا — زاده مصطفى باشا ، إلى أحمد غران ١٠ مدافع و ٩٠٠ جندي عثماني حملة بنادق . تمكن أحمد غران بهذه القوات من كسر الجيش الحبشي المسيحي الذي يحوى ٤٥٠ جندياً برتغاليا بقيادة Don Christopher بصورة شديدة في معركة Afla الميدانية ، أسر Don Christopher da Gama (آب ١٥٤٢) . أرسل رأس الجنرال البرتغالي ، إلى مصطفى باشا في زبيد أدت هذه الحرب الميدانية إلى تقوية النفوذ العثماني في الحبشة بشكل واسع . لكن أحمد غران استشهد في إحدى الغارات المسيحية (١٥٤٣/٢/٢١) . خلفه أمير عباس .

حاول الأسطول البرتغالي أخذ عدن . أباد والي لواء عدن عبد الرحمن بك ، الأسطول البرتغالي وأسر الأميرال Don Marco وأرسله إلى استانبول . وعندما شرع أسطول تركي مكون من ٤٥ سفينة حربية من التجول في البحر الأحمر ، خليج عدن وبحر عمان بصورة مستمرة ، أدرك البرتغاليون عدم إمكان اجتيازهم باب المندب . فتح أوزدمير باشا بعد ذلك أرضاً واسعة من أراضي الأحباش المسيحيين . وخضعت للعثمانية دول محلية كثيرة في السودان ، كانت أكثرها وثنية في ذلك العهد . بدأت بدفع ضريبة سنوية لوالى الحبشة .

ولى أويس باشا اليمن بعد مصطفى باشا ، (وهو ابن السلطان سليم من جارية ملك يمين) . احتل قلعة تعز التي كانت بحوزة الزيديين (١٥٤٦/٢/١٢) . ثم سار أوزدمير باشا إلى الإمام الزيدى . وبعد مقاومة استمرت ٦ أيام ، احتل صنعاء . انتقل مركز الإيالة من زبيد إلى صنعاء . استدعى الديوان أوزدمير باشا بعد ذلك إلى استانبول . أصبح المستشار السرى للسلطان سليمان لشئون أفريقيا

وبقى سنوات عديدة دون أن يكلف بواجب رسمى . أرسل إلى الحبشة مرة أخرى . جاء إلى عاصمتها مصنوع . توفى فيها فى ١٥٦٢ وعمره ٦٢ . ابنه الوزير الأعظم أوزدمير أوغلو عثمان باشا .

(٢٤) حملة بيرى رئيس (١٥٥٢)

محمى الدين بيرى رئيس ، من عائلة قره مانية (قونية) ، ولد فى غاليبولى كعمه كمال رئيس (كمال الدين بك) ، لم يبق فى البحر الأبيض ساحل أو جزيرة أو ميناء أو صخرة لم يشاهدها ، رسم خرائطها كلها ، وبعد وفاة عمه ، عمل لدى أوروغ رئيس ومن ثم لدى خير الدين باشا . وفى ١٥٠٠ أصبح قبطانا (عقيد بحرى) وهو شاب . اجتمع بالسلطان سليم بعد بايزيد الثانى . حرر وخطط كتابه المشهور المسمى « كتاب بحرية ودنيا خريطة سى » وقدمه إليه . شغل وظيفة قبطان (عقيد بحرى ربان سفينة) لسفينة الأميرالية التى ركبها الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا خلال تفتيشه مصر وأصبح مستشارا خلال إصلاحاته فى مصر والتى دامت سنة واحدة . وفى ١٥٤٧ ، عين لقيادة أسطول الهند بدلا من صولاق فرهاد بك وجاء إلى السديس . كان البرتغاليون قد احتلوا عدن . استرجعها بيرى رئيس (٢٦/٢ / ١٥٤٨) . جاء إلى مسقط مع ٣١ قطعة من السفن (٢٤ منها سفينة حرب) . كان البرتغاليون قد احتلوها كذلك . أسر الحامية البرتغالية فى مسقط التى قاومت ١٨ يوما مع الجنرال Zoao delisboa . جاء إلى شحر وحذر شيوخ حضرموت من مغبة خروجهم على تعليمات خليفة الكرة الأرضية ، وأوصاهم بعدم استقبال البرتغاليين ، وتنفيذ ماكلفوا به . جاء إلى قلعة هرمز التى فى حوزة البرتغاليين ، بعد أن احتل جزيرة كشم الموجودة فى ضفة لارستان فى إيران . حاصرها بشدة . لم يتمكن من أخذها . دخل ميناء إيران الذى سمي بعد ذلك باسم بندر عباس وقام بعرض فيه ولام المسلمين الذين يتعاونون مع البرتغاليين . زار إمارات عمان ، قطر وبحرين وحصل على اعتراف منهم بتابعيتهم للعثمانية . كان اعتبار العثمانية متبوعا فى هذه المناطق ، يعتبر اسميا فقط . دخل ميناء البصرة . أودع سفنه فى البصرة لإصلاحها وعاد إلى السويس تصاحبه ٣ سفن حربية . أبلغ كباد باشا (الذى يحكم مناطق جنوب العراق ، الكويت ، لحساء ، شمر ونجد كوال (بكهربك) ، أمير

الأمرء ، فريق أول على البصرة) ، الديوان الهمايوى بأمر لإداع السفن فى البصرة لإصلاحها ، بصورة يدين بها بيرى رئيس . رفض وزراء الديوان الذين يجهلون المياه الهندية ، دفاع بيرى رئيس المتمثل فى أنه كان من الخطر إعادة السفن قبل إصلاحها . وحكموا عليه بالإعدام . استدعى الأدميرال وعمره ٨٠ سنة من السويس إلى القاهرة وأعدم . وهذا من أسوأ أحداث عهد القانونى .

كانت مسقط بحوزة البرتغاليين منذ ١٥٠٦ . وفى السنة التالية لفتح بيرى رئيس لها ، استولى عليها البرتغاليون . وفى ١٥٨٠ فتحها على بك مجددا . عاد واحتلها البرتغاليون ، ثم أخرجوا من مسقط بصورة نهائية فى ١٦٥٠/١/٢٣ .

(٢٥) حملة مراد رئيس (١٥٥٢ - ٥٣)

عين والى قطيف اللواء البحرى مراد رئيس (ك١/١٥٥٢) ، لقيادة الهند مكان بيرى رئيس . جاء إلى البصرة . ترك فى قاعدة بصرة البحرية ٨ سفن من الأسطول الذى استبقاه بيرى رئيس ، وسار بـ ١٨ سفينة حربية وخرج إلى بحر عمان . هاجم أسطول البرتغال المكون من ٢٥ سفينة حربية . لم يتمكن أى من الطرفين من التغلب على الآخر . غرقت عدة سفن برتغالية وسفينتى سلمان رئيس ورجب رئيس . استشهد كلاهما . ارتأى مراد رئيس خطورة الذهاب إلى السويس بسبب العطب الذى أصاب سفينته وعاد إلى البصرة . عزل وعين مكانه سيدى على رئيس (١٥٥٣/١٢/٦) . تعتبر حرب مضيق هرمز ، من أشد الحروب الدموية التى جرت فى البحار المفتوحة بين العثمانيين والبرتغاليين . جرت فى صيف محرق شديد الحرارة .

(٢٦) قيادة الهند لسيدى على رئيس (١٥٥٣ - ٥٧)

ومع أن سيدى على رئيس من مواليد استانبول ، إلا أن عائلته من سينوب . وسواء جده أو أبوه ، كانا مستشارين بحريين (ترسانة كنداسى) فى مصنع السفن . اشترك فى فتح رودس فى شبابه (١٥٢٢) ، ودخل ضمن أمرء البحر المعتمدين لدى بربروس . كان أميرال الجناح الأيسر فى بروزة . كان مساعدا لطرغد

رئيس في فتح طرابلس عين مستشارا بحريا في مصنع السفن ، ثم أصبح مستشارا خاصا للسلطان سليمان للشئون البحرية . كلفه السلطان سليمان بقيادة الهند أثناء وجوده في حلب . وافق (١٥٥٣/١٢/٦) وجاء من حلب إلى البصرة عن طريق بغداد (١٥٥٤/٢/٣) . غادر البصرة مع ١٥ سفينة حرب (١٥٥٤/٧/٢) . جاء إلى بندر بوشهر وقطيف والبحرين . قطعت ٢٥ سفينة حرب برتغالية طريقه في مضيق هرمز (١٥٥٤/٨/٩) . ابتعد العدو عن الأسطول العثماني عند غرق سفينة برتغالية . أخذ الإمدادات وعاد إلى مياه مسقط وجابه سيدى على رئيس مجددا (١٥٥٤/٨/٢٥) . كانت حرارة الجو مخيفة (Von Hammer ، ٦ ، ١٨٦) . كان Don Fernan do ابن نائب الملك Alfonsa de Noronha قائدا للبرتغاليين . استمرت الحرب مدة ١٨ ساعة بدون توقف بالقرب من الساحل والسفن جنبا لجنب وبشكل دموى لايمكن تصوره . غرقت ٧ سفن تركية و ٦ برتغالية . لم يعد للجداقة القدرة على سحب المجادف ولا للمدفعيين على إشعال نار المدفع . ابتعد الأسطولان أحدهما عن الآخر .

استمر سيدى على رئيس في ضيقه ب ١١ سفينة . فاجأته في سواحل حضرموت عاصفة تسمى « طوفان الفيل » أدار الدفة نحو الشرق . تمكن بصعوبة كبيرة من الوصول إلى كجرات بسفنه التي تفككت خشبات أرضيتها ، ٣ من سفنه اصطدمت بالأرض ، و ٨ سفن كانت في حالة تحتاج معها إلى إصلاح طويل الأمد . كانوا قد رموا كافة المهمات الثقيلة في البحر لإنقاذ السفن من الغرق .

ألقى سوء الأحوال الجوية بالأسطول التركي على مسافة بعيدة من ميناء Demen (Damao) جنوب ميناء صوراء وعلى مسافة ١٦٠ كم عن شمال بومباي . أهدى سفينتين حرييتين إلى والى Demen العثماني الأصيل ملك أسد ودخل صوراء (Seret) ب ٦ سفن (١٥٥٤/٨/٣٠) . أهدى سفنه هذه ومدافعها إلى والى صوراء العثماني خداوند خان . ولأجل إمكان استعمالها ، ترك معظم طاقمها في الهند . غادر مع نحو ٥٠ من جنوده الذين لم يرغبوا في البقاء في الهند . شكر سلطان كجرات أحمد شاه الثاني (١٥٥٣ — ١٥٦١) ، سيدى على رئيس على مساعدته العسكرية التي قدمها وأعلمه بتابعيته السلطان .

جاء سيدى على رئيس وجنوده إلى دلهى . استقبل تيمور أوغلو همايون شاه (وهو ابن بابور فاتح الهند) الأدميرال العثماني بترحيب منقطع النظير وبشكل لم يكن يتوقعه أبدا ؛ حيث إن بنى عثمان وبنى تيمور وكلاهما سننى — حنفى لا يجب أحدهما الآخر أبدا . لم يغفر العثمانيون حتى فى القرن ٢٠ ، لتيمور استيلاءه المفجع على الأناضول وسفكه دماء الأخوة . بينما كان سيدى على رئيس ، ينتظر البلاء من التيموريين بسبب تقديمه إلى شاهات كجرات أعداء التيموريين والذين يتظاهرون بتبعيةهم للعثمانية ، مساعدة عسكرية وإعطائه لهم المدافع والسفن والجنود ، لم يأخذ عليه ذلك التصرف همايون المثقف جدا مثل أبيه والشاعر باللغة التركية . أصبح مستشارا خاصا لهمايون . لكن همايون سقط من السلم الذى صعد عليه لإحضار كتاب من الرفوف العليا من مكتبته ومات بسبب التزيف الدماغى وعمره ٤٨ سنة . كان ابنه أكبر شاه طفلا . لم يبد أمراء الأتراك الذين وضعوا اليد على الدولة باسمه ، نفس الترحيب بالعثمانيين ، وتساءلوا عن سبب وجودهم فى الهند . لكنهم لم يزيدوا على ذلك بسبب قبول الحاكم السابق لهم . غادر الأدميرال العثماني وجنوده البحريون الذين استقل وجودهم حاكم الدولة قره قويونلو (أصحاب الخرفان السود) بإيرام خان (وهو شاعر مهم فى اللغة التركية) ، دلهى فى سياحة سوف تستغرق ١٥ شهرا .

خرجوا من الأراضى التيمورية على طريق سند — ملتان — بشاور — خير — كابل وانتقلوا إلى أراضى تركستان لبنى جنكيز ، واتبعوا طريق سمرقند — بخارى — حيوه لكنهم لم يتبعوا طريق الشمال واستداروا إلى الجنوب ودخلوا أراضى عدو العثمانية اللدود الشيعى الصفوى . ومن خلال هذه المصاعب تمكنوا من التوصل إلى الأراضى العثمانية فى العراق وألقوا بأنفسهم فى بغداد . ذهب سيدى على رئيس إلى قصره المشهور فى غلطة فى استانبول (١٥٥٧/٥/١) . لكن السلطان سليمان كان فى أدرنة . دعى السلطان ، المعروف بهويته للأمر البحرية ومحبه للبحارة ، سيدى على رئيس فى سراى أدرنة لزيارته الخاصة واجتمع به لعدة ليال ، وأمر بمنحه رواتبه المتراكمة وأمره بكتابة مذكرات سياحته .

كان سيدى على رئيس ، أحد أكبر شخصيات تاريخ العلوم المثبتة فى القرن ١٦ ، وله مؤلفات قيمة فى الجغرافية ، والرياضيات والفلك فضلا عن ذلك فإنه شاعر .

اشترك في حرب جربة عام ١٥٦٠ . توفى بقصره الكائن في غلطة في استانبول وعمره ٦٥ سنة (ك ١٥٦٣/٢) ، وكان قد مضى عند وفاته ٣ سنين على حرب جربة و ٦ سنين على عودته من الهند .

وخلال وجود سيدى على رئيس في الهند ، عين لقيادة الهند قورد أوغلو خضر رئيس (ك ١٥٥٤/١) . بقى ١٥ سنة في مقامه هذا . وعندما أرسل لحملة أندونيزيا في ١٥٦٩ ، عين مكانه محمود رئيس . ثم جاء سنان رئيس إلى هذا المقام وانتصر على الأسطول البرتغالى في المحيط الهندى في ١٥٧٧ .

وباختصار يمكننا أن نقول ، إن إمبراطورية كجرات ، كانت دولة إسلامية في دور اضمحلالها . كانت بالضبط كالدولة المملوكية (مصر) في عهدها الأخير ، كانت قواتها البحرية والمدفعية وحتى ولاية إيلاتها قد انتقلت لإدارة الضباط العثمانيين .

لم يتمكن الديوان الهمايونى من الاستفادة من هذه الميزة ويحكم كجرات . ولو كان قد تمكن من ذلك ، لحل مشكلة البرتغال من أساسها ولأمكنه تكرار السياسة الموقفة التى اتبعها في المغرب تجاه الأسبان والتي تكللت بالنجاح على الرغم من شدة قرب المسافة بين المغرب وإسبانيا .

أما بالنسبة للهند فقد كان هناك بحر كبير بين الأراضى العثمانية والهند ، ولكن كان يوجد بين البرتغال والهند محيطان . وعندما قوض تيمور أوغلو أكبر شاه ، دولة كجرات في ١٥٧٢ وألحقها كأيالة ، لم يبق للعثمانية مجال في تلك الأراضى . إن محاربة بنى تيمور الذين يحكمون الدولة ٣ في العالم بعد تركية وإيران ، لم تكن مطروحة ، ولو كانت ، لكان من المحتمل أن تخرج العثمانية من تلك الحرب وهى مغلوبة .

وفي أواخر القرن استلقت الأنظار تحركات وإلى عدن اللواء البحرى على بك . ذهب إلى مسقط وطرده البرتغاليين منها . ثم جاء بأسطوله إلى كينيا ورسا في ميناء ماليندى Malindis (١٥٨٤) . استقبل المحليون وخاصة الأقلية العرب والسواحليون والهجناء العرب — الزنوج الموجودين فيها ، العثمانيين بحفاوة بالغة . أسس على ، منهم وحدة عسكرية . احتل جزيرة لاموى الشمال ، وميناء مومباسا

في الجنوب والساحل الذي ينحصر بينهما ، وألحقها بالحكم العثماني . كانت هذه المناطق حتى موزمبيق في الجنوب قد اعترفت بالسلطان سليم متبوعا لها ، من قبل أسرة شيرازي المحلية . (هذا يعني أن العثمانية لم تكن تجهل هذه الأراضي) . كافحت القوات العربية التي شكلها على بك بنجاح وتمكن البرتغاليون من أخذ ماليندى فقط .

وفي ١٥٨٩ ، جاء على بك ثانية مع ٤ سفن حربية وسفن نقل كثيرة . دخل مومباسا . أرسل نائب الملك البرتغالي في Goa — وهو أكبر موظف برتغالي في المحيط الهندي — أخاه (de Souza Countinho) (Don Thome) ، بأسطول للحملة على بك . أسر على بك وأرسل إلى لشبونة . فر جنود البحرية الأتراك إلى المناطق الداخلية من تنجانيقا . ظفر بهم زنوج Zimbabwes الذين دمروا أفريقيا وأكلوهم بعد شهم في النار . وهكذا فشلت عملية إخراج البرتغاليين من سواحل تنجانيقا وموزمبيق . لكن الشيرازيين سيطروا على مناطق من هذه البلاد هنا وهناك واستمروا تابعين للعثمانية . وخلال هذه الأيام كان رمضان باشا في فاس ، قد أفنى الجيش ، والأسطول ، والملك ورجال الدولة البرتغالية وقوض دولتها . ولو أن الديوان أرسل أسطولا أكبر إلى المحيط الهندي ، لكان من الممكن إخراج البرتغاليين من شرق أفريقيا وانتشار المسلمين بوضع أفضل من الوضع الحالي والحيلولة دون دخول الدين المسيحي .

كانت فتوحات أوزدمير باشا التي حققها في السودان والحبشة خلال ٥ سنوات ، عظيمة .

كان تحت إمرته ٣٠.٠٠٠ جندي ؛ ١٠٠٠ منهم انكشارية حملة بنادق جلبوا من استانبول و ٦٠٠٠ متطوعين جمعوا من أتراك مصر والأكثرية الباقية هم أبناء جنود الدولة المملوكية السابقة . اكتشفت مناطق لم تطأها قدم أجنبي حتى ذلك التاريخ . تجول في الأراضي المنحصرة بين الشلالات ١ و ٦ . تأسس الحكم العثماني على ضفتي النهر وتأسس نظام الحماية العثمانية في المناطق الداخلية . تأسست حاميات في جميع الأماكن ، وكان الضباط من الأتراك فقط والأفراد من السكان المحليين . فتحت أربتره والصومال وأدخلت قطعة ليست صغيرة من المناطق الداخلية للحبشة تحت الحماية . توفي أوزدمير باشا في مدينة بندية التي

اتخذها قاعدة له بعد إصابته بمرض استوائي . دفن جثمانه فى القبر الفحم الذى شيده ابنه فى مصوع . وعين مكانه ابنه عثمان بك وعمره ٣٤ سنة بلقب بكربك (أمير أمراء والى) الحبش عثمان باشا (١٥٦٠) . ولحين استدعائه إلى استانبول (١٥٦٧/٨/٢٢) ، وسع مجال فتوحات أبيه . نشر الدين الإسلامى ، والمساجد وأدخل النظام العثمانى وعناصر المدنية والثقافة التى لم تشهدها تلك الأقطار أبدا .

(٢٧) الحملة الهمايونية ٦ : حملة إيران ١ (١٥٣٣ - ٣٥)

جمدت ضربة جالدران ، الإمبراطورية الإيرانية الصفوية التركية وهى الإمبراطورية الثانية فى العالم بعد تركية وجعلتها دون حراك لمدة ١٩ سنة حتى عام ١٥٣٣ .

تنازعت خلال هذه المدة إيران مع خاقانية تركستان الشرق .

وفى ١٥٣٣ ، كانت قد مضت ٩ سنوات على وفاة الشاه إسماعيل وأدرك ابنه الشاه طحمسب ال ١٩ من عمره . أصبح طحمسب بالنسبة للسلطان سليمان ، أكبر منافس وعدو بعد شارل - كوينت . كان القانونى يكبر شارل - كوينت بـ ٥ سنوات وطحمسب بـ ١٩ سنة .

كان يتحتم على الدولة العثمانية التى تسيطر على شمال العراق ، لكى تصون اعتبارها ، أن تنزل إلى خليج البصرة وتسيطر على بغداد . ومن ناحية أخرى ، لم تكن إيران الصفوية قد تركت بعد أطماعها فى مناطق عديدة من شرقى الأناضول . كانت تحتفظ بـ « وان » ، وكانت تغرى خان بتليس التابع للعثمانية ، باتباع الشاه (١٥٣٢/٩/٢١) .

إزاء هذا الوضع ، سار الوزير الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا ، إلى إيران (١٥٣٣/١٠/٢١) . قضى الشتاء فى حلب . ثم جاء إلى مدينة عامد (دياربكر) (١٥٣٤/٥/١٤) حيث بقى فيها شهرا واحدا . أخذ من إيران كل من أخلاطه وعادل جواز ، وأرجش ثم وان (١٥٣٤/٦/٢٣) ، وأخرج الصفويين من منطقة بحيرة وان ، وكذلك احتل فى شمال شرقى أرضروم مناطق تبارا من باسينلر إلى

أولطو ، وكذلك أخذت بايزيد (ولاية آغرى الحالية) من الصفويين .. وبذلك تكونت حدود تركية الشرقية .

أما السلطان سليمان ، فقد سار من استانبول (١٥٣٤/٦/١١) للانضمام إلى قوات الوزير الأعظم . وهذه هي حملته الهمايونية ٦ التي تشكل حملة إيران الأولى ، وتشتهر في التاريخ العثماني باسم حملة « العراقيين » (العراق العربي والعراق العجمي) ، وهي أشهر حملة همايونية للسلطان سليمان ، ذلك أن حملة موهاج ٣ أكسبته لقب فاتح المجر ، وأكسبته هذه الحملة لقب فاتح بغداد . ترك أولو شهزاده (ولى العهد) مصطفى ، كمحافظ للعرش (نائب السلطنة) في استانبول .

دخل إبراهيم باشا إلى تبريز (١٥٣٤/٧/١٣) مدينة عرش إيران السابقة . لم يمس أحد بسوء . عين أولاما باشا ، واليا على تبريز (جنوب آذربيجان) . كان قد مضى على فتح ياوز لتبريز ١٩ سنة و ١٠ أشهر و ٧ أيام أعلن دوباج إسحاقى أمير كيلان (رشت) خروجه عن تبعيته للصفوية وإقراره بالتبعية العثمانية (١٥٣٤/٨/٢١) . دخل أيضا الشيروانشاهيون الموجودون في شمال آذربيجان إلى التبعية العثمانية . ولم تعد تبريز حينذاك مدينة العرش لإيران . كانت مدينة العرش قد تحولت قبل عدة سنوات إلى قزوین فى الداخل . كانت تبريز قرية إلى الحدود التركية ولم يكن بالإمكان الدفاع عنها تجاه العثمانية .

خلال ذلك ، تم أخذ حكارى والأراضى التى تشكل حاليا أرمنستان السوفيتية . جاء القانونى السلطان سليمان خان الثانى ، خلال جريان هذه الأحداث ، إلى قونية وقبل حاشية ستار ضريح مولانا (١٥٣٤/٧/٢٠) . وإبان وجود البادشاه فى قيصرى ، كان بربروس خير الدين باشا يغادر استانبول (١٥٣٤/٨/١) لفتح مدينة تونس . وفى ٢٠ آب ، عرض شيروانشاه تبعيته للبادشاه الذى كان فى أرزنجان . جاء البادشاه إلى تبريز فى ٢٨ أيلول . فقدت المدينة التى كانت وقت أن فتحها ياوز ، إحدى أكبر وألجج المدن فى العالم ، إعمارها وأهميتها السابقة . التقى البادشاه والوزير الأعظم فى ٢٩ أيلول فى هضبة أوجان .

سار الجيشان بعد التآمهما فى ٥ ت ١ تحت قيادة البادشاه متحركا من هضبة

أوجان . وصل سلطانية في طريق تبريز - قزوین في ١٣ ت ١ . صدر أمر عودة أمير كيلان إلى رشت . كان السلطان سليمان يتلکأ ويقوم بالتحريات للعثور على الجيش الصفوی . أما الشاه فقد كان عازماً بصورة أكيدة على عدم الخروج والتورط في حرب ميدانية لئلا تصيبه العاقبة التي أصابت أباه في جالدران . لم يتمكن السلطان سليمان من إغراء وإجبار شارل - كوينت أو طحمسب لدخول حرب ميدانية . أسس البادشاه أیالة أرضروم على أن تشمل شمال شرقی الأناضول وعین لإدارتها دلقادر أوغلو محمد خان (باشا) الذي كان أبوه ابن خال السلطان سليم . جاء الجيش الهمايونی إلى همدان (٢٩ ت ١) وهي مركز العراق العجمی . كانت العراق مقر عرش السلاجقة . كانت تلك المناطق مسكونة بالأترك أيضاً كما هو الحال الآن .

عندما اتضح أن الجيش الهمايونی سائر إلى بغداد أدرك تکه لو (من أنطالية) محمد خان تورکمن والی بغداد الصفوی تعذر مقاومة المدينة أمام العثمانية ، فأخلى المدينة .

دخل السلطان سليمان مدينة الخلفاء بغداد (١١/٢٨/١٥٣٤) .

قال الشاعر التركي الكبير فضولی البغدادی الذي يعيش في هذه المدينة المصراع التالي باللغة التركية ، والذي معناه : « جاء البادشاه الشهير إلى برج الأولياء » ، ويشير به الشاعر إلى تاريخ (٩٤١) وهو مصراع من قصيدته الشهيرة ذات الـ ٧٠ بيتاً التي استقبل بها السلطان مهدياً له إياها . ذهب البادشاه في الحال إلى مرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة وزاره وأمر بإعمار الأعظمية . وفي هذه الأيام ذاتها انتقلت مدينتی الشيعة المقدستين (كربلاء والنجف) لحوزة العثمانيين . واعتنى بهما كذلك لكونهما مقدستين لدى السنة أيضاً .

ظل البادشاه في بغداد مدة ٤ أشهر ، ويوم واحد وغادرها (١٥٣٥/٤/١) . فتح كامل العراق الأوسط . تمت الموافقة على تابعة الأمير رشيد في البصرة . جاء إلى بغداد وقبل يد الخليفة . استرجع الشاه تبريز وقت وجود البادشاه في بغداد (١٥٣٤/١٢/٩) ، وبذلك يكون حكم العثمانية الثاني في تبريز ٤ أشهر و٢٧ يوماً . زار الخاقان في آذار ١٨ - ٢٣ كربلاء ونجف ووزع الصدقات في قبری

الحسين (ر.ع) وأبيه على (كرم الله وجهه) . أسس إيالة بغداد ، وعين رمضان أوغلو أوزون سليمان باشا واليا عليها ، وهكذا صار الأمير التركاني ، أول وال على بودين (المجر) .

أما الشاه الذى أظهر علنا عدم قبوله الحرب الميدانية بإجلائه — لفترة من الزمن — مدينة العرش قزوين كذلك ظنا منه أن العثمانية قادمة (Von Hamner ، ٥ ، ٢٠٨) فإنه بدخول الجيش الهمايوى لـ إيران مجددا ، لم يدافع عن تبريز .

احتلت تبريز للمرة ٣ (١٥٣٥/٦/٣٠) ، ومكث الخاقان ١٧ يوما فى سراى شاه إيران . دام الحكم الصفوى فى الفترة بين الاحتلالين ٦ أشهر و ٢٢ يوما .

حضر أخو الشاه مهرزا وعمره ١٨ سنة والذى كان واليا على خراسان = هرات ، إلى تبريز ولجأ إلى السلطان سليمان (١٥٣٥/٧/٢١) . وقد كان ذلك حدثا مهما .

أرسل الشاه أسطة جالوخان تركمن كسفير وطلب الصلح . كان شرطه ، ترك الأقطار التى فتحت فى الأناضول فى الحملة الهمايونية على يد العثمانيين والتى تبلغ مساحتها التقريبية ٥٠٠ . ٠٠٠ كم^٢ إلى العثمانية ، واستعادة الأراضى المحتلة فى أذربيجان وإيران والتى تبلغ مساحتها ٤٠٠٠٠٠ كم^٢ .

كان الشاه الذى أحس بالخطر على نفسه فى قزوين فى هذه الأيام ، قد انسحب إلى أصفهان ، ولاشك ان العثمانية كانت قادرة على الهجم إلى قزوين وأصفهان . انسحب الشاه والجيش التركاني إلى مشهد ، هرات وقندهار ، وهكذا وضحت الاستراتيجية الصفوية . عاد السلطان سليمان الذى بحث عن الشاه مدة ١٨ يوما ، إلى تبريز بعد ٣١ يوما (٢٠ آب) . تحرك فى ٢٧ آب . جاء إلى أخلاط . كان هذا موطن الأجداد للعثمانيين . ومنها حضروا إلى سوغت Sogut . لكن الصفويين كانوا قد احتلوا وان ، وتعذر استرجاعها حينذاك .

جاء الجيش الهمايوى إلى دياربكر فى ٢٠ ت ١ وبقى فيها ٢٢ يوما . جاء إلى حلب فى ٢٤ ت ٢ ، بقى ٨ أيام وغادرها .

عاد السلطان سليمان فى هذه المرة إلى استانبول بصفة فاتح بغداد .

دامت الحملة الهمايونية (السلطانية ، الامبراطورية) مدة ١ سنة و ٦ أشهر و ٢٧ يوماً . أما اعتباراً من مغادرة إبراهيم باشا من استانبول ، فكانت قد مضت مدة ٢ سنة ، وشهرين و ١٨ يوماً .

تكتسب هذه الحملة أهميتها من أنها ضمت العراق إلى الاتحاد العثماني ، وأبعدت الصفويين عن العالم العربي بصورة نهائية . تأسست إيالة أرضروم (١٥٣٥/١١/١) ، وتم تأمين حدود تركية في القفقاس . وعند عودة العثمانية ، استرجع الصفويون تبريز والأراضي التي بقيت لدى إيران حالياً . وكانت لانزال بحوزتهم في الأناضول ، بعض المناطق كوان .

بذلت الدولتان التركيتان الإسلاميتان الكبيرتان سردهما خلال ١٥٣٦ — ٤٨ للحفاظ على بقاء الوضع على حاله *Stafu quo* .

حدثت تطورات في صالح العثمانية . فتح دلقادر أوغلو محمد بك والي (فريق أول) أرضروم ، آهسكة (١٥٣٦/٧/٤) وأخضع قسماً كبيراً من كرجستان للنفوذ العثماني ، ورغم أن التركمان كانوا ينتسبون إلى المذهب الشيعي بسهولة ، فإن الأكراد كانوا يثبتون على المذهب السني (الشافعي) ، ولذا كانوا على الأغلب يلتزمون الجانب التركي . أخذ النفوذ العثماني في الازدياد في المنطقة الجنوبية — الغربية من إيران ، المسكونة بالأكراد .

تأسست إيالة البصرة (١٥٣٨/٧/٢٤) ، وارتبطت بها مناطق جنوب العراق ، الكويت ، الحساء ، قطيف ، نجد ، قطر ، بحرین ، عمان المتصالح وجبل شمراماً رأساً أو بقبول شيوخ العرب الحماية العثمانية .. وهكذا تحقق انتشار عثماني واسع على خليج البصرة .

جاء القاس مهرزا الأخ الآخر للشاه إلى استانبول في ١٥٤٧ ولجأ إلى البادشاه . وأصبح ذلك بداية لفتح حملة جديدة على إيران .

كان السبب الأصلي للحملة هو استمرارهم في إرسال عملاء الشاه الذين يطلق عليهم اسم « خليفة » خلصة إلى الأناضول وجنوب القفقاس لبث المذهب الشيعي ونشر الدعاية للانحياز إلى الشاه .

تأكدت ضرورة القيام بحملة جديدة ، عند بدء الصفويين في تطبيق ذلك بشكل

دموى فى شيروان (شمال آذربيجان) ، أما فى الأناضول ، فإن عملية تبديل العقيدة كانت تجرى بدعاية دقيقة وسرية . أراد الصفويون بعد شيروان ، تبديل مذهب شعب داغستان السنى الشافعى فى شرق قفقاسيا الشمالية وإدخالهم إلى المذهب الشيعى بحد السيف .

لجأ أمير (بك) داغستان ، قرم شاحال إلى العثمانية وطلب المعونة . قرر الديوان الهمايوى أن إيران التى لم تتمكن من هزيمة العثمانية ، سوف لا تتوقف لتعويض خسائرها — عن سياسة التسلط على جميع الدول السنية الصغيرة .

احتل العثمانيون داغستان وشيروان . اضطرب الشاه الذى شاهد تطويقه من الشمال . وافق على اقتراحات شارل — كوينت ، واتفق مع ألمانيا — أسبانيا . أما فى الأناضول ، فقد شوهده مجددا خروج كثير من التركمان والأكراد من المذهب السنى وإقرارهم المذهب الشيعى . ثبت أن عملاء الصفوية قد أثروا فى مناطق توقاط ، أماسيا ، جورم ، سيواس ، طرابزون ، أرزنجان ، أورفة ، دياربكر وحتى قونية . عجز أئمة السنة ورجال الدين حيال هذه الدعاية الشيعة . كان النظام العثمانى لا يسمح بشهر السلاح على رعية البادشاه غير العصاة والضغط عليهم بسبب العقيدة والمذهب ، وبناء عليه ، كان المسئولون العثمانيون عاجزين كذلك . إلا أنه تم إعدام عدة أشخاص من الذين يتجاوزون الحدود ويعرضون شعب أناضول علنا ضد العثمانية ويدعونهم للانحياز إلى جانب الشاه كـ « بير سلطان إبدال » . كان كل شخص يقر بالعلوية يدفع ضريبة إلى الشاه تسمى « نذر » ، وتذهب هذه النقود إلى إيران . ثبت أن الدعاية العلوية قد تفشت بين أفراد الجيش فى إمالة روم (سيواس) كذلك . لم يكن من الممكن أن تسمح الدولة العثمانية بشيء من هذا القبيل .

ثبت أن ٢٠ لوندا (جنود حرس الوالى) ، كانوا يعملون كعملاء لإيران وصدر أمر بالقبض عليهم وقد تم ذلك أثناء هروبهم إلى إيران ، جرى بهم إلى أرضروم وتم إعدامهم . قرر الديوان إعلان الحرب على إيران فى الوقت الذى أوشكت فيه الأناضول أن تدخل حربا أهلية دموية كالتي بين الكاثوليك والبروتستانت فى أوروبا . حرر كتاب سلطانى (نامه همايون) إلى خاقان تركستان ، طلب فيه الهجوم على إيران من الشرق .

كانت سياسة الأناضول الشرقية للسلطان سليمان سياسة حكيمة وواقعية . كانت هذه السياسة تحرص على عدم إجراء أى ضغط على العلويين أو الذين يتظاهرون بالعلوية مالم يمارسوا دعاية علنية مضادة للدولة . لكن لإيالتى أرضروم وفى الجنوب ديار بكر لم تستطعا حماية الأناضول من تعرض إيران المادى والمعنوى . أنشأ الخاقان (الذى شعر بضرورة تأسيس لإيالات جديدة فى أقصى الشرق) ، إيالة قارص فى شرق أرضروم وإيالة وان فى شرق ديار بكر ، ومنع كل من دلقادر أوغلو ميرزا على بك وجركس صارى إسكندر بك رتبة فريق أول ولقب الباشوية وأصبح كل منهما أول وال على قارص (الأول) وعلى وان (الثانى) .. وهكذا أمكن فى ١٥٤٨ فقط ، تثبيت وضمان حدود تركية الشرقية الحالية بصورة قطعية ، وقد سلف أن ذكرنا الحدود التى توصلت إليها العثمانية فى هذا التاريخ .

أعلن القانونى القاس ميرزا السنى شاها مكان أخيه الكبير طحمسب ، ورغم أن ميرزا استولى على عدة بلدان إيرانية من بينها قم ، وكاشان لكنه لم يتمكن من إظهار كفاءة وبسبب هذا ، ولضعف شخصيته ، لم تحقق إمكانية دحر الحكم الشيعى فى إيران (تاريخ أعلم آراى عباسى ، ص ٧٤ - ٥) .

من ناحية أخرى ، كان الحكم العثمانى فى شيروان (شمال أذربيجان) عبارة عن ٢/٥ سنة . وتأخر فتح الأقضية الأخيرة لآرتفين وقارص من الصفويين ، لغاية ١٥٥١ .

(٢٨) الحملة الهمايونية ١١ : حملة إيران الثانية (١٥٤٨ - ٤٩)

تبلغ الفترة ما بين الحملتين الإيرانيتين للسلطان سليمان ١٣ سنة ، حقق خلالها ٤ حملات همايونية على أوروبا . والحملة الإيرانية ٢ ، هى حملته الهمايونية ١١ .

بدأت هذه الحملة بتحركه من استانبول (١٥٤٨/٣/٢٩) . اشترك فى الحملة أصغر أبناء البادشاه شهزاده جهانكيز . أما القاس ميرزا فقد أرسل قبل القوات الأخرى ومع القوات العثمانية الأمامية إلى إيران .

كان الشاه فى تبريز . أجلى المدينة وانسحب إلى قزوین بعد أن علم بمجىء البادشاه إلى خوى . كان عازما بشكل أكيد على عدم المجابهة فى حرب ميدانية . احتل

العثمانيون تبريز (١٥٤٨/٧/٢٧) . كان قد مضى على إخلاء العثمانيين لتبريز للمرة ٣ ، ١٢ سنة ، و ١١ شهرا ، ويوم واحد . جاء الخاقان إلى وان ، بعد أن بقي في المدينة ٥ أيام . استسلم الصفويون في ٢٩ آب بعد أن قاومت القلعة ١٠ أيام . غادر البادشاه بعد أن حصن القلعة بصورة جيدة إلى دياربكر (٢٩ أيلول) ، ومنها إلى حلب (٢٥ ت ٢) حيث قضى الشتاء فيها . مكث البادشاه في حلب مدة ٦ أشهر ، و ١١ يوما حتى ١٥٤٩/٦/٦ .

خلال ذلك ، كان القاس ميرزا قد قام بحملات كرمشاه — همدان — قم — كاشان — أصفهان ، لكنه لم يتمكن من إجبار أخيه الكبير على إحناء رأسه . ظفر به أخوه الكبير وأرسله إلى قلعة قهقهة (آلاموت) .

قضى القانونى الشتاء في حلب مع ابنه بايزيد وجهانكيز وتحرك . حط قرب دياربكر مع الجيش الهمايوني لمدة طويلة (٢٥ آب — ٥ ت ١٥٤٩) . استمرت حملة السلطان سليمان الذى عاد إلى استانبول في ٢١ ك ١ مدة ١ سنة و ٨ أشهر ، ٢٣ يوما . جاء الشاه طحمسب في صيف سنة ١٥٥١ إلى شرق الأناضول واجتاح لبالتي وان وأرضروم .

(٢٩) الحملة الهمايونية ١٢ : حملة إيران ٣ (١٥٥٣ — ٥٥)

سار السلطان سليمان من استانبول (١٥٥٣ / ٨ / ٢٨) بحملته الثالثة على إيران بعد عودته من حملة إيران ٢ ، بـ ٣ سنوات ، و ٨ أشهر ، و ٨ أيام . تسمى هذه الحملة « حملة نهجوان » . كان عمره قد تجاوز الـ ٥٨ سنة . استصحب أصغر أبنائه شهزاده (الأمير) جهانكيز وانضم إليه في الطريق ابنه الأوسطان شهزاده سليم (الثانى) وشهزاده بايزيد . قرر قضاء الشتاء في حلب التى يحبها ، كما فعل قبل ٥ سنوات . مكث في حلب مدة ٥ أشهر ، ويوما واحدا (١١ / ٨ / ١٥٥٣ — ١٥٥٤ / ٤ / ٩) . جاء إلى روان (أريوان) في ١٨ تموز . احتل هذه المدينة التى هى مركز إيالة ، واحتل كذلك مدينة نهجوان — التى سميت الحملة باسمها — في الساحل الشمالى لنهر آراس ، واجتاز آراس إلى جنوب آذربيجان . طلب الشاه الصلح . أبلغت الاستخبارات العثمانية البادشاه بأن الشاه مصمم على عدم الدخول

في حرب ميدانية وأن العثور على الجيش الصفوي غير ممكن . عاد الخاقان إلى الأناضول . مكث ٢٤ يوما في أرضروم وغادر في ٢٨ أيلول . وصل آماسيا وقضى فيها الشتاء ، وبقي فيها ٧ أشهر ، و ٢٢ يوما (١٠/٣٠/١٥٥٤ — ١٥٥٥/٦/٢١) .

قضى البادشاه — خلافا للعادة — شتاتين متعاقبين في الأناضول ، أخاف الشاه . عقدت بين تركيا وإيران — بعد مفاوضات طويلة جدا — معاهدة آماسيا (١٥٥٥/٥/٢٩) . اقتسمت كرجستان ، وتم الاتفاق على الحدود الحالية تقريبا بالنسبة للأناضول . كانت الحدود في العراق في الجنوب كما هي حاليا تقريبا .

جرت مفاوضات طويلة مع السفير الألماني البارون Von Busbek كذلك . ولكن لم يتم عقد صلح ، وإنما جرت هدنة لمدة ٦ أشهر فقط في ٢ حزيران .

دخلت كل من الدولتين العظميتين الأولى والثانية في العالم ، تركيا العثمانية وإيران الصفوية في فترة صلح ستستمر ٢٣ سنة .

في غضون ذلك ، تخلى شارل — كوينت وانفصلت ألمانيا وأسبانيا عن بعضهما ، وتنفتت أوروبا والعثمانية الصعداء .

سوف تحارب العثمانية ألمانيا وأسبانيا مرة أخرى ، ولكنها في هذه المرة ستحارب دولتين منفصلتين .

كان من نتائج عقد الصلح مع إيران بعد ٣ حملات همايونية ، إلحاق العراق وشرق الأناضول ، تحقق الوحدة الأناضولية واكتسابها صفتها القطعية لصالح العثمانية ، والحصول على مكاسب مهمة في قفقاسيا .. وكل هذه تعد مكاسب عظيمة للعثمانية ، وإن كانت بعيدة عن أن تكون حلاً جذرياً .

لاشك أن معاهدة آماسية هي إحدى الوثائق العديدة التي تثبت أن العثمانية دولة عالمية عظمى ، ولكنها في الوقت ذاته ، تعتبر وثيقة تبين انقسام العالم التركي إلى قسمين بمعنى دخول إيران الشيعية بين تركيا وتركستان وعدم إمكان اجتياز هذا السد ، وبالتالي ترك ملايين من الأتراك تحت رحمة إيران لينقلبوا إلى إيرانيين ويصبحوا من رعايا إيران ، وإضافة إلى ذلك ، فإن الدولة العثمانية العالمية التي لم تعترف

لشارل — كوينت وخلفه فرديناند بلقب إمبراطور والتي أجبرتتهما على قبول عدم اعترافها هذا ، كانت قد أقرت بصورة رسمية بكون الشاه حاكما تعادل درجته البادشاه وتساوية . إن مقولة « لولا الشاه ، لوصلت العثمانية إلى الراين » الشائعة الدائرة في أوروبا ، صحيحة . وإن كانت المقولة المقابلة « لولا أوروبا ، وخاصة أسبانيا وألمانيا ، لوصلت العثمانية إلى تركستان » لم تتردد في إيران على الرغم من كونها حقيقة .

ربما يقال ماكان ينبغي على العثمانية أن تتجاوز سد فينا ، ويحتمل أن ذلك لم يكن ضروريا أبدا ، ولكن تخطيطها السد الصفوى ، كان سيفير أحداث التاريخ في صالح آسيا .. لكن إمكانات العثمانية لم تكن كافية لذلك ..

(٣٠) قضية ولي عهد - شهزاده (الأمير ولي العهد) سلطان مصطفى خان

أولاد السلطان سليمان القانوني هم : ولي عهد - شهزاده (١٥٢١/١٠/٢٩ - ١٥٥٣/١١/٦) مصطفى (١٥١٥ - ١٥٥٣/١١/٦) ، شهزاده محمد (١٥٢١ - ١٥٤٣/١١/٦) ، مهرماه سلطان (السلطنة) (١٥٢٢ - ١٥٧٨/١/٢٥) ، سليم الثاني (١٥٢٤/٥/٢٨ - ١٥٧٤/١٢/١٥) ، شهزاده بايزيد (١٥٢٥/٩/١٤ - ١٥٦٢/٧/٢٣) ، شهزاده جهانكير (١٥٣١ - ١٥٥٣/١١/٢٧) . عدا ٥ شهزاده و ٣ سلطان (سلطنة) ماتوا وهم أطفال .

كان كبير أبنائه أولو شهزاده (ولي العهد) محمود ، قد توفي وعمره ٩ سنين (١٥٢١/١٠/٢٩) . ولد محمد ، مهرماه ، سليم ، بايزيد وجهانكير كلهم من خرم خاصكى سلطان (١٥٠٦ - ١٥٥٨/٤/١٧) . أما والدته أولو شهزاده مصطفى ، فهي ماه دوران خاصكى (١٤٩٩ - ١٥٨١ / ٢/٣) .

حصلت خرم خاصكى على نفوذ متزايد لدى السلطان سليمان وأصبحت كأنها زوجته الوحيدة ، وكانت هي والدة الأولاد ، عدا الشهزاده الكبير (ولي العهد) . كان عليها أن تنحى ولي عهد - شهزاده لتضمن العرش لأحد أبنائها . ولأجل ذلك ، بدأت في اتباع سياسة تتسم بالصبر والدقة والمؤامرات واستمرت سنوات طويلة . ونذرت نفسها لهذا العمل .

كان داماد مقبول إبراهيم باشا (١٤٩٥/٤/٢٥ - ١٥٣٦/٣/١٥) الذى عينه

القانونى للوزارة العظمى بعد إحالته ببرى محمد باشا على التقاعد قد ظل فى مقامه مدة ١٢ سنة ، و ٨ أشهر ، و ١٨ يوما (١٥٢٣/٦/٢٧ - ١٥٣٦/٣/١٥) . كان زوجا لأخت البادشاه خديجة سلطان (١٤٩٦ - ١٥٨٢) . كان سياسياً لامعاً ، وسير أعمال الحكومة بكفاءة تامة . لم يكن بالإمكان تحريك وزير أعظم كهذا ضد ولى العهد الشرعى . إن أحد أسباب سقوط إبراهيم باشا وإعدامه فجأة ، هو المؤامرات الدقيقة الخفية التى لاتنفو على سطح الماء لخرم التى حفرت البئر له . تخلصت خرم من وزير أعظم ذى نفوذ . حيث لم يتمكن أى وزير من الذين تلوه ، أن يحصل على نفوذ إبراهيم باشا . إن الذين تلوه كوزير أعظم هم بالتسلسل : آياز محمد باشا (١٥٣٦/٣/١٥) ، وبوفاته ، صهر البادشاه المتزوج بأخت أخرى له داماد لطفى باشا (١٥٣٩/٧/١٣) ؛ وبعرله خادم سليمان باشا (١٥٤١/٤/٢٧) ، وأخيراً داماد (صهر) رسم باشا (١٥٤٤/١١/٢٨) .

توفى خلال ذلك كبير أبناء خرم وثانى أبناء القانونى شهزاده محمد فى مانيسا (صاروخان) التى كان واليا عليها . جىء بجثمانه إلى استانبول ودفن فى مقبرته الكائنة قرب جامع شهزاده الفخم الذى شيده والده وأوصى المعمار سنان بهندسته . كان على خرم أن تسعى بعد الآن لأبنائها الآخرين . لم يتغير تصميمها بشأن ولى عهد - شهزاده مصطفى ، بعد وفاة شهزاده محمد .

تزوج داماد رسم باشا (١٥٠٥ - ١٥٦١/٧/١٠) ، بائنة القانونى الوحيدة التى يحبها كثيراً مهرماه سلطان (١٥٣٩/١١/٢٦) . وسواء ابتها أو صهرها أصبحتا واسطتين لخرم خاصكى . بدأت هذه المؤامرة تسير نحو هدفها خطوة بخطوة . وفى النهاية ، وصلوا إلى حد ترتيب أوراق مزورة بشكل فى تتضمن هذه الأوراق ، أن السلطان مصطفى قد اتفق مع الشاه طحمسب على أن يصاهره وأن الشاه سوف يساند الشهزاده لإجلاله على عرش أبيه .

كان الشىء الذى يخيف الديوان الهمايونى فى السياسة العثمانية لذلك العصر أكثر من غيره ، هو سريان التشيع إلى الأناضول .

ونتيجة مؤامرات متتابعة لالزوم لذكرها هنا ، اقتنع السلطان سليمان ، بأن ابنه الكبير سيعصاه وسوف يزج بالدولة فى بلية كبيرة . استعد لحملة الهمايونية ١٢

(حملة إيران ٣) تجاه إيران ، وكان السلطان قد قرر التخلص من ابنه الكبير في الطريق .

خنق ولي عهد شهزاده في معسكر آقبة قرب قونية أركليسى بالحبل (١٥٥٣/١١/٦) . إستاء الجيش بصورة كبيرة وأظهر عدم رضائه وسخطه وحدثت ردود فعل شديدة . اضطر السلطان سليمان إلى عزل عضو المؤامرة الكبير صهره رستم باشا .

يعتبر قتل السلطان مصطفى خان ، أحد أبشع وأشأم الأحداث التي جرت على عهد القانونى . كان عمره ٣٨ سنة وكان وليا للعهد منذ ٣٢ سنة ، و ١٠ أشهر والوارث الشرعى اللائق لعرش بنى عثمان الذى يفتخر بكونه سلطنة العالم . راح السلطان سليمان ضحية دسائس عديدة وقسى على أغلى أبنائه . كان السلطان مصطفى محبوبا لدى الجيش والشعب وكان نموذجا مطابقا لجده السلطان ياوزسليم . إن شبهه الشديد بالسلطان سليم - وجهاً - زاد في محبته . كان شاعرا وخطاطا . ماتت ابنتاه بعده . توفى ابن السلطان سليمان الأصغر جهانكير الذى تأثر كثيرا لهذا الحادث في حلب وعمره ٢٢ سنة . دفن مصطفى في قبره الكائن في بورصة ، أما جهانكير فقد دفن في استانبول . شيد أبوه جامعا في استانبول وسماه جهانكير . وهكذا بقى للعرش العالمى ورثان : ولي عهد - شهزاده سليم وشهزاده بايزيد الذى يصغره بـ ١٦ شهرا فقط . كلاهما ولدا من خرم . كان بايزيد أكثر فعالية وأكثر حرصا . والآن سوف يتنازعان على العرش العالمى .

أصبح الوزير ٢ وزوج إحدى شقيقات البادشاه داماد قرة أحمد باشا وزيرا أعظم ، بعد عزل رستم باشا (١٥٥٣/١١/٦) . كان عسكريا كبيرا . أعدم بغير حق (١٥٥٥/٥/٢٩) . عاد رستم باشا وأصبح وزيرا أعظم .

(٣١) قضية شهزاده سلطان بايزيد

كان تبديل لواء شهزاده بايزيد الذى كان يديره منذ ١٧/٥ سنة من كرميان (كوتاهية) إلى أماسيا التي أبعد منها إلى استانبول بمسافة كبيرة (١٥٥٨/١٢/٢١) ، وبقاء أولو شهزاده في قونية ، إشارة إلى أن البادشاه عازم

على مساندة ولي العهد الشرعى سليم . ثار بايزيد على أخيه الكبير . لكنه هزم في حرب قونية الميدانية (٣٠ - ١٥٥٩/٥/٣١) . جاء أماسية وغادر إلى إيران بجيش عدده ١٢٠٠٠ جندي . لم يتمكن الجيش الذى تعقبه من اللحاق به . دخل إيران . دخل مدينة العرش الإيرانية قزوین بعد ٣/٥ شهر (١٥٥٩/١١/٢٤) . كان قد دعاه الشاه طحمسب واستقبل ، بحفاوة بالغة . شتت جيشه عندما اكتشفت محاولة قلبه الشاه بالجيش الذى يقوده ، ووضع هو تحت رقابة شديدة . وافق الشاه فى النهاية على طلب السلطان سليمان وأمر بقتل شهزاده بايزيد مع أبنائه الـ ٤ وسلمهم إلى السفراء العثمانيين (١٥٦٢/٧/٢٣) . أرسلت نعوش الأمراء إلى سيواس حيث شيدت لهم قبور دفنوا فيها .

طلب الشاه من السلطان سليم لقاء العمل القدر ١٢٠٠ ٠٠٠ ليرة ذهب وقلعة قارص . أخذ ٥٠٠ ٠٠٠ ليرة ذهب ومجوهرات قيمة فقط كان عمر شهزاده بايزيد ٣٧ ، وعمر أخيه الكبير سليم ٣٨ ، والقانونى ٦٧ سنة . أما الشاه فكان عمره ٤٨ سنة .

كان شهزاده بايزيد شاعرا فى اللغتين التركية والفارسية (مخلصه شاهى) ، خطاطا وعسكريا قديرا . اشترك فى الحملات الهمايونية ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . شاهد الأقطار اعتبارا من البلاد العربية إلى المجر وإيران . قتل كذلك ابنه الخامس وأكبر أبنائه أورخان الذى كان واليا (سنجق بك ، لواء) على لواء جورم وعمره ١٩ سنة . بناته الـ ٤ بقين على قيد الحياة .

تزوجت هماشاه سلطان (١٥٤٤ - ١٥٨٢) ابنة الشهزاده محمد ، ٣ مرات . أنجبت حفيدة القانونى هذه أولادا كثيرين . ولكن وبعد سقوط بايزيد ، بقى أمير واحد يمكنه أن يعتلى العرش وهو السلطان سليم .

مات رستم باشا ، عندما كان السلطان بايزيد فى قزوین (١٥٦١/٧/١٠) . دامت صدارته الأولى ٨ سنة و ١٠ أشهر و ٨ أيام ، والثانية ٥ سنة و ٧ أشهر ، و ١٩ يوما ومجموع صدارته ١٤ سنة و ٧ أشهر و ١٩ يوما . وهو الوزير الأعظم الذى ظل فى مقامه أطول مدة فى عهد القانونى ، وحسب التسلسل يعتبر هو ٨ بين رؤساء الوزارة فى التاريخ التركى فى طول مدة بقائه فى المنصب . غير

محبوب من طبقة الشعب والمثقفين . بخيل تجاه الأشخاص ، وإن كان كريما
فى إنشائه المؤسسات الاجتماعية ، الوقفية والخيرية ، خلف مؤسسات خيرية
تدهش العقل . حصل على قسم من ثروته عن طريق الرشاوى . له شهرة سيئة
كإدخاله الرشوة إلى الدولة العثمانية . حرر تاريخا عثمانيا ترجم إلى اللغة الألمانية ،
ليست له قيمة كبيرة . مآكر متأمر ، لديه استعداد للظلم لولا خوفه من البادشاه .
حازم فى الأعمال الحكومية وأهل لها . لا يتسم .

احتل سمير (بمعنى بدين) على باشا مكانه تلقائيا لكونه وزيرا (٢) ، كان
هذا على عكسه بشوش الوجه فى جميع الأوقات صاحب دعاية ، مآزحا وسياسيا
ذكيا ورجل دولة قدير . كان بدينا جدا . دامت صدارته ٤ سنة إلا ١١ يوما .
مات بأجله (١٥٦٥/٦/٢٨) . احتل مكانه تلقائيا الوزير ٢ صوقوللو داماد محمد
باشا . هو آخر وزير أعظم للقانونى وهو الصهر الكبير لأولو شهزاده سليم
(الثانى) الذى يصغره سنا .

(٣٢) الحملة الهمايونية ١٣ والأخيرة : حملة سيحتوار Sigervar (١٥٦٦)

كان السلطان سليمان قد أعلن عن شيخوخته بعدم مسيرته بحملة منذ عودته
من حملة نهجوان قبل ١٠ سنة و ٩ أشهر . كان قد انهار بسبب وفاة أبنائه الأربعة
وزوجته . لم يرغب الموت فى قصره . أراد أن يموت بين جيشه ، بين أصوات
المهتر (الموسيقى العسكرية) والمدافع . سار من استانبول (١٥٦٦/٥/١) .
هناك أدلة تشير إلى توقعه عدم عودته حيا من هذه الحملة .

نصب فى ٢٩ حزيران السرادق الهمايونى فى صحراء زملىن Zemlin فى
الساحل المقابل لبلفراد . مثل بين يديه هنا أمير أردل الملك يانوش Janos الثانى .
سمح للملك الذى ركع ثلاث مرات وقبل الأرض ، بتقيل يده ورحب به ترحيبا
كبيرا بقوله « كيف حالك يا ولدى العزيز ؟ » يانوش هذا ، هو ابن زابوليا الذى جعله
القانونى ملكا على المجر ، وعلى أثر وفاة أبيه أصبح ملكا وعمره ١ سنة ، قابله
القانونى وهو طفل فى القماط ، أرسل إلى ترانسلفانيا بعد منحه إمارة أردل . أصبح
عمره الآن ٢٦ سنة . كانت قد مضت ٤٠ سنة على انتصار السلطان سليمان فى
حملة موهاج وفتح المجر وتعيينه زابوليا ملكا ومضى كذلك منذ مجيئه إلى

صحراء زمّلن الموجود فيها الآن وفتحها بلفراد فى حملته الهمايونية الأولى ٤٥ سنة كاملة . كان يانوش الثانى قد ترك الكاثوليكية وأقر بالبروتستانتية .

جاء السلطان سليمان فى ٥ آب أمام قلعة سيجتوار . كانت قلعة ألمانية تبعد ٣٠ كم عن جنوب غربى مدينة بج pec لإحدى مراكز لواء إيالة بودين . كان خان قرم دولت كيراي فى هذه الأيام فى سلوفاكيا (هامر ، ٦ ، ٣١٠) . كانت Sigervar قد حاصرها قبل ١٠ سنوات والى (فريق أول) بودين على باشا مدة ٦٩ يوما ، ولم يستطع إسقاطها . امتطى السلطان سليمان جواده وهو مريض ، ورغم رجاء معيته إياه وهم يتباكون ، فنش صفوف الحصار وأعطى أوامره النهائية . من الواضح أنه كان يريد التطلع لآخر مرة لجنوده الذين يعشقهم . ذهب إلى سرادقه منهار القوى وألقى بنفسه على الفراش ولم يتمكن من القيام بعدها . سقطت القلعة الخارجية فى ٥ أيلول ، كانت القلعة الداخلية تقاوم .

مات « خاقان العالم » الذى يسميه الأتراك « القانونى » و « غازى » ، والأوروبيون « العظيم » (Magnificent) و « الكبير » السلطان سليمان خان الثانى فى وقت مبكر جدا فى الساعة ١/٣٠ من صباح يوم السبت الموافق ٧ أيلول ١٥٦٦ . هو السلطان الثانى الذى مات فى ساحة الحرب ولو أنه لم يمت شهيدا مثل مراد الأول . ومع أن فاتح وكذلك ياوز لم يموتا فى السراى وماتا أثناء الحملة ، لكنهما لم يكونا فى أراضى العدو وساحة الحرب .

كانت قد مضت ٤ أشهر و ٦ أيام على مسيرة السلطان سليمان من استانبول . دامت حملته الهمايونية ١٣ التى انتهت بمجىء جثمانه إلى استانبول ، مدة ٧ أشهر و ٥ أيام . كان عمره قد تجاوز ٧١ سنة بـ ٤ أشهر و ١٠ أيام . ولم يصل من سبقه من السلاطين إلى هذه السن عدا أورخان غازى . معظم السلاطين الآخرين ماتوا وهم فى أعمار تعتبر اليوم سن الشباب أو متوسطى العمر . دامت سلطنته ٤٦ سنة إلا ١٥ يوما على التقويم الميلادى وتقريبا ٤٧ سنة و ٤ أشهر على التقويم الهجرى . ولم يتمكن من مشاهدة القلعة الداخلية لسيجتوار ، لسقوطها بعد وفاته بـ ٥ ساعات . دفن فى قبره الكائن فى جامع سليمانية . أما أعضاؤه الباطنية فقد دفنت خلف الموضع الموجود عليه عرشه ثم شيد عليه قبر .

وهذا القبر موجود حاليا فى المجر والذى يسميه السواح « المكان الذى دفن فيه قلب سليمان العظيم » .

(٣٣) شخصية السلطان سليمان القانونى

كان السلطان سليمان شاعرا صاحب ديوان كبير (مخلصه محبى) ، خطاطا ، أخصائيا فى الأحجار الكريمة وعدا إجادته اللغات الشرقية ، كان يجيد اللغة العربية كذلك . كان ينشغل بهذه الأمور والقراءة للترويح عن نفسه .

مجموع المدة التى استغرقتها حملاته الهمايونية الثلاث عشرة هى ١٠ سنة و ٧ أشهر و ٧ أيام . قضى السلطان سليمان هذه المدة ، خارج استانبول بين جنوده على ظهر حصانه أو فى سرادقه ، أما إقامته فى أدرنة دفعات متكررة ، وذهابه إلى بورصة والمدن الأخرى فهى خارج هذه المدة .

يلى فاتح من ناحية الدهاء الذى أبداه فى النواحي الدبلوماسية وإدارة الدولة بين كافة بنى عثمان ، ويلي فاتح وأبيه من ناحية الدهاء العسكرى .

شخصيته كحاكم نموذجى ، لاتقبل القياس إلا مع شخصيات قليلة . « لا يوجد أى حاكم فى عصره حصل على تعليم أفضل من سليمان القانونى ولانشأ نشأة عملية لامعة فى إدارة دولة عظمى مثله » (The Middle, S.N. Fisher East, A Hisrory ، نيويورك ١٩٥٩ ، ص ٢٢٢) . « كانت شخصيته أعظم من شارل — كوينت . طُور الإمبراطورية التركية التى يحكمها وسلمها إلى خلفه بدرجة من التكامل ، لايمكن قياسها مع تكامل أية دولة أوروبية خلال المدة ذاتها » (Voyageurs Français dans l'Orient, N.Iorga ، ص ٢١) . « أعظم حاكم فى القرون الحديثة . يمكن قياس عظمة لويس ١٤ فقط بعظمته » (Atlas, Hallert ، ص ٢٠ ب) . « إن السلطان سليمان الذى يتقاضى الضريبة من أربع دول كبيرة كألمانيا وروسيا وبولونيا والبندقية ، أدخل فرنسا كذلك تحت حمايته » (Tableau General de l'Empire Ottoman, d'Ohsson ، ص ٧ ، ٤٤٣) .

نشر القانونى الكثير فى أوروبا عن تركيا فى تلك السنوات ؛ وعلى سبيل المثال ، صدور : أوروبا ٥٦ كتابا يبحث عن تركيا خلال سنة ١٥٢٩ و ٧٦

كتابا خلال سنة ١٥٣٢ و ٥٩ كتابا خلال سنة ١٥٣٣ و ٧١ كتابا خلال سنة ١٥٤٢ وصدرت كتب فى السنوات الأخرى على هذا القياس (Die Europäischen Türkendruck des, Göllner Jahrhunderts ، بخارست (١٩٦١) . كما أصبح فى أوروبا موضوعا لروايات ، أوبرات وتمثيلات عديدة .

وبالنسبة لـ Geuffroy أحد فرسان مالطة الذى شاهدة شخصيا « طويل القامة ، ضعيف ، أسمر الوجه ذو جبهة عريضة وعالية » . وتكتب المصادر الأخرى عنه أنه ، مع أنه ليس مقطب الجبين ، فإنه نادرا مايبتسم . جاد ، وقور ، وهو لا يستحسن عدم المبالاة ، يتكلم قليلا وبشكل حاسم . كان عالما فى مجالى الحقوق والآداب . إن القوانين التى وضعها مع شيخ الإسلام أبو السعود أفندى بقيت نافذة المفعول حتى بداية القرن ١٩ ، ولم تبدل بعض موادها حتى نهاية الامبراطورية . إن قانونا لسلطان سليمان (دستور السلطان سليمان) ، هو دستور مكمل لدستور فاتح . والقوانين الأخرى التى سنت ونشرت على عهده كثيرة وقد وضع أيضا قوانين كثيرة للإيالات كذلك راعى فيها الظروف الخاصة بتلك الأقطار ، كيفها ولائها أبو السعود أفندى مع الشريعة والقواعد العرفية بمهارة فائقة .

وضع قوانين كثيرة باسم الخاقان ، دون أن تعارض أسس الفقه الحنفى . طبقت هذه القوانين بدقة .

لم يطلق الشعب لقب « القانونى » على السلطان سليمان لوضعه القوانين ، بل لتطبيقه هذه القوانين بعدالة ، والألقاب التى أطلقها الأوروبيون فى حينه وبعد ذلك مثل « الكبير » ، « العظيم » تعتبر تافهة عند قياسها بلقب القانونى الذى يمثل العدالة .

وضع مواد قانونية متقدمة جدا ، ومرعية حاليا لدى العالم المتمدين كافة ، وما كانت هذا المواد يمكن أن تخطر على البال فى أية دولة أخرى فى ذلك العصر . أحدها ، تمتع الرعايا بحقوق متساوية . وتطبق العقوبة الموضوعة بالنسبة للجرم المقترف على الأشخاص الذين اقترفوها مهما كانت منزلتهم (قانونا لسلطان سليمان ، الباب ١ ، الفصل ١) .

إن تقسيم الأراضي الامبراطورية على القارات حين وفاة السلطان ياوز سليم

(١٥٢٠) هي كما يلي :

١٧٠٢٠٠٠ كم^٢ في أوروبا + ١٩٠٥٠٠٠ كم^٢ في آسيا + ٢٩٥٠٠٠٠ كم^٢
في أفريقيا = ٦٥٥٧٠٠٠ كم^٢ .

توسعت الخارطة السياسية إلى أكثر من الضعفين قبل مضي نصف قرن
وأصبحت ١٩٩٨٠٠٠ كم^٢ في أوروبا + ٤١٦٩٠٠٠ كم^٢ في آسيا +
٨٧٢٦٠٠٠ كم^٢ في أفريقيا = ١٤٨٩٣٠٠٠ كم^٢ .

كانت الفتوحات التي جرت على عهد القانوني في أوروبا — بالنسبة للحدود
السياسية الحالية — هي المجر عدا Eszak ، أردل (ترانسلفانيا ، رومانيا
الحالية) ، Banat (في رومانيا الحالية ويوغسلافيا) ، بلغراد وفوفودينا (في
يوغسلافيا) ، خرواتيا وسلوفينيا ؛ في إيجه جزر كيكلاد وسبورات ، في مورا ميناء
Nauplion ، في جنوب صقلية جزر بانتلاريا ولابادوسا .

أما الفتوحات في قارة آسيا فهي : رودس والجزر الإثنتي عشرة ، البلاد العربية ،
كرجستان الغربية ، قسم من شرق الأناضول (وان ، آغرى ، حكارى الخ .) .
كانت المناطق التي دخلت تحت الحماية والنفوذ والتبعية العثمانية في البلاد
العربية هي جنوب اليمن ، حضرموت ، قطر ، عمان المتصالح ، نجد ، عمان ،
الكويت والبحرين . والمناطق كجزيرة سافز وأرضروم ، قارص وآرتفين ألحقت
مباشرة وبشكل قطعى .

والمكاسب في قارة أفريقيا : ألبهرة ، جيبوتي ، صومالي ، مناطق حرار
وأوكادن في الحبشة ، ليبيا ، القسم الأعظم من تونس (عدا مدينة تونس
ومحيطها) ، الصحراء الكبرى ، مناطق حماية في منطقة جاد — نيجر .

وتبلغ مساحة الأماكن التي فتحت على عهد القانوني ولم يمكن الحفاظ عليها
والتي لم تكن ضمن الحدود العثمانية حين وفاة البادشاه في ١٥٦٦ ، تبلغ ١ مليون
كم^٢ تقريبا وهي لا تدخل ضمن المجاميع أعلاه : إمارة قزان ، إمارة استرخان ،
جواشستان ، استولى عليها الروس قبل وفاة القانوني بـ ١٠ أعوام . إن الشيروانشاهيون
في شمال آذربيجان ، شمالية داغستان ، الإمارة الإسحاقية في كيلان (رشت)
تبعن العثمانية لفترة من الزمن ثم بقين لدى الصفويين . واحتل العثمانيون قطعاً من

جنوب آذربيجان ، لورستان ، همدان ، خمسة ، كرمنشاه ، أردلان
(كردستان) ، جنوب خوزستان (عربستان الإيرانية) ، يزد ، قزوین وری ،
لمدد متفاوتة ، لكنها بقيت لدى الصفويين .

أما شمال فاس ، وشمالها — الشرقي ، عدة إيلات من النمسا ، موانئ ريجيو
Reggio ، أوترانتو Otranto ، مسينا Messina في إيطاليا ، جزر كورسيكا وغوزو ،
جزر البالير ؛ Rutenya ، Nijniy Novgorod (Gorky) في روسيا ، ومناطق أخرى
كثيرة فهي أراض أخرى بقيت تحت الاحتلال التركي الموقت .

لم يكن عهد القانوني ، عهد توصلت فيه الحدود إلى أقصاها من الاتساع .
إنما هو العهد الذي تمت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إداري . إن الحدود
القصوى التي توصلت إليها العثمانية ، تحققت بعد ربع قرن من وفاته ، في السنوات
الآخيرة من عهد حفيده مراد الثالث .

يعبر لطيفي الذي عاش في تلك السنوات عن دور القانوني بهذه الجملة البليغة
التي لا تنطوي على مبالغة (تذكرة الشعراء ، ص ١٣) « إنه عظيم الشأن ، تتلى
خطبته في كل حطة ، وله جنود في آلاف القلاع » .



فهرس

محتويات المجلد الأول

المقدمة ٧

البحث الأول:

الأتراك قبل تأسيسهم الدولة العثمانية ١٥

الباب الأول: فترة قبل الإسلام ١٧

الباب الثاني: فترة بعد الإسلام ٤٥

الباب الثالث: تركية قبل العثمانية ٦٥

البحث الثاني:

ظهور العثمانية وتطورها (١٢٣١ - ١٤٥٣) ٨١

البحث الثالث:

نحو الدولة العالمية (١٤٥٣ - ١٥٢٠) ١٤٧

البحث الرابع:

الدولة العالمية للسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) ٢٥٩